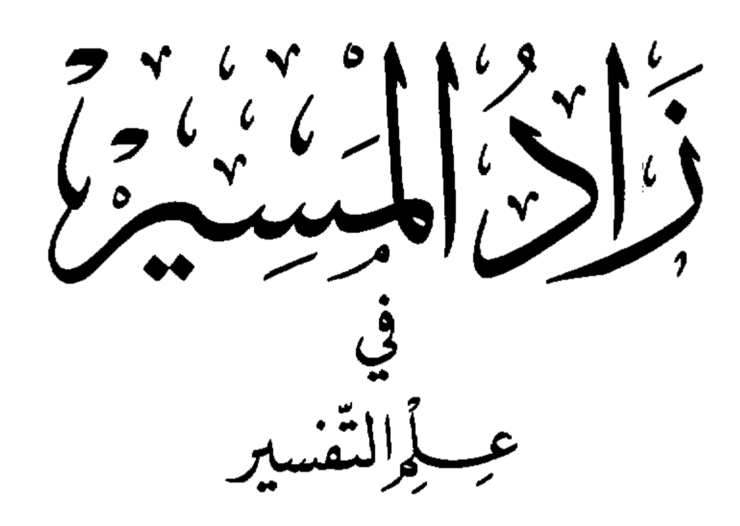


زاد المسير في علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء الثامن

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

سورة ق (١)

ويقال لها : سُورة الباسقات

روى العوفي [وغيره] عن ابن عباس أنها مكيّة ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور . وحكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية ، وهي قوله تعالى : (ولقد خلقنا السموات والأرض . . .) الآية [ق : ٣٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

قوله تعالى : (قٓ) قرأ الجمهور بإسكان الفاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ،

---

(١) وهي أول المفصل على الصحيح ، وقد تقدم الكلام على ذلك في أول سورة (الحجرات) فليراجع ، وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

وأبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : « قافَ » بنصب الفاء وقرأ أبو رزين ، وقتادة : « قافُ » برفع الفاء . وقرأ الحسن ، وأبو عمران : « قافِ » بكسر الفاء . وفي « قٓ » خمسة أقوال .

أحدها : أنه قسم أقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه جبل من زَبَرْجَدة خضراء ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : خَلَقَ اللهُ جبلاً يقال له : « قٓ » محيط بالعالم ، وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض ، فاذا أراد اللهُ عز وجل أن يزلزل قرية ، أمر ذلك الجبل فحرَّك العرق الذي يلي تلك القرية . وقال مجاهد : هو جبل محيط بالأرض . وروي عن الضحاك أنه من زمردة خضراء ، وعليه كَنَفَا[1] السماء ، وخُضرة السماء منه .

والثالث : أنه جبل من نار في النار ، قاله الضحاك في رواية عنه عن ابن عباس .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والخامس : أنه حرف من كلمة . ثم فيه خمسة أقوال . أحدها : أنه افتتاح اسمه « قدير » ، قاله أبو العالية . والثاني : أنه افتتاح أسمائه : القدير والقاهر والقريب ونحو ذلك ، قاله القرظي . والثالث : أنه افتتاح « قُضي الأمرُ » ، وأنشدوا :

قُلنا لها قِفِي فقالتْ قافْ[2]

معناه : أقف ، فاكتفت بالقاف من « أقف » ، حكاه جماعة منهم الزجاج والرابع :

---

(١) في الأصلين : كتفا بالتاء وهو تصحيف .

(٢) الرجز في « الطبري » ٢٦/١٤٧ ، و « القرطبي » : ١٧/٢ ، و « اللسان » : وقف .

قف عند أمرنا ونهينا ، ولا تَعْدُهُما ، قاله أبو بكر الورّاق . والخامس: قُلْ يا محمد ، حكاه الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (والقرآنِ المَجيدِ) قال ابن عباس ، وابن جبير : المَجيد : الكريم . وفي جواب هذا القسم أربعة أقوال .

أحدها : أنه مُضمر ، تقديره : لَيُبْعَثُنّ بَعْدَ الموت . قاله الفراء ، وابن قتيبة ، ويدُلُّ عليه قولُ الكفار : (هذا شيءٌ عجيبٌ) .

والثاني : أنه قوله : (قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم) ، فيكون المعنى : [قاف] والقرآنِ المجيدِ لقد عَلِمْنا ، فحُذفت اللامُ لأنّ ما قبْلَها عِوَضٌ منها ، كقوله : (والشَّمسِ وضُحَاها ... قد أفلح) [الشمس: ١ - ٩] أي : لقد أفلح ، أجاز هذا القول الزجاج .

---

(١) قال ابن كثير : روي عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني اسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدّق ولا يكذّب ، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبّسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفّاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قِدَم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفّاظ النقّاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوّزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل والله أعلم ، قال : وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة ، ثم قال : والذي ثبت عن مجاهد أن (ق) حرف الهجاء ، كقوله : (ص ، ن ، حم ، طس ، ألم) ونحو ذلك . قال : وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة (البقرة) اه . وقد ذكرنا نحن الكلام على ذلك في أول سورة (الشعراء) فليراجع .

والثالث : أنه قوله : (ما يَلْفِظُ من قول) ، حكي عن الأخفش .

والرابع : أنه في سورة أُخرى ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، ولم يبيّن في أي سورة .

قوله تعالى : (بَلْ عَجِبوا) مفسّر في (صۤ : ٤) إلى قوله : (شيء عجيبٌ) أي : مُعْجِبٌ .

(أئذا مِتْنا) قال الأخفش : هذا الكلام على جواب ، كأنه قيل لهم : إنكم ترجعون ، فقالوا : أئذا متنا وكنا تراباً ؟ وقال غيره : تقدير الكلام : ق والقرآنِ لَيُبْعَثُنّ ، فقال : أئذا متنا وكنا تراباً ؛ والمعنى : أنُبْعَث إذا كنا كذلك ؟! وقال ابن جرير : لمّا تعجّبوا من وعيد الله على تكذيبهم بمحمد ﷺ فقالوا : هذا شيء عجيب ، كان كأنه قال لهم : ستعلمون إذا بُعثتم ما يكون حالُكم في تكذيبكم محمداً ، فقالوا : أئذا متنا وكنا تراباً ؟!

قوله تعالى : (ذلك رَجْعٌ) أي : ردٌّ إلى الحياة (بعيدٌ) قال ابن قتيبة : أيْ : لا يكون .

(قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم) أي : ما تأكل من لحومهم ودمائهم وأشعارهم إذا ماتوا ، يعني أن ذلك لا يَعْزُب عن عِلْمه (وعندنا) مع عِلْمنا بذلك (كتابٌ حفيظٌ) أي : حافظ لعددهم وأسمائهم ولِما تَنْقُص الأرضُ منهم ، وهو اللوح المحفوظ قد أُثبت فيه ما يكون .

(بل كذّبوا بالحق) وهو القرآن . والمَريج : المختلِط ، قال ابن قتيبة : يقال : مَرِج [أمرُ] الناس ، ومَرِج الدّينُ ، وأصل هذا أن يَقْلَق الشيء ، ولا يستقر ، يقال : مَرِج الخاتم في يدي : إذا قلق ، للهُزال . قال المفسرون : ومعنى اختلاط أمرهم : أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ مَرّةً : ساحر ، ومرة : شاعر ،

ومرة : مُعَلَّم ، ويقولون للقرآن مرة : سحر ، ومرة : مُفتَرى ، ومرة : رَجَز ، فكان أمرُهم ملتبساً مختلطاً عليهم .

﴿ أفَلَمْ يَنظُرُوا إلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالأرْضَ مَدَدْنَاهَا وَألْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ : وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإخْوَانُ لُوطٍ . وَأصْحَابُ الأيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ . أفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

ثم دلَّهم على قُدرته على البعث بقوله : (أفلم ينظُروا إلى السماء فوقَهم كيف بنيناها) بغير عمد (وزيَّنَّاها) بالكواكب (ومالها من فُروج) أي : من صُدوع وشُقوق . والزَّوج : الجنس . والبهيج : الحَسَن ، قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : البهيج : الذي يُبتَهَج به .

قوله تعالى : (تَبْصِرَةً وذكرى لكل عبد منيب) قال الزجاج : أي : فعَلنا ذلك لِنُبَصِّر ونَدُلَّ على القُدرة . والمُنيب : الذي يَرْجِع إلى الله ويفكِّر في قُدرته .

قوله تعالى : (ونزَّلنا من السماء ماءً) وهو المطر (مُباركاً) أي : كثير

الخير، فيه حياة كل شيء (فأنبَتْنا به جنَّاتٍ) وهي البساتين (وحَبَّ الحَصيدِ) أراد: الحَبَّ الحَصيدَ، فأضافه إلى نَفْسه، كقوله: (لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ) [الواقعة: ٩٥] وقوله: (مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) [ق: ١٦] فالحَبْلُ هو الوَرِيد، وكما يقال: صلاةُ الأُولى، يراد: الصلاةُ الأُولى، ويقال: مسجدُ الجامع، يراد: المسجدُ الجامعُ، وإنما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها، وهذا قول الفراء، وابن قتيبة. وقال غيرهما: أراد حَبَّ النَّبتِ الحَصيدِ. (والنَّخْلَ) أي: وأنبَتْنا النخل (باسقاتٍ) و«بُسوقها»: طولها. قال ابن قتيبة: يقال: بَسقَ الشيءُ يَبْسُقُ بُسوقاً: إذا طال، والنَّضيد: المنضود بعضُه فوق بعض، وذلك قبل أن يتفتَّح، فاذا انشقَّ جُفُّ طَلْعه وتفرَّق فليس بنضيدٍ.

قوله تعالى: (رِزْقاً للعِبادِ) أي: أنبَتْنا هذه الأشياء للرِّزق (وأحْيَيْنا به) أي: بالمطر (بَلْدَةً مَيْتاً كذلك الخروجُ) من القُبور.

ثم ذكر الأُمم المكذِّبة بما بعد هذا، وقد سبق بيانه إلى قوله: (فحَقَّ وَعيدِ) أي: وجب عليهم عذابي.

(أفعَيِينا بالخَلْقِ الأوَّلِ) هذا جواب لقولهم: ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ. والمعنى: أعَجَزْنا عن ابتداء الخَلْق، وهو الخَلْق الأوَّل، فنعيا بالبعث وهو الخلق الثاني؟! وهذا تقرير لهم، لأنهم اعترفوا أنه الخالق، وأنكروا البعث (بل هم في لَبْسٍ) أي: في شَكٍّ (مِنْ خَلْقٍ جديدٍ) وهو البعث.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ

فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

(ولقد خلقنا الانسان) يعني ابن آدم (ونعلمُ ما تُوسوِسُ به نفسُه) أي : ما تحدّثه به نفسه . وقال الزجاج : نعلم ما يُكنّه في نفسه .

قوله تعالى : (ونحن أقربُ إليه) أي : بالعلم (من حبْلِ الوريد) الحَبْل هو الوريد ، وإنما أضافه إلى نفسه لما شرحناه آنفاً في قوله : « وحبَّ الحصيدِ » [ق : ٩] قال الفراء : والوريد : عِرْقٌ بين الحُلْقوم والعِلْباوَيْن . وعنه أيضاً قال : عرق بين اللَّبَّة والعِلْباوَيْن . وقال الزجاج : الوريد : عِرْق في باطن العُنُق ، [وهما وريدان] ، والعِلْباوان : العَصَبتان الصَّفراوان في مَتْن العُنُق ، واللَّبَّتان : مَجرى القُرط في العُنُق . وقال ابن الأنباري : اللَّبَّة حيث يتذبذب القُرْط ممّا يَقْرُبُ من شحمة الأُذن . وحكى بعض العلماء أن الوريد : عِرْقٌ متفرِّق في البدن مُخالِط لجميع الأعضاء ، فلمّا كانت أبعاض الإنسان يحجب بعضُها بعضاً ، أعلَمَ أن عِلْمه لا يحجُبه شيء . والمعنى : ونحن أقربُ إليه حين يتلقّى المُتلقِّيان ، وهما الملَكان الموكَّلان بابن آدم يتلقّيان عمَلَه[1] . وقوله : (إذ يتلقّى المُتلقِّيان)

---

(١) قال ابن كثير : وقوله عز وجل : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الانسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم ، فانما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالاجماع ، تعالى الله وتقدس . ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فانه لم يقل : (وأنا أقرب إليه من حبل الوريد) وانما قال : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) كما قال في المحتضر : (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) يعني ملائكته . وكما قال تبارك وتعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) قال : فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، باذن الله عز وجل ، وكذلك الملائكة أقرب الى الانسان من ــ

أي : يأخُذان ذلك ويُثْبِتانه (عن اليمين) كاتب الحسنات (وعن الشّمال) كاتب السَّيِّئات . قال الزجاج : والمعنى : عن اليمين قَعيد ، وعن الشّمال قَعيد ، فدلَّ أحدُهما على الآخر ، فحذف المدلولُ عليه ، قال الشاعر :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأنْتَ بِمَا عِنْـ دَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ [1]

وقال آخر :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوالِدِي
بَرِيئاً، ومِنْ أجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي [2]

المعنى : كنتُ منه بريئاً . وقال ابن قتيبة : القَعيد بمعنى قاعد ، كما يقال : « قدير » بمعنى « قادر » ، ويكون القعيد بمعنى مُقَاعِد ، كالأَكيل والشَّريب بمنزلة : المُؤاكِل والمُشارِب .

قوله تعالى : (ما يَلْفِظُ) يعني الانسان ، أي : ما يتكلَّم من كلام فيَلْفِظُه ، أي : يَرميه من فمه ، (إلاَّ لَدَيْه رقيبٌ) أي : حافظ ، وهو الملَك الموكَّل به ، إمّا صاحب اليمين ، وإمّا صاحب الشمال (عَتيدٌ) قال الزجاج : العَتيد :

ـــ حبل وريده إليه باقدار الله جل وعلا لهم على ذلـــك ، قال : فللملك لمة من الانسان كما أن للشيطان لمة ، قال : وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصـــادق المصدوق ، ولهذا قال تعالى هاهنا : (إذ يتلقى المتلقيان) يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الانسان (عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ) أي مترصد . اهـ . وقد سبقه الى ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية وأوضحه في كتابه « شرح حديث النزول » .

(١) سبق تخريج البيت في الجزء ٣ ص ٤٢٩ والجزء ٦ ص ٤٦٠ ، وانظر « اللسان » : قعد .

(٢) البيت لعمرو بن أحمر بن العمرّد الباهلي ، أو للأزرق بن طرفة وهو في « الكتاب » ١/ ٣٨٠ ، و « معاني القرآن » : ١/ ٤٥٨ ، و « مجاز القرآن » : ٢/ ١٦١ ، و « شواهد الكشاف » : ١٢٨ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : حول .

الثَّابت اللاَّزم . وقال غيره : العَتيد : الحاضر معه أينما كان . وروى أبو أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « كاتِبُ الحَسَنات على يمين الرجُل ، وكاتب السيِّئات على يساره ، فكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فاذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة ، وأراد صاحب الشمال أن يكتبها ، قال صاحب اليمين : أَمْسِكْ ، فيُمْسِك عنه سَبْعَ ساعات ، فان استغفر منها لم يُكتَب عليه شيء ، وإن لم يستغفر كُتِب عليه سيِّئة واحدة »[1] . وقال ابن عباس : جَعَل اللهُ على ابن آدم حافظين في الليل ، وحافظين في النهار . واختلفوا هل يكتُبان جميع أفعاله وأقواله على قولين .

أحدهما : أنهما يكتُبان عليه كل شيْ حتى أنينه في مرضه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهما لا يكتبان إلاَّ ما يؤجَر [عليه] ، أو يُوزَر ، قاله عكرمة .

فأمّا مجلسهما ، فقد نطق القرآن بأنهما عن اليمين وعن الشمال ، وكذلك ذكرنا في حديث أبي أمامة . وقد روى عليّ كرَّم اللهُ وجهه عن النبي ﷺ قال : « إن مقعد ملَكَيك على ثنيَّتيك ، ولسانُك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجري فيما

---

(١) رواه البغوي والثعلبي من طريق حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة وفيه ضعف ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني ، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه ، وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه ، وروى أبو نعيم في « الحلية » وابن مردويه ، من طريق اسماعيل بن عياش ، عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رويم عن القاسم عن أبي أمامة ، وعند الطبري من طريق علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كم مع العبد ملك ؟ ... الحديث . وقد ذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٠٤ من رواية الطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب عن أبي أمامة رضي الله عنه .

لا يعنيك »[1] وروي عن الحسن والضحاك قالا : مجلسهما تحت الشعر على الحنك.

قوله تعالى : (وجاءت سَكْرَةُ المَوت) وهي غَمرتُه وشِدَّتُه التي تَغشى الإنسان وتَغْلِب على عقله وتدُلُّه على أنه ميت (بالحق) وفيه وجهان

أحدهما : أن معناه : جاءت بحقيقة الموت .

والثاني : بالحق من أمر الآخرة ، فأبانت للانسان ما لم يكن بيَّنًا له من أمر الآخرة . ذكر الوجهين الفراء ، وابن جرير .

وقرأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (وجاءت سَكْرَةُ الحق بالموت) ، قال ابن جرير : ولهذه القراءة وجهان .

أحدهما : أن يكون الحق هو الله تعالى ، فيكون المعنى : وجاءت سَكْرة الله بالموت .

والثاني : أن تكون السَّكْرة هي الموت ، أضيفت إلى نفسها ، كقوله : (إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقينِ) [الواقعة : ٩٥] ، فيكون المعنى : وجاءت السَّكْرة الحَقُّ بالموت ، بتقديم « الحَقّ » . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : « وجاءت سَكَرَاتُ » على الجمع « الحَقِّ بالموتِ » بتقديم « الحَقّ » . وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وسعيد بن جبير : « وجاءت سَكَراتُ الموت » على الجمع « بالحق » بتأخير « الحق » .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٠٣ عن علي موقوفاً قال : أخرج ابن أبي الدنيا في « الصمت » عن علي قال : لسان الانسان قلم الملك ، وريقه مداد . وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم ، والديلمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : « ان الله لطَّف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين وجعل لسانه قلمها ، وريقه مدادهما ، والله أعلم .

قوله تعالى : (ذلك) أي : فيقال للانسان حينئذ : « ذلك » أي : ذلك الموت (ما كنتَ منه تَحيدُ) أي : تهرُب وتفِرّ [١] . وقال ابن عباس : تَكره .

قوله تعالى : (ونُفِـخ في الصُّور) يعني نفخة البعث (ذلك) اليوم (يومُ الوعيد) أي : يوم وقوع الوعيد .

قوله تعالى : (معها سائق) فيه قولان .

أحدها : أن السـائق : ملَك يسوقها إلى مَحْشَرها ، قاله أبو هريرة [٢] .

والثاني : أنه قرينها من الشياطين ، سمِّي سائقاً، لأنه يتبَعها وإن لم يَحثّها .

وفي الشهيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ملَك يَشهد عليهـا بعملهـا ، قاله عثمان بن عفان ، والحسن . وقال مجاهد : الملَكان : سائق ، وشهيد . وقال ابن السائب : السائق : الذي كان يكتب عليه السَّيِّئات ، والشهيد : الذي كان يكتب الحسنات .

والثاني : أنه العمل يَشهد على الإنسان ، قاله أبو هريرة .

والثالث : الأيدي والأرجل تَشهد عليه بعمله ، قاله الضحاك .

وهل هذه الآيات عامّة ، أم خاصّة ؟ فيها قولان . أحدها : أنها عامة ، قاله الجمهور . والثاني : خاصة في الكافر ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

قوله تعالى : (لقد كنتَ) أي : ويقال له : (لقد كنتَ في غفلة من هذا) اليوم وفي المخاطَب بهذه الآيات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكافر ، قاله ابن عباس ، وصالح بن كيسان في آخرين .

---

(١) قال ابن كثير : أي : هذا هو الذي كنت تفرّ منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص .

(٢) قال ابن كثير : هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، وهو اختيار ابن جرير .

والثاني : أنه عامّ في البَرّ والفاجر ، قاله حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، واختاره ابن جرير .

والثالث : أنه النبيّ ﷺ ، وهذا قول ابن زيد [١] . فعلى القول الأول يكون المعنى : لقد كنتَ في غفلة من هذا اليوم في الدنيا بكفرك به ؛ وعلى الثاني : كنتَ غافلاً عن أهوال القيامة (فكَشَفْنا عنك غِطاءك) الذي كان في الدنيا يغشى قلبك وسمعك وبصرك . وقيل معناه : أريناك ما كان مستوراً عنك ؛ وعلى الثالث : لقد كنتَ قبل الوحي في غفلة عمّا أُوحي إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بالوحي (فبصرُك اليومَ حديدٌ) وفي المراد بالبصر قولان .

أحدهما : البصر المعروف ، قاله الضحاك . والثاني : العِلْم ، قاله الزجاج .

وفي قوله : « اليومَ » قولان .

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله الأكثرون . والثاني : أنه في الدنيا ، وهذا على قول ابن زيد . فأمّا قوله : « حديدٌ » فقال ابن قتيبة : الحديد بمعنى الحادّ . أي : فأنت ثاقب البصر . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فبصرك حديدٌ إلى لسان الميزان حين تُوزَن حسناتُك وسيّئاتُك ، قاله مجاهد . والثاني : أنه شاخص لا يطرف لمعاينة الآخرة ، قاله مقاتل . والثالث : أنه العِلْم النافذ ، قاله الزجاج .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عُنِيَ بها البَرّ والفاجر ، لأن الله أتبع هذه الآيات قوله : (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) والانسان في هذا الموضع بمعنى الناس كلهم ، غير مخصوص منهم بعضهم دون بعض ، فمعلوم اذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله : (وجاءت سكرة الموت بالحق) وجاءتك أيها الانسان سكرة الموت بالحق (ذلك ما كنت منه تحيد) واذا كان ذلك كذلك ، كانت بينة صحة ما قلنا . اهـ .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَالَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَاتَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ . مَايُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

قوله تعالى : (وقال قرينُه) قال مقاتل : هو مَلَكُه الذي كان يكتُب عملَه السيّء في دار الدنيا ، يقول لربّه : قد كتبتُ ماوكَّلْتَني به ، فهذا عندي مُعَدٌّ حاضرٌ من عمله الخبيث ، فقد أتيتُك به وبعمله . وفي « ما » قولان .

أحدهما : أنها بمعنى « من » قاله مجاهد .

والثاني : أنها بمعنى الشيء ، فتقديره : هذا شيء لديَّ عتيدٌ ، قاله الزجاج . وقد ذكرنا معنى العتيد في هذه السورة [ق : ١٨] ، فيقول الله تعالى : (أَلْقِيا في جهنَّم) وفي معنى هذا الخطاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مخاطبة للواحد بلفظ الخطاب للاثنين ، قال الفراء : والعرب تأمر الواحد والقوم بأمر الاثنين ، فيقولون للرجُل : ويلك ارحلاها وازجُراها ، سمعتها من العرب ، وأنشدني بعضهم :

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لاتَحْبِسانا بِنَزْعِ أُصُولِهِ واجْتَزَّ شِيحا[1]

وأنشدني أبو ثَرْوان :

---

(١) البيت لمُضَرِّس بن رِبْعِيّ الأسَدي وهو في « مشكل القرآن » : ٢٢٤ ، و « الطبري » : ٢٦/١٦٥ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : جزز ، ونسبه الجوهري ليزيد بن الطثرية . وقوله : « فقلت لصاحبي » أراد بالصاحب من يحتطب له ، يقول لصاحبه : لاتحبسنا عن شيِّ اللحم بأن تقلع أصول الحطب وعروقه ، بل اكتفِ بقطع الشيح فهو أسهل وأسرع .

فانْ تَزْجُرانِي يابْنَ عَفّان أنْزَجِرْ وإنْ تَدَعانِي أحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا[١]

ونرى أن ذلك منهم ، لأن أدنى أعوان الرجُل في إبله وغنمه اثنـان ، وكذلك الرُّفقة أدنى ماتكون ثلاثة . فجرى الكلام على صاحبيه ، ألا ترى الشعر أكثر شيء قِيلاً : ياصَاحِبَيَّ وياخليليَّ . قال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّابِي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّي[٢] لُبانات الفُؤادِ المُعَذَّبِ

ثم قال :

ألم تَرَأنِي كُلَّما جِئْتُ طارِقاً وَجَدْتُ بها طِيباً وإنْ لَمْ تَطَيَّبِ[٣]

فرجع إلى الواحد ، وأول كلامه اثنان ، وإلى هذا المعنى ذهب مقاتل ، وقال : « ألقيا » خطاب للخازن ، يعني خازن النار .

والثاني : أنه فِعل مُثنّي توكيداً ، كأنه لمّا قال : « ألقيـا » ، ناب عن ألْقِ ألْقِ ، وكذلك : قِفا نَبْكِ[٤] ، معناه : قِفْ قِفْ ، فلمّا ناب عن فعلين ، مُثنّي ، قاله المبرد .

والثالث : أنه أمر للملكين ، يعني السائق والشهيد ، وهذا اختيار الزجاج .

---

(١) البيت في « مشكل القرآن » : ٢٢٥ ، و « الطبري » : ١٦٥/٢٦ ، وقوله : « وإن تدَعاني » أي : إن تركتماني حميت عرضي ممن يؤذيني ، وإن زجرتماني انزجرت وصبرت .

(٢) في الأصل : يقضِّي ، والتصويب من الديوان .

(٣) ديوانه : ٤١ ، و « الطبري » : ١٦٦/٢٦ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٤٣/١ . واللُّبانات : جمع لُبانة ، وهي الحاجة ، والطارق : الذي يأتي ليلاً ، يعني أنها طيبة الريح وإن لم تمسّ طيباً ، وخاصة في الوقت الذي تتغيّر فيه الأفواه .

(٤) جزء من أول بيت في معلقة امرىء القيس ، والبيت بتمامه :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فأمّا « الكَفّارُ » ، فهو أشَدُّ مُبالَغةً من الكافر . و « العنيد » قد فسرناه في (هود : ٥٩) .

قوله تعالى : (منّاعٍ للخير) في المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : الزكاة المفروضة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الإسلام ، يمنع الناس من الدُّخول فيه ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وذكر أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، منع بني أخيه عن الإسلام[1] .

والثالث : أنه عامٌّ في كل خير من قول أو فعل ، حكاه الماوردي[2] .

قوله تعالى : (مُعتَدٍ) أي : ظالم لايُقِرُّ بالتوحيد[3] (مُريبٍ) أي : شاكّ في الحق ، من قولهم : أرابَ الرجُلُ : إذا صار ذا رَيْب .

قوله تعالى : (قال قرينُه) فيه قولان .

أحدهما : شيطانه ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور . وفي الكلام اختصار تقديره : إن الإنسان ادّعى على قرينه من الشياطين أنه أضلّه

(١) ذكره البغوي والخازن في « تفسيريهما » بنحوه بغير سند ولم يعزواه لأحد .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أنه كل حق وجب لله تعالى أو لآدمي في ماله ، قال : والخير في هذا الموضع هو المال ، وإنما قلنا : ذلك هو الصواب من القول ، لأن الله تعالى ذكره عم بقوله : (مناع للخير) أنه يمنع الخير ، ولم يخصص منه شيئاً دون شيء ، فذلك على كل خير يمكن منعه طالبه . اهـ .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وقوله : « معتد » يقول : معتد على الناس بلسانه ، بالبذاء والفحش في المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً . اهـ . وقال ابن كثير : « معتد » أي : فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد ، قال : وقال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره . اهـ .

فقال : (ربَّنا ما أطغيتُه) أي : لم يكن لي قُوّة على إضلاله بالإكراه ، وإنما طغى هو بضلاله .

والثاني : أنه الملَك الذي كان يكتُب السَّيِّئات .

ثم فيما يدَّعيه الكافرُ على الملَك قولان .

أحدهما : [أنه] يقول : زاد عليَّ فيما كتب ، فيقول الملَك : ما أطغيتُه ، أي : مازدتُ عليه ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أنه يقول : كان يُعْجِلني عن التَّوبة ، فيقول : ربَّنا ما أطغيتُه ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : (ولكن كان في ضلال بعيدٍ) أي : بعيد من الهُدى ، فيقول الله تعالى : (لا تختصموا لديَّ) . في هذا الخصام قولان .

أحدهما : أنه اعتذارهم بغير عذر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه خصامهم مع قرنائهم الذين أغوَوْهم ، قاله أبو العالية . فأما اختصامهم فيما كان بينهم من المظالم في الدنيا ، فلا يجوز أن يُهمَل ، لأنه يوم التناصف .

قوله تعالى : (وقد قدَّمتُ إليكم بالوعيد) أي : قد أخبرتُكم على ألسُن الرُّسل بعذابي في الآخرة لمن كفر .

(ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ) فيه قولان .

أحدهما : مايبدَّل [القول] فيما وعدتُه من ثواب وعقاب ، قاله الأكثرون .

والثاني : ما يُكذَّب عندي ولا يغيَّر القول عن جهته ، لأنِّي أعْلَمُ الغيب وأعْلَمُ كيف ضلُّوا وكيف أضللتموهم ، هذا قول ابن السائب واختيار الفراء وابن قتيبة ، ويدل عليه أنه قال تعالى : (ما يُبَدَّل القول لديَّ) ولم يقل :

ما يُبَدَّل قولي (وما أنا بظلاّم للعبيد) فأزيدَ على إساءة المُسيء ، أو أنقص من إحسان المُحسن .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ . وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . أُدْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي ٱلْبِلاَدِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلٰى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ . وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾

(يومَ نقول لجهنم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « يومَ نقول » بالنون المفتوحة وضم القاف . [وقرأ نافع ، وأبو بكر ، والمفضل عن عاصم : « يومَ يقول » بالياء المفتوحة وضم القاف] . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : « يومَ يُقال » بياء مضمومة وفتح القاف وإثبات ألف . قال الزجاج : وانتصاب « يومَ » على وجهين ، أحدهما : على معنى : ما يُبدَّل القولُ لديَّ في ذلك اليوم . والثاني : على معنى : وأَنْذِرْهم يومَ نقولُ لجهنم .

فأمّا فائدة سؤاله إيّاها ، وقد علِم هل امتلأتْ أم لا ، فإنه توبيخ لمن أُدْخِلها ، وزيادة في مكروهه ، ودليل على تصديق قوله : (لَأَملأنَّ جهنمَ)[الأعراف:١٨]

وفي قولها : (هل من مزيد) قولان عند أهل اللغة .

أحدهما : أنها تقول ذلك بعد امتلائها ، فالمعنى : هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلىء ؟ أي : قد امتلأتُ .

والثاني : أنها تقول تغيُّظاً على من عصى اللهَ تعالى ، وجَعَلَ اللهُ فيها أن تميِّز وتخاطِب ، كما جَعَلَ في النملة أن قالت : (أُدخلُوا مساكنَكم) [النمل : ١٨] وفي المخلوقات أن تسبِّح بحمده .

قوله تعالى : (وأُزلِفَتِ الجَنَّة للمُتَّقين) اي : قُرِّبت للمتَّقين [الشركَ] (غيرَ بَعيدٍ) أي : جُعلتْ عن يمين العرش حيث يراها أهلُ الموقف ، ويقال لهم : (هذا) الذي ترونه (ما تُوعَدونَ) وقرأ عثمان بن عفان ، وابن عمر ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن محيصن : « يُوعَدونَ » بالياء (لكُلِّ أوّاب) وفيه أقوال قد ذكرناها في [بني إسرائيل : ٢٥] . وفي (حفيظٍ) قولان .

أحدهما : الحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها ، قاله ابن عباس .

والثاني : الحافظ لأمر الله تعالى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (من خَشِيَ الرَّحمنَ بالغيبِ)[1] قد بيَّنّاه في (الأنبياء : ٤٩) (وجاء بقلبٍ مُنيبٍ) أي : راجع إلى طاعة الله عن معصيته .

(أُدخلوها) أي : يقال لهم : أُدخلوا الجنة (بسلام) وذلك أنهم سلموا من عذاب الله ، وسلموا فيها من الغُموم والتغيُّر والزَّوال ، وسلَّم اللهُ وملائكتُه عليهم (ذلك يومُ الخُلود) في الجنة ، لأنه لاموت فيها ولا زوال .

(لهم مـا يشاؤون فيها) وذلك أنهم يَسألون الله حتى تنتهي مسائلُهم ،

(١) قال ابن كثير : أي : من خاف الله في سره حيث لايراه أحد إلا الله عز وجل ، كقوله ﷺ : « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

فيُعْطَوْن ما شاؤوا ، ثم يَزيدُهم ما لم يَسألوا ، فذلك قوله : (ولدينا مَزيدٌ) .
وللمفسرين في المراد بهذا المزيد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه النظر الى الله عز وجل ، روى عليٌ رضي الله عنه عن النبي عليه السلام في قوله : « ولدينا مَزيدٌ » قال : يتجلّى لهم[1] . وقال أنس بن مالك في قوله : « ولدينا مزيد » : يتجلّى لهم الرب تعالى في كل جمعة[2] .

والثاني : أن السحاب يَمُرّ بأهل الجنة ، فيمطرهم الحورَ ، فتقول الحور : نحن اللواتي قال الله عز وجل : « ولدينا مزيد » ، حكاه الزجاج .

والثالث : أن الزّيادة على ما تمنّوه وسألوا ممّا لم تسمع به أذن ولم يخطُر على قلب بشر ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

ثم خوّف كفار مكة بما بعد هذا إلى قوله : (فنَقَّبوا في البلاد) قرأ الجمهور « فنَقَّبوا » بفتح النون والقاف مع تشديدها . وقرأ أُبيٌ بن كعب ، وابن عباس ، والحسن ، وابن السميفع ، ويحيى بن يعمر كذلك ، إلا أنهم كسروا القاف على جهة الأمر تهدُداً . وقرأ عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، وعبيد عن أبي عمرو : « فنَقَبوا » بفتح القاف وتخفيفها . قال الفراء : ومعنى « فنقَّبوا » : ساروا في البلاد ، فهل كان لهم من الموت (مِن مَحيص) فأُضمرت « كان » هاهنا ، كقوله : (أهلَكْناهم فلا ناصر لهم) [محمد : ١٣] أي : فلم يكن لهم ناصر . ومن قرأ « فنَقِّبوا » بكسر القاف ، فإنه

---

(١) ذكره الآلوسي في « روح المعاني » ١٧٣/٢٧ من رواية البيهقي في الرؤية والديلمي عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : (ولدينا مزيد) قال : يتجلى لهم الرب عز وجل .

(٢) ذكره الآلوسي في « روح المعاني » ١٧٣/٢٧ من رواية ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضاً : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة .

كالوعيد ، والمعنى : اذهبوا في البلاد وجيئوا فهل من الموت مِن مَحيص ؟ ! وقال الزجاج : « نَقَّبوا » : طوَّفوا وفتَّشوا ، فلم تَرَوا مَحيصاً من الموت . قال امرؤ القيس :

لَقَدْ نَقَّبْتُ في الآفاقِ حتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإيابِ[1]

فأمّا المَحيص فهو المَعْدِل ، وقد استوفينا شرحه في سورة (النساء : ١٢١) .

قوله تعالى : (إنَّ في ذلك) يعني الذي ذكره من إهلاك القرى (لَذِكرى) أي : تذكرة وعِظَة (لِمَن كان له قلبٌ) قال ابن عباس : أي : عقل . قال الفراء : وهذا جائز في اللغة أن تقول : ما لَكَ قلب ، وما معك قَلبُك ، تريد العقل . وقال ابن قتيبة : لما كان القلب موضعاً للعقل كنى به [عنه] . وقال الزجاج : المعنى : لمن صرف قلبه إلى التفهُّم (أو ألقى السَّمْع) أي : استَمَع مِنّي (وهو شهيدٌ) أي : وقَلْبُه فيما يسمع . وقال الفراء : « وهو شهيد » أي : شاهد ليس بغائب .

قوله تعالى : (ولقد خلَقْنا السموات والأرض) ذكر المفسرون أن اليهود قالت : خلَقَ اللهُ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، آخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فلذلك لانعمل فيه شيئاً ، فنزلت هذه الآيات ، فأكذبهم اللهُ عز وجل بقوله : (وما مَسَّنا مِن لغوبٍ)[2] . قال الزجاج : واللُّغوب : التَّعب والإعياء .

---

(١) ديوانه : ٩٩ ، و « مجاز القرآن » : ٢/٢٢٤ ، و « الطبري » : ٢٦/١٧٦ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٨٠ ، و « اللسان » و « التاج » : نقب . وفي الديوان : « وقد طوفت » بدل « لقد نقبت » .

(٢) ذكره الطبري عن قتادة ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/١١٠ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن المنذر عن قتادة ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٦ عن الحسن وقتادة .

قوله تعالى : (فاصْبِر على ما يقولون) أي : من بَهتهم وكذبهم . قال المفسرون : ونسخ معنى قوله : « فاصْبِر » بآية السيف (وَسبِّح بحمد ربِّك) أي : صَلِّ بالثَّناء على ربِّك والتنزيه [له] ممَّا يقول المُبْطِلون (قَبْلَ طُلوع الشمس) وهي صلاة الفجر . (وقَبْلَ الغُروب) فيها قولان .

أحدهما : صلاة الظهر والعصر ، قاله ابن عباس .

والثاني : صلاة العصر ، قاله قتادة . وروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث جرير بن عبد الله ، قال : كُنَّا عند رسول الله ﷺ ليلة البدر ، فقال : إنَّكم سَتَرُونَ ربَّكم عِياناً كما ترون هذا القمر ، لا تضامُّونَ [1] في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاةٍ قَبْلَ طُلوع الشمس وقبل الغُروب فافعلوا . وقرأ : « فسبِّح بحمد ربِّك قبل طُلوع الشمس وقبل الغروب » [2] .

قوله تعالى : (ومن الليل فسبِّحْه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها صلاة الليل كلِّه ، أيَّ وقت صلَّى منه ، قاله مجاهد .

والثاني : صلاة العشاء ، قاله ابن زيد .

والثالث : صلاة المغرب والعشاء ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وأدبارَ السُّجود) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وخلف :

---

(١) « لا تضامون » يجوز ضم التاء وفتحها . وهو بتشديد الميم من الضم ، أي : لاينضم بعضكم إلى بعض ، ولا يقول : أرنيه ، بل كل ينفرد برؤيته . وروي بتخفيف الميم من الضيم ، وهو الظلم ، يعني : لاينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤٥٨ ومسلم ١/٤٣٩ ورواه أحمد في « المسند » وأصحاب « السنن » عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتحها . قال الزجاج : من فتح ألف « أدبار » فهو جمع دُبُر ، ومن كسرها فهو مصدر : أدبر يُدْبِر إدباراً .

وللمفسرين في هذا التسبيح ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه[1] الرَّكعتان بعد صلاة المغرب ، روي عن عمر ، وعليّ ، والحسن بن علي ، رضي الله عنهم ، وأبي هريرة ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وقتادة في آخرين ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه[1] النوافل بعد المفروضات ، قاله ابن زيد .

والثالث : أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات ، رواه مجاهد عن ابن عباس . وروي عن أبي الأحوص أنه قال في جميع التسبيح المذكور في هاتين الآيتين كذلك .

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

قوله تعالى : (واستَمِعْ يومَ يُنادي المُنادي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ينادي المُنادي » بياء في الوصل . ووقف ابن كثير بياءٍ ، ووقف نافع وأبو عمرو بغير ياءٍ . ووقف الباقون ووصلوا بياءٍ . قال أبو سليمان الدمشقي : المعنى : واستمع حديث يوم ينادي المنادي . قال المفسرون: والمنادي : إسرافيل ، يقف على صخرة بيت المقدس فينادي : يا أيها الناس هلمُّوا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ؛ وهذه هي النفخة

(١) في الأصل : أنها .

الأخيرة . والمكان القريب : صخرة بيت المقدس . قال كعب ومقاتل : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقال ابن السائب باثني عشر ميلاً . قال الزجاج : ويقال : إن تلك الصخرة في وسط الأرض[1].

قوله تعالى : (يومَ يَسمَعونَ الصَّيحة) وهي [هذه] النَّفخة الثانية (بالحقِّ) أي : بالبعث الذي لاشكَّ فيه (ذلك يومُ الخُروج) من القبور .

(إنا نحنُ نُحيي ونُميتُ) أي : نُميت في الدنيا ونُحيي للبعث (وإلينا المصيرُ) بعد البعث ، وهو قوله : (يوم تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « تشَّقَّقُ » بتشديد الشين ، وقرأ الباقون بتخفيفها (سراعاً) أي : فيخرجون منها سِراعاً (ذلك حَشْرٌ علينا يَسيرٌ) أي : هَيِّنٌ .

ثم عزَّى نبيَّه فقال : (نحنُ أعلمُ بما يقولون) في تكذيبك ، يعني كفار مكة (وما أنتَ عليهم بجبَّارٍ) قال ابن عباس : لم تبعث لتجبرَهم على الاسلام إنما بُعثتَ مذكِّراً ، وذلك قبل أن يؤمَر بقتالهم ، وأنكر الفراء هذا القول فقال : العرب لاتقول : « فعَّال من أفْعلتُ » لايقولون : « خَرَّاج » يريدون « مُخرِج » ولا « دخَّال » يريدون « مُدْخِل » ، إنما يقولون : « فعَّال » من « فعَلْتُ » ، وإنما الجبَّار هنا في موضع السلطان من الجبرية ، وقد قالت العرب في حرف واحد : « دَرَّاك » من « أدْرَكْتُ » وهو شاذ ، فإن جعل هذا على هذه الكلمة فهو وجه . وقال ابن قتيبة : (بجبَّار) أي : بمسلَّط ، والجبَّار : الملِك ، سمِّي بذلك لِتَجَبُّره ، يقول : لستَ عليهم بملِك مُسلَّط .

(١) ذكره البغوي عن مقاتل بغير سند ، والخازن بغير سند ولم يعزه لأحد ، وذكره ابن جرير الطبري ١٨٣/٢٦ عن قتادة عن كعب الأحبار مطولاً ، ومختصراً عن بريدة رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ١١٠/٦ من رواية ابن عساكر والواسطي في « فضائل بيت المقدس » عن يزيد بن جابر .

قال اليزيدي : لستَ بمسلَّط فتقهرَهم على الإسلام . وقال مقاتل : لِتقتُلَهم . وذكر المفسرون أن قوله : (وما أنت عليهم بجبَّار) منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى (فذكِّر بالقرآن) أي : فعِظْ به (مَنْ يَخافُ وَعيدِ) [وقرأ يعقوب : «وعيدي» بياء في الحالين] ، أي : ما أوعدتُ مَنْ عصاني من العذاب [1] .

---

(١) قال ابن كثير : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أي : بلغ أنت رسالة ربك ، فانما يتذكر من يخاف الله ووعيده ، ويرجو وعده ، كقوله تعالى : (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله جل جلاله : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) ، (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) (إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ، ولهذا قال تعالى هاهنا : (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . اهـ .

سورة الذّاريات

مكّيّة كلّها بإجماعهم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً . فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذّاريات ذَرْواً) يعني الرّياح ، يقال : ذَرَت الرّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً : إذا فرّقَتْه . قال الزجاج : يقال : ذَرَت فهي ذارية ، وأذْرَت فهي مُذْرِية ، بمعنى واحد .

(والذّارياتِ) ، مجرورة على القَسَم ، المعنى : أحلِف بالذّارياتِ وهذه الأشياء ، والجواب (إنما تُوعَدونَ لَصادقٌ) ، قال قوم : المعنى : وربِّ الذاريات ، وربِّ الجاريات .

قوله تعالى : (فالحامِلاتِ وِقْراً) يعني السحاب التي تحمل وِقْرها من الماء .

(فالجارياتِ يُسْراً) يعني السُّفن تجري ميسَّرة [في الماء] جَرياً سهلاً .

(فالمقسِّمات أمْراً) يعني الملائكة تقسم الأمور على ما أمَر اللهُ به[1] .

قال ابن السائب : والمقسِّمات أربعة ، جبريل ، وهو صاحب الوحي والغِلظة ، وميكائيل ، وهو صاحب الرِّزق والرَّحمة ، وإسرافيل ، وهو صاحب الصُّور واللَّوح ، وعزرائيل ، وهو قابض الأرواح . وإنما أقسَم بهذه الأشياء لِما فيها من الدلالة على صُنعه وقُدرته .

ثم ذكر المُقسَم عليه فقال : (إنّما تُوعَدون) أي : من الثواب والعقاب يومَ القيامة (لَصادقٌ) أي : لَحَقٌّ .

(وإنَّ الدِّين) فيه قولان .

أحدهما : الحساب . والثاني : الجزاء (لَواقعٌ) أي : لَكائن .

ثم ذكر قَسَماً آخر فقال : (والسَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ) وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين : (الحِبِكِ) بكسر الحاء والباء جميعاً . وقرأ عثمان بن عفان ، والشعبي ، وأبو العالية ، وأبو حيوة : « الحِبْكِ » بكسر الحاء وإسكان الباء . وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وابن عباس ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة : « الحُبْكِ » برفع الحاء وإسكان الباء . وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة : « الحَبَكِ » بفتح الحاء والباء جميعاً .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/١١١ : أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد ابن منصور ، والحارث بن أبي أسامة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في « المصاحف » والحاكم وصححه ، والبيهقي في « شعب الايمان » من طرق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : (والذاريات ذرواً) قال : الرياح (فالحاملات وقراً) قال : السحاب (فالجاريات يسراً) قال : السفن (فالمقسمات أمراً) قال : الملائكة.

وقرأ أبو الدرداء ، وأبو الجوزاء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : [« الحَبِكِ »] بفتح الحاء وكسر الباء .

ثم في معنى « الحبك » أربعة أقوال . أحدها : ذات الخَلْق الحَسَن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة . والثاني : البُنيان المُتْقَن ، قاله مجاهد . والثالث : ذات الزِّينة ، قاله سعيد بن جبير . وقال الحسن : حُبُكها : نُجومها . والرابع : ذات الطرائق ، قاله الضحاك واللغويون [1] . وقال الفراء : الحُبُك : تَكَسُّر كلّ شيء كالرَّمْل إذا مرَّت به الرِّيح السّاكنة ، والماء القائم إذا مرّت به الرِّيح ، والشَّعرةُ الجَعْدَة تكسُّرُها حُبُكٌ ، وواحد الحُبُك : حِباك وحَبيكة . وقال الزجاج : أهل اللغة يقولون : الحُبُك : الطرائق الحَسَنة ، والمَحْبُوك في اللغة : ما أُجيد عملُه ، وكل ما تراه من الطَّرائق في الماء وفي الرَّمْل إذا أصابته الرِّيح فهو حُبُك . وروي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : هذه هي السماء السابعة .

ثم ذكر جواب القَسَم الثاني ، قال : (إنكم) يعني أهل مكة (لَفي قَوْلٍ مختلِفٍ) في أمر محمد ﷺ ، بعضكم يقول : شاعر ، وبعضكم يقول : مجنون . وفي القرآن [بعضكم] يقول : سِحْر ، وبعضكم يقول : كَهانة ورَجَز ، إلى غير ذلك .

(يؤفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ) أي : يُصْرَف عن الإيمان [به] مَن صُرِف [فحُرِمه] . [والهاء في « عنه » عائدة إلى القرآن ، وقيل : يُصْرَف عن هذا

---

(١) قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، فانها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء ، متسعة الأرجاء ، أنيقة البهاء ، مكللة بالنجوم الثوابت ، والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات .

القول ، أي : من أجْله وسببه عن الإيمان من صُرِف] . وقرأ قتادة : « مَنْ أَفَكَ » بفتح الألف والفاء . وقرأ عمرو بن دينار : « مَنْ أَفِكَ » بفتح الألف وكسر الفاء .

(قُتِل الخَرّاصُونَ) قال الفراء : يعني [لُعن] الكذّابون الذين قالوا : إن النبي ﷺ ساحر وكذّاب وشاعر ، خَرَصوا ما لا علم لهم به . وفي رواية العوفي عن ابن عباس : أنهم الكهنة . وقال ابن الأنباري : والقتل إذ أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك .

قوله تعالى (الذين هم في غَمْرة) أي : في عمىً وجهالة بأمر الآخرة (ساهون) أي : غافلون . والسَّهو : الغَفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه .

(يَسألونَ أيّان يومُ الدِّين) أي : يقولون : يا محمد متى يومُ الجزاء ؟! تكذيباً منهم واستهزاءاً .

ثم أخبر عن ذلك اليوم ، فقال : (يومَ هُم على النّار) قال الزجاج : « اليومَ » منصوب على معنى : يقع الجزاء يومَ هُم على النّار (يُفْتَنونَ) أي : يُحرَقون ويعذَّبون ، ومن ذلك يقال للحجارة السُّود التي كأنها قد أُحرقت بالنار : الفَتِين .

قوله تعالى : (ذُوقوا) المعنى : يقال لهم : ذوقوا (فِتْنَتَكم) وفيها قولان .

أحدهما : تكذيبكم ، قاله ابن عباس . والثاني : حريقكم ، قاله مجاهد . قال أبو عبيدة : هاهنا تم الكلام ، ثم ائتنف ، فقال : (هذا الذي كنتم به تستعجِلونَ) قال المفسرون : يعني الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءاً . ثم ذكر ما وَعد اللهُ لأهل الجنة فقال : (إنَّ المُتَّقِينَ في جنّاتٍ وعُيونٍ) وقد سبق شرح هذا [البقرة : ٢٥ ، الحجر : ٤٥] .

قوله تعالى (آخِذِين) قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، فالمعنى :

في جنّات وعيون في حال أخذ (ما آتاهم ربُّهم) قال المفسرون : أي ما أعطاهم اللهُ من الكرامة (إنَّهم كانوا قبلَ ذلك محسِنين) في أعمالهم . وفي الآية وجه آخر : « آخذين ما آتاهم ربُّهم » أي : عاملين بما أمرهم به من الفرائض « إنهم كانوا قبلَ » أن تفرض الفرائض عليهم ، « محسِنين » أي : مطيعين ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية مسلم البطين [1] .

ثم ذكر إحسانهم فقال : (كانوا قليلاً من الليل ما يَهجعون) والهُجوع : النَّوم بالليل دون النهار [2] .

وفي « ما » قولان .

أحدهما : النفي . ثم في المعنى قولان . أحدهما : كانوا يسهرون قليلاً من الليل . قال أنس بن مالك ، وأبو العالية : هو ما بين المغرب والعشاء .

والثاني : كانوا ما ينامون قليلاً من الليل . واختار قوم الوقف على قوله : « قليلاً » على معنى : كانوا من الناس قليلاً ، ثم ابتدأ فقال : « من الليل ما يهجعون » على معنى نفي النوم عنهم البتَّة ، وهذا مذهب الضحاك ، ومقاتل .

(١) رواه ابن جرير ٢٦/١٩٦ وفي سنده ضعف وانقطاع ، وذكره ابن كثير عن عثمان بن أبي شيبة بسند حسن . وقد رد ابن كثير على ابن جرير هذا التفسير الذي أورده في تفسيره واقتصر عليه بقوله : والذي فسر به ابن جرير ، فيه نظر ، لأن قوله تبارك وتعالى (آخذين) حال من قوله (في جنات وعيون) فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم ، أي : من النعيم والسرور والغبطة . وقوله عز وجل : (إنهم كانوا قبل ذلك) ، أي : في الدار الدنيا (محسنين) كقوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) .

(٢) روى أحمد في « المسند » والترمذي وابن ماجه في « سننها » بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس عليه (أي : ذهبوا) ، مسرعين إليه فكنت فيمن انجفل ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليست بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يقول : « أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

والقول الثاني : أن « ما » بمعنى الذي ، فالمعنى : كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعونه ، وهذا مذهب الحسن ، والأحنف بن قيس ، والزهري . وعلى هذا يحتمل أن تكون « ما » زائدة .

قوله تعالى : (وبالأسحار هُمْ يَستغفرون) وقد شرحناه في [آل عمران : ١٧] .

قوله تعالى : (وفي أموالهم حَقٌّ) أي : نصيب ، وفيه قولان .

أحدهما : أنه ما يَصِلون به رَحِماً ، أو يَقْرون به ضيفاً ، أو يحملون به كلاًّ ، أو يُعينون به محروماً ، وليس بالزَّكاة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الزكاة ، قاله قتادة ، وابن سيرين .

قوله تعالى : (للسائل) وهو الطالب .

وفي (المحروم) ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الذي ليس له سهم في فيء المسلمين ، وهو المُحارَف[1] ، قاله ابن عباس . وقال إبراهيم : هو الذي لاسهم له في الغنيمة .

والثاني : أنه الذي لاينمى له شيء ، قاله مجاهد ، وكذلك قال عطاء : هو المحروم في الرِّزق والتجارة .

والثالث : أنه المسلم الفقير ، قاله محمد بن علي .

والرابع : أنه المتعفِّف الذي لا يَسأل شيئاً ، قاله قتادة ، والزهري .

والخامس : أنه الذي يجيء بعد الغنيمة ، وليس له فيها سهم ، قاله الحسن ابن محمد بن الحنفية .

---

(١) قال في « الصحاح » : ورجل محارف ، بفتح الراء ، أي محدود محروم ، وهو خلاف قولك : مبارك ، وقد حورف كسب فلان : إذا شدد عليه في معاشه ، كأنه ميل برزقه عنه .

والسادس : أنه المصاب ثمرته وزرعه أو نسل ماشيته ، قاله ابن زيد .

والسابع : أنه المملوك ، حكاه الماوردي .

والثامن : أنه الكَلْب ، روي عن عمر بن عبد العزيز . وكان الشعبي يقول : أعياني أن أعلَم ما المحروم . وأظهر الأقوال قول قتادة والزهري ، لأنه قرنه بالسائل ، والمتعفِّف لا يَسأل — ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل — ثم يتحفظ بالتعفُّف من ظُهور أثر الفاقة عليه ، فيكون محروماً من قِبَل نفسه حين لم يَسأل ، ومن قِبَل الناس حين لا يُعطونه ، وإنما يفطن له متيقِّظ . وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، ولا يصح .

قوله تعالى : (وفي الأرض آياتٌ) كالجبال والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك (للموقنين) بالله عز وجل الذين يعرفونه بصنعه .

(وفي أنفُسكم) آياتٌ إذ كنتم نُطَفاً ، ثم عظاماً ، ثم عَلَقاً ، ثم مُضَغاً ، إلى غير ذلك من أحوال الاختلاف ، ثم اختلاف الصُّوَر والألوان والطبائع ، وتقويم الأدوات ، والسمع والبصر والعقل ، وتسهيل سبيل الحدث ، إلى غير ذلك من العجائب المودَعة في ابن آدم . وتمّ الكلام عند قوله : « وفي أنفسكم » ، ثم قال : (أفلا تُبْصِرونَ) قال مقاتل : أفلا تبصرون كيف خَلَقكم فتعرِفوا قُدرته على البعث [1] .

قوله تعالى : (وفي السَّماء رِزْقُكم) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وحميد ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : (وفي أنفسكم) أيضاً أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم ، وأنه لا إله لكم سواه ، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم (أفلا تبصرون) يقول : أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم ؟ ! .

وأبو حصين الأسدي : « أرْزاقُكم » براءٍ ساكنة وبألف بين الزاي والقاف . وقرأ ابن مسعود ، والضحاك ، وأبو نهيك : « رازِقُكم » بفتح الراء وكسر الزّاي وبألف بينهما . وعن ابن محيصن [1] كهاتين القراءتين . وفيه قولان .

أحدهما : أنه المطر ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد ، وهو قول الجمهور .

والثاني : الجنة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وفي قوله : (ما تُوعَدونَ) قولان .

أحدهما : أنه الخير والشر كلاهما يأتي من السماء ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني : الجنة ، رواه ليث عن مجاهد . قال أبو عبيدة : في هذه الآية مضمر مجازه : عند مَنْ في السماء رزقُكم ، وعنده ما توعدون ، والعربُ تُضْمِر، قال نابغة [ذبيان] :

كأنَّكَ مِنْ جِمالِ بَني أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خلفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ [2]

أراد : كأنك جملٌ من جِمال بني أُقَيش .

قوله تعالى : (إنَّه لَحَقٌّ) قال الزجاج : يعني ماذكره من أمر الآيات والرِّزق وماتوعدون وأمر النبي ﷺ (مِثْلَ ماأنكم تَنْطِقونَ) قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « مِثْلُ » برفع اللام . وقرأ الباقون بنصب اللام . قال الزجاج : فمن رفع « مِثْلُ » فهي من صفة الحق ، والمعنى : إنه لَحَقٌّ مِثْلُ نُطْقِكم ، ومن نصب فعلى ضربين .

(١) في الأصل : « محيصن » .

(٢) تقدم البيت في الجزء ٣ صفحة ٥١ .

أحدهما : أن يكون في موضع رفع ، إلا أنه لمّا أُضيف إلى « أنّ » فُتح .

والثاني : أن يكون منصوباً على التأكيد ، على معنى : إنه لحقٌّ حقاً مِثْلَ نُطقكم ، وهذا الكلام كما تقول : إنه لحقٌّ كما أنك تتكلّم .

﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ . قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

قوله تعالى : (هل أتاكَ حديثُ ضَيْفِ إبراهيمَ المُكْرَمِينَ) « هل » بمعنى « قد » في قول ابن عباس ، ومقاتل ، فيكون المعنى : قد أتاك فاستمع نَقُصُّهُ عليك ، وضَيفُه : هم الذين جاؤوا بالبشرى . وقد ذكرنا عددهم في (هود ٧٠) ، وذكرنا هناك معنى الضَّيف .

وفي معنى « المُكْرَمِينَ » أربعة أقوال :

أحدها : لأنه أكرمهم بالعِجْل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : بأن خدمهم هو وامرأته بأنفسهما ، قاله السدي .

والثالث : أنهم مُكْرَمون عند الله ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والرابع : لأنهم أضياف ، والأضياف مُكْرَمون ، قاله أبو بكر الورّاق .

قوله تعالى : (فقالوا سلاماً) قد ذكرناه في (هود : ٧٠).

قوله تعالى : (قومٌ مُنْكَرونَ) قال الزجاج : ارتفع على معنى : أنتم قومٌ مُنْكَرونَ .

وللمفسرين في سبب إنكارهم أربعة أقوال .

أحدها : لأنه لم يعرفهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : لأنهم سلَّموا عليه ، فأنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض ، قاله أبو العالية .

والثالث : لأنهم دخلوا [عليه] من غير استئذان .

والرابع : لأنه رأى فيهم صورة البشر وصورة الملائكة .

قوله تعالى : (فراغَ إلى أهله) قال ابن قتيبة : أي : عَدَل إليهم في خُفْية ، ولا يكون الرَّواغُ إلاَّ أن تُخْفِيَ ذهابَك ومَجيئك .

قوله تعالى : (فجاء بِعِجْلٍ سمينٍ) وكان مشوياً (فقرَّبه إليهم) قال الزجاج : والمعنى : فقرَّبه إليهم ليأكلوا منه ، فلم يأكلوا ، فقال : (ألا تأكلونَ)؟! على النَّكير ، أي : أمرُكم في ترك الأكل مما أُنْكِرُه[1] .

---

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى : (قال ألا تأكلون ؟) تلطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فانه جاء بطعام من حيث لايشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام . بل جاء به بسرعة وخفاءٍ ، وأتى بأفضل ماوجد من ماله وهو عجل فتي سمين مشوي . فقربه إليهم ، لم يضعه ، وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : (ألا تأكلون ؟) على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

قوله تعالى : (فأَوجس منهم خِيفةً) قد شرحناه في (هود : ٧٠) ، وذكرنا معنى : « غلامٍ عليمٍ » في (الحجر : ٥٤) .

(فأقبلَت امرأتُه) وهي : سارة . قال الفراء وابن قتيبة : لم تُقْبِل مِن مَوضع إلى مَوضع ، وإنما هو كقولك : أقبلَ يَشتُمني ، وأقبل يَصيح ويتكلّم ، أي : أخذ في ذلك ، والصَّرَّة : الصَّيحة . وقال أبو عبيدة : الصَّرَّة : شِدة الصَّوت .

وفيما قالت في صَيحتها قولان .

أحدهما : أنها تأوَّهتْ ، قال قتادة .

والثاني : أنها قالت : يا ويلتا ، ذكره الفراء .

قوله تعالى : (فصَكَّت وَجْهَها) فيه قولان .

أحدهما : لطمتْ وجهها ، قاله ابن عباس .

والثاني : ضربتْ جبينها تعجُّباً ، قاله مجاهد . ومعنى الصَّكّ : ضَرْبُ الشيء بالشيء العريض[1] .

(وقالت عجوزٌ) قال الفراء : هذا مرفوع بإضمار « أَتَلِدُ عجوزٌ » . وقال الزجاج : المعنى : أنا عجوز عقيمٌ ، فكيف أَلِدُ ؟ ! وقد ذكرنا معنى (العقيم) في (هود : ٧٢) .

(قالوا كذلكِ قال ربُّكِ) أنك ستَلِدين غُلاماً ، والمعنى : إنما نُخبرك

---

(١) قال في « اللسان » : الصك : الضرب الشديد بالشيء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأي شيء كان ، صكه يصكه صكاً .

عن الله عز وجل وهو حكيم عليم يَقْدِر أن يَجعل العقيم وَلوداً ، فعَلِم [حينئذ] إبراهيمُ أنهم ملائكة .

(قال فما خَطْبُكم) مفسر في (الحجر : ٥٧) .

قوله تعالى : (حجارةً من طِينٍ) قال ابن عباس : هو الآجُرُّ .

قوله تعالى : (مُسوَّمةً عند ربِّك) قد شرحناه في (هود : ٨٣) .

قوله تعالى : (للمُسرِفين) قال ابن عباس : للمشركين .

قوله تعالى : (فأخرَجْنا مَن كان فيهـــا) ، أي : من قُرى لوط (مِن المؤمنين) وذلك قوله تعالى : (فأسْرِ بأهلك ...) الآية : [هود : ٨٢] .

(فما وَجدْنا فيها غيرَ بَيْتٍ من المُسلِمين) وهو لوط وابنتاه ، وَصفهم اللهُ عز وجل بالإيمان والإسلام ، لأنه مامن مؤمن إلا وهو مُسلِم .

(وتَركْنا فيها آيةً) أي : علامة للخائفين من عذاب الله تَدلُّهم على أن الله أهلكهم . وقد شرحنا هذا في (العنكبوت : ٣٥) وبيَّنَّا المَكني عنها .

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ . وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ . فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ . وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (وفي موسى) اي : وفيه ايضاً آية (إذ أَرسلْناه إلى فرعون بسُلطان مُبِين) اي : بحُجَّة ظاهرة (فتولَّى) اي : أعرَضَ (بِرُكْنه) قال مجاهد : بأصحابه . وقال ابو عبيدة : « بِرُكْنه » و « بجانبه » سواء ، إنما هي ناحيته (وقال ساحرٌ) اي : وقال لموسى : هذا ساحر (او مجنونٌ) وكان ابو عبيدة يقول : « او » بمعنى الواو . فأمّا « اليَمُّ » فقد ذكرناه في (الأعراف : ١٣٦) و « مُليم » في (الصافات : ١٤٢) .

قوله تعالى : (وفي عاد) اي : في إهلاكهم آية ايضاً (إذا أَرسلْنا عليهم الرِّيحُ العَقيم [١] وهي التي لا خير فيها ولا بَرَكة ، لا تُلْقِح شجراً ولا تَحْمِل مطراً ، وإنما هي للإهلاك . وقال سعيد بن المسيّب : هي الجَنُوب .

(ما تَذَر من شيء أَتتْ عليه) أي : من أنفُسهم وأموالهم (إلا جعلتْه كالرَّميم) اي : كالشيء الهالك البالي . قال الفراء : الرَّميم : نبات الأرض إذا يَبِس وَدِيس . وقال الزجاج : الرَّميم : الورَق الجافّ المتحطِّم مثل الهشيم .

(وفي ثمودَ) آيةٌ ايضاً (إذ قيل لهم تَمتَّعوا حتَّى حِين) فيه قولان .

أحدهما : أنه قيل لهم : تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وقت انقضاء آجالكم تهدُّداً لهم .

والثاني : أن صالحاً قال لهم بعد عَقْر النّاقة : تَمتَّعوا ثلاثة أيام ، فكان الحِين وقتَ فناء آجالهم ، (فَعتَوا عن أَمْر ربِّهم) قال مقاتل : عصوا أَمْره (فأخذَتْهم الصاعقة) يعني العذاب ، وهو الموت من صيحة جبريل .

---

(١) وهي الدبور ، فقد روى مسلم في « صحيحه » ٢/٦١٧ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقرأ الكسائي وحده : « الصَّعْقةُ » [بسكون العين من غير الف] ، وهي الصَّوت الذي يكون عن الصاعقة .

قوله تعالى : (وهم ينظُرونَ) فيه قولان .

أحدهما : يَرَوْنَ ذلك عِياناً . والثاني : وهم يَنتظرون العذاب ، فأتاهم صيحةٌ يومَ السبت .

قوله تعالى : (فما استطاعوا من قيام) فيه قولان .

أحدهما : ما استطاعوا نُهوضاً من تلك الصَّرعة .

والثاني : ما أطاقوا ثُبوتاً لعذاب الله (وما كانوا منتصِرين) : أي ممتنعين من العذاب .

قوله تعالى : (وقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ) قرأ أبو عمرو إلاّ عبد الوارث ، وحمزة ، والكسائي : بخفض الميم ، وروى عبد الوارث رفع الميم ، والباقون بنصبها . قال الزجاج : من خفض القوم فالمعنى : وفي قومِ نوحٍ آيةٌ ، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله : « فأخذتْهم الصّاعقةُ » فإن معناه : أهلكْناهم ، فيكون المعنى : وأهلَكْنا قومَ نوح ، والأحسن ـ والله أعلم ـ أن يكون محمولاً على قوله : « فأخذْناه وجنوده فنبذْناهم في اليمّ » لأن المعنى : أغرقناه ، وأغرقْنا قومَ نوح .

(والسماء بنيناها) المعنى : وبنينا السماء بنيناها (بأَيْدٍ) اي بقُوّة ، وكذلك قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وسائر المفسرين واللغويين : « بأيد » اي : بقُوّة .

وفي قوله : (وإنّا لَموسِعونَ) خمسة أقوال .

أحدها : لموسِعون الرِّزق بالمطر ، قاله الحسن . والثاني : لموسِعون السماء ، قاله ابن زيد . والثالث : لقادرون ، قاله ابن قتيبة . والرابع : لموسِعون ما بين السماء والأرض ، قاله الزجاج . والخامس : لذو سعة لا يضيق عمّا يريد ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (والأرض فرشناها فنِعْم الماهدون) قال الزجاج : هذا عطفٌ على ما قبله منصوبٌ بفعل مُضْمر محذوف يدلُّ عليه قوله : « فرشْناها » ، فالمعنى فرشْنا الأرض فرشْناها « فنِعْم الماهدون » أي : فنِعْم الماهدون نحن . قال مقاتل : « فرشْناها » أي : بسطْناها مسيرة خمسمائة عام ، وهذا بعيد ، وقد قال قتادة : الأرضُ عشرون ألف فرسخ[1] ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : (ومِنْ كُلِّ شيء خلقْنا زوجين) ، اي : صِنفين ونَوعين كالذكر والأنثى ، والبرِّ والبحر واللّيل والنّهار ، والحُلو والمُرّ ، والنُّور والظُّلمة ، وأشباه ذلك (لعلكم تذكَّرون) فتعلَموا أن خالق الأزواج واحد .

(ففِرُّوا إلى الله) بالتّوبة من ذنوبكم ؛ والمعنى : اهرُبوا ممّا يوجِب العِقاب من الكُفر والعِصيان إلى ما يوجِب الثّواب من الطّاعة والإيمان .

﴿ كَذٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

---

(١) ليس في هذا خبر عن الشارع ، وإنما هو ضرب من الظن والتخمين .

قوله تعالى : (كذلك) أي : كما كذّبك قومُك وقالوا : ساحر أو مجنون ، كانوا من قبلك يقولون للأنبياء .

قوله تعالى : (أتواصوْا به) أي : أوْصى أوّلُهم آخرَهم بالتكذيب ؟! وهذا استفهام توبيخ . وقال أبو عبيدة : أتواطؤوا عليه فأخذه بعضُهم من بعض ؟!

قوله تعالى : (بلْ هم قوم طاغون) اي : يحملُهم الطّغيان فيما أُعطوا من الدُّنيا على التكذيب ، والمشار إليهم اهل مكة .

(فتولَّ عنهم) فقد بلَّغْتَهم (فما أنت) عليهم (بملومٍ) لأنَّك قد أدَّيت الرّسالة . ومذهب أكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة ، ولهم في ناسخها قولان .

أحدهما : أنه قوله : (وذكِّر فإن الذّكرى تنفع المؤمنين) . والثاني : آية السيف . وفي قوله : « وذكِّر » قولان . أحدهما : عِظْ ، قاله مقاتل . والثاني : ذكّرهم بأيّام الله وعذابه ورحمته ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاّ ليعبُدونِ) أثبت الياء في « يعبُدون » و « يُطعِمون » و « لا يستعجِلون » في الحالين يعقوب . واختلفوا في هذه الآية على أربعة أقوال .

أحدها : إلاّ لآمُرهم أن يعبدوني ، قاله عليٌّ بن أبي طالب ، واختاره الزجاج .

والثاني : إلا ليُقِرُّوا بالعُبودية طوْعاً وكرْهاً ، قاله ابن عباس ، وبيان هذا قوله : (ولئن سألتهم منْ خلقهم ليقولُنَّ الله) [الزخرف : ٨٧] .

والثالث : أنه خاصّ في حقّ المؤمنين . قال سعيد بن المسيّب : ما خلقتُ منْ يعبُدني إلا ليعبُدَني . وقال الضحاك ، والفراء ، وابن قتيبة : هذا خاصّ لأهل طاعته ، وهذا اختيار القاضي ابي يعلى فإنه قال : معنى هذا الخصوصُ لا العمومُ ، لأن البُله والأطفال والمجانين لا يدخُلون تحت الخطاب وإن كانوا

من الإنس ، فكذلك الكُفّار يخرُجون من هذا بدليل قوله : (ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس) [الأعراف : ١٧٩] ، فمن خُلق للشَّقاء ولجهنَّم ، لم يخلق للعبادة .

والرابع : إلا ليخضعوا إليَّ ويتذلَّلوا . ومعنى العبادة في اللغة : الذُّلُّ والانقياد . وكُلُّ الخلْق خاضعٌ ذليلٌ لقضاء الله عز وجل لايملك خُروجاً عمّا قضاه اللهُ عز وجل ، هذا مذهب جماعة من أهل المعاني .

قوله تعالى : (ما أُريدُ منهم من رِزْقٍ) أي : ما أُريدُ أن يرزُقوا أنفسهم (وما أُريدُ أن يُطْعِموني) أي : أن يُطْعِموا أحداً من خَلْقي ، لأنّي أنا الرَّزّاق . وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ، لأن الخلق عيالُ الله ، ومن أطعمَ عِيالَ أحد فقد أطعمه . وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول اللهُ عز وجل يوم القيامة : يابن آدم : استطعمتُكَ فلم تُطعِمْني » ، اي : لم تُطْعِم عبدي[1] .

فأمّا (الرَّزّاق) فقرأ الضحاك ، وابن محيصن : « الرّازق » بوزن « العالِم » . قال الخطابي : هو المتكفِّل بالرِّزق القائمُ على كل نَفْس بما يُقيمها

(١) وهو قطعة من حديث طويل رواه مسلم في « صحيحه » ٤/١٩٩٠ ، ونصه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعُدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي » .

من قوتها . (والمتينُ) الشديد القُوَّة الذي لاتنقطع قُوَّته ولا يَلحقه في أفعاله مَشقَّة . وقد روى قتيبة عن الكسائي أنه قرأ : « المتينِ » بكسر النون . وكذا قرأ أبو رزين ، وقتادة ، وأبو العالية ، والأعمش . قال الزجاج : (ذو القُوَّة المتينِ) أي : ذو الاقتدار الشديد ، ومن رفع « المتين » فهو صفة الله عز وجل ، ومن خفضه جعله صفة للقُوة ، لأن تأنيث القُوَّة كتأنيث المُوعظة ، فهو كقوله : (فمن جاءه مَوعِظةٌ من ربِّه) [البقرة : ٢٧٥] .

قوله تعالى : (فإنَّ لِلذينَ ظَلموا) يعني مشركي مكة (ذَنوباً) أي : نصيباً من العذاب (مِثْلَ ذَنوبِ أصحابهم) الذين أهلكوا ، كقوم نوح وعاد وثمود . قال الفراء : الذَّنوب في كلام العرب : الدَّلْوُ العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النَّصيب والحظّ [١] ، قال الشاعر :

لَنا ذَنُوبٌ ولَكُمْ ذَنُوبٌ فإنْ أَبَيْتُم فَلَنَا القَلِيبُ [٢]

والذَّنوب يُذَكَّر ويؤنَّث . وقال ابن قتيبة ، أصل الذَّنوب : الدَّلو العظيمة ، وكانوا يَستقون ، فيكون لكل واحدٍ ذَنوبٌ ، فجُعل « الذَّنوب » مكان « الحظّ والنصيب » .

قوله تعالى : (فلا يَستعجِلونِ) أي : بالعذاب إن أُخِّروا إلى يوم القيامة ، وهو يومهم الذي يوعدون ، ويقال : هو يوم بدر .

---

(١) وتمام كلام الفراء : وبذلك أتى التفسير ، فإن للذين ظلموا حظاً من العذاب كما نزل بالذين من قبلهم .

(٢) البيت في « معاني القرآن » الورقة ٣١٣ و « الطبري » : ١٤/٢٧ ، و « البحر » : ١٣٢/٨ ، و « اللسان » و « التاج » : ذنب . والقليب : البئر .

سورة الطّور

وهي مكية كلّها بإجماعهم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ . يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (والطُّورِ) هذا قَسم بالجبل الذي كلَّم اللهُ عز وجل عليه موسى عليه السلام ، وهو بأرض مَدْيَن [واسمه زَبير][1] .

وكتابٍ مسطورٍ) أي : مكتوب ، وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

---

(١) قال ابن كثير : يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له عنهم ، قال : فالطور : هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، قال : وما لم يكن فيه شجر لايسمى طوراً ، إنما يقال له : جبل . اهـ .

والثاني : كتب أعمال بني آدم ، قاله مقاتل ، والزجاج .

والثالث : التوراة .

والرابع : « القرآن » حكاهما الماوردي .

قوله تعالى (في رَقٍّ) قال أبو عبيدة : الرَّقُّ : الوَرَق . فأما المنشور فهو المبسوط .

قوله تعالى : (والبيتِ المعمورِ) فيه قولان .

أحدهما : أنه بيت في السماء . وفي أي سماء هو ؟ [فيه] ثلاثة أقوال :
أحدها : [أنه] في السماء السابعة ، رواه أنس عن النبي ﷺ [١] .
وحديث مالك بن صعصعة الذي أُخرج في « الصحيحين » يدل عليه [٢] .
والثاني : أنه في السماء السادسة ، قاله عليّ رضي الله عنه [٣] .

---

(١) روى ابن جرير الطبري ١٧/٢٧ من حديث حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال : « البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة » ورواه الحاكم ٤٦٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ١١٦/٦ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان ».

(٢) حديث مالك بن صعصعة رواه البخاري في « صحيحه » ٢١٩/٦ ، ومسلم ١٥٠/١ وهو حديث طويل ، والشاهد منه هنا قوله ﷺ : « فأتينا السماء السابعة ، قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : من معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ مرحباً به ولنعم المجيء جاء ، فأتيت على ابراهيم فسلمت عليه فقال : مرحباً بك من ابن ونبي ، فرفع لي البيت المعمور ، فسألت جبريل ، فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، اذا خرجوا لم يعودوا إليه ، آخر ما عليهم ... » واللفظ للبخاري .

(٣) رواه ابن جرير الطبري ١٦/٢٧ وفي سنده خالد بن عرعرة وهو مجهول ، وهو معارض للحديث الصحيح .

والثالث : أنه في السماء الدنيا ، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ [١] .
وقال ابن عباس : هو حيال الكعبة يحُجُّه كلّ يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون فيه حتى تقوم الساعة ، يسمى الضُّراح . وقال الربيع بن أنس : كان البيت المعمور مكان الكعبة في زمان آدم ، فلمّا كان زمن نوح أمر الناس بحجِّه ، فعصوه ، فلمّا طغى الماءُ رُفع فجُعل بحذاء البيت في السماء الدنيا [٢] .

والثاني : أنه البيت الحرام ، قاله الحسن . وقال أبو عبيدة : ومعنى « المعمور » : الكثير الغاشية .

قوله تعالى : (والسَّقْفِ المرفوعِ) فيه قولان :

أحدهما : أنه السماء ، قاله علي رضي الله عنه والجمهور .

والثاني : العرش ، قاله الربيع .

قوله تعالى : (والبحرِ) فيه قولان .

أحدهما : أنه بحر تحت العرش ماؤه غليظ يُمطَر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتُون في قبورهم ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أنه بحر الأرض [٣] ، ذكره الماوردي .

وفي (المسجور) أربعة أقوال .

أحدها : المملوء ، قاله الحسن ، وأبو صالح ، وابن السائب ، وجميع اللغويين [٤] .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/١١٧ : ونسبه إلى ابن المنذر ، والعقيلي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وضعف إسناده . وقال ابن كثير : والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة ، والله أعلم .

(٢) والقول الأول ، وهو ان البيت المعمور في السماء السابعة هو الصواب كما ثبت ذلك في « الصحيحين » وغيرهما .

(٣) وهو قول الجمهور ، والأول لايصح .

(٤) وهو الذي اختاره الطبري ووجهه بأنه ليس مرقداً اليوم فهو مملوء .

والثاني : أنه المُوقد ، قاله مجاهد ، وابن زيد . وقال شمر بن عطية : هو بمنزلة التنور المسجور .

والثالث : أنه اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب ، قاله أبو العالية . وروي عن الحسن قال : تسجر ، يعني البحار ، حتى يذهب ماؤها ، فلا يبقى فيها قطرة . وقول هذين يرجع إلى معنى قول مجاهد . وقد نقل في الحديث أن الله تعالى يجعل البحار كلَّها ناراً ، فتزاد في نار جهنم[١] .

والرابع : أن « المسجور » المختلط عذْبه بمِلحه ، قاله الربيع بن أنس . فأقسم اللهُ تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن تعذيب المشركين حق ، فقال : (إنَّ عذاب ربِّك لواقعٌ) أي : لكائن في الآخرة . ثم بيَّن متى يقع ، فقال : (يومَ تمورُ السماءُ موْراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : تدور دَوْراً « رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج .

والثاني : تحرَّكُ تحرُّكاً ، رواه ابن ابي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة . وقال أبو عبيدة « تمور » أي : تَكفَّأُ ، وقال الأعشى :

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها   مَوْرُ السَّحابةِ لا ريْثٌ ولا عَجَلُ[٢]

والثالث : يموج بعضها في بعض لأمر الله تعالى ، قاله الضحاك . وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل : ٨٨] إلى قوله : (الذين هُمْ في خوْضٍ يلعبون)

(١) لم نقف على هذا الحديث مسنداً فيما بين أيدينا من المصادر ، وقد أورده بعض المفسرين كالمصنف بلا سند .

(٢) ديوانه : ٥٥ ، و « مجاز القرآن » : ٢٣١/٢ ، و « الطبري » : ٢٠/٢٧ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٩٧/٢ ، و « اللسان » و « التاج » : مور . وفي الديوان : « مَرُّ » بدل « مورُ » .

أي : يخوضون في حديث محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء ، ويلهُون بذكره ، فالويل لهم .

(يوم يُدعُّون) قال ابن قتيبة : أي : يُدْفعون ، يقال : دععتُه أدُعُّه ، أي : دفعته ، ومنه قوله (يدُعُّ اليتيم) [الماعون : ٢] . قال ابن عباس : يُدْفع في أعناقهم حتى يردوا النّار . وقال مقاتل : تُغلُّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجْمعُ نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يُدفعون إلى جهنم على وجوههم ، حتى إذا دَنوا منها قالت لهم خزنتُها : (هذه النار التي كنتم بها تكذّبون) في الدنيا (أفسحر هذا) العذاب الذي ترون ؟ فإنكم زعمتم أن الرُّسل سحرةٌ (أمْ أنتم لا تُبْصِرون) النار ؟ فلمّا أُلقوا فيها قال لهم خزنتُها : (إصْلوها) . وقال غيره : لمّا نسبوا محمداً ﷺ إلى أنه ساحر يغطِّي على الأبصار بالسِّحر ، وُبِّخوا عند رؤية النار بهذا التوبيخ ، وقيل : (إصلوها) أي : قاسوا شِدَّتها (فاصبِروا) على العذاب (أو لا تصبِروا سواءٌ عليكم) الصَّبر والجزع (إنمَّا تُجزَوْن) جزاء (ما كنتم تعملون) من الكفر والتكذيب .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾

ثم وصف ما للمؤمنين بما بعد هذا ، وقوله : (فاكِهين) قرئت بألف وبغير ألف ، وقد شرحناها في (يس : ٥٥) ، (ووقاهم) أي : صرف عنهم و (الجحيم) مذكور في (البقرة : ١١٩) .

(كُلوا) أي : يقال لهم : كُلوا (واشربوا هنيئاً) تأمنون حدوث المرض

عنه . قال الزجاج : المعنى : لِيهنِكم ما صِرتم إليه ، وقد شرحنا هذا في سورة (النساء : ٤) . ثم ذكر حالهم عند أكلهم وشربهم ، فقال : (مُتَّكِئين على سُرُرٍ) وقال ابن جرير : فيه محذوف تقديره : على نمارق على سُرُر ، وهي جمع سرير (مصفوفهٍ) قد وُضع بعضُها إلى جنْب بعض . وباقي الآية مفسَّر في سورة (الدخان : ٥٤) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وأتبعْناهم ذُرِّياتِهم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « واتَّبعتْهم » بالتاء « ذُرِّيَّتُهم » واحدة (بهم ذُرِّيَّتَهم) واحدة أيضاً . وقرأ نافع : « واتَّبعتْهم ذُرِّيَّتُهم » واحدة « بهم ذُرِّيَّاتِهم » جمعاً . وقرأ ابن عامر : « وأتْبعْناهم ذُرِّيَّاتِهم » « بهم ذُرِّيَّاتِهم » جمعاً في الموضعين . واختلفوا في تفسيرها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناها : واتَّبعتهم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم [ذرياتهم] من المؤمنين في الجنة ، وإن كانوا لم يبلُغوا أعمال آبائهم ، تكرمةً من الله تعالى لآبائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم ، روى هـذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثـــاني : واتَّبعتهم ذريتُهم بإيمـان ، أي : بلغت أن آمنتْ ، ألحقنـا بهم ذُرِّيَّتهم الصِّغار الذين لم يبلُغوا الإيمان . وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك . ومعنى هذا القول ، أن أولادهم الكبار تبعوهم بإيمان منهم ، وأولادهم الصغار تبعوهم بإيمان الآباء ، [لأن الولد يُحكم له بالإسلام تبعاً لوالده .

والثالث : « وأتبَعْناهم ذُرِّياتهم » بإيمان الآباء] فأدخلناهم الجنـة ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : (وما ألتْناهم) قرأ نافع : وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « وما ألَتْناهم » بالهمزة وفتح اللام . وقرأ ابن كثير : « وما ألِتْناهم » بكسر اللام . وروى ابن شنبوذ عن قنبـل عنه « ومالِتْناهم » بإسقاط الهمزة مع كسر اللام . وقرأ أبو العـالية ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء باسقاط الهمزة مع فتح اللام . وقرأ ابن السميفع « وما آلَتْناهم » بمـــد الهمزة وفتحها . وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري : « وماوَلَتْناهم » بواو مفتوحة من غير همزة وبنصب اللام . وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل : « وما ألَتْهُمْ » مثل جعلتُهم . وقد ذكرنا هذه الكلمة في (الحجرات : ١٤٠) والمعنى : ما نقَصْنا الآباء بما أعطَينا الذُّرِّيَّةَ .

(كُلُّ امرىء بما كسب رهينٌ) أي : مُرتَهَن بعمله لايؤاخذ أحـــدٌ بذَنْب أحـد . وقيل : هذا الكلام يختصُّ بصفة أهل النـار ، وذلك الكلام قد تمَّ .

قوله تعالى : (وأَمْدَدْناهم) قال ابن عباس : هي الزيادة على الذي كان لهم .

قوله تعالى : (يَتنازعون) قال أبو عبيدة : أي : يتعاطَون ويتداولون ، وأنشد الأخطل :

نازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ ٱلشَّمُولِ وقَدْ صَاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ ٱلسَّاري[1]

قال الزَّجَّاج : يتناول هذا الكأسَ من يد هذا ، وهذا من يد هذا . فأمّا الكأس فقد شرحناها في (الصافات : ٤٥) .

قوله تعالى : (لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « لا لَغْوَ فيها ولا تأثيمَ » نصباً وقرأ الباقون : « لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ » رفعاً منوَّناً . قال ابن قتيبة : أي : لاتَذهبُ بعقولهم فيَلْغُوا ويَرْفُثوا فيأثموا ، كما يكون ذلك في خمر الدنيا . وقال غيره : التأثيم : تفعيل من الإثم ، يقال : آثمه : إذا جعله ذا إثم . والمعنى أن تلك الكأس لاتجعلهم آثمين .

(ويطوف عليهم) للخدمة (غِلْمانٌ لهم كأنَّهم) في الحُسن والبياض (لؤلؤٌ مكنونٌ) أي : مصونٌ لمْ تَمَسَّه الأيدي . وسئل رسول الله ﷺ فقيل : يانبيَّ الله ، هذا الخادم ، فكيف المخدوم ؟ فقال : « إنَّ فَضْلَ المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[2] .

قوله تعالى : (وأقبَل بعضُهم على بعض يتساءلون) قال ابن عباس :

(١) ديوانه : ١١٦ ، و « مجاز القرآن » : ٢/٢٣٢ ، و « الطبري » : ٢٧/٢٨ .

(٢) روى ابن جرير الطبري ٢٧/٢٩ عن قتادة قوله : (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) ذُكر لنا « أن رجلاً قال : يانبي الله هذا الخادم ، فكيف المخدوم ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وهو مرسل ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/١١٩ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن المنذر وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٦٠ : رواه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به .

يتذاكرون ماكانوا فيه في الدنيا من الخوف والتعب ، وهو قوله : (قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ في أهلنا) أي : في دار الدنيا (مشفقين) أي : خائفين من العذاب ، (فمنَّ اللهُ علينا) بالمغفرة (ووقانا عذابَ السَّموم) أي : عذاب النار . وقال الحسن : السَّموم من أسماء جهنم . وقال غيره : سَموم : جهنم . وهو مايوجد من نَفْحِها وَحرِّها ، (إنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ ندعوه) أي : نوحِّده ونُخلِص له (إنَّه هو البَرُّ) وقرأ نافع ، والكسائي : « أنَّه » بفتح الهمزة .

وفي معنى « البَرّ » ثلاثة أقوال :

أحدها : الصادق فيما وعد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : اللطيف ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث ، العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عمَّ بِبِرِّه جميع خَلْقه ، قاله أبو سليمان الخطابي .

﴿ فَذَكِّر فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (فذكِّر) أي : فعِظ بالقرآن (فما أنت بنعمة ربِّك) أي : بإنعامه عليك بالنبوَّة (بكاهنٍ) وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويُخبِر عمّا في غد من غير وحي . والمعنى : إنما تَنطِق بالوحي لا كما يقول [فيك] كفار مكة .

(أم يقولون شاعرٌ) أي : هو شاعر . وقال أبو عبيدة : « أم » بمعنى « بل » ، قال الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبابِ خَيالَا[١]

لم يستفهم ، إنما أوجب أنه رأى .

قوله تعالى : (نَتَرَبَّصُ به رَيْبَ المَنون) فيه قولان :

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : حوادث الدهر ، قاله مجاهد ، قال ابن قتيبة : حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه ، و « المَنون » الدهر ، قال أبو ذؤيب :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٢]

هكذا أنشدناه أصحابُ الأصمعيّ عنه ، وكان يذهب إلى أن المَنونَ الدَّهْرُ ، قال : وقوله « والدَّهْرُ ليس بمُعْتِبٍ » يدُلُّ على ذلك ، كأنه قال : « أمِنَ الدَّهر ورَيْبِهِ تتوَجَّعُ ؟! » قال الكسائيُّ : العرب تقول : لا أكلِّمك آخِرَ المَنون ، أي : آخِرَ الدَّهْر .

قوله تعالى : (قُلْ تربَّصوا) أي : انتظِروا بي ذلك (فإني معكم من المتربِّصين) أي : من المُنتظِرين عذابكم ، فعُذِّبوا يومَ بدر بالسيف . وبعض المفسرين يقول : هذا منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، إذ لاتضَادَّ بين الآيتين .

قوله تعالى : (أمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا) قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصَف بالأحلام ، وهي العُقول ، فأزرى اللهُ بحُلومهم ، إذ لمْ تُثمِر لهم معرفةَ الحق من الباطل . وقيل لعمرو بن العاص : مابال قومِك لم يؤمِنوا

---

(١) سبق تخريج البيت في الجزء ٣ صفحة ٧٥ .

(٢) البيت مطلع مرثيته الجيدة ، وهو في ديوانه : ١/١ ، و « غريب القرآن » : ٤٢٥ ، و « المفضليات » : ٤٢١ ، و « ديوان الهذليين » : ١/١ ، و « اللسان » و « التاج » : منن .

وقد وصفهم اللهُ تعالى بالعُقول ؟! فقال : تلك عُقول كادها بارئُها ، أي : لم لمْ يَصْحَبْها التَّوفيقُ .

وفي قوله : « أَمْ تأمُرُهم » وقوله : (أَمْ هُمْ) قولان .

أحدهما : أنها بمعنى « بل » ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : بمعنى ألف الاستفهام ، قاله الزجاج ؛ قال : والمعنى : أتأمُرُهم أحلامُهم بترك القَبول ممَّن يدعوهم إلى التوحيد ويأتيهم على ذلك بالدّلائل ، أم يكفُرون طُغياناً وقد ظهر لهم الحق ؟! وقال ابن قتيبة : المعنى : أم تدُلُّهم عقولُهم على هذا ؟! لأن الحِلم يكون بالعقل ، فكني عنه به .

قوله تعالى : (أَمْ يقولون تقوَّله) أي : افتَعَل القرآنَ من تِلقاء نَفْسه ؟ والتَّقوُّل : تكلُّف القول ، ولا يستعمل إلاّ في الكذب (بَلْ) أي : ليس الأمر كما زعموا (لايؤمِنون) بالقرآن ، استكباراً .

(فَلْيأتوا بحديثٍ مِثلِه) في نَظْمه وحُسن بيانه . وقرأ أبو رجاء ، وأبو نهيك ، ومورّق العجلي ، وعاصم الجحدري : « بحديثِ مِثْلِه » بغير تنوين (إن كانوا صادقِين) أن محمداً تقوَّله .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَايُوقِنُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ . أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَمْ خُلِقوا من غير شيء) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أَمْ خُلقوا من غير ربٍّ خالق ؟ والثاني : أَمْ خُلقوا من غير آباء ولا أُمَّهات ، فهم كالجماد لا يعقِلون ؟ والثالث : أَمْ خُلقوا من غير شيء كالسماوات والأرض ؟ أي : إنهم ليسوا بأشَدَّ خَلْقاً من السماوات والأرض ، لأنها خُلقت من غير شيء ، وهم خُلقوا من آدم ، وآدم من تراب . والرابع : أَمْ خُلقوا لغير شيء ؟ فتكون « مِنْ » بمعنى اللام . والمعنى : ماخُلقوا عَبَثاً فلا يؤمَرون ولا يُنْهَون .

قوله تعالى : (أَمْ هُمُ الخالقون) فلذلك لا يأتمرون ولا ينتهون ؟ لأن الخالق لا يؤمر ولا يُنهى .

قوله تعالى : (بَلْ لا يوقِنون) بالحق ، وهو توحيدُ الله وقدرته على البعث.

قوله تعالى : (أَمْ عندهم خزائنُ ربِّك) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : المطر والرِّزق ، قاله ابن عباس . والثاني : النُّبوَّة ، قاله عكرمة . والثالث : عِلْم ما يكون من الغيب ، ذكره الثعلبي . وقال الزجاج : المعنى : أعندهم ما في خزائن ربِّك من العِلْم ، وقيل : من الرِّزق ، فهم مُعْرِضون عن ربِّهم لاستغنائهم ؟!

قوله تعالى : (أَمْ هُمُ المصيطِرون) قرأ ابن كثير : « المُسيطِرونَ » بالسين . وقال ابن عباس : المسلَّطون [1] . قال أبو عبيدة : « المُصيطِرون » : الأرباب . يقال : تسيطرتَ عليَّ ، أي : اتَّخذتني خَوَلاً ، قال : ولم يأت في كلام العرب اسم على « مُفَيْعِل » إلا خمسة أسماء : مُهَيْمِن ، ومُجَيْمِر ، ومُسَيْطِر ، ومُبَيْطِر ، ومُبَيْقِر ؛ فالمُهيمن : الله الناظر المُحصي الذي لا يفوته

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٨/٤٦٣ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ؟ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ?) كاد قلبي أن يطير .

شيء ؛ ومُجَيْمِر : جبل ؛ والمُسَيْطِر : المسلَّط ؛ ومُبَيْطِر : بَيْطار ؛ والمُبَيْقِر : الذي يخرُج من أرض إلى أرض ، يقال : بَيْقَرَ : إذا خرج من بلد إلى بلد ؛ قال امرؤ القيس :

أَلا هَلْ أَتاهَا ، والحوادِثُ جَمَّةٌ بأنَّ امْرأَ القَيْسِ بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرا ؟[1]

قال الزجّاج : المسيطِرون : الأرباب المسلَّطون ، يقال : قد تسيطر علينا وتصيطر : بالسين والصاد ، والأصل السين ، وكل سين بعدها طاء ، فيجوز أن تُقلب صاداً ، تقول : سطر وصطر ، وسطا علينا وصطا . قال المفسرون : معنى الكلام : أم هم الأرباب فيفعلون ما شاؤوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهي ؟!

قوله تعالى : (أَمْ لهم سُلَّمٌ) أي : مَرْقىً ومصْعَدٌ إلى السماء (يستمِعونَ فيه) أي : عليه الوحيَ ، كقوله : (في جُذوع النَّخْل) [طه : ٧١] ، فالمعنى : يستمِعونَ [الوحي] فيعلمون أنَّ ما هُم عليه حق (فلْيأت مُستمِعُهم) إن ادَّعى ذلك (بسُلطانٍ مُبينٍ) أي ، بحُجَّة واضحة كما أتى محمد بحُجَّة على قوله .

(أمْ له البناتُ ولكم البَنونَ) هذا إنكار عليهم حين جَعلوا لله البناتِ .

(أم تسألُهم أجراً فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ) أي : هل سألتهم أجراً على ما جئتَ به ، فأثقلهم ذلك الذي تطلبه منهم فمنعهم عن الاسلام ؟ والمَغْرَم بمعنى الغُرْم ، وقد شرحناه في [براءة : ٩٨] .

قوله تعالى : (أم عندهم الغَيْبُ) هذا جواب لقولهم : « نَتربَّص به ريْبَ المَنون » ؛ والمعنى : أعندهم الغيب ؟ وفيه قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، (فهم يكتبون) ما فيه ويخبِرون الناس . قاله ابن عباس .

---

(١) ديوانه : ٣٩٢ ، و « اللسان » و « التاج » : بقر . و « تملك » : أمه .

والثاني : أعندهم عِلْم الغيب فيَعلمون أن محمداً يموت قبلهم (فهم يكتُبون) أي ، يحكُمون فيقولون : سَنَقْهَرُكَ . والكتاب : الحُكم ، ومنه قول النبي ﷺ : « سأقضي بينكما بكتاب الله [1] » أي : بحُكم الله عز وجل ، وإلى هذا المعنى : ذهب ابن قتيبة .

قوله تعالى : (أم يُريدون كَيْداً) وهو ما كانوا عزموا عليه في دار النَّدوة ، وقد شرحنا ذلك في قوله : « وإذ يمكُرُ بِكَ الذين كفَروا » [الأنفال : ٣٠] ومعنى (هُمُ المَكيدونَ) هم المَجْزِيُّون بكَيدهم ، لأن ضرر ذلك عاد عليهم فقُتلوا ببدر وغيرها .

(أم لهم إلهٌ غيرُ الله) أي ألَهُم إله يرزقهم ويحفظهم غيرُ الله ؟ والمعنى أن الأصنام ليست بآلهة ، لأنها لا تنفع ولا تدفع . ثم نزَّه نَفْسه عن شِركهم بباقي الآية .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ . فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ . يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

(١) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب « السنن » من حديث أبي هريرة ، ولفظه عند مسلم ٣/١٣٢٤ : عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالا : إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال : أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لي ، فقال رسول الله ﷺ : « قل » قال : إن ابني كان عسيفاً (أجيراً) على هذا فزنى بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وان على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد (مردودة إليك) وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس الى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » قال : فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت .

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

ثم ذكر عنادهم فقال : (وإن يَرَوْا كِسْفاً من السماء ساقطاً) والمعنى : لو سقط بعضُ السماء عليهم لَمَا انتهوا عن كفرهم ، ولَقالوا : هذه قطعة من السَّحاب قد رُكم بعضُه على بعض .

(فذرْهم) أي خَلِّ عنهم (حتَّى يُلاقُوا) قرأ أبو جعفر « يَلْقَوا » بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف (يوْمَهم) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم موتهم . والثاني : يوم القيامة . والثالث : يوم النَّفخة الأولى .

قوله تعالى : (يُصْعَقُون) قرأ عاصم ، وابن عامر : « يُصْعَقُون » برفع الياء ، من أصعقَهم غيرُهم ، والباقون بفتحها ، من صعقوهم .

وفي قوله : (يُصْعقون) قولان .

أحدهما : يموتون . والثاني : يُغْشى عليهم ، كقوله : (وخَرَّ موسى صعِقاً) [الأعراف : ١٤٣] ، وهذا يخرج على قول من قال : هو يوم القيامة ، فإنهم يُغْشى عليهم من الأهوال . وذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا يصح ، لأن معنى الآية الوعيد .

قوله تعالى : (يوْم لا يُغْني عنهم كيْدُهم شيئاً) هذا اليوم الأول ، والمعنى : لا ينفعهم مكرهم ولا يدفع عنهم العذاب (ولا هُمْ يُنْصَرون) أي : يُمْنعون من العذاب .

قوله تعالى : (وإنَّ لِلَّذين ظلموا) أي : أشركوا (عذاباً دون ذلك) أي ، قبل ذلك اليوم ، وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عذاب القبر ، قاله البراء ، وابن عباس . والثاني : عذاب القتل يوم بدر ، وروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل . والثالث : مصائبهم في الدنيا ، قاله الحسن ، وابن زيد . والرابع : عذاب الجوع ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون) أي : لا يعلمون ما هو نازلٌ بهم .

(واصبِر لحُكم ربِّك) أي : لما يحكُم به عليك (فإنَّك بأعيُننا) قال الزجّاج : فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك ، فلا يصِلون إلى مكروهك . وذكر المفسرون : أن معنى الصبر نُسخ بآية السيف ، ولا يصح ، لأنه لا تضادَّ .

(وسبِّح بحمد ربِّك حين تقوم) فيه ستة أقوال .

أحدها : صلِّ لله حين تقوم من منامك ، قاله ابن عباس .

والثاني : قُلْ : « سبحانك اللهمَّ وبحمدك » حين تقوم من مجلسك ، قاله عطاء ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين .

والثالث : قُلْ : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك » حين تقوم في الصلاة ، قاله الضحاك .

والرابع : سبِّح الله إذا قُمْت من نومك ، قاله حسّان بن عطيّة .

والخامس : صلِّ صلاة الظُّهر إذا قُمْت من نوم القائلة ، قاله زيد بن أسلم[1] .

والسادس : اذكُر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخُل في الصلاة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (ومِن اللَّيل فسبِّحْه) قال مقاتل : صلِّ المغرب وصلِّ العِشاء (وإدبار النُّجوم) قرأ زيد عن يعقوب ، وهارون عن أبي عمرو ، والجعفي

(١) رجح هذا القول ابن جرير الطبري في « تفسيره » .

عن أبي بكر : «وأدبار النُّجوم» بفتح الهمزة ؛ و [قرأ] الباقون بكسرها. وقد شرحناها في (ق : ٤٠) ؛ والمعنى : صلِّ له في إدبار النجوم ، أي : حين تُدْبِر ، أي : تغيب بضَوء الصُّبح . وفي هذه الصلاة قولان .

أحدهما : أنها الرَّكعتان قَبْل صلاة الفجر ، رواه عليٌّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ ، وهو قول الجمهور [1] .

والثاني : أنها صلاة الغداة ، قاله الضحاك ، وابن زيد .



(١) أخرجه مسدد في «مسنده» ، وابن المنذر ، وابن مردويه كما في «الدر» : ٦/١١٠ عن علي بن ابي طالب قال : سألت رسول الله ﷺ عن إدبار النجوم والسجود ، فقال : ادبار السجود : الركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم : الركعتان قبل الغداة .

سورة النجم

وهي مَكِّيَّة بإجماعهم

إلاّ أنه قد حُكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلاّ آيةً منها ، وهي « الذين يجتنبون كبائر الإثم » [النجم : ٣٢] ، وكذلك قال مقاتل ؛ [قال] : وهذه أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكَّة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

قوله تعالى : (والنَّجْم إذا هوى) هذا قسم . وفي المراد بالنجم خمسة أقوال .

أحدها : أنه الثُّريّا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد[1] . قال ابن قتيبة : والعرب تسمي الثريا — وهي ستة أنجُم — نجماً . وقال غيره : هي سبعة ، فستة ظاهرة ، وواحد خفي يمتحن به الناسُ أبصارَهم .

والثاني : الرُّجوم من النُّجوم ، يعني ما يرمى به الشياطين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرِّقة ، قاله عطاء عن ابن عباس ،

(١) قال ابن كثير : وكذا روي عن سفيان الثوري ، واختاره ابن جرير الطبري .

والأعمش عن مجاهد . وقال مجاهد : كان ينزل نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك .

والرابع : نجوم السماء كُلُّها ، وهو مروي عن مجاهد أيضاً .

والخامس : أنها الزُّهرةُ : قاله السدي .

فعلى قول من قال : النجم : الثريا ، يكون « هوى » بمعنى « غاب » ؛ ومن قال : هو الرُّجوم ، يكون هُوِيُّها في رمي الشياطين ، ومن قال : القرآن ، يكون معنى « هوى » : نزل ، ومن قال : نجوم السماء كلُّها ، ففيه قولان .

أحدهما : أن هُوِيَّها أن تغيب . والثاني : أن تنتثر يوم القيامة .

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلَّها بفتح أواخر آياتها . وقرأ أبو عمرو ونافع بين الفتح والكسر . وقرأ حمزة و الكسائي ذلك كلَّه بالإمالة .

قوله تعالى : (ما ضَلَّ صاحبُكم) هذا جواب القَسَم ؛ والمعنى : ما ضَلَّ عن طريق الهُدى ، والمراد به : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وما ينطِقُ عن الهَوى) أي : ما يتكلَّم بالباطل . وقال أبو عبيدة : « عن » بمعنى الباء . وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه .

(إنْ هُوَ) أي : ما القرآنُ (إلاَّ وَحْيٌ) من الله (يُوحَى) وهذا مِمّا يحتجُّ به من لا يُجيز للنبيّ أن يجتهد ، وليس كما ظنُّوا ، لأن اجتهاد الرأي إذا صدر عن الوحي ، جاز أن يُنسَبَ إلى الوحي .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ

الْمُنْتَهى . عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى . ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى . لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى ﴾

قوله تعالى : (عَلَّمه شديدُ القُوى) وهو جبريل عليه السلام علَّم النبيَّ ﷺ ؛ قال ابن قتيبة : وأصل هذا من « قُوَى الحَبْل » وهي طاقاتُه ، الواحدة : قُوَّةٌ (ذو مِرَّةٍ) أي : ذو قُوَّة ، وأصل المِرَّة : الفَتْلُ . قال المفسرون : وكان من قُوَّته أنه قلع قَرْيات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين .

قوله تعالى : (فاستوى ، وهُو بالأُفُق الأعلى) فيه قولان .

أحدهما : فاستوى جبريل ، وهو يعني النبيَّ ﷺ ؛ والمعنى أنهما استويا بالأفق الأعلى لمّا أُسري برسول الله ﷺ ، قاله الفراء [1] .

---

(١) قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد ، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى : (فاستوى) اي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى ، اي : استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الاسراء ، كذا قال ، ولم يوافقه أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ماقال من حيث العربية ، فقال : وهو كقوله : « أئذا كنا تراباً وآباؤنا » فعطف بالآباء على المكني في « كنا » من غير إظهار « نحن » فكذلك قوله : (فاستوى) وهو ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبـع يصلُب عودُه ولا يستوي والخِـروع المتقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، لكن لايساعده المعنى على ذلك ، فان هذه الرؤية لجبريل ، لم تكن ليلة الاسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى يعني ليلة الاسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ماجاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقرأ) ثم فتر الوحي ... حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه . اهـ .

والثاني : فاستوى جبريل ، وهو — يعني جبريل — بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ، لأنه كان يَتمثّل لرسول الله ﷺ إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجُل ، وأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يراه على حقيقته ، فاستوى في أفق المَشْرِق ، فملأ الأفق ؛ فيكون المعنى : فاستوى جبريلُ بالأفق الأعلى في صورته ، هذا قول الزجّاج . قال مجاهد : والأفق الأعلى : هو مَطْلِع الشمس . وقال غيره : إنما قيل له : « الأعلى » لأنه فوق جانب المَغْرب في صعيد الأرض لا في الهواء.

قوله تعالى : (ثُمَّ دنا فتَدَلَّى) قال الفراء : المعنى : ثم تَدلَّى فدنا ، ولكنه جائز أن تقدِّم أيَّ الفعلين شئتَ إذا كان المعنى فيهما واحداً ، فتقول : قد دنا فقَرُب ، وقَرُبَ فدنا ، وشتم فأساء ، وأساء فشتم ، ومنه قوله : (اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمر) [القمر : ١] ، المعنى — والله أعلم — : انشق القمر واقتربت الساعة . قال ابن قتيبة ، المعنى : تَدلّى فدنا ، لأنه تَدَلّى للدُّنُوّ ، ودنا بالتَّدلّي . وقال الزجاج : دنا بمعنى قَرُبَ ، وتدلى : زاد في القُرْب ، ومعنى اللفظتين واحد . وقال غيرهم : أصل التَّدَلّي : النُّزول إلى الشيء حتى يقرب منه ، فوُضع موضع القُرْب .

وفي المشار إليه بقوله : « ثُمَّ دنا » ثلاثة أقوال .

أحدها ، أنه الله عز وجل . روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث شريك بن أبي نَمِر عن أنس بن مالك قال : دنا الجبّار ربُّ العِزّة فتدلّى حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى [1] . وروى أبو سلمة عن ابن عباس : «ثم دنا»

(١) حديث شريك خرجه البخاري في « صحيحه » ١٣/٣٩٩ ، وذكر مسلم ١/١٤٨ ، قطعة منه ، ثم قال : فقدم وأخر وزاد ونقص . وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه الحفاظ ، وغلطوه فيها . منها مانقله ابن كثير عن الحافظ أبي بكر البيهقي أنه —

قال : دنا ربُّه فتدلّى ، وهذا اختيار مقاتل . قال : دنا الرَّبُّ من محمد ليلةَ أُسْرِي به ، فكان منه قابَ قوسين أو أدنى . وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب « المُغْني » وبيَّنتُ أنه ليس كما يخطُر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأن ذلك يختص بالأجسام ، واللهُ منزَّه عن ذلك .

والثاني : أنه محمد دنا من ربِّه ، قاله ابن عباس ، والقرظي .

والثالث : أنه جبريل . ثم في الكلام قولان .

أحدهما : دنا جبريلُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ، فنزل إلى رسول الله ﷺ ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : دنا جبريلُ من ربِّه عز وجل فكان منه قابَ قوسين أو أدنى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (فكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين : « فكان قاد قوسين » بالدال . وقال أبو عبيدة : القابُ والقادُ : القَدْر . وقال

— قال : في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل يعني قوله : « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » قال البيهقي : وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح . قال الحافظ ابن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق ، فإن أبا ذر قال : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نوراً » أخرجه مسلم . وقوله : (ثم دنا فتدلى) إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في « الصحيحين » عن عائشة ام المؤمنين ، وعن ابن مسعود ، وكذلك هو في « صحيح مسلم » عن ابي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا ، قلت : وهذا القول هو الصواب وما عداه من الأقوال لايصح . وإذا اردت الاطلاع على بقية ما اخطأ فيه شريك، في هذا الحديث فانظر شرح مسلم ٢/٢١٠ و « فتح الباري » : ١٣/٤٠٢ ، ٤٠٥ .

ابن فارس : القابُ : القدر . ويقال : بل القابُ : ما بين المَقْبِض والسِّية، ولكل قوس قابان . وقال ابن قتيبة : سِيَة القَوْس : ما عُطِفَ من طَرَفيْها .

وفي المراد بالقوسين قولان .

أحدهما : أنها القوس التي يُرمى بها ، قاله ابن عباس ، واختاره ابن قتيبة ، فقال : قَدْر قوسين . وقال الكسائي : أراد بالقوسين : قوساً واحداً .

والثاني : أن القوس : الذراع ؛ فالمعنى : كان بينهما قَدْر ذراعين ، حكاه ابن قتيبة ، وهو قول ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، والسدي . قال ابن مسعود : دنا جبريل منه حتى كان قَدْرَ ذراع أو ذراعين .

قوله تعالى : (أو أدنى) فيه قولان .

أحدهما : أنها بمعنى « بل » ، قاله مقاتل . والثاني : أنهم خوطبوا على لغتهم ؛ والمعنى : كان على ما تقدّرونه أنتم قَدْرَ قوسين أو أقلّ ، هذا اختيار الزجّاج .

قوله تعالى : (فأَوْحى إلى عَبْده ما أَوْحى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أَوْحى اللهُ إلى محمد كِفاحاً[1] بلا واسطة ، وهذا على قول من يقول : إنه كان في ليلة المعراج .

والثاني : أَوحى جبريلُ إلى النبي ﷺ ما أَوحى اللهُ إليه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أَوحى [اللهُ] إلى جبريل ما يوحيه ، روي عن عائشة رضي الله عنها ، والحسن ، وقتادة .

---

(١) كفاحاً ، اي : مواجهة .

قوله تعالى : (ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى) قرأ أبو جعفر ، وهشام عن ابن عامر ، وأبان عن عاصم : « ما كَذَّب » بتشديد الذال ، وقرأ الباقون بالتخفيف . فمن شدَّد أراد : ما أنكر فؤادُه ما رأته عينُه ، ومن خفَّف أراد : ما أوهمه فؤادُه أنه رأى ، ولم ير ، بل صَدَّقَ[1] الفؤاد رؤيته .

وفي الذي رأى قولان .

أحدهما : أنه رأى ربَّه عز وجل ، قاله ابن عباس ، [وأنس] والحسن ، وعكرمة[2] .

والثاني : أنه رأى جبريلَ في صورته التي خُلق عليها ، قاله ابن مسعود وعائشة .

قوله تعالى : (أَفَتُمارُونه) وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل ، وخلف ، ويعقوب : « أفتَمْرونه » . قال ابن قتيبة : معنى « أفتُمارونه » : أفتُجادلونه ، مِن المِراء ، ومعنى « أفتَمْرُونه » : أفتَجحدونه .

قوله تعالى : (ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى) قال الزجاج : أي : رآه مَرَّةً أخرى . قال ابن عباس : رأى محمدٌ ربَّه ، وبيان هذا أنه تردَّد لأجل الصلوات مراراً ، فرأى ربَّه في بعض تلك المَرات مَرَّةً أخرى . قال كعب : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى ، فرآه محمد مرتين ، وكلَّمه موسى مرتين . وقد

---

(١) في الأصل : صدقه .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » عن ابن عباس رضي الله عنهما (ما كذب الفؤاد ما رأى) (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رآه بفؤاد مرتين . قال ابن كثير : وكذا رواه سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله ، وكذا قال ابو صالح والسدي وغيرهما : إنه رآه بفؤاده مرتين ، قال : وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية ، قال : وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ، قال : ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب ، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم ، قال : وقول البغوي في « تفسيره » : وذهب جماعة إلى انه رآه بعينه ، وهو قول أنس والحسن وعكرمة ، فيه نظر ، والله أعلم .

روي عن ابن مسعود أن هذه الرؤية لجبريل أيضاً ، رآه على صورته التي خُلق عليها [١] .

فأمَّا سِدْرة المُنتهى ، فالسِّدْرة : شجرة النَّبِق ، وقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نَبِقُها مِثْلُ قِلال هَجَر ، ووَرَقُها مِثْلُ آذانِ الفِيَلة » [٢] . وفي مكانها قولان .

أحدهما : أنها فوق السماء السابعة ، وهذا مذكور في « الصحيحين » من حديث مالك بن صعصعة [٣] . قال مقاتل : وهي عن يمين العرش .

والثاني : أنها في السماء السادسة ، أخرجه مسلم في أفراده [٤] عن ابن مسعود وبه قال الضحاك . قال المفسرون : وإنما سُمِّيَتْ سِدْرة المُنتهى ، لأنه إليها مُنتهى ما يُصْعَد به من الأرض ، فيُقْبَض منها ، وإليها ينتهي ما يُهْبَط به من فوقها فيُقْبَض منها ، وإليها ينتهي عِلْم جميع الملائكة .

قوله تعالى : (عِنْدَها) وقرأ معاذ القارىء ، وابن يعمر ، وأبو نهيك : « عِنْدَهُ » بهاء مرفوعة على ضمير مذكَّر (جَنَّةُ المأوى) قال ابن عباس : هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة . وقال الحسن : هي التي يصير إليها أهل الجنة . وقال مقاتل : هي جَنَّة إليها تأوي أرواح الشهداء . وقرأ سعيد بن المسيّب ، والشعبي ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو العالية : « جَنَّهُ المأوى » بهاء

---

(١) وهو الذي عليه أكثر المحققين . قال ابن كثير : هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ، وكانت ليلة الإسراء .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » ٧/١٦٤ ومسلم ١/١٥٠ وهو جزء من حديث الإسراء الطويل .

(٣) البخاري ٧/١٦٤ ، ومسلم ١/١٥٠ .

(٤) ١/١٥٧ .

صحيحة مرفوعة . قال ثعلب : يريدون أَجنَّهُ ، وهي شاذَّة . وقيل : معنى « عندها » : أدركه المبيت يعني رسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (إذ يَغشى السِّدْرَةَ ما يغشى) روى مسلم في أفراده من حديث ابن مسعود قال : غَشِيَها فَراشٌ مِنْ ذهب [١] . وفي حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ قال : « لمّا غَشِيَها مِنْ أمرِ الله ما غَشِيَها ، تغيَّرتْ ، فما أحدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يستطيع أنْ يَصِفها مِنْ حُسْنِها [٢] . وقال الحسن ، ومقاتل : تَغْشاها الملائكةُ أمثالَ الغِرْبان حين يَقَعْنَ على الشجرة . وقال الضحاك : [غَشِيها] نور ربِّ العالمين .

قوله تعالى : (ما زاغ البَصَرُ) أي : ما عَدَلَ بَصرُ رسولِ الله ﷺ يميناً ولا شِمالاً (وما طغى) أي : ما زاد ولا جاوز ما رأى ، وهـذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام .

(لقد رأى مِنْ آياتِ ربِّه الكُبرى) فيه قولان . أحدهما : [لقد] رأى من آياتِ ربِّه العِظامِ . والثاني : لقد رأى من آيات ربِّه [الآية] الكُبرى [٣] .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : ولا يعارض قوله : إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة ، لأنه يحمل على أن أصلها في السادسة وأعضاؤها وفروعها في السابعة ، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها .

(٢) هذا اللفظ في رواية ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنـه عن مسلم في « صحيحه » ١٤٦/١ .

(٣) قال في « البحر المحيط » : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » قيل : « الكبرى » مفعول « رأى » أي : رأى الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربه ، أي : حين رقي إلى السماء رأى عجائب الملكوت ، وتلك بعض آيات الله . وقيل : « من آيات » هو في موضع المفعول ، و « الكبرى » صفة لـ « آيات ربه » ، ومثل هذا الجمع يوصف بوصف الواحدة ، وحسن ذلك هنا ، كونها فاصلة كما في قوله : « لنريك من آياتنا الكبرى » عند من جعلها صفة لـ « آياتنا » . اهـ .

وللمفسرين في المراد بما رأى من الآيات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سدّ الأفق ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أنه رأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماوات ، قاله ابن زيد .

والثالث : أنه رأى من أعلام ربّه وأدلّته [الأعلامَ والأدلةَ] [1] الكُبرى ، قاله ابن جرير [2] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ . أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ . وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾

قال الزجاج : فلمّا قصّ اللهُ تعالى هذه الأقاصيص قال : (أفرأيتم اللاّت والعُزّى) المعنى : أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها هل لها من القُدرة والعظمة التي وُصف بها ربُّ العِزّة شيء ؟ !

فأمّا « اللاّت » فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وهو اسم صنم كان لثقيف اتّخذوه مِن دون الله ، وكانوا يشتقّون لأصنامهم من أسماء الله تعالى ، فقالوا من « الله » : اللات ، ومن « العزيز » : العُزّى . قال أبو سليمان الخطابي : كان

(١) زيادة من الطبري .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كقوله : (لنريه من آياتنا) اي الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، قال : وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . اهـ .

المشركون يتعاطَون « الله » اسماً لبعض أصنامهم ، فصرفه الله إلى اللاّت صيانةً لهذا الاسم وذَبّاً عنه . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وابن السميفع ، ومجاهد ، وابن يعمر ، والأعمش ، وورش عن يعقوب[1] : « اللاتّ » بتشديد التاء ؛ ورد في تفسير ذلك عن ابن عباس ومجاهد أن رجلاً كان يلُتُّ السَّويق للحاجّ ، فلمّا مات عكفوا على قبره فعبدوه . وقال الزجاج : زعموا أن رجلاً كان يلُتُّ السَّويق ويبيعه عند ذلك الصنم ، فسُمّي الصنمُ : اللاّتّ . وكان الكسائي يقف عليها بالهاء ، فيقول : « اللاّه » ؛ وهذا قياس ، والأجود الوقوف بالتاء ، لاتباع المصحف .

وأمّا « العُزّى » ففيها قولان .

أحدهما : أنها شجرة لغطفان كانوا يعبدونها ، قاله مجاهد .

والثاني : صنم لهم ، قاله الضحاك . قال : وأمّا « مَناةَ » فهو صنم لهُذَيل وخُزاعة يعبُده أهلُ مكة . وقال قتادة : بل كانت للأنصار . وقال أبو عبيدة : كانت اللاّت والعُزّى ومَناة أصناماً من حجارة في جوف الكعبة يعبدونها . وقرأ ابن كثير : « ومَناءَةَ » ممدودة مهموزة .

فأمّا قوله : (الثالثةَ) فانه نعت لـ « مَناة » ، هي ثالثة الصنمين في الذِّكر ، و « الأُخرى » نعت لها . قال الثعلبي : العرب لا تقول للثالثة : الأُخرى ، وإنما الأُخرى نعت للثانية ، فيكون في المعنى وجهان .

أحدهما : أن ذلك لوِفاق رؤوس الآي ، كقوله (مَــآربُ أُخرى) [طه : ١٨] ولم يقل ، أُخَر ، قاله الخليل .

---

(١) في النسخة الاستنبولية : ورويس عن يعقوب .

والثاني : أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : أفرأيتم اللاّت والعُزّى الأُخرى ومَناة الثالثة ، قاله الحسين بن الفضل .

قوله تعالى (أَلَكُمُ الذَّكَرُ) قال ابن السائب : إن مشركي قريش قالوا للأصنام والملائكة : بناتُ الله ، وكان الرجُل منهم إذا بُشِّر بالأُنثى كرِه ، فقال الله تعالى مُنْكِراً عليهم : (أَلَكُمُ الذَّكرُ وله الأُنثى) ؟ ! يعني الأصنام وهي [إناث] في أسمائها .

(تلك إذاً قِسْمةٌ ضِيزى) قرأ عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [« ضِيزى »] بكسر الضاد من غير همز ؛ وافقهم ابن كثير [في] كسر الضاد ، لكنه همز . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارىء : « ضَيْزى » بفتح الضاد من غير همز . قال الزجاج : الضِّيزى في كلام العرب : الناقصةُ الجائرة ، يقال : ضازه يَضِيزُه : إذا نقصه حقَّه ، ويقال : ضَأَزَه يَضْأَزُه[1] بالهمز . وأجمع النحويُّون أن أصل ضِيزَى : ضُوزَى ، وحُجَّتُهم أنها نُقلت من « فُعْلى » من ضُوزى إلى ضِيزى ، لتَسلم الياء ، كما قالوا : أبيض وبِيْض ، وأصله : بُوضٌ ، فنُقلت الضَّمَّة إلى الكسرة . وقرأت على بعض العلماء باللُّغة : في « ضيزى » لغات ؛ يقال : ضِيزَى ، وضُوزَى ، وضُؤْزَى ، وضَأْزَى على « فَعْلى » مفتوحة ؛ ولا يجوز في القرآن إلّا « ضِيزى » بياء غير مهموزة ؛ وإنما لم يقُل النحويُّون : إنها على أصلها لأنهم لايعرفون في الكلام « فِعْلى » صفة ، إنما يعرفون الصِّفات على « فَعْلَى » بالفتح ، نحو سَكْرَى وغَضْبى ، أو بالضم ، نحو حُبْلى وفُضْلى .

قوله تعالى : (إن هي) يعني الأوثان (إلّا أسماءٌ) والمعنى : إن هذه الأوثان

(١) في الأصل : ضأزه يضيزه بالهمز ، والتصويب من كتب اللغة .

التي سمَّوها بهذه الأسامي لامعنى تحتها ، لأنها لا تضر ولا تنفع ، فهي تسميات ألقيت على جمادات ، (ما أنزل اللهُ بها من سُلطان) أي : لم يُنزل كتاباً فيه حُجّة بما يقولون : إنها آلهة . ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد الخطاب لهم فقال : (إن يَتَّبِعونَ) في أنها آلهة ، [(إلا الظن وما تهوى الأنفس)][1] وهو ما زيَّن لهم الشيطان ، (ولقد جاءهم مِن ربهم الهُدى) وهو البيان بالكتاب والرسول ، وهذا تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وُضوح البيان .

ثم أنكر عليهم تَمنِّيهم شفاعتَها فقال : (أَم للإنسان) يعني الكافر (ما تَمنَّى) من شفاعة الأصنام (فللَّهِ الآخِرةُ والأُولى) أي لا يَملك فيها أحد شيئاً إلّا بإذنه . ثم أكَّد هذا بقوله : (وكم مِنْ مَلَكٍ في السموات لاتُغْني شفاعتُهم شيئاً) فجمع في الكناية ، لأن معنى الكلام الجمع (إلّا مِنْ بَعْدِ أن يأذنَ اللهُ) في الشفاعة (لِمن يشاءُ ويَرضى) ، والمعنى أنهم لا يَشفعون إلّا لِمن رضي اللهُ عنهم .

﴿ إنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين لايؤمنون بالآخرة) أي : بالبعث (لَيُسَمُّونَ الملائكةَ تسميةَ الأُنثى) وذلك حين زعموا أنها بنات الله ، (وما لهم) بذلك ، (مِن عِلْمٍ) أي : ما يَستيقنون أنها إناث (إن يَتبعونَ إلّا الظَّنَّ وإن الظَّنَّ لايُغْني مِن الحقِّ شيئاً) أي : لايقوم مقامَ العِلْم[2] ، فالحقُّ هاهنا بمعنى العِلْم .

---

(١) ما بين المعقفين زيادة سقطت من الأصل .

(٢) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

(فأَعْرِضْ عمَّن تولَّى عن ذِكْرِنا) يعني القرآن ؛ وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (ذلكَ مَبلغُهم من العِلْم) قال الزجّاج : إنَّما يعلمون مايحتاجون إليه في معايشهم ، وقد نبذوا أمر الآخرة .

قوله تعالى : (هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله ...) الآية ؛ والمعنى أنه عالِمٌ بالفريقين فيجازيهم .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى . ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَى ﴾

قوله تعالى : (ولله ما في السموات وما في الأرض) هذا إخبار عن قُدرته وسَعَة مُلكه ، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله : (لِيَجْزِيَ الذين أساؤوا) لأن اللام في « ليجزي » متعلقة بمعنى الآية الأولى ، لأنه إذا كان أعلم بها ، جازى كُلاً بما يستحقُّه ، وهذه لام العاقبة ، وذلك أن عِلْمه بالفريقين أدَّى إلى جزائهم باستحقاقهم ، وإنما يَقْدِر على مُجازاة الفريقين إذا كان واسع المُلك ، فلذلك أخبر به في قوله : (ولله ما في السموات وما في الأرض) . قال المفسرون : و « أساؤوا » بمعنى أشركوا ، و « أحسنوا » بمعنى وحَّدوا . والحُسنى : الجنَّة . والكبائر مذكورة في سورة (النساء : ٣١) . وقيل : كبائر الإثم : كُلُّ ذَنْب خُتِم بالنَّار ، والفواحش : كُلُّ ذَنْب فيه الحدّ . وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل ، وخلف : « يَجْتَنِبون كَبِيرَ الإثم » واللَّمم في كلام العرب : المُقارَبة للشيء . وفي المراد به هاهنا ستة أقوال .

أحدها : ما أَلَمُّوا به من الإثم والفواحش في الجاهلية ، فإنه يُغْفَر في الإسلام ، قاله زيد بن ثابت .

والثاني : أن يُلِمَّ بالذَّنْب مَرَّةً ثم يتوب ولا يعود ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثالث : أنه صِغار الذُّنوب ، كالنَّظرة والقُبلة وما كان دون الزِّنا ، قاله ابن مسعود ، وأبو هريرة ، والشعبي ، ومسروق ، ويؤيِّد هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنا ، فزِنا العينين النَّظر ، وزِنا اللسان النُّطق ، والنفس تشتهي وتتمنَّى ، ويصدِّق ذلك ويكذِّبه الفَرْج »[1] ، فإن تقدَّم بفَرْجه كان الزِّنا ، وإلا فهو اللَّمم .

والرابع : أنه ما يَهُمُّ به الإنسان ، قاله محمد بن الحنفية .

والخامس : أنه أَلَمَّ بالقلب ، أي : خَطَر ، قاله سعيد بن المسيِّب .

والسادس : أنه النَّظر من غير تعمُّد ، قاله الحسين بن الفضل . فعلى القولين [الأولين] يكون الاستثناء من الجنس ، وعلى باقي الأقوال ليس من الجنس .

قوله تعالى : (إنَّ ربَّكَ واسعُ المغفرة) قال ابن عباس : لِمَن فعل ذلك ثم تاب . وهاهنا تمَّ الكلام . ثم قال : (هو أعْلَمُ بِكُمْ) يعني قبل خَلْقكم (إذ أنشأكم من الأرض) يعني آدم عليه السلام (وإذا أنتم أجِنَّةٌ) جمع جَنِين ؛ والمعنى أنه عَلِم ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون ، (فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم) أي : لا تَشهدوا لها أنَّها زكيَّة بريئة من المعاصي . وقيل : لا تمدحوها بحُسن أعمالها . وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ١١/٢٢ ومسلم ٤/٢٠٤٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أحدهما : أن اليهود كانوا إذا هلك لهم صبيّ ، قالوا : صِدِّيق ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة رضي الله عنها [١] .

والثاني : أن ناساً من المسلمين قالوا : قد صلَّينا وصُمنا وفعلنا ، يُزَكُّون أنفُسَهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وهو أعلَمُ بِمَنِ اتَّقى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عمل حسنة وارعوى عن معصية ، قاله عليّ رضي الله عنه . والثاني : أخلص العملَ لله ، قاله الحسن . والثالث : اتَّقى الشِّرك فآمن ، قاله الثعلبي .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ . وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾

قوله تعالى : (أفرأيتَ الذي تَوَلَّى) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة ، وكان قد تَبِع رسولَ الله ﷺ على دينه ، فعيَّره بعضُ المشركين ، وقال : تركتَ دين الأشياخ وضلَّلتَهم ؟ قال : إنِّي خشيتُ عذابَ الله ، فضَمِن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجَع إلى شِركه أن يتحمَّل عنه عذابَ الله عز وجل ففعل ، فأعطاه بعضَ الذي ضَمِن له ، ثم بَخِل ومنعه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » عن ثابت بن الحارث الأنصاري ٢٢٦ وفي سنده ابن لهيعة ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٢٨ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، والطبراني ، وابي نعيم في « المعرفة » ، وابن مردويه عن ثابت بن الحارث الأنصاري .

والثاني : أنه النَّضر بن الحارث أعطى بعضَ فقراء المسلمين خمسَ قلائص حتى ارتدَّ عن إسلامه ، وضَمِن له أن يَحْمِل عنه إثمه ، قاله الضحاك .

والثالث : أنه أبو جهل ، وذلك أنه قال : واللهِ ما يأمُرُنا محمدٌ إلاّ بمكارم الأخلاق ، قاله محمد بن كعب القرظي .

والرابع : أنه العاص بن وائل السهمي ، وكان ربّما وافق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأُمور ، قاله السدي .

ومعنى « تولّى » : أعرضَ عن الإيمان .

(وأعطى قليلاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أطاع قليلاً ثم عصى . قاله ابن عباس . والثاني : أعطى قليلاً من نَفْسه بالاستماع ثم أكدى بالانقطاع ، قاله مجاهد . والثالث : أعطى قليلاً من ماله ثم مَنَع ، قاله الضحاك . والرابع : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع ، قاله مقاتل . قال ابن قتيبة : ومعنى « أكْدَى » : قَطَع ، وهو من كُدْية الرَّكيَّة ، وهي الصَّلابة فيها ، وإذا بلغها الحافر يئس من حَفْرها ، فقطع الحَفْر ، فقيل لكل من طلب شيئاً فلم يبلُغ آخِرَه ، أو أعطَى ولم يُتِمَّ : أَكْدَى .

قوله تعالى : (أعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى) فيه قولان .

أحدهما : فهو يرى حاله في الآخرة ، قاله الفراء . والثاني : فهو يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة وغيرها ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُف موسى) يعني التوراة ، (وإبراهيمَ) أي : وصحف إبراهيم . وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ « أن الله تعالى أنزل

على إبراهيمَ عشر صحائف ، وأنزل على موسى قَبْلَ التَّوراة عشر صحائف [١] .

قوله تعالى : (الذي وَفَّى) قرأ سعيد بن جبير ، وأبو عمران الجوني ، وابن السميفع اليماني « وَفَى » بتخفيف الفاء . قال الزجاج : قوله : « وَفَّى » أبلغ من « وَفَى » ، لأن الذي امتُحن به مِنْ أعظم المِحن . وللمفسرين في الذي وفَّى عشرة أقوال .

أحدها : أنه وفَّى عملَ يومه بأربع ركعات في أول النهار ، رواه أبو أُمامة عن رسول الله ﷺ [٢] .

والثاني : أنه وفَّى في كلمات كان يقولها . روى سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا أُخبِرُكم لِمَ سمَّى اللهُ إبراهيمَ خليله [الذي وفَّى] ؟ لأنه كان يقول كلَّما أصبحَ وكلَّما أمسى : « فسُبْحانَ اللهِ حينَ تُمْسونَ وحين تُصْبِحونَ ... » [الروم : ١٧] وختم الآية [٣] .

(١) قال السيوطي في « الدر » ٣٤١/٦ : أخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ... الخ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٧٣/٢٧ وفي سنده جعفر بن الزبير الباهلي ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : متروك الحديث ، وكان صالحاً في نفسه ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٢٩/٦ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازي في « الألقاب » والديلمي بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في « المسند » ٤٣٩/٣ عن معاذ بن أنس ، وابن جرير الطبري ٧٣/٢٧ ، وفي سنده زبان بن فائد وهو ضعيف . وأورده السيوطي في « الدر » ١٥٤/٥ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدعوات » عن معاذ بن أنس رضي الله عنه .

والثالث : أنه وفَّى الطاعة فيما فعل بابنه ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال القرظي .

والرابع : أنه وفَّى ربَّه جميع شرائع الإسلام ، روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس .

والخامس : أنه وفَّى ما أُمر به من تبليغ الرِّسالة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والسادس : أنه عَمِل بما أمر به ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وقال مجاهد : وفَّى ما فُرض عليه .

والسابع : أنه وفَّى بتبليغ هذه الآيات ، وهي : « ألّا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى » وما بعدها ، وهذا مروي عن عكرمة ، ومجاهد ، والنخعي .

والثامن : وفَّى شأن المناسك ، قاله الضحاك .

والتاسع : أنه عاهد أن لايَسأل مخلوقاً شيئاً ، فلمّا قُذف في النار قال له جبريل ، ألَكَ حاجةٌ ؟ فقال : أمّا إليك فلا[١] ، فوفَّى بما عاهد ، ذكره عطاء بن السائب .

والعاشر : أنه أدَّى الأمانة ، قاله سفيان بن عيينة .

ثم بيَّن ما في صحفها فقال : (ألّا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرى) أي : لا تَحمِل نَفْس حاملةٌ حِمْلَ أُخْرى ، والمعنى : لاتؤخَذ بإثم غيرها .

(وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى) قال الزجّاج : هذا في صحفها أيضاً . ومعناه : ليس للإنسان إلّا جزاء سعيه ، إن عَمِل خيراً جُزِي عليه خيراً ، وإن عَمِل شرّاً جزي شرّاً . واختلف العلماء في هذه الآية على ثمانية أقوال .

---

(١) قد تقدم الكلام على هذا الأثر في الجزء ٣٦٧/٥ فانظره فيه .

أحدها : أنها منسوخة بقوله : (وأَتْبَعْنَاهم ذُرِّيَاتِهم[1] بإيمان) [الطور : ٢١] فأُدخل الأبناء الجَنَّة بصلاح الآباء ، قاله ابن عباس ، ولا يصح ، لأن لفظ الآيتين لفظ خبر ، والأخبار لا تُنْسَخ .

والثاني : أن ذلك كان لقوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمة فلهم ماسَعَوا وما سعى غيرُهم ، قاله عكرمة ، واستدل بقول النبي ﷺ للمرأة التي سألته : إنَّ أبي مات ولم يحُجَّ ، فقال : « حُجِّي عنه »[2] .

والثالث : أن المراد بالإنسان هاهنا : الكافر ، فأمّا المؤمن ، فله ماسعى وما سُعِي له ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : أنه ليس للإنسان إلاّ ماسعى من طريق العدل ، فأمّا مِنْ باب الفَضْل ، فجائز أن يَزيده اللهُ عز وجل مايشاء ، قاله الحسين بن الفضل .

والخامس : أن معنى « ما سعى » : مانوى ، قاله أبو بكر الورّاق .

والسادس : ليس للكافر من الخير إلا ما عمله في الدُّنيا ، فيُثاب عليه فيها حتى لايبقى له في الآخرة خير ، ذكره الثعلبي .

والسابع : أن اللام بمعنى « على » ، فتقديره : ليس على الإنسان إلاماسعى .

والثامن : أنه ليس له إلاّ سعيه ، غير أن الأسباب مختلفة ، فتارة يكون سعيه في تحصيل قرابة وولد يترحم عليه وصديق ، وتارة يسعى في خِدمة الدِّين

---

(١) قراءة حفص (واتبعتهم ذريتهم) وهذه قراءة ابن عامر .

(٢) رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ونصه : أن امرأة من خثعم قالت : يارسول الله إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لايستطيع أن يستوي على ظهر بعيره ، قال : « فحجي عنه » .

والعبادة ، فيكتسب محبة أهل الدِّين ، فيكون ذلك سبباً حصل بسعيه ، حكى القولين شيخنا علي بن عبيد الله الزاغوني[1] .

قوله تعالى : (وأنَّ سَعْيَه سوف يُرَى) فيه قولان .

أحدهما : سوف يُعْلَم ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : سوف يرى العبدُ سعيَه يومَ القيامة ، أي : يرى عمله في ميزانه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (يُجْزاه) الهاء عائدة على السعي (الجزاء الأَوْفَى) أي : الأكمل الأَتمّ .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى . وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾

(وأنَّ إلى ربِّك المنتهى) أي : مُنتهى العباد ومَرجِعُهم . قال الزجاج : هذا كُلُّه في صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : (وأنَّه هو أَضْحك وأَبْكى) قالت عائشة : مَرَّ رسولُ الله ﷺ بقوم يضحكون ، فقال : « لو تعلَمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكتم قليلاً ، ولبَكَيتم كثيراً ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ، فرجع إليهم ، فقال :

---

(١) هو علي بن عبيد الله بن نصر بن السري البغدادي مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة ، قال ابن رجب : كان متفنناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله . توفي سنة ٥٢٧ هـ .

ماخطَوْتُ أربعينَ خطوة حتى أتاني جبريل ، فقال : إئت هؤلاء فقُل لهم : إن الله يقول : وأنَّه هو أضحك وأبكى[1] ، وفي هذا تنبيه على أن جميع الأعمال بقضاء الله وقدره حتى الضحك والبُكاء . وقال مجاهد : أضْحكَ أهلَ الجَنَّة ، وأبكى أهل النّار . وقال الضحاك : أضْحَكَ الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر .

قوله تعالى : (وأنَّه هو أمات) في الدُّنيا (وأحْيا) للبعث .

(وأنّه خلَق الزَّوجَين) أي : الصِّنفين (الذَّكر والأنثى) من جميع الحيوانات ، (مِنْ نُطْفة إذا تُمْنى) فيه قولان .

أحدهما : إذا تُراق في الرَّحِم ، قاله ابن السائب .

والثاني : إذا تُخْلَق وتُقدَّر .

(وأنَّ عليه النَّشأةَ الأخْرى) وهي الخَلْق الثاني للبعث يوم القيامة .

(وأنَّه هو أغْنى) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أغنى بالكفاية ، قاله ابن عباس . والثاني : بالمعيشة ، قاله الضحاك . والثالث : بالأموال ، قاله أبو صالح . والرابع : بالقناعة ، قاله سفيان .

وفي قوله : (أقنى) ثلاثة أقوال :

أحدها : أرْضى بما أعطى ، قاله ابن عباس .

والثاني : أخْدم ، قاله الحسن ، وقتادة . وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : جعل للإنسان قِنْيَةً ، وهو أصل مال ، قاله أبو عبيدة .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٣٠ من رواية ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وأنَّه هو ربُّ الشِّعْرى) قال ابن قتيبة : هو الكوكب الذي يطلُع بعد الجَوْزاء ، وكان ناس من العرب يعبُدونها .

قوله تعالى : (وأنَّه أهلك عاداً الأولى) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « عاداً الأولى » منوَّنة . وقرأ نافع ، وأبو عمرو : « عاداً لُولى » موصولة مدغمة . ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم قوم هود ، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى ، هذا قول الجمهور .

والثاني : أن قوم هود هم عادٌ الأخرى ، وهم من أولاد عادٍ الأولى ، قاله كعب الأحبار . وقال الزجاج : وفي « الأولى » لغات ، أجودها سكون اللام وإثبات الهمزة ، والتي تليها في الجودة ضم اللام وطرح الهمزة ، ومن العرب من يقول : لُولى ، يريد : الأُولى ، فتطرح الهمزة لتحرّك اللاّم .

قوله تعالى : (وقومَ نوحٍ مِنْ قَبْلُ) أي : مِن قَبْل عادٍ وثمودَ (إنَّهم كانوا هُمْ أظلَمَ وأطغى) من غيرهم ، لطول دعوة نوح إيّاهم ، وعتوّهم .

(والمُؤتفِكةُ) قُرى قوم لوط (أهوى) [أي] : أسقط ، وكان الذي تولَّى ذلك جبريل بعد أن رفعها ، وأتبعهم اللهُ بالحجارة ، فذلك قوله : (فغشّاها) أي : ألبسها (ماغشَّى) يعني الحجارة (فبأيِّ آلاءِ ربِّكَ تتمارى) هذا خطاب للإنسان ، لمّا عدّد اللهُ مافعله ممّا يَدلُّ على وحدانيّته قال : فبأيِّ نِعم ربِّك التي تدُلُّ على وحدانيَّته تتشكَّك ؟ وقال ابن عباس : فبأي آلاءِ ربِّك تكذّب ياوليد ، يعني [الوليد] بن المغيرة .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ . أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾

قوله تعالى : (هذا نذيرٌ) فيه قولان .

أحدهما : أنه القرآن ، نذيرٌ بما أنذرتْ الكتبُ المتقدِّمة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نذيرٌ بما أنذرتْ به الأنبياءُ ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (أزِفت الآزفة) أي : دَنَت القيامة ، (ليس لها مِنْ دُون الله كاشفة) فيه قولان .

أحدهما : إذا غَشيَت الخَلْقَ شدائدُها وأهوالُها لمْ يَكْشِفها أحد ولم يرُدَّها ، قاله عطاء ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : ليس لعِلْمها كاشف دونَ الله ، أي : لا يَعلم عِلْمها إلاّ الله ، قاله الفراء ، قال : وتأنيث « كاشفة » كقوله : « هل ترى لهم من باقيةٍ »[1] [الحاقة : ٨] ، يريد : مِن بقاء ، والعافية والباقية والناهية كُلُّه في معنى المصدر . وقال غيره : تأنيث « كاشفة » على تقدير : نفس كاشفة .

قوله تعالى : (أفمِن هذا الحديث) قال مقاتل : يعني القرآن (تَعْجَبونَ) تكذيباً به ، (وتَضْحَكون) استهزاء (ولا تَبْكون) ممّا فيه من الوعيد ؟! ويعني بهذا كفار مكة ، (وأنتم سامِدون) فيه خمسة أقوال .

---

(١) الآية في التلاوة : « فهل ترى لهم من باقية » وقد سوغ المتقدمون حذف الواو والفاء عند ذكر الآية للاستدلال ، انظر « الرسالة » للشافعي : ٣٦١ بتحقيق العلامة أحمد شاكر رحمه الله .

أحدها : لاهون ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الفرّاء والزجّاج . قال أبو عبيدة : يقال : دَعْ عنك سُمودَك ، أي : لَهْوَك .

والثاني : مُعْرِضون ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الغِناء ، وهي لغة يمانية ، يقولون : اسْمُد لنا ، أي : تَغَنَّ لنا ، رواه عكرمة عن ابن عباس . وقال عكرمة : هو الغِناء بالحِمْيَرِيَّة .

والرابع : غافلون ، قاله قتادة .

والخامس : أشِرون بَطِرون ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : (فاسْجُدوا لله) فيه قولان .

أحدهما : أنه سُجود التلاوة ، قاله ابن مسعود .

والثاني : سُجود الفرض في الصلاة .

قال مقاتل : يعني بقوله : « فاسْجُدوا » : الصلوات الخمس .

وفي قوله : (واعْبُدُوا) قولان .

أحدهما : أنه التوحيد . والثاني : العبادة[1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (فاسجدوا لله واعبدوا) يقول تعالى ذكره : فاسجدوا لله أيها الناس في صلاتكم دون من سواه من الآلهة والأنداد ، وإياه فاعبدوا دون غيره ، فإنه لاينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فأخلصوا له العبادة والسجود ، ولا تجعلوا له شريكاً في عبادتكم إياه . وروى البخاري في « صحيحه » ٤٧٢/٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وروى البخاري ايضاً عن ابن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) قال : فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف .

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنبَاءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

وهي مكيَّة بإجماعهم ، وقال مقاتل : مكيَّة غير آية (سيُهْزَمُ الجَمْعُ) [القمر : ٤٥] ، وحكي عنه أنه قال : إلاّ ثلاث آيات ، أولها : (أم يقولون نحنُ جميعٌ مُنتَصِرٌ) إلى قوله : (وأمَرُّ) [القمر : ٤٤ - ٤٦] ، قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن كنت صادقاً فشُقَّ لنا القمر فرقتين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن فعلتُ تؤمنون ؟ » قالوا : نعم ، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يُعطيَه ما قالوا ، فانشقَّ القمر فرقتين ، ورسولُ الله ﷺ ينادي : « يا فلان يا فلان اشهَدوا » ، وذلك بمكة قبل الهجرة[1] . وقد روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث ابن مسعود قال : انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقَّتين ، فقال رسولُ الله ﷺ :

(١) رواه البخاري ٦/٤٦٤ بمعناه مختصراً وذكره السيوطي في « الدر » : ٦/١٣٣ ونسبه إلى أبي نعيم في « الحلية » من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس .

« اشهَدوا »[١] . وقد روى حديث الانشقاق جماعةٌ ، منهم عبد الله بن عمر ، وحذيفة ، وجبير بن مطعم ، وابن عباس ، وأنس بن مالك[٢] ، وعلى هذا جميع المفسرين ، إلاّ أن قوماً شذّوا فقالوا : سيَنْشَقّ يوم القيامة . وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك ، وهذا القول الشاذ لايقاوم الإجماع ، ولأن قوله : (وانْشَقّ) لفظ ماض ، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل ، وليس ذلك موجوداً[٣] . وفي قوله : « وإن يَروا آيةً يُعْرضوا » دليل على أنه قد كان ذلك . ومعنى (اقْتَربَت) : دنَتْ ، و(الساعةُ) القيامة . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : انشقّ القمر واقتربت الساعة . وقال مجاهد : انشقّ القمر فصار فِرقتين ، فثبتت فِرقة ، وذهبت فِرقة وراء الجبل . وقال ابن زيد : لمّا انشقّ القمر كان يُرى نصفُه على قُعَيقِعَانَ ، والنصف الآخر على أبي قُبيس ـ قال ابن مسعود : لمّا انشقّ القمر قالت قريش : سحركم ابن أبي كبشة ، فاسألوا السُّفّار ، فسألوهم ، فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل اللهُ عز وجل : « اقتربتِ السّاعةُ وانشَقّ القمر »[٤] .

(١) البخاري ٨/٤٧٤ ومسلم ٤/٢١٥٨ .

(٢) حديث عبد الله بن عمر رواه مسلم والترمذي والبيهقي .

وحديث حذيفة أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في « زوائد الزهد » وابن جرير وابن مردويه .

وحديث جبير بن مطعم رواه أحمد والبيهقي .

وحديث ابن عباس رواه البخاري في « صحيحه » .

وحديث أنس بن مالك رواه أحمد والبخاري ومسلم .

(٣) في الأصل : موجود .

(٤) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٧ وابن جرير الطبري ٢٧/٨٥ وذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٣٣ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في « الدلائل » من طريق مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه .

قوله تعالى : (وإنْ يروا آيةً) أي : آية تدلُّهم على صدق الرسول ، والمراد بها هاهنا : انشقاق القمر (يُعْرِضوا) عن التصديق (ويقولوا سِحْرٌ مستمرٌ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ذاهبٌ ، من قولهم : مَرَّ الشيءُ واستمرَّ : إذا ذهب ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والكسائي ، والفراء ؛ فعلى هذا يكون المعنى : هذا سِحر ، والسِّحر يذهب ولا يثبت .

والثاني : شديدٌ قويٌّ ، قاله أبو العالية ، والضحاك ، وابن قتيبة ، قال : وهو مأخوذ من المِرَّة ، والمِرَّة : الفَتْل[1] .

والثالث : دائمٌ ، حكاه الزجّاج .

قوله تعالى : (وكذَّبوا) يعني كذَّبوا النبيَّ ﷺ وما عاينوا من قُدرة الله تعالى (واتَّبَعوا أَهواءهم) مازيَّن لهم الشيطانُ (وكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٌ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن كُلَّ أمرٍ مستقِرٌ بأهله ، فالخير يستقِرُّ بأهل الخير ، والشر يستقِرُّ بأهل الشر ، قاله قتادة .

والثاني : لكل حديثٍ مُنتهىً وحقيقةٌ ، قاله مقاتل .

والثالث : أن قرار تكذيبهم مستقِرٌ ، وقرار تصديق المصدِّقين مستقِرٌ حتى يعلموا حقيقته بالثواب والعقاب ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (مِنَ الأنباء) أي : من أخبار الأُمم المكذِّبة في القرآن (ما فيه مُزْدَجَرٌ) قال ابن قتيبة : أي : مُتَّعَظٌ ومُنتهىً .

قوله تعالى : (حِكْمَةٌ بالغةٌ) قال الزجّاج : هي مرفوعة لأنها بدل من

---

(١) في الأصل : القتل ، وهو تصحيف ، والتصويب من « غريب القرآن » .

« ما » ، فالمعنى : ولقد جاءهم حكمةٌ بالغةٌ [وإن شئت رفعتها بإضمار : هو حكمة بالغة] . و « ما » في قوله (فما تُغْنِ النُّذُرُ) جائز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ ، فيكون المعنى : أيّ شيء تُغْني النُّذُر ؟ ! وجائز أن يكون نفياً ، على معنى ، فليست تُغْني النُّذُر . قال المفسرون : والمعنى : جاءهم القرآن وهو حِكْمة تامَّة قد بلغت الغاية ، فما تُغْني النُّذُر إذا لم يؤمِنوا ؟ !

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

(فتَوَلَّ عنهم) قال الزجّاج : هـذا وقف التمام ، و (يومَ) منصوب بقوله : « يخرُجون من الأجداث » . وقال مقاتل : فتولَّ عنهم [إلى] يوم (يَدْعُ الدّاعي) أثبت هذه الياء في الحالين يعقوب ، ووافقه أبو جعفر ، وأبو عمرو في الوصل ، وحذفها الأكثرون في الحالين . و « الداعي » : إسرافيل ينفُـخ النفخة الثانية (إلى شيءٍ نُكُرٍ) وقرأ ابن كثير : « نُكْرٍ » خفيفة ، أي : إلى أمر فظيع . وقال مقاتل : « النُّكُر » بمعنى المُنْكَر ، وهو القيامة ، وإنما يُنْكِرونه إعظاماً له . والتَّولِّي المذكور في الآية منسوخ عند المفسرين بآية السيف .

قوله تعالى : (خُشَّعاً أبصارُهم) قرأ أهل الحجاز ، وابن عامر ، وعاصم : « خُشَّعاً » بضم الخاء وتشديد الشين من غير ألف . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « خاشِعاً » بفتح الخاء وألف بعدها وتخفيف الشين . قال الزجاج : المعنى : يخرُجون خُشَّعاً ، و « خاشعاً » منصوب على الحال ، وقرأ ابن مسعود : « خاشعةً » ، ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدّمت على الجماعة التوحيد والتأنيث

والجمع ؛ تقول : مررت بشبابٍ حَسَنٍ أوجُهم ، وحِسانٍ أوجُهم ، وحَسَنةٍ أوجُهم ، قال الشاعر :

وشَبابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إيادِ بْنِ نِزارِ بْنِ مَعَدّ [1]

قال المفسرون : والمعنى أن أبصارهم ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب . والأجداث : القبور ، وإنما شبَّههم بالجراد المنتشر ، لأن الجراد لاجِهةَ له يَقْصِدها ، [فهو أبداً مختلف بعضه في بعض] ، فهم يخرُجون فزعين ليس لأحد منهم جهة يَقْصِدها . والدّاعي : إسرافيل . وقد أثبت ياء « الدّاعي » في الحالين ابن كثير ، ويعقوب ؛ تابعها في الوصل نافع ، وأبو عمرو ؛ والباقون بحذفها في الحالين . وقد بيّنّا معنى « مُهْطِعين » في سورة (إبراهيم : ٤٣) والعَسِر : الصَّعب الشَّديد .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

---

(١) البيت للحارث بن دوس الإيادي ، ويروى لأبي داود الإيادي « هامش القرطبي » : ١٢٩/١٧ وهو في « الطبري » : ٩٠/٢٧ . والبيت من شواهد الفراء في « معاني القرآن » الورقة ٣١٧ قال : إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث وهو له ، أو قبل جمع مؤنث ، مثل الأنصار والأعمار وما أشبها ، جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه .

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهم) أي : قبل أهل مكة (قومُ نُوحٍ فكذَّبوا عَبْدَنا) نوحاً (وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ) قال أبو عبيدة : افتُعِلَ مِن زُجِر. قال المفسرون : زجروه عن مقالته (فدعا) عليهم نوح (ربَّه) بـ (أَنّي مغلوبٌ فانْتَصِر) أي : فانتقِم لي ممَّن كذَّبني. قال الزَّجاج : وقرأ عيسى بن عمر النحوي : « إنّي » بكسر الألف ، وفسرها سيبويه فقال : هذا على إرادة القول ، فالمعنى : قال : إني مغلوب ؛ ومن فتح ، وهو الوجه ، فالمعنى : دعا ربَّه) بـ(أنّي مغلوب.

قوله تعالى : (ففَتَحْنا أبوابَ السماء) قرأ ابن عامر « ففَتَّحْنا » بالتشديد. فأمّا المُنهمِر ، فقال ابن قتيبة : هو الكثير السريع الانصباب ، ومنه يُقال : هَمَر الرجُل : إذا أكثر من الكلام وأسرع. وروى عليٌّ رضي الله عنه أن أبواب السماء فُتحت بالماء من المَجَرَّة ، وهي شَرَجُ السماء. وعلى ما ذكرنا من القصة في (هود : ٤٤) أن المطر جاءهم ، يكون هو المراد بقوله : (ففَتَحْنا أبوابَ السماء) قال المفسرون : جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً ، وفُجِّرت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً.

(فالتقى الماءُ) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري : « المآءان » بهمزة وألف ونون مكسورة. وقرأ ابن مسعود : « المايانِ » بياء وألف ونون مكسورة من غير همز. وقرأ الحسن ، وأبو عمران : « الماوانِ » بواو وألف وكسر النون. قال الزجاج : يعني بالماء : ماء السماء وماء الأرض ، ويجوز الماءان ، لأن اسم الماء اسم يجمع ماء الأرض وماء السماء.

قوله تعالى : (على أَمْرٍ قد قُدِرَ) فيه قولان.

أحدهما : كان قَدْر ماء السماء كقَدْر ماء الأرض ، قاله مقاتل.

والثاني :قد قُدر في اللوح المحفوظ ، قاله الزجاج . فيكون المعنى : على أمر قد قُضي عليهم ، وهو الغرق .

قوله تعالى : (وحَمَلْناه) يعني نوحاً (على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ) قال الزجاج . أي : على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ . قال المفسرون : ألواحها : خشباتها العريضة التي منها جُمعت . وفي الدُّسُر أربعة أقوال .

أحدها : أنها المسامير ، رواه الوالي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والقرظي ، وابن زيد . وقال الزجاج : الدُّسُر : المسامير والشُّرُط التي تُشَدّ بها الألواح ، وكل شيء نحو السَّمْر أو إدخال شيء في شيء بقوّة وشِدة قَهر فهو دَسْر ، يقال : دَسَرْتُ المسمار أدْسُرُه وأدْسِرُه . والدُّسُر : واحدها دِسار ، نحو حِمار ، وحُمُر .

والثاني : أنه صَدْر السفينة ، سُمّي بذلك لأنه يَدْسُر الماء ، أي : يدفعه ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة ؛ ومنه الحديث في العنبر أنه شيء دسره البحر ، أي : دفعه [1] .

والثالث : أن الدُّسُر : أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .

والرابع : أن الدُّسُر : طرفاها وأصلها ، والألواح : جانباها ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : (تَجْري بأعيُنِنا) أي : بمَنْظَرٍ ومرأىً مِنّا (جزاءً) قال الفراء : فعلْنا به وبهم مافعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كُفِر به .

وفي المراد بـ « مَنْ » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل ، وهو مذهب مجاهد ، فيكون المعنى : عوقبوا لله ولكُفرهم به .

(١) قال الشيخ محمد السفاريني في « شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد » : جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما : سئل رسول الله ﷺ عن زكاة العنبر ؟ فقال : إنما هو شيء دسره البحر .

والثاني : أنه نوحٌ كُفِر به وجُحِد أمْرُه ، قاله الفراء .

والثالث : أن « مَنْ » بمعنى « ما » ، فالمعنى : جزاءً لِما كان كُفِر من نِعم الله عند الذين أغرقهم ، حكاه ابن جرير . وقرأ قتادة : « لِمَنْ كان كَفَر » بفتح الكاف والفاء .

قوله تعالى : (ولقد تَرَكْناها) في المشار إليها قولان .

أحدهما : أنها السفينة ، قال قتادة : أبقاها الله على الجوديّ حتى أدركها أوائل هذه الأمة .

والثاني : أنها الفَعْلة ، فالمعنى : تركنا هذه الفَعْلة وأمر سفينة نوح آية ، أي : علامة ليُعتبر بها ، (فهل مِنْ مُدَّكِرٍ) وأصله مُذتكِر ، فأبدلت التاء دالاً على ما بيّنّا في قوله : (وادَّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ) [يوسف : ٤٥] . قال ابن قتيبة : أصله : مذتَكِر ، فأدغمت التاء في الذال ، ثم قُلبت دالاً مشدّدة . قال المفسرون : والمعنى : هل من متذكِّر يعتبر بذلك ؟ (فكيف كان عذابي ونُذُرِ) وفي هذه السورة « ونُذُر » ستة مواضع ، أثبت الياء فيهن في الحالين يعقوب ، تابعه في الوصل ورش ، والباقون بحذفها في الحالين . وقوله : « فكيف كان عذابي » استفهام عن تلك الحالة ، ومعناه التعظيم لذلك العذاب . قال ابن قتيبة : والنُّذُر هاهنا جمع نذير ، وهو بمعنى الإنذار ، ومثله النَّكير بمعنى الإنكار . قال المفسرون : وهذا تخويف لمشركي مكة .

(ولقد يسَّرْنا القرآنَ) أي : سهَّلْناه (للذِّكر) أي : للحفظ والقراءة (فهل من مُدَّكِرٍ) أي : من ذاكرٍ يذكره ويقرؤه ، والمعنى : هو الحث على

قراءته وتعلُّمه[١] قال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يُقرأ كُلُّه ظاهراً إلاّ القرآن . وأمّا الرِّيح الصَّرصر ، فقد ذكرناها في (حم السجدة : ١٦٠) .

قوله تعالى : (في يومِ نَحْسٍ مُستمرٍّ) قرأ الحسن : « في يومٍ » بالتنوين ، على أن اليوم منعوت بالنَّحْس . والمُستمِرّ : الدائم الشؤم ، استمر عليهم بنُحوسه . وقال ابن عباس : كانوا يتشاءمون بذلك اليوم . وقيل : إنه كان يومَ أربعاء في آخر الشهر[٢] .

(تَنْزِعُ النّاسَ) أي : تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم فتصرعهم على رقابهم فتدُقّ رقابَهم فتُبين الرّأسَ عن الجسد ، ف (كأنهم أعجاز نَخْلٍ) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع : « أعْجُزُ نَخْلٍ » برفع الجيم من غير ألف بعد الجيم . وقرأ ابن مسعود ، وأبو مجلز ، وأبو عمران : « « كأنّهم عُجُزُ نخل » بضم العين والجيم . ومعنى الكلام : كأنهم أصول نَخلٍ مُنقَعِرٍ » أي : مُنقَلِع . وقال الفراء : المُنقَعِر : المُنصَرِع من النَّخْل . قال ابن قتيبة : يقال : قَعَرْتُه فانقَعَر ، أي قلعته فسقط . قال أبو عبيدة : والنَّخْل يُذكّر ويؤنّث ، فهذه الآية على لغة من ذكّر ، وقوله : (أعجازُ نَخْلٍ خاويةٍ) [الحاقة : ٨] على

(١) قال ابن كثير : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ، ليتذكر الناس ، كما قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب) وقال تعالى : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) قال مجاهد : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) يعني هوّنّا قراءته ، وقال السدي : يسرنا تلاوته على الألسن . وقال الضحاك عن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل . وقوله (فهل من مدكر) أي : فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه ؟! وقال محمد بن كعب القرظي : فهل منزجر عن المعاصي ؟ !

(٢) الشؤم من معتقدات الجاهلية المقيتة التي أبطلها الإسلام ، وما يروى مرفوعاً من أن « يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » فلا يصح منه شيء .

لغة من أنَّث . وقال مقاتل : شبَّهم حين وقعوا من شِدَّة العذاب بالنَّخْل الساقطة التي لارؤوس لها ، وإنما شبَّهم بالنَّخْل لِطُولهم ، وكان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ . إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُر) فيه قولان .

أحدهما : أنه جمع نذير . وقد بيَّنّا أن من كذَّب نبيّاً واحداً فقد كذَّب الكُلَّ .

والثاني : أن النُّذُر بمعنى الإنذار كما بيَّنّا في قوله : « فكيف كان عذابي ونُذُرِ » ، فكأنهم كذَّبوا الإنذار الذي جاءهم به صالح ، (فقالوا أبَشَراً مِنّا) [قال الزجاج : هو منصوب بفعل مُضمَر والذي ظهر تفسيره ، المعنى : أنتبع[1] بَشَراً مِنّا (واحداً)] ، قال المفسرون : قالوا : هو آدميٌّ مِثْلَنا ، وهو واحد فلا نكون له تَبَعاً (إنّا إذاً) إن فعلنا ذلك (لَفي ضلالٍ) أي : خطأٍ وذهاب عن الصواب (وسُعُرٍ) قال ابن عباس : أي : جنون . قال ابن قتيبة : هو من : تَسَعَّرت[2] النّارُ : إذا التهبتْ ، يقال : ناقةٌ مَسْعُورةٌ ، أي : كأنها مجنونة من النشاط . وقال غيره : لَفي شقاء وعَناء لأجل مايلزمنا من طاعته .

---

(١) في الأصل : اتبع ، والتصويب من « القرطبي » .

(٢) في الأصل : تسعر ، والتصويب من « غريب القرآن » .

ثم أنكَروا أن يكون الوحي يأتيه فقالوا : (أَأُلقِيَ الذِّكْرُ ؟) أي : أَنَزَلَ الوحيُ (عليه مِنْ بينِنا ؟) أي : كيف خُصَّ من بيننا بالنُّبوَّة والوحي ؟ ! (بل هو كذّابٌ أشِرٌ) وفيه قولان .

أحدهما : أنه المَرِح المتكبِّر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : البَطِر ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (سيَعْلَمُونَ غداً) قرأ ابن عامر وحمزة : « ستَعلمون » بالتاء « غداً » فيه قولان .

أحدهما : يوم القيامة ، قاله ابن السائب .

والثاني : عند نزول العذاب بهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (إنا مُرسِلو النّاقةِ) وذلك أنهم سألوا صالحاً أن يُظْهِر لهم ناقةً من صخرة ، فقال الله تعالى : « إنّا مُرسِلو النّاقةِ » أي : مُخرجوها كما أرادوا (فِتنةً لهم) أي : مِحنةً واختباراً (فارتَقِبْهم) أي فانتظر ماهم صانعون (واصْطَبِر) على ما يُصيبُك من الأذى ، (ونَبِّئْهم أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم) أي : بين ثمود وبين الناقة ، يوم لها ويوم لهم ، فذلك قوله : (كُلُّ شِرْبٍ مُحتضَرٌ) يحضُرُهُ صاحبُه ويستحقُّه .

قوله تعالى : (فنادَوا صاحبَهم) واسمه قُدار بن سالف (فتعاطى) قال ابن قتيبة : تعاطى عَقْر الناقة (فعَقَر) أي : قتل ، وقد بيَّنّا هذا في (الأعراف : ٧٧) .

قوله تعالى : (إنا أرسلنا عليهم صَيْحةً واحدةً) وذلك أن جبريل عليه

السلام صاح بهم ؛ وقد أشرنا إلى قصتهم في (هود : ٦١) (فكانوا كهَشيم المُحتظِر) قال ابن عباس : هو الرجُل يجعل لغنمه حظيرة بالشّجر والشوك دون السِّباع ، فما سقط من ذلك وداسته الغنمُ ، فهو الهَشيم . وقد بيّنا معنى « الهشيم » في (الكهف : ٤٥) . وقال الزجّاج : الهَشيم : مايَبِس من الورق وتكسّر وتحطّم ، والمعنى : كانوا كالهَشيم الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة بعد أن بلغ الغاية في الجفاف ، فهو يُجمع ليوقد . وقرأ الحسن : « المُحتظَرِ » بفتح الظاء ، وهو اسم الحظيرة ؛ والمعنى : كهشيم المكان الذي يُحتظَر فيه الهشيم من الحطب . وقال سعيد بن جبير : هو التراب الذي يتناثر من الحيطان . وقال قتادة : كالعظام النّخِرة المحترقة . والمراد من جميع ذلك : أنهم بادوا وهلكوا حتى صاروا كالشيء المتحطّم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

قوله تعالى : (إنا أرسَلْنا عليهم حاصِباً) قال المفسرون : هي الحجارة التي قُذفوا بها (إلا آلَ لوطٍ) يعني لوط وابنتيه (نجّيْناهم) من ذلك العذاب (بسَحَرٍ) قال الفراء : « سَحَرٍ » هاهنا يجري[1] لأنه نكرة ، كقوله : نجّيناهم بلَيْلٍ ، فإذا ألقت العرب منه البـاء لم يجر ، لأن لفظهم به بالألف واللام ، يقولون : مازال عندنا منذُ السَّحَرِ ، لايكادون يقولون غيره ، فإذا حذفت منه الألف واللام لم يُصْرَف . وقال الزجاج : إذا كان السَّحر نكرة يراد به سَحَرٌ من الأسحار ، انصرف ، فاذا أردتَ سَحَرَ يومِك ، لم ينصرف .

(١) أي ينصرف .

قوله تعالى : (كذلك نجزي من شكرَ) قال مقاتل : من وحدَّ الله تعالى لم يُعَذَّب مع المشركين .

قوله تعالى : (ولقد راودوه عن ضَيفه) أي : طلبوا أن يسلِّم إليهم أضيافه، وهم الملائكة (فطَمَسْنا أعيُنَهم) وهو أن جبريل ضرب أعيُنَهم بجَناحه فأذهبها . وقد ذكرنا القصة في سورة (هود : ٨١) . وتم الكلام هاهنا ، ثم قال : (فذوقوا) أي : فقُلنا لقوم لوط لما جاءهم العذاب : ذوقوا (عذابي ونُذُرِ) أي : ما أنذركم به لوط ، (ولقد صبَّحهم بُكْرَةً) أي : أتاهم صباحاً (عذابٌ مستقِرٌ) أي : نازل بهم . قال مقاتل : استقرَّ بهم العذابُ بُكْرةً . قال الفرّاء : والعرب تُجري « غُدوة » و« بُكرة » ولا تُجريها ، وأكثر الكلام في «غُدوة» ترك الإجراء ، وأكثر في « بكرة » أن تُجرى ، فمن لم يُجرها جعلها معرفة ، لأنها اسم يكون أبداً في وقتٍ واحد بمنزلة « أمسِ » و«غدٍ» ، وأكثر ما تُجري العربُ « غُدوةً » إذا قُرنت بعشيَّةٍ ، يقولون : إني لآتيهم غُدوةً وعشيَّةً ، [وبعضهم يقول : « غُدوة » ، فلا يُجريها ، و « عشيةً »] فيُجريها ، ومنهم من لا يُجري « عشيَّة » لكثرة ما صحبت « غُدوةَ » . وقال الزجاج : الغُدوة والبُكرة إذا كانتا نكرتين نُوِّنَتا وصُرِفتا ، فإذا أردتَ بهما بُكرة يومك وغداة يومك ، لم تصرفهما ، والبُكرة هاهنا نكرة ، فالصرف أجود ، لأنه لم يثبُت رواية في أنه كان في يوم كذا في شهر كذا .

﴿ وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾

قوله تعالى : (ولقد جاء آل فرعونَ) يعني القِبْطَ (النُّذُرُ) فيهم قولان .

أحدهما : [أنه] جمع نذير ، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى .

والثاني : أن النُّذُر بمعنى الإنذار ، وقد بيَّنّاه آنفاً ، (فأخذناهم) بالعذاب (أخْذَ عَزيزٍ) أي : غالبٍ في انتقامه (مُقْتَدِرٍ) قادر على هلاكهم .

ثم خوَّف أهل مكة فقال : (أكُفّارُكم) يا معشر العرب (خيرٌ) أي : أشدُّ وأقوى (مِنْ أولئكم ؟!) وهذا استفهام معناه الإنكار ، والمعنى : ليسوا بأقوى من قوم نوح وعاد وثمود ، وقد أهلكْناهم (أمْ لكم براءةٌ) من العذاب أنه لايصيبكم ما أصابهم (في الزُّبُر) أي : في الكُتُب المتقدِّمة ، (أم يقولون نحن جميع منتصر) المعنى : أيقولون : نحن يدٌ واحدةٌ على مَنْ خالفنا فننتصر منهم ؟ وإنما وحَّد المُنْتَصِر للفظ الجميع ، فإنه على لفظ « واحد » وإن كان اسماً للجماعة (سيُهْزَمُ الجَمْعُ) وروى أبو حاتم بن يعقوب : « سنهزم » بالنون ، « الجمعَ » بالنصب ، « وتولّون » بالتاء ، ويعني بالجمع : جمع كفار مكة (ويولّون الدُّبرَ) ولم يقل : الأدبار ، وكلاهما جائز ؛ قال الفراء : مِثلُه أن يقول : إن فلاناً لكثير الدِّينار والدِّرهم . وهذا مما أخبر اللهُ به نبيَّه من عِلم الغَيب ، فكانت الهزيمة يومَ بدر .

قوله تعالى : (والسّاعةُ أدهى) قال مقاتل : هي أفظع (وأمَرُّ) من القتل قال الزجاج : ومعنى الدّاهية : الأمر الشديد الذي لا يُهتدى لدوائه ؛ ومعنى « أمَرُّ » : أشَدُّ مرارةً من القَتْل والأسْر .

﴿ إنَّ الْمُجْرِمينَ في ضَلالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغيرٍ وَكَبيرٍ مُسْتَطَرٌ . إنَّ الْمُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾

قوله تعالى : (إنَّ المجرمينَ في ضلالٍ وسُعُرٍ) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يُخاصِمونَ في القدَرَ ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (خلَقْناه بقَدَرٍ) انفرد بإخراجه مسلم من حديث أبي هريرة [١] وروى أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذه الآية نزلت في القَدَرِيَّة » [٢] .

والثاني : أن أُسْقُف نَجران جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد تزعُم أن المعاصي بقَدر ، وليس كذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم خُصَماء الله » ، فنزلت : (إن المجرمين) إلى قوله (بقَدرٍ) ، قاله عطاء .

قوله تعالى : (وسُعُرٍ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : الجنون . والثاني : العَناء ، وقد ذكرناهما في صدر السورة .

والثالث : أنه نار تَسْتَعِرُ عليهم ، قاله الضحاك .

فأمّا (سَقَر) فقال الزجّاج : هي اسم من أسماء جهنّم لاينصرف لأنها معرفة ، وهي مؤنّثة . وقرأت على شيخنا أبي منصور قال : سَقَر : اسم لنار الآخرة أعجميّ ، ويقال : بل هو عربيّ ، من قولهم : سَقَرَتْه الشمس : إذا أذابته ، سمِّيتْ بذلك لأنها تُذيب الأجسام . وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا جَمَع اللهُ الخلائق يوم القيامه أمر منادياً

---

(١) ٤/٢٠٤٦ ، ورواه أحمد في « المسند » ، والترمذي ، وابن ماجة ، والواحدي في « أسباب النزول » ٢٢٨ وابن جرير الطبري ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٣٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٣٧ : ونسبه إلى ابن عدي ، وابن مردويه ، والديلمي ، وابن عساكر ، بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه .

فنادى نداءٌ يسمعُه الأوَّلون والآخرون : أين خُصَماءُ اللهِ ؟ فتقوم القَدريَّة ، فيؤمر بهم إلى النار ، يقول الله تعالى : (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إنّا كُلَّ شيء خلقناه بقَدَرٍ)[١] ، وإنما قيل لهم : « خُصَماء الله » لأنهم يُخاصمون في أنه لايجوز أن يُقَدِّر المعصية على العَبْد ثم يعذِّبه عليها . وروى هشام بن حسان عن الحسن قال : واللهِ لو أنَّ قدرياً صام حتى يصير كالحَبْل ، ثم صلَّى حتى يصير كالوتر ، ثم أخذ ظلماً وزُوراً حتى ذُبح بين الرُّكْن والمقام لكَبَّه اللهُ على وجهه في سَقَر « إنّا كُلَّ شيء خلقناه بقدرٍ » . [وروى مسلم في أفراده من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ شيء بقدرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ »[٢] . وقال ابن عباس : كل شيء بقدرٍ حتى وضعُ يدكَ على خدِّك . وقال الزجّاج : معنى « بقَدَرٍ » أي : كل شيء خلقناه بقدرٍ مكتوبٍ في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، ونصب « كُلَّ شيء » بفعل مضمر ، المعنى : إنّا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بقَدرٍ] .

قوله تعالى : (وما أمرُنا إلاّ واحدةٌ) قال الفراء : أي : إلاّ مرَّة واحدة ، وكذلك قال مقاتل : مرَّة واحدة لامثنويّة لها . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد : إن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر . وقال ابن السائب : المعنى : وما أمرُنا بمجيء الساعة في السُّرعة إلاّ كلَمْح البصر . ومعنى اللَّمْح بالبصر : النَّظر بسرعة .

(ولقد أهلكْنا أشياعَكم) أي : أشباهكم ونُظَراءكم في الكُفر من الأمم الماضية (فهل من مُدَّكر) أي متَّعظ (وكل شيء فعلوه) يعني الأمم .

---

(١) ذكره بنصه الخازن في تفسيره نقلاً عن المؤلف ، وذكر السيوطي في « الدر » ١٣٨/٦ نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما بأطول منه من رواية ابن مردويه .

(٢) «صحيح مسلم » ٢٠٤٥/٤ والكيس : ضد العجز ، وهو النشاط والحذق بالأمور ، ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه والكيس قد قدر كيسه . والحديث رواه أيضاً أحمد في « المسند » .

وفي (الزُّبُر) قولان .

أحدهما : أنه كُتُب الحَفَظة . والثاني : اللَّوح المحفوظ .

(وكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ) أي : من الأعمال المتقدِّمة (مُستَطَرٌ) أي : مكتوب ، قال ابن قتيبة : هو « مُفتَعَلٍ من « سَطَرْتُ » : إذا كتبت ، وهو مثل « مَسْطُور » .

قوله تعالى : (في جنّاتٍ ونَهَرٍ) قال الزجّاج : المعنى : في جنّات وأنهار ، والاسم الواحد يَدلُّ على الجميع ، فيجتزأ به من الجميع . أنشد سيبويه والخليل :

بِها جِيَفُ الْحَسْرَى ، فأَمّا عِظامُها فَبِيضٌ وأَمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[1]

يريد : وأمّا جلودها ، ومثله :

في حَلْقِكُم عَظْمٌ وقد شجينا[2]

ومثله :

كُلُوا في نِصفِ بَطْنِكُمْ تَعِيشُوا[3]

وحكى ابن قتيبة عن الفراء أنه وُحِّد لأنه رأسُ آية ، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي ، قال : ويقال : النَّهَر : الضِّياء والسَّعة ، من قولك : أنْهَرْتُ الطعنة : إذا وسَّعْتَها ، قال قيس بن الخَطِيم يصف طعنة :

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَها يَرَى قائمٌ مِنْ دُونِها ما وراءَها[4]

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء ٢ صفحة ١٢٨ .

(٢) سبق الرجز في الجزء ٢ صفحة ١٢٨ .

(٣) سبق الشطر في الجزء ١ صفحة : ٢٥١ ، والجزء ٣ صفحة ٢٢٦ ، والبيت بكامله في الجزء ٤ صفحة : ٤٥٢ .

(٤) ديوانه : ٨ ، و« غريب القرآن » : ٤٣٥ ، و « مشكل القرآن » : ١٣٢ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : نهر .

أي : أوسعتُ فَتْقَها . قلت : وهذا قول الضحاك . وقرأ الأعمش « ونُهُرٍ » .

قوله تعالى : (في مَقْعَدِ صِدْقٍ) أي : مَجلِس حسن ، وقد نبَّهْنا على هذا المعنى في قوله : (أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ) [يونس : ٢] . فأمّا المَلِيك ، فقال الخطابي : المَلِيك : هو المالك ، وبناء فَعِيل للمُبالغة في الوصف ، ويكون المَلِيك بمعنى المَلِك ، ومنه هذه الآية . والمُقْتَدِر مشروح في (الكهف : ٤٥) .

سورة الرحمن

وفي نزولها قولان .

أحدهما : أنها مكيَّة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعطاء ، ومقاتل ، والجمهور ، إلاّ أن ابن عباس قال : سوى آية ، وهي قوله : (يَسْأَلُه مَنْ في السموات والأرضِ) [الرحمن : ٢٩] .

والثاني : أنها مدنيَّة ، رواه عطية عن ابن عباس . وبه قال ابن مسعود .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ . وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ . علَّم القُرآنَ) قال مقاتل : لمّا نزل قوله : (اسْجُدوا للرَّحْمٰنِ) [الفرقان : ٦٠] قال كُفّار مكَّةَ : وما الرَّحْمنُ ؟ ! فأنكروه وقالوا : لانَعرِفُ الرحمنَ ، فقال تعالى : « الرَّحْمنُ » الذي أنكروه هو الذي « علَّم القُرآنَ » .

وفي قوله : (علَّم القُرآنَ) قولان . أحدهما : علّمه محمداً ، وعلّم محمدٌ أُمَّته ، قاله ابن السائب . والثاني : يسَّر القرآنَ ، قاله الزجّاج [١] .

قوله تعالى : (خَلَقَ الإنسانَ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم جنس ، فالمعنى : خلق الناسَ جميعاً ، قاله الأكثرون . فعلى هذا ، في « البيان » ستة أقوال . أحدها : النُّطق والتَّمييز ، قاله الحسن [٢] . والثاني : الحلال والحرام ، قاله قتادة . والثالث : مايقول ومايُقال له ، قـــاله محمد بن كعب . والرابع : الخير والشر ، قـاله الضحاك . والخامس : [طُرق] الهُدى ، قاله ابن جريج . والسادس : الكتابة والخط ، قاله يمان .

والثاني : أنه آدم ، قاله ابن عباس ، وقتادة . فعلى هذا في « البيان » ثلاثة أقوال . أحدها : أسماء كل شيء . والثاني : بيان كل شيء . والثالث اللّغات .

والقول الثالث : أنه محمد ﷺ ، علّمه بيانَ ما كان وما يكون ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : (الشَّمْسُ والقمرُ بحُسْبانٍ) أي : بحساب ومنازل ، لايَعْدُوانها ؛ وقد كشَفْنا هذا المعنى في (الأنعام : ٩٦) . قال الأخفش : أضمر الخبر ، وأظُنُّه — والله أعلَمُ — أراد : يَجريان بحُسبان .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكره : الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن ، فأنعم بذلك عليكم ، إذ بصّركم به ما فيه رضى ربكم ، وعرّفكم ما فيه سخطه ، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم وعملكم بما أمركم به ، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه ، وتنجوا من أليم عقابه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى ، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها . اهـ .

قوله تعالى : (والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ) في النَّجْم قولان . أحدهما : أنه كُلُّ نَبْتٍ ليس له ساق ، وهو مذهب ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل ، واللُّغويين . والثاني : أنه نَجْم السَّماء ، والمُراد به : جميعُ النُّجوم ، قاله مجاهد . فأمّا الشَّجَرَ : فكُلُّ ماله ساق . قال الفراء : سُجودهما : أنَّهما يستقبلان الشمسَ إذا أشرقت ، ثم يَميلان معها حتى ينكسر الفَيْءُ . وقد أشرت في (النحل : ٤٩) إلى معنى سُجود مالا يَعْقِل . قال أبو عبيدة : وإنّما ثني فعلهما على لفظهما .

قوله تعالى : (والسماءَ رفَعَها) وإنما فعل ذلك ليحيا الحيوان وتمتدَّ الأنفاس ، وأجرى الرِّيح بينها وبين الأرض ، كيما يتروحَ[1] [الخَلق] . ولولا ذلك لماتت الخلائق كَرْباً .

قوله تعالى : (ووَضَعَ الميزانَ) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه العَدْل ، قاله الأكثرون ، منهم مجاهد والسدي واللغويون . قال الزجّاج : وهذا لأن المعادلة : مُوازَنة الأشياء . والثاني : أنه الميزان المعروف ، ليتناصف الناس في الحقوق ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك . والثالث : أنه القرآن ، قاله الحسين بن الفضل .

قوله تعالى : (ألاَّ تَطْغَوْا) ذكر الزجّاج في « أنْ » وجهين . أحدهما : أنها بمعنى اللام ؛ والمعنى : لئلاّ تَطْغَوْا . والثاني : أنها للتفسير ، فتكون « لا » للنهي ؛ والمعنى : أي : لاتَطْغَوْا ، أي لا تُجاوِزوا العَدْل .

قوله تعالى : (ولا تُخْسِروا الميزان) قال ابن قتيبة ، أي : لا تَنْقُصوا الوزن .

فأمّا الأنام ، ففيهم ثلاثة أقوال . أحدها : أنهم الناس ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : كل ذي رُوح ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال

(١) في الأصل : يتزوج .

مجاهد ، والشعبي ، وقتادة ، والسدي ، والفراء . والثالث : الإنس والجن ، قاله الحسن ، والزجّاج .

قوله تعالى : (فيها فاكهةٌ) أي ، مايُتفكَّه [به] من ألوان الثمار (والنَّخْلُ ذاتُ الأكمام) والأكمام : الأوعية والغُلُف ، وقد استوفينا شرح هذا في (حم السجدة : ٤٧) .

قوله تعالى : (والحَبُّ) يريد : جميع الحبوب ، كالبُر والشعير وغير ذلك . وقرأ ابن عامر : « والحَبَّ » بنصب الباء « ذا العصف » بالألف « والرَّيْحانَ » بنصب النون . وقرأ حمزة ، والكسائي إلا ابن أبي سُريج ، وخلف : « والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيْحانِ » بخفض النون ، وقرأ الباقون بضم النون .

وفي « العَصْف » قولان . أحدهما : أنه تِبن الزَّرع وورقه الذي تعصفه الرِّياح ، قاله ابن عباس . وكذلك قال مجاهد : هو ورق الزَّرع . قال ابن قتيبة : العَصْف : ورق الزَّرع ، ثم يصير إذا جفَّ ويبِس ودِيس تبناً . والثاني : أن العَصْف : المأكول من الحبِّ ، حكاه الفراء .

وفي « الرَّيْحان » أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرِّزق ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي . قال الفراء : الرَّيْحان في كلام العرب : الرِّزق ، تقول : خرجنا نطلُب رَيْحان الله ، وأنشد الزجاج للنَّمِر بن تَوْلب :

سلامُ الإلهِ ورَيْحانُه ورَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَرْ[1]

---

(١) البيت في « غريب القرآن » ٤٣٧ ، و« الطبري » : ١٢٣/٢٧ ، و« القرطبي » : ١٥٧/١٧ ، و« الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : روح ، وبعده :

غمامٌ يُنَزِّلُ رِزْقَ العبادِ فأحْيا البِلادَ وطابَ الشَّجَرْ

والثاني : أنه خُضرة الزَّرع ، رواه الوالبي عن ابن عباس . قال أبو سليمان الدمشقي : فعلى هذا ، سُمّي رَيْحاناً ، لاستراحة النَّفْس بالنظر إليه .

والثالث : أنه رَيحانكم هذا الذي يُشَمُّ ، روى العوفي عن ابن عباس قال : « الرَّيْحان » : ما أَنبتت الأرضُ من الرَّيْحان ، وهذا مذهب الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

والرابع : أنه ما [لم] يؤكل من الحَبّ ، والعَصْف : المأكول منه ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : (فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبانِ) فإن قيل : كيف خاطب اثنين ، وإنما ذكر الإنسان وحده ؟ فعنه جوابان ذكرهما الفراء . أحدهما : أن العرب تخاطب الواحد بفعل الاثنين كما بيَّنّا في قوله : (أَلقيا في جهنَّمَ)[ق : ٢٤] والثاني : أن الذِّكر أريد به : الإنسان والجانّ ، فجرى الخطاب لهما من أول السورة إلى آخرها . قال الزجاج : لمّا ذكر اللهُ تعالى في هذه السورة مايدُلُّ على وحدانيته من خَلْق الإنسان وتعليم البيان وخَلْق الشمس والقمر والسماء والأرض ، خاطب الجن والإنس ، قال : (فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبانِ) أي : فبأيِّ نِعَم ربِّكما تُكذّبان من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلَّها مُنْعَم بها عليكم في دلالتها إيّاكم على وحدانيَّته وفي رزقه إيّاكم مابه قِوامكم . وقال ابن قتيبة : الآلاء : النِّعم ، واحدها : أَلاً ، مثل : قفاً ، وإلاً ، مثل : مِعىً .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ .

فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ الإنسانَ) يعني آدم (مِنْ صَلْصالٍ) قد ذكرنا في (الحجر : ٢٦ ، ٢٧) الصَلْصال والجانّ . فأمّا قوله : (كالفَخّار) فقال أبو عبيدة : خُلق من طينٍ يابس لم يُطْبَخ ، فله صوتٌ إذا نُقِر ، فهو من يُبْسِه كالفَخّار . والفَخّار : ما طُبِخ بالنّار .

فأمّا المارِج ، فقال ابن عباس : هو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت . وقال مجاهد : هو المختلِط بعضُه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدَتْ . وقال مقاتل : هو لهب النار الصافي من غير دخان . وقال أبو عبيدة : المارج : خَلْط من النار . وقال ابن قتيبة : المارج : لهب النار ، من قولك : قد مَرِجَ الشيءُ : إذا اضطرب ولم يستقرّ . وقال الزجاج : هو اللَّهب المختلط بسواد النار .

فإن قيل : قد أَخبر اللهُ تعالى عن خَلْق آدم عليه السلام بألفاظ مختلفة ، فتارة يقول : « خَلَقه مِن تراب » [آل عمران : ٥٩] ، وتارة : « من صَلْصالٍ » ، وتارة : « مِنْ طِينٍ لازِبٍ » [الصافات : ١١] ، وتارة : « كالفَخّار » [الرحمن : ١٤] ، وتارة : « مِنْ حَمأٍ مسنونٍ » [الحجر : ٢٩] ؛ فالجواب : [أن الأصل التراب فجُعل طيناً ، ثم صار كالحمإ المسنون ، ثم صار صَلصالاً كالفَخّار ، هذه أخبار عن حالات أصله . فإن قيل : ما الفائدة في تكرار قوله : « فبأيّ آلاء ربِّكما تُكذّبانِ » الجواب] أن ذلك التكرير لتقرير النِّعم وتأكيد التذكير بها . قال ابن قتيبة : من مذاهب العرب التكرار للتوكيد

والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار [للتخفيف والإيجاز ، لأن افتنان المتكلِّم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره] في المقام على فنٍّ واحدٍ ، يقول القائل منهم : واللهِ لا أفعله ، ثم واللهِ لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع مِنْ أنْ يفعله ، كما يقول : والله أفعلُه ، بإضمار « لا » إذا أراد الاختصار ، ويقول القائل المستعجِل : اعْجَل اعْجَل ، وللرامي : ارمِ ارمِ ، قال الشاعر :

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ له وكَمْ وكَمْ [١]

وقال الآخر :

هَلاَّ سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْـ ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنا [٢]

وربَّما جاءت الصِّفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانيةً لأنها كلمة واحدةٌ ، فغيَّروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى ، كقولهم : عَطْشَانُ نَطْشَان ، وشَيطان لَيْطان ، وحَسَنٌ بَسَنٌ . قال ابن دريد : ومن الإتباع : جائع نائع ، ومليح قريح ، وقبيح شَقِيح ، وشَحيح نَحيح ، وخَبيث نَبيث ، وكَثير بَثير : وسيِّغ لَيِّغ ، وسائغ لائغ ، وحَقير نَقير ، وضَئيل بَئيل ، وخضر مضر [٣] ، وعِفْريت نِفْريت ، وثِقَةٌ نِقَةٌ ، وكِنٌّ إِنٌّ ، وواحدٌ فاحدٌ ، وحائرٌ بائرٌ ، وَسَمِجٌ لَمِجٌ . قال ابن قتيبة : فلمّا عَدَّد اللهُ تعالى في هذه السورة نعماءَه ،

---

(١) الرجز غير منسوب في « مشكل القرآن » : ١٨٣ وفيه :

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم

وهو أيضاً في « أمالي المرتضى » : ١/٨٤ ، و « الصناعتين » : ١٤٤ ، و « الصاحبي » : ١٧٧ .

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه : ١٤٢ ، و « مشكل القرآن » : ١٤٣ ، و « مختارات ابن الشجري » : ٢/٣٩ ، و « الشعر والشعراء » : ١/٢٢٤ .

(٣) قال في « اللسان » : مضر : وخذ الشيء خَضْراً مِضْراً وخَضِراً مَضِراً ، أي : غضاً طرياً .

وأذكَرَ عِبادَه آلاءه ، ونبَّهم على قُدرته ، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نِعمتين ، ليُفَهِّمهم النِّعم ويُقرِّرهم بها ، كقولك للرجل : أَلم أُبوِّئكَ مَنزِلاً وكنتَ طريداً ؟ أفتُنكِرُ هذا ؟ ألم أُحِجَّ بك وأنت صَرُورَةٌ [١] ؟ أفتُنكِرُ هذا ؟ . وروى الحاكم أبو عبد الله في « صحيحه » من حديث جابر بن عبد الله قال : قرأ علينا رسولُ الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها [ثم] قال : « مالي أراكم سكوتاً ؟! لَلجِنُّ كانوا أحسنَ منكم ردّاً ، ما قرأتُ عليهم هذه الآية من مرّة « فبأيِّ آلاء ربكما تكذّبان » إلاّ قالوا : ولا بشيء من نِعمك ربّنا نكذِّب فلك الحمد» [٢] .

قوله تعالى : (ربُّ المَشْرِقَيْنِ) قرأ أبو رجاء ، وابن أبي عبلة : « ربِّ المَشْرِقَيْن وربِّ المَغْرِبَيْن » بالخفض ، وهما مَشْرِق الصَّيف ومَشْرِق الشتاء ومَغْرِب الصَّيف ومَغْرِب الشتاء للشمس والقمر جميعاً .

قوله تعالى : (مَرَجَ البَحْرَيْن) أي : أرسل العذبَ والمِلْحَ وخلاهما وجعلها (يلتقيان) ، (بينهما برزخٌ) أي : حاجز من قدرة الله تعالى (لا يبغيان) أي : لا يختلطان فيبغي أحدهما على الآخر . وقال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كُلَّ عام . قال الحسن : « مَرَجَ البحرين » يعني [بحر] فارس والروم ، بينهما برزخ ، يعني الجزائر ، وقد سبق بيان هذا في (الفرقان : ٥٣) .

---

(١) في « اللسان » : صرر : ورجل صرور وصرورة : لم يحج قط .

(٢) رواه الترمذي ١٦١/٢ ، والحاكم في « المستدرك » : ٤٧٣/٢ من حديث الوليد ابن مسلم ثنا زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه ... وصححه ووافقه الذهبي . وقال الترمذي : غريب لانعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . قلت : وزهير بن محمد هذا وإن أخرج له الشيخان فقد قال البخاري كما في « التهذيب » : ٣٤٩/٣ : ماروى عنه أهل الشام ، فإنه مناكير ، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح ، قلت : وهذا الحديث مما رواه عنه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام .

قوله تعالى : (يَخرُجُ منهما اللؤلؤ والمَرْجان) قال الزجاج : إنما يَخرُجُ من البحر المِلْحِ ، وإنما جمعهما ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد أُخرج منهما ، ومِثْلُه (وجَعَلَ القمرَ فيهنَّ نُوراً) [نوح : ١٦] . قال أبو علي الفارسي : أراد : يَخرُجُ من أحدهما ، فحذف المضاف . وقال ابن جرير : إنما قال « منهما » لأنه يخرج من أصداف البحر عن قطر السماء .

فأمّا اللؤلؤ والمرجان ، ففيهما قولان .

أحدهما : أن المرجان : ماصَغُر من اللؤلؤ ، واللؤلؤ : العظام ، قاله الأكثرون ، منهم ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء . وقال الزجاج : اللؤلؤ : اسم جامع للحَبِّ الذي يخرج من البحر ، والمرجان : صِغاره .

والثاني : أن اللؤلؤ : الصِّغار ، والمرجان : الكبار ، قاله مجاهد ، والسدي ، ومقاتل . قال ابن عباس : إذا أمطرت السماء ، فتحت الأصدافُ أفواهها ، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ ، قال ابن جرير : حيث وقعت قطرةٌ كانت لؤلؤة . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللُّغويّ قال : ذكر بعضُ أهل اللُّغة أن المَرجان أعجميّ معرَّب . قال أبو بكر ، يعني ابن دريد : ولم أسمع فيه بفعل منصرف ، وأَحْرِ به أن يكون كذلك . قال ابن مسعود : المرجان : الخرز الأحمر . وقال الزجاج : [المَرجان] أبيض شديد البياض . وحكى القاضي أبو يعلى أن المرجان : ضرب من اللؤلؤ كالقضبان .

قوله تعالى : (وله الجَوارِ) يعني السفن (المُنْشَآتُ) قال مجاهد : هو ماقد رُفع قِلْعه من السفن دون مالم يُرفع قِلْعه . قال ابن قتيبة : هُنَّ اللواتي أُنشئن ، أي : ابتُدِىء بهنَّ (في البحر) ، وقرأ حمزة : « المُنْشِئاتُ » ، فجعلهن

اللواتي ابتدأن ، يقال : أنشأت السحابةُ تُمطر : إذا ابتدأتْ ، وأنشأ الشاعرُ يقول ، والأعلام : الجبال ، وقد سبق هذا [الشورى : ٣٢] .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عليها فانٍ) أي : على الأرض ، وهي كناية عن غير المذكور ، « فانٍ » : أي ، هالكٌ .

(ويَبقى وجهُ ربِّكَ) أي : ويبقى ربُّكَ (ذو الجلال والإكرام) قال أبو سليمان الخطابي : الجلال : مصدر الجليل ، يقال : جليل بيِّن الجلالة والجلال . والإكرام : مصدر أكرمَ يُكرِم إكراماً ، والمعنى أن الله تعالى مستحق أن يُجَلَّ ويُكرَم ، ولا يُجحَد ولا يُكفَر به ، وقد يحتمل أن يكون المعنى : أنه يُكرم أهلَ ولايته ويرفع درجاتهم ، وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين ـ وهو الجلال ـ مضافاً إلى الله تعالى بمعنى الصفة له ، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل منه ، كقوله تعالى : (هو أهلُ التَّقوى وأهلُ المَغْفِرة) [المدثر : ٥٦] فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة ، والآخر إلى العباد وهو التقوى .

قوله تعالى : (يسألُه من في السموات والأرضِ) المعنى أن الكل يحتاجون إليه فيسألونه وهو غنيٌّ عنهم (كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ) مثل أن يُحيي ويُميت ، ويُعزّ ويُذِلّ ، ويَشفي مريضاً ، ويُعطي سائلاً ، إلى غير ذلك من أفعاله . وقال الحسين بن الفضل : هو سَوق المقادير إلى المواقيت . قال مقاتل : وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت : إن الله لا يقضي في يوم السبت شيئاً ، فنزلت : « كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ » .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (سَنَفْرُغُ لكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « سَنَفْرُغُ » بنون مفتوحة . وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وعبد الوارث : [« سيَفْرُغُ »] بياء مفتوحة . وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وعاصم الجحدري ، عن عبد الوارث : « « سيُفْرَغُ » بضم الياء وفتح الراء . قال الفراء : هذا وعيد من الله تعالى ، لأنه لايشغَله شيء عن شيء ، تقول للرجل الذي لا شغل له : قد فرغتَ لي ، قد فرغت تشتمني ؟ ! أي : قد أخذتَ في هذا وأقبلتَ عليه؟ ! قال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين . أحدهما : الفراغ من شغل . والآخر : القصد للشيء ، تقول : قد فرغتُ مما كنتُ فيه ، أي : قد زال شغلي به ، وتقول : سأتفرَّغ لفلان ، أي : سأجعله قصدي ، ومعنى الآية : سنَقْصِد لحسابكم . فأمّا « الثَّقَلان » فهما الجن والإنس ، سُمِّيا بذلك لأنهما ثقل الأرض .

قوله تعالى : (أن تَنْفُذوا) أي : تخرُجوا ، يقال : نفذ الشيء من الشيء : إذا خَلَص منه ، كالسهم ينفُذ من الرَّمِيَّة ، والأقطار : النواحي والجوانب . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : إن استطعتم أن تعلَموا مافي السموات والأرض فاعلَموا ، قاله ابن عباس .

والثـاني : إن استطعتم أن تهرُبوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهرُبوا واخرُجوا منها ؛ والمراد : أنكم حيثما كنتم أدركم الموت ، هذا قول الضحاك ومقاتل في آخرين .

والثالث : إن استطعتم أن تَجُوزوا أطراف السموات والأرض فتُعجِزوا ربَّكم حتى لايقدر عليكم فجوزوا ؛ وإنما يقال لهم هذا يوم القيامة ، ذكره ابن جرير .

قوله تعالى : (لاتنفُذونَ إلاّ بسُلطانٍ) فيه ثلاثة أقوال . أحدهـا : لاتنفذون إلا في سلطان الله ومُلكه ، لأنه مالك كل شيء ، قاله ابن عباس . والثاني : لاتنفذون إلاّ بحُجَّة ، قاله مجاهد . والثـالث : لاتنفُذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (يُرْسَلُ عليكما) فثنّى على اللفظ . وقد جمع في قوله : (إن استطعتم) على المعنى .

فأمّا « الشُّواظ » ففيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه لهب النار ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع من النار . والثاني : الدُّخان ، قـاله سعيد بن جبير . والثالث : النار المحضة ، قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : هي النار التي تأجَّج لا دخان فيها ، ويقال : شُواظ وشِواظ . وقرأ ابن كثير بكسر الشين ؛ وقرأ أيضاً هو وأهل البصرة : « ونُحاسٍ » بالخفض ، والباقون برفعها .

وفي « النُّحاس » قولان .

أحدهما : أنه دخان النار ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قـال سعيد بن جبير ، والفراء وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، ومنه قول الجعديّ يذكر امرأة :

تُضيءُ كَضَوْءِ سِراجِ السَّلِيـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحاسا[1]

وذكـــر الفراء في السَّليط ثلاثة أقوال . أحدها : أنه دُهن السَّنام ، وليس له دخان إذا استُصبح به . والثاني : أنه دُهن السِّمسِم . والثالث : الزيت .

والثـــاني : أنه الصُّفْر المُذاب يُصَبُّ على رؤوسهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة . قال مقاتل : والمراد بالآية : كفار الجن والإنس ، يرسل عليهما في الآخرة لهب النار والصُّفْر الذائب ، وهي خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النـار ، ثلاثة أنهـار على مقدار الليل ، ونهران على مقدار نهار الدنيا[2] ، (فلا تَنْتَصِرانِ) أي : فلا تمتنعان من ذلك .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (فإذا انْشَقَّت السَّماءُ) أي : انفرجتْ من المجرَّة لنُزول مَنْ فيها يومَ القيامة (فكانت وردةً) وفيها قولان .

أحدهما : كلَوْنِ الفرس الوردة ، قاله أبو صالح ، والضحاك . وقال الفراء : الفرس الوردة ، تكون في الربيع وردة إلى الصُّفرة ، فإذا اشتد الحر

(١) البيت في « مجـــاز القرآن » : ٢/٢٤٥ ، و « غريب القرآن » : ٤٣٨ ، و « الطبري » : ٢٧/١٤١ ، و « اللسان » و « التاج » : نحس .

(٢) هذا الخبر لاسند له ، وراويه مقاتل — وهو ابن سليمان الأزدي المفسر — كذبوه وهجروه ورموه بالتجسيم كما في « التقريب » .

كانت وردة حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة ، فشبّه تلوّن السماء بتلوّن الوردة من الخيل ، وكذلك قال الزجاج : « فكانت وردة » أي : كلون فرس وردة ، والكُميت : الورد يتلوّن ، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف ، ولونه في الصيف خلاف لونه في الشتاء ، فالسماء تتلوّن من الفزع الأكبر . وقال ابن قتيبة : المعنى : فكانت حمراء في لون الفرس الورد .

والثاني : أنها وردة النبات ، وقد تختلف ألوانها ، إلا أن الأغلب عليها الحمرة ، ذكره الماوردي .

وفي الدّهان قولان . أحدهما : أنه واحد ، وهو الأديم الأحمر ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه جمع دُهن ، والدُّهن تختلف ألوانه بخُضرة وحُمرة وصُفرة ، حكاه اليزيدي ، وإلى نحوه ذهب مجاهد . وقال الفراء : شبّه تلوُّن السماء بتلوُّن الوردة من الخيل ، وشبّه الوردة في اختلاف ألوانها بالدُّهن .

قوله تعالى : (فيومَئذ لا يُسألُ عن ذَنْبه إنسٌ ولا جانٌّ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لايسألون ليُعلم حالهم ، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك .

والثاني : لايسأل بعضهم بعضاً عن حاله لاشتغال كل واحد منهم بنفسه ، روي القولان عن ابن عباس .

والثالث : لا يُسألون عن ذنوبهم لأنهم يُعرفون بسياهم ، فالكافر أسود الوجه ، والمؤمن أغر محجّل من أثر وضوئه ، قاله الفراء . قال الزجاج : لايُسأل أحد عن ذنْبه ليُستفهم ، ولكنه يُسأل سؤال توبيخ .

قوله تعالى : (يُعْرَفُ المُجْرِمونَ بسيماهم) قال الحسن : بسواد الوجوه ، وزَرَق الأعيُن (فيؤخذ بالنَّواصي والأقدامِ) فيه قولان . أحدهما : أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظُهورهم ، ثم يدفعونهم على وجوههم

في النار ، قاله مقاتل . والثاني : يؤخذ بالنَّواصي والأقدام ، فيُسحبون إلى النار ، ذكره الثعلبي . وروى مردويه الصائغ ، قال : صلّى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة « الرحمن » ومعنا علي بن الفضيل بن عياض ، فلمّا قرأ « يُعْرَفُ المُجْرِمون بسِيماهم » خَرَّ عليٌّ مغشياً عليه حتى فرغنا من الصلاة ، فلمّا كان بعد ذلك قلنا له : أما سمعتَ الإمام يقرأ « حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام » ؟ قال : شغلني عنها « يُعْرَفُ المُجْرِمون بسِيماهم فيؤخذ بالنَّواصي والأقدام » .

قوله تعالى : (هذه جهنَّمُ) أي : يقال لهم . هذه جهنَّمُ (التي يكذّب بها المُجْرِمونَ) يعني المشركين ، (يَطُوفون بينها) وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران الجوني : « يُطَوِّفون » بياء مضمومة مع تشديد الواو ، وقرأ الأعمش مثله إلا أنه بالتاء .

قوله تعالى : (وبين حميمٍ آنٍ) قال ابن قتيبة : الحميم : الماء الحارّ ، والآني : الذي قد انتهت شِدَّة حَرِّه . قال المفسرون : المعنى أنهم يسعَون بين عذاب الجحيم وبين الحميم ، إذا استغاثوا من النار جُعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

قوله تعالى : (ولِمَن خاف مَقام ربِّه جنَّتانِ) فيه قولان . أحدهما : قيامه بين يدي ربِّه عز وجل يوم الجزاء . والثاني : قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب . وجاء في التفسير ، أن العبد يهُمُّ بمعصية فيتركها خوفاً من الله عز

وجل فله جنَّتان ، وهما بستانان [1] .

(ذواتا أفنانٍ) فيه قولان .

أحدهما : أنها الأغصان ، وهي جمع فَنَن ، وهو الغُصن المستقيم طولاً ، وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وعطية ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنها الألوان والضروب من كل شيء ، وهي جمع فَنَن ، وهذا قول سعيد بن جبير . وقال الضحاك : ذواتا ألوان من الفاكهة .

وجمع عطاء بين القولين ، فقال : في كل غصن فُنون من الفاكهة .

قوله تعالى : (فيهما عينان تَجْرِيان) قال ابن عباس : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما : السلسبيل ، والأخرى : التسنيم . وقال عطية : إحداهما : من ماءٍ غير آسن ، والأخرى : من خمر . وقال أبو بكر الورّاق : فيهما عينان تجريان لِمَن كانت له في الدنيا عينان تَجْرِيان من البكاء .

قوله تعالى : (فيهما من كُلِّ فاكهةٍ زوجان) أي : صنفان ونوعان . قال المفسرون : فيهما من كل ما يُتفكَّه به نوعان ، رطب ويابس ، لايقصر أحدهما عن الآخر في فضله .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ

(١) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتها وما فيها ، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(مُتَّكِئِين) هذا حال المذكورين (على فُرُشٍ) جمع فِراش (بطائنُها) جمع بِطانة ، وهي التي تحت الظِّهارة . وقال أبو هريرة : هذه البطائن ، فما ظنُّكم بالظهائر ؟! وقال ابن عباس : إنما ترك وصف الظواهر ، لأنه ليس أحدٌ يعلم ما هي . وقال قتادة : البطائن : هي الظواهر بلُغة قوم . وكان الفراء يقول : قد تكون البطانة ظاهرة ، والظاهرة بطانة ، لأن كل واحد منها قد يكون وجهاً ، والعرب تقول : هذا ظَهْرُ السماءِ ، وهذا بَطْنُ السَّماءِ ، لظاهرها ، وهو الذي نراه ، وقال ابن الزبير يَعيب قَتَلَة عثمان : خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية ، فقتلهم الله كل قتلة ، ونجا منهم من نجا تحت بطون الكواكب . يعني هربوا ليلاً ؛ فجعلوا ظهور الكواكب بطوناً ، وذلك جائز في العربيَّة . وأنكر هذا القول ابن قتيبة جداً ، وقال : إنما أراد الله أن يعرِّفنا ـ من حيث نَفهم ـ فضلَ هذه الفُرُش وأن ماوليَ الأرضَ منها إستَبْرَقٌ ، وإذا كانت البِطانة كذلك ، فالظِّهارةُ أعلى وأشرفُ . وهل يجوز [لأحد] أن يقول لوجهِ مصَلٍّ : هذا بِطانتُه ، ولِما وَلِيَ الأرضَ منه : هذا ظِهارته [1] ؟! وإنما يجوز هذا في ذي الوجهين المتساويين ، تقول لِما وَلِيَك من الحائط : هذا ظَهْرُ الحائط ، ويقول جارك لِما وَلِيَه : هذا ظَهْرُ الحائط ، وكذلك السماء ماوَلِيَنا منها : ظَهْر ، وهي لِمَن فَوْقَها : بَطْن [2] . وقد ذكرنا الإستبرق في [سورة] « الكهف : ٣١ » ،

---

(١) في الأصل « بطانته » ، والتصويب من « غريب القرآن » .

(٢) في « غريب القرآن » : وهو لمن فوقها — من الملائكة — بطن .

قوله تعالى : (وجَنى الجَنَّتَين دانٍ) قال أبو عبيدة : أي : ما يُجتنى قريبٌ لايُعَنِّي الجانيَ .

قوله تعالى : (فِيهِنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ) قد شرحناه في (الصافات : ٤٨) .

وفي قوله : « فِيهِنَّ » قولان .

أحدهما : أنها تعود إلى الجَنَّتَين وغيرهما مما أُعدَّ لصاحب هذه القِصَّة ، قاله الزجاج . والثاني : أنها تعود إلى الفُرُش ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) قرأ الكسائي بضم الميم ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان : يَطْمِثُ ويَطْمُثُ ، مثل يَعْكِفُ ويَعْكُفُ . وفي معناه قولان .

أحدهما : لم يَقْتَضِضْهُنَّ ، والطَّمْثُ : النِّكاح بالتَّدمية ، ومنه قيل للحائض : طامِثٌ ، قاله الفراء .

والثاني : لَمْ يَمْسَسْهُنَّ ، يقال : ما طَمَثَ هذا البعيرَ حَبْلٌ [قَطُّ] ، أي : ما مسَّه ، قاله أبو عبيدة . قال مقاتل : وذلك لأنهنَّ خُلِقْنَ من الجَنَّة ؛ فعلى قوله ، هذا صفة الحُور . وقال الشعبي : هُنَّ من نساء الدنيا لَمْ يَمْسَسْهُنَّ مذ أُنشئن خَلْقٌ . وفي الآية دليل على أن الجِنِّيَّ يَغْشَى المرأة كالإنسيِّ .

قوله تعالى : (كأَنَّهُنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ) قال قتادة : هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجان . وذكر الزجاج أن أهل التفسير وأهل اللغة قالوا : هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجان[1] والمَرْجان : صِغار اللؤلؤ ، وهو أشدُّ بياضاً . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : « الياقوت » فارسيٌّ

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول زمره تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوإ كوكب دري في السماء ، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقها من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب » .

معرَّب ، والجمع « اليواقيت » ، وقد تكلَّمت به العربُ ، قال مالكُ بن نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعيّ :

لَنْ يُذْهِبَ اللُّؤْمَ تاجٌ قَدْ حُبِيتَ بِهِ مِنَ الزَّبَرْجَدِ والياقوتِ والذَّهَبِ [١]

قوله تعالى : (هَلْ جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ) قال الزجاج ، أي : ما جزاءُ مَنْ أحسنَ في الدُّنيا إلاّ أن يُحسَنَ إليه في الآخرة . وقال ابن عباس : هل جزاءُ من قال : « لا إله إلاّ اللهُ » وعَمِلَ بما جاء به محمدٌ ﷺ إلاّ الجنة . وروى أنس بن مالك قال : قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية ، وقال : « هل تدرون ما قال ربُّكم » ؟ قالوا : اللهُ ورسُوله أعلمُ ، قال : « فإن ربَّكم يقول : هل جزاءُ مَنْ أنعَمْنا عليه بالتوحيد إلاّ الجنّة » [٢] ؟! .

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُدْهَامَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ . فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاَءِ

(١) البيت في « المعرّب » : ٣٥٦ .

(٢) رواه البغوي في « تفسيره » وفي إسناده ضعف ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٤٩/٦ وزاد نسبته للحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » والديلمي في « مسند الفردوس » وابن النجار في « تاريخه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وقال السيوطي في « الدر » ١٤٩/٦ : أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » وضعفه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد الا الجنة » . قال : وأخرج عبد حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قوله : (هل جزاء الإحسان الا الإحسان) قال رسول الله ﷺ : « هل جزاء من أنعمت عليه من قال : لا اله الا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة » .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

قوله تعالى : (ومِنْ دُونِهما جنَّتانِ) قال الزجاج : المعنى : ولِمَن خاف مقام ربِّه جنَّتان ، وله مِن دونها جنَّتان .

وفي قوله : « ومِنْ دونِهما » قولان .

أحدهما : دونهما في الدَّرج ، قاله ابن عباس .

والثاني : دونهما في الفضل كما روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « جنَّتان من ذهب وجنَّتان من فضة »(١) ، وإلى نحو هذا ذهب ابن زيد ، ومقاتل .

قوله تعالى : (مُدْهامَّتانِ) قال ابن عباس [وابن الزبير] : خضراوان من الرِّيّ . وقال أبو عبيدة : من خُضرتهما قد اسودَّتا . قال الزجاج : يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتُهما إلى السَّواد ، وكل نبت أخضر فتمام خُضرته وريِّه أن يَضرب إلى السَّواد .

قوله تعالى : (نضَّاختان) قال أبو عبيدة : فوّارتان . وقال ابن قتيبة : تفوران ، و « النَّضْخ » أكثر من « النَّضْح » . وفيما يفوران به أربعة أقوال .

أحدها : بالمسك والكافور ، قاله ابن مسعود . والثاني : بالماء ، قاله ابن عباس . والثالث : بالخير والبركة ، قاله الحسن . والرابع : بأنواع الفاكهة ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : (ونَخْلٌ ورُمّانٌ) قال ابن عباس : نَخْلُ الجنَّة : جذوعها

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤٧٩ ومسلم ١/١٦٣ ولفظه بتمامه : « جنتان من فضة آنيتها وما فيها ، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

زمرُّد أخضر ، وكَرَبُها : ذهبٌ أحمر [١] ، وسَعَفها : كُسوة أهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم وحُللهم . وقال سعيد بن جبير : نخل الجنة : جذوعها من ذهب ، وعروقها من ذهب ، وكرانيفها من زمرُّد ، ورُطَبها كالدِّلاء أشد بياضاً من اللَّبَن ، وألين من الزُّبد ، وأحلى من العسل ، ليس له عَجَم [٢] . قال أبو عبيدة : الكرانيف : أصول السَّعَف الغلاظ ، الواحدة : كرْنافَة [٣] . وإنما أُعاد ذِكر النَّخْل والرُّمّان ـ وقد دخلا في الفاكهة ـ لبيان فضلها كما ذكرنا في قوله : (وملائكتِه ورُسُله وجِبريل ومِيكالَ) [البقرة : ٩٨] ، هذا قول جمهور المفسرين واللُّغويِّين . وحكى الفراء والزجاج أن قوماً قالوا : ليسا من الفاكهة ؛ قال الفراء : وقد ذهبوا مذهباً ، ولكن العرب تجعلها فاكهة . قال الأزهري : ما علمتُ أحداً من العرب قال في النخيل والكروم وثمارها : إنها ليست من الفاكهة ، وإنما قال من قال ، لقِلَّة عِلْمه بكلام العرب ، فالعرب تذكرُ أشياء جملة ثم تخُصُّ شيئاً منها بالتسمية تنبيهاً على فضل فيه ، كقوله : « وجِبريلَ ومِيكالَ » [البقرة : ٩٨] ؛ فمن قال : ليسا من الملائكة كفر ، ومن قال : ثمر النخل والرمان ليسا من الفاكهة جهل .

قوله تعالى : (فِيهِنَّ) يعني في الجِنان الأربع (خَيْراتٌ) يعني الحُور . وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : « خَيِّراتٌ » بتشديد الياء . قال اللغويون : أصله « خَيِّراتٌ » بالتشديد ، فخُفِّف ، كما

---

(١) قال في « النهاية » : وفي صفة نخل الجنة : كرَبها ذهب ، وهو بالتحريك أصل السعف ، وقيل : ما يبقى من أصوله في النخلة بعد القطع كالمراقي .

(٢) العجم بالتحريك : النوى ، الواحدة : عجمة ، مثل قصبة وقصب .

(٣) كرنافة : بكسر الكاف وضمها .

قيل : هَيْنٌ لَيْنٌ ، وهَيِّنٌ لَيِّنٌ . وروت أمُّ سلَمة عن النبي ﷺ أنه قال : « خَيْراتُ الأخلاقِ حِسان الوُجوه »[1] .

قوله تعالى : (حُورٌ مقصوراتٌ) قد بيَّنّا في سورة « الدخان : ٥٤ » معنى الحُور .

وفي المقصورات قولان .

أحدهما : المحبوسات في الحِجَال ، قاله ابن عباس ، وهو مذهب الحسن ، وأبي العالية ، والقرظي ، والضحاك ، وأبي صالح .

والثاني : المقصورات الطَّرف على أزواجهنّ ، فلا يرفعن طَرْفاً إلى غيرهم ، قاله الربيع . وعن مجاهد كالقولين . والأول أصح ، فإن العرب تقول : امرأة مَقْصُورة وقَصيرة وقَصُورَة : إذا كانت ملازمة خدرها ، قال كُثيِّر :

لَعَمْري لقد حبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ إليَّ ، وما تَدْري بذاكَ القَصَائِرُ[2]
عَنَيْتُ قَصيرات الحِجَالِ ، ولَمْ أُرِدْ قِصارَ الخُطى ، شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ

وبعضهم ينشده : قَصُورَة ، وقَصُورات ، والبحاتر : القِصار .

وفي « الخيام » قولان .

أحدهما : أنها البيوت .

والثاني : خيام تضاف إلى القصور . وقد روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ [أنه] قال : « إن للمؤمن في الجنة لَخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوَّفةٍ ، طُولها في السماء ستُّون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون

---

(١) رواه ابن جرير الطبري ١٥٨/٢٧ وفي سنده ضعف ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٥٠/٦ وزاد نسبته للطبراني ، وابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها .

(٢) البيتان في « غريب القرآن » : ٤٤٣ ، و « القرطبي » : ١٨٩/١٧ ، و « البحر » : ١٨٦/٨ ، و « اللسان » و « التاج » : قصر .

يطوف عليهم[المؤمن] ، فلا يرى بعضهم بعضاً »[1].وقال عمر بن الخطاب ، وابنُ مسعود، وابن عباس : الخيام : دُرٌّ مُجوَّف . وقال ابن عباس : الخيمة : لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

قوله تعالى : (مُتَّكِئين على رَفْرَف) وقرأ عثمان بن عفان ، وعـاصم الجحدري ، وابن محيصن : « على رَفَارِفَ » جمع غير مصروف . وقرأ الضحاك ، وأبو العالية ، وأبو عمران الجوني مثلهم ، إلاّ أنهم صرفوا « رفارف » قال ثعلب : إنما لم يقل : أخضر ، لأن الرَّفرف جمع ، واحدته : رفرفة ، كقوله : (الذي جَعَلَ لكم من الشجر الأخضر ناراً) [يس : ٨٠] ولم يقل : الخُضْر ، لأن الشجر جمع ، تقول : هذا حصىً أبيض ، وحصى أسود ، قال الشاعر :

أَحَقّاً عِبادَ اللهِ أنْ لستُ ماشيـاً بِهِرْجَابَ مادامَ الأَراكُ به خُضْرا[2]

واختلف المفسرون في المراد بالرَّفرف على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها فضول المحابس [والبُسُط] ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : هي : الفُرُش والبُسط . وحكى الفراء ، وابن قتيبة : أنهـا المحابس[3] . وقال النقاش : الرَّفرف : المحابس الخُضْر فوق الفُرُش .

والثاني : أنها رياض الجنة ، رواه أبو صـالح عن ابن عباس ، وبه قـال سعيد بن جبير .

والثالث : أنها الوسائد ، قاله الحسن .

---

(١) رواه البخاري ٤٧٩/٨ ومسلم ٢١٨٢/٤ .

(٢) الشطر الثاني من البيت في « اللسان » و « التاج » : هرجب . و « هرجاب » : اسم موضع .

(٣) المحابس : جمع محبس ، وهو الثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه .

قوله تعالى : (وعبقريٍّ حِسانٍ) فيه قولان .

أحدهما : أنها الزَّرابيّ ، قاله ابن عباس ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وكذلك قال ابن قتيبة : العبقريّ : الطّنافِس الثّخان . قال أبو عبيدة : يقال لكل شيء من البُسُط : عبقريّ .

والثاني : أنه الدِّيباج الغليظ ، قاله مجاهد . قال الزجاج : أصل العبقريّ في اللغة أنه صفة لكل مابُولِغَ في وصفه ، وأصلُه أن عبقر : بلد كان يوشى فيه البُسط وغيرها ، فنُسب كل شيء جيِّد إليه ، قال زهير :

بِخَيْلٍ عليهـا جِنَّةٌ عَبْقَـرِيَّةٌ جَدِيرونَ يَوْماً أن يَنالوا فيَسْتَعْلُوا[1]

وقرأ عثمان بن عفان ، وعاصم الجحدري ، وابن محيصن : « وعَباقِرِيَّ » بألف مكسورة القاف مفتوحة الياء من غير تنوين ؛ قال الزجاج : ولا وجه لهذه القراءة في العربية ، لأن الجمع الذي بعد ألفه حرفان ، نحو ؛ مساجد ومفاتح ، لايجوز أن يكون فيه مثل عباقِرِي ، لأن ماجاوز الثلاثة لا يُجمع بياء النَّسب ، فلو جمعت « عبقريّ » كان جمعُه « عباقرة » ، كما أنك لو جمعت « مُهلبيّ » كان جمعه « مَهالبة » ، ولم تقل : « مَهالبيّ » ، قال : فـإن قيل : « عبقريّ » واحد ، و « حِسـان » جمع ، فكيف جاز هذا ؟ فالأصل أن واحد هذا « عبقريّة » والجمع « عبقري » ، كما تقول : تَمْرة ، وتَمْر ، ولَوْزة ، ولَوْز ، ويكون أيضاً « عبقرى » اسماً للجنس .

وقرأ الضحاك ، وأبو العالية ، وأبو عمران : « وَعباقِرِيٌّ » بألف مع التنوين .

---

(١) ديوانه : ١٠٣ ، و « مجاز القرآن » : ٢٤٦/٢ : و « القرطبي » : ١٩٢/١٧ ، و « اللسان » : عبقر .

قوله تعالى : (تبارك اسمُ ربِّكَ) فيه قولان .

أحدهما : أن ذِكْر « الاسم » صِلَة ، والمعنى : تبارك ربُّك .

والثاني : أنه أصل . قال ابن الأنباري : المعنى : تفاعل من البَرَكة ، أي : البَرَكة تُنال وتُكْتَسَب بذِكْر اسمه . وقد بيَّنَّا معنى « تبارك » في « الأعراف : ٥٤ » ، وذكرنا في هذه السورة معنى (ذي الجلال والإكرام) (الرحمن : ٢٧) ، وكان ابن عامر يقرأ : « ذو الجلال » وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ؛ والباقون : « ذي الجلال » وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والعراق ، [وهم] متفقون على الموضع الأول أنه « ذو » .



سورة الواقعة

وفيها قولان .

أحدها : أنها مكيَّة ، قاله الأكثرون ، منهم ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، وجابر ، ومقاتل . وحكي عن ابن عباس أن فيها آية مدنيَّة وهي قوله : (وَتَجْعَلونَ رِزْقَكم أنَّكم تُكَذِّبون) [الواقعة : ٨٣] .

والثاني : أنها مدنيَّة ، رواه عطيَّة عن ابن عباس .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً . وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلٰثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

قوله تعالى : (إذا وقَعَتِ الواقعةُ) قال أبو سليمان الدمشقي : لمّا قال المشركون : متى هذا الوعد ، متى هذا الفتح ؟! نزل قوله : (إذا وَقَعَتِ الواقعةُ) ، فالمعنى : يكون إذا وقعت الواقعة . قال المفسرون : والواقعة : القيامة ، وكل آتٍ يتوقع ، يقال له إذا كان : قد وقع ، والمراد بها هاهنا : النَّفخة في الصُّور لقيام الساعة .

(ليس لِوَقْعَتِها) أي: لظُهورها ومَجيئها (كاذبةٌ) أي : كذب ، كقوله : (لا تَسْمَعُ فيها لاغيةً) [الغاشية : ١١] أي : لغواً . قال الزجاج : و « كاذبة » مصدر ، كقولك : عافاه الله عافيةً ، وكَذَب كاذبةً ، فهذه أسماء في موضع المصدر . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : لا رجعةَ لها ولا ارتداد ، قاله قتادة . والثاني : ليس الإخبار عن وقوعها كذباً ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (خافضةٌ) أي : هي خافضة (رافعةٌ) وقرأ أبو رزين[1] ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، واليزيدي في اختياره : « خافضةً رافعةً » بالنصب فيهما . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنها خفضتْ فأسمعتِ القريبَ ، ورفعتْ فأسمعتِ البعيدَ ، رواه العوفي عن ابن عباس . وهذا يدل على أن المراد بالواقعة : صيحة القيامة .

والثاني : أنها خفضت ناساً ، ورفعت آخرين ، رواه عكرمة عن ابن عباس . قال المفسرون : تخفض أقواماً إلى أسفل السافلين في النار ، وترفع أقواماً إلى عِلِّيِّين في الجنة .

قوله تعالى : (إذا رُجَّتِ الأرض رَجّاً) أي : حُرِّكتْ حركةً شديدةً وزُلزلتْ ، وذلك أنها ترتجُّ حتى ينهدم ما عليها من بناء ، ويتفتَّت ما عليها من جبل . وفي ارتجاجها قولان .

أحدهما : أنه لإماتة مَن عليها من الأحياء . والثاني : لإخراج من في بطنها من الموتى .

قوله تعالى : (وبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً) فيه قولان .

---

(١) في النسخة الاستنبولية : أبو المتوكل .

أحدها : فُتِّت فَتّاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . قال ابن قتيبة : فُتِّتتْ حتى صارت كالدَّقيق والسَّويق المبسوس .

والثاني : لُتَّتْ ، قاله قتادة . وقال الزجاج : خُلِطتْ ولُتَّت . قال الشاعر :

لا تَخْبِزوا خَبْزاً وبُسَّا بَسّاً [1]

وفي « الهَباء » أقوال قد ذكرناها في (الفرقان : ٢٣) . وذكر ابن قتيبة أن الهَباء المُنْبَثّ : ماسطع من سنابك الخيل ، وهو من « الهَبْوَة » ، والهَبْوَة : الغُبار . والمعنى : كانت تراباً منتشراً .

قوله تعالى : (وكنتم أزواجاً) أي : أصنافاً (ثلاثةً) .

(فأصحابُ الميمنة) فيهم ثمانية أقوال .

أحدها : [أنهم] الذين كانوا على يمين آدم حين أُخرجت ذُرِّيَّتهُ مِنْ صُلبه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين يُعْطَون كتبهم بأيمانهم ، قاله الضحاك ، والقرظي .

والثالث . أنهم الذين كانوا ميامين على أنفُسهم ، أي : مباركين ، قاله الحسن ، والربيع .

والرابع : أنهم الذين أُخذوا من شِقّ آدم الأيمن ، قاله زيد بن أسلم .

والخامس : أنهم الذين منزلتهم عن اليمين ، قاله ميمون بن مهران .

والسادس : أنهم أهل الجنة ، قاله السدي .

والسابع : أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة ، قاله الزجاج .

---

(١) الرجز في « مجاز القرآن » : ٢٤٨/٢ ، و « الطبري » : ١٦٧/٢٧ ، و « القرطبي » : ١٩٦/١٧ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : بسس .

والثـــامن : أنهم الذين يؤخذ [بهم] ذاتَ اليمين إلى الجنة ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : (ما أصحابُ المَيْمَنَة) قال الفراء : عجَّب نبيَّه ﷺ منهم ؛ والمعنى : أيُّ شيء هُمْ ؟ ! قال الزجاج : وهذا اللفظ في العربية مجراه مجرى التعجب ، ومجراه من الله عز وجل في مخاطبة العباد ما يعظم به الشأن عندهم ، ومثلُه : (ما الحاقّة) [الحاقة : ٢] ، (ما القارعة) [القارعة : ٢] ، قال ابن قتيبة : ومثلُه أن يقول : زَيدٌ ما زَيدٌ ! أي : أيُّ رجُل هو ! (وأصحابُ المشأمة ما أصحابُ المشأمة) [أي : أصحاب] [1] الشمال ، والعرب تسمِّي اليدَ اليسرى : الشُّؤمى ، والجانبَ الأيسر : الأشأم ، ومنه قيل : اليُمْن والشُّؤم ، فاليُمْن : كأنه [ما] [1] جاء عن اليمين ، والشؤم [ما جاء] عن الشمال ، ومنه سمِّيت « اليَمَن » و « الشأم » لأنها عن يمين الكعبة وشمالها . قال المفسرون : أصحاب الميمنة : هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين ، ويعطَون كتبهم بأيمانهم ؛ وتفسير أصحاب المشأمة على ضد تفسير أصحاب الميمنة سواء ؛ والمعنى : أيُّ قوم هم ؟ ! ماذا أُعِدَّ لهم من العذاب ؟ ! .

قوله تعالى : (والسابقون السابقون) فيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أُمَّة ، قاله الحسن ، وقتادة . والثاني : أنهم الذين صلّوا [إلى] القِبلتين ، قاله ابن سيرين . والثالث : أهل القرآن ، قاله كعب . والرابع : الأنبياء ، قاله محمد بن كعب . والخامس : السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله ، قاله عثمان بن أبي سودة .

وفي إعادة ذِكْرهم قولان .

(١) زيادة من « غريب القرآن » .

أحدها : أن ذلك للتوكيد .

والثاني : أن المعنى : السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ، ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : (أولئك المقرَّبون) قال أبو سليمان الدمشقي : يعني عند الله في ظل عرشه وجواره .

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً . إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾

قوله تعالى : (ثُلَّة من الأوَّلين) الثُلَّة : الجماعة غير محصورة العدد .

وفي الأوَّلين والآخِرين هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الأوَّلين : الذين كانوا من زمن آدم إلى زمن نبيِّنا ﷺ ، والآخِرون : هذه الأمة .

والثاني : [أن الأولين] : أصحاب رسول الله ﷺ ، والآخرين : التابعون .

والثالث : أن الأولين [والآخرين : من] أصحاب نبيِّنا محمد ﷺ .

فعلى الأول يكون المعنى : إن الأولين السابقين جماعة من الأمم المتقدِّمة الذين سبقوا بالتصديق لأنبيائهم مَنْ جاء بعدهم مؤمناً ، وقليلٌ من أمَّة محمد ﷺ ، لأن الذين عاينوا الأنبياء أجمعين وصدَّقوا بهم أكثر ممّن عاين نبيَّنا وصدَّق به .

وعلى الثاني : أن السابقين : جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، وقليل من التابعين وهم الذين اتّبعوهم باحسان .

وعلى الثالث : أن السابقين : الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، وقليل ممّن جاء بعدهم لعجز المتأخّرين أن يلحقوا الأوّلين ، فقليل منهم من يقاربهم في السّبق .

وأمّا « الموضونة » ، فقال ابن قتيبة : هي المنسوجة ، كأن بعضها أُدخِلَ في بعض ، أو نُضِّد بعضُها على بعض ، ومنه قيل للدِّرع : مَوْضونة ، ومنه قيل : وَضِينُ النّاقة ، وهو بِطانٌ من سُيور يُدْخَل بعضُه في بعض . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الآجُرُّ موضونٌ بعضُه على بعض ، اي : مُشْرَج .

وللمفسرين في معنى « مَوْضُونةٍ » قولان .

أحدهما : مرمولة بالذهب[1] ، رواه مجاهد عن ابن عباس . وقال عكرمة : مشبكة بالدُّرِّ والياقوت ، وهذا مَعنى ماذكرناه عن ابن قتيبة ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : مصفوفة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الكهف : ٣٠] إلى قوله : (وِلْدانٌ مُخلَّدونَ) الوِلْدان : الغِلْمان . وقال الحسن البصري : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيُجْزَون بها ، ولا سيِّئات فيعاقبون عليها ، فوُضعوا بهذا الموضع .

وفي المخلَّدين قولان .

أحدهما : أنه من الخُلد ، والمعنى : أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيَّرون ، وهم على سنٍّ واحد . قال الفراء : والعرب تقول للإنسان إذا كَبِر ولم يَشْمَط : أو لم تذهب أسنانه عن الكِبَر : إنه لمخلَّد ، هذا قول الجمهور .

---

(١) مرمولة : منسوجة .

والثاني : أنهم المُقَرَّطُون ، ويقال : المُسَوَّرون ، ذكره الفراء ، وابن قتيبة ، وانشدوا في ذلك :

وُمخَلَّداتٌ باللُّجَيْنِ كأنَّما أعجازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ [١]

قوله تعالى : (بأكوابٍ وأباريقَ) الكوب : إناء لا عروة له ولا خُرطوم ، وقد ذكرناه في « الزخرف : ٧٢ » ، والأباريق : آنية لها عُرىً وخراطيم ، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : الإبريق : فارسيٌّ معرَّب ، وترجمتُه من الفارسية أحدُ شيئين ، إمّا أن يكون : طريقَ الماء ، أو : صبَّ الماءِ على هِينة ، وقد تكلمتْ به العربُ قديماً ، قال عديٌّ بن زيد :

ودَعَا بالصَّبُوحِ يوماً فجاءتْ قَيْنَةٌ في يمينها إبريقُ [٢]

وباقي الآيات في « الصافات : ٤٦ » .

قوله تعالى : (لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفُونَ) فيه قولان .

أحدهما : لا يَلْحَقُهم الصُّداع الذي يلحق شاربي خمر الدنيا . و « عنها » كناية عن الكأس المذكور ، والمراد بها : الخمر ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : لا يتفرَّقون عنها ، من قولك : صدَّعتُه فانْصَدَع ، حكاه ابن قتيبة . « ولا يُنْزِفونَ » مفسر في « الصافات : ٤٧ » [٣] .

---

(١) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » : ٤٤٧ ، و « القرطبي » ٢٠٢/١٧ ، و « اللسان » و « التاج » : قوز . والأقاوز : جمع قَوْز ، وهو كثيب من الرمل صغير شبه به أرداف النساء ، فالإضافة للبيان .

(٢) البيت في « المعرَّب » للجواليقي : ٢٣ .

(٣) قال ابن كثير : وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السُّكر ، والصُّداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال . اهـ .

قوله تعالى : (مِمَّا يتخيَّرون) أي : يختارون ، تقول : تخيَّرتُ الشيءَ : إذا أخذتَ خيره .

قوله تعالى : (ولحمِ طيرٍ) قال ابن عباس : يخطُر على قلبه الطير ، فيصير ممثَّلاً بين يديه على ما اشتهى . وقال مغيث بن سمي : تقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْت [١] ، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه ، فيجيء حتى يقع على خوانه [٢] ، فيأكل من أحد جانبيه قديداً والآخرِ شِواءً ، ثم يعود طيراً فيطير فيذهب .

قوله تعالى : (وحُورٌ عينٌ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « وحُورٌ عينٌ » بالرفع فيهما . وقرأ أبو جعفر ، وحمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم : بالخفض فيهما . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وعائشة ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : « وحُوراً عِيناً » بالنصب فيهما . قال الزجاج : والذين رفعوا كرهوا الخفض ، لأنه معطوف على قوله : (يطوف عليهم) ، قالوا : والحُور ليس مِمَّا يُطاف به ، ولكنه مخفوض على غير ما ذهب إليه هؤلاء ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون بأكوابٍ ينعمون بها ، وكذلك ينعمون بلحم طير ، فكذلك ينعمون بحُورٍ عِينٍ ، والرفع أحسن ، والمعنى : ولهم حُورٌ عِينٌ ؛ ومن قرأ « وحُوراً عِيناً » حمله على المعنى ، لأن المعنى : يُعطَون هذه الأشياء ويُعطَون حُوراً عِيناً ، إلاّ أنها تُخالِف المصحف فتُكْرَه . ومعنى (كأمثال اللُّؤلؤ) أي : صفاؤهُنَّ وتلألؤهُنّ كصفاء اللُّؤلؤ وتلألئه . والمكنون : الذي لم يغيِّره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال ، فهُنَّ كاللؤلؤ حين يخرج من صدفه .

---

(١) البُخْت : الإبل الخُراسانية .

(٢) الخوان ، بضم الخاء وكسرها : الذي يؤكل عليه .

(جزاءً) منصوب مفعول له ، والمعنى : يُفعل بهم ذلك جزاءً بأعمالهم ، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مصدر ، لأن معنى « يطوف عليهم وِلدانٌ مخلَّدون » : يُجازَون جزاءً بأعمالهم ، وأكثر النحويِّين على هذا الوجه .

قوله تعالى : (لا يَسْمَعون فيها لَغْواً) قد فسرنا معنى اللَّغو والسلام في سورة (مريم : ٦٢) ومعنى التأثيم في (الطور : ٢٣) ومعنى « ماأصحابُ اليمين » في أول هذه السورة [الواقعة : ٩] .

فإن قيل : التأثيم لا يُسمع فكيف ذكره مع المسموع ؟

فالجواب : أن العرب يُتْبِعون آخرَ الكلام أوَّلَه ، وإن لم يحسُن في أحدهما ما يحسُن في الآخر ، فيقولون : أكلتُ خبزاً ولبَناً ، واللَّبَن لايؤكل ، إنما حسُن هذا لأنه كان مع مايؤكل ، قال الفراء : أنشدني بعض العرب :

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يَوْماً وَزَجَّجْنَ الْحَواجِبَ والعُيُونا [(١)]

قال : والعَيْنُ لا تُزَجَّج إنما تُكَحَّل ، فردَّها على الحاجب لأن المعنى يُعْرَف ، وأنشدني آخر :

ولَقِيتُ زَوْجَكِ في الوغى متقلِّداً سَيْفاً ورُمْحاً [(٢)]

وأنشدني آخر :

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً [(٣)]

والماء لا يُعْلَف وإنما يُشْرَب ، فجعله تابعاً للتِّبن ، قال الفراء : وهذا [هو]

---

(١) البيت غير منسوب في « مشكل القرآن » : ١٦٥ ، و « الطبري » : ١٧٦/٢٧ ، و « أساس البلاغه » و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : زجج .

(٢) سبق البيت في الجزء ٢ صفحة ٣٠١ .

(٣) سبق الشطر في الجزء ٢ صفحة ٣٠١ .

وجه قراءة من قرأ ، « وحُورٍ عِينٍ » بالخفض ، لإتباع آخر الكلام أوَّله ، وهو وجه العربيَّة .

﴿ وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٌّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾

وقد شرحنا معنى قوله : (وأصحابُ اليمين) في قوله : (فأصحاب الميمنة) [الواقعة : ٩] . وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : أصحاب اليمين : أطفال المؤمنين[1] .

قوله تعالى : (في سِدْرٍ مخضود) سبب نزولها أن المسلمين نظروا إلى وَجٍّ . وهو وادٍ بالطائف مخصبٌ . فأعجبهم سِدْرُه ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية ، والضحاك .

وفي المخضود ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي لا شَوْكَ فيه ، رواه أبو طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقسامة بن زهير . قال ابن قتيبة : كأنه خُضِدَ شوكُه ، أي : قلع ، ومنه قول النبي ﷺ في المدينة : لا يُخْضَدُ شوكُها »[2] .

---

(١) رواه الطبري ٢٧/١٧٩ وفي سنده عثمان بن قيس وهو ضعيف .

(٢) رواه أحمد في « المسند » رقم (٢٩٢٣) ولفظه بتمامه : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي حرم ، وحرمي المدينة ، اللهم إني أحرمها بحرمك ، أن لا يؤوى فيها محدث ، ولا يختلى خلاها ، ولا يعضد شوكها ، ولا تؤخذ لقطتها إلا لمنشد » وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٣/٣٠١ : عن أحمد وحسنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤/٣٧ : ووقع في رواية لعمر بن شبة بلفظ « لا يخضد » بالخاء المعجمه بدل العين المهملة ، وهو راجع إلى معناه ، فان أصل الخضد : الكسر ويستعمل في القطع . اهـ .

والثاني : أنه المُوقَر حملاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والضحاك .

والثالث : أنه المُوقَر الذي لا شوك فيه ، ذكره قتادة .

وفي الطَّلْح قولان .

أحدهما : أنه الموز ، قاله عليّ ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، [والحسن] ، وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه شجر عظام كبار الشوك ، قال أبو عبيدة : هذا هو الطَّلْح عند العرب ، قال الحادي :

بَشَّرَهـا دليلُهـا وقالا   غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والجبالا[1]

فإن قيل : ما الفائدة في الطَّلْح ؟

فالجواب أن له نَوْراً وريحاً طيِّبة ، فقد وعدهم ما يعرفون ويميلون إليه ، وإن لم يقع التساوي بينه وبين ما في الدنيا . وقال مجاهد : كانوا يُعْجَبون بـ « وَجّ » وظِلاله من طلحه وسدره . فأمّا المنضود ، فقال ابن قتيبة : هو الذي قد نُضِدَ بالحَمْل أو بالورق والحَمْل من أوّله إلى آخره ، فليس له ساق بارزة ، وقال مسروق : شجر الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها .

قوله تعالى : (وظلٍّ ممدودٍ) أي : دائم لا تنسخه الشمس[2] .

(وماءٍ مسكوبٍ) أي : جارٍ غير منقطع .

---

(١) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » : ٢/٢٥٠ ، و « الطبري » : ٢٧/١٨١ ، ونسبه « القرطبي » : ١٧/٢٠٨ إلى الجعدي .

(٢) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم (وظل ممدود) »

قوله تعالى : (لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا مقطوعة في حين دون حين ، ولا ممنوعة بالحيطان والنواطير ، إنما هي مُطْلَقة لمن أرادها ، هذا قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . ولخصه بعضهم فقال : لا مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان .

والثاني : لا تنقطع إذا جُنِيَتْ ، ولا تُمْنع من أحد إذا أُريدت ، روي عن ابن عباس .

والثالث : لا مقطوعة بالفَناء ، ولا ممنوعة بالفساد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وفُرُشٍ مرفوعةٍ) فيها قولان .

أحدهما : أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم . وفي رفعها قولان . أحدهما : [أنها] مرفوعة فوق السُّرر . والثاني : أن رفعها : زيادة حشوها ليطيب الاستمتاع بها .

والثاني : أن المراد بالفِراش : النساء ، والعرب تسمّي المرأة : فِراشاً وإزاراً ولباساً ، وفي معنى رفعهن ثلاثة أقوال . أحدها : أنهن رُفِعْن بالجمال على نساء أهل الدنيا ، والثاني : رُفِعْن عن الأدناس . والثالث : في القلوب لشِدَّة الميل إليهن .

قوله تعالى : (إنّا أنشأناهُنَّ إنشاءً) يعني النساء . قال ابن قتيبة : اكتفى بذِكْر الفُرُش لأنها محل النساء عن ذكرهن . وفي المشار إليهن قولان .

أحدهما : أنهن نساء أهل الدنيا المؤمنات ، ثم في إنشائهن قولان . أحدهما : أنه إنشاؤهن من القبور ، قاله ابن عباس . والثاني : إعادتهن بعد الشَّمَط [1] والكِبَر أبكاراً صغاراً ، قاله الضحاك .

---

(١) الشَّمَط : الشَّيْب .

والثاني : أنهن الحُور العين ، وإنشاؤهن : إيجادهن عن غير ولادة ، قاله الزجاج . والصواب أن يقال : إن الإنشاء عمَّهُنَّ كُلَّهن ، فالحُور أُنشئن ابتداء ، والمؤمنات أنشئن بالإعادة وتغيير الصفات ، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ من المنشآت اللاّتي كُنَّ في الدنيا عجائزَ عُمْشاً رُمْصاً »[1] .

قوله تعالى : (فجعلناهُنَّ أبْكاراً) أي : عذارى . وقال ابن عباس : لا يأتيها زوجها إلاّ وجدها بِكْراً .

قوله تعالى : (عُرُباً) قرأ الجمهور : بضم الراء . وقرأ حمزة ، وخلف : بإسكان الراء ؛ قال ابن جرير : هي لغة تميم وبكر .

وللمفسرين في معنى « عُرُباً » خمسة أقوال .

أحدها : أنهن المتحبِّبات إلى أزواجهن ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وابن قتيبة ، والزجاج .

والثاني : أنهن العواشق ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، ومقاتل ، والمبرّد ؛ وعن[2] مجاهد كالقولين .

والثالث : الحسنة التبعُّل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة .

والرابع : الغَنِجات ، قاله عكرمة .

---

(١) رواه ابن جرير ٢٧/١٨٥ ، ١٨٦ والترمذي في « جامعه » ٢/١٦٤ من رواية موسى بن عبيدة الربذي عن يزيد بن أبان الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة ، قال : وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث .

(٢) في الأصل : عن .

والخامسة : الحسنة الكلام ، قاله ابن زيد .

فأمّا الأتراب فقد ذكرناهن في (ص : ٥٢) .

قوله تعالى : (ثُلَّةٌ من الأوّلين ، وثُلَّةٌ من الآخِرينَ) هذا من نعت أصحاب اليمين . وفي الأولين والآخرين خلاف ، وقد سبق شرحه [الواقعة : ١٣] . وقد زعم مقاتل أنه لمّا نزلت الآية الأولى ، وهي قوله : « وقليلٌ من الآخِرِين » وجد المؤمنون من ذلك وَجْداً شديداً حتى أُنزلت « وثُلَّةٌ من الآخِرِين » فنسختها . وروي عن عروة بن رُوَيم نحو هذا المعنى .

قلت : وادّعاء النَّسخ هاهنا لا وجه له لثلاثة أوجه .

أحدها : أن علماء الناسخ والمنسوخ لم يوافقوا على هذا .

والثاني : أن الكلام في الآيتين خبر ، والخبر لا يدخله النسخ ، [فهو هاهنا لا وجه له] .

والثالث : أن الثُّلَّة بمعنى الفِرْقة والفئة ؛ قال الزجاج : اشتقاقها من القِطعة ، والثَّلُّ : الكسر والقطع . فعلى هذا قد يجوز أن تكون الثُّلَّة في معنى القليل .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

قوله تعالى : (ما أصحابُ الشِّمال) قد بيَّنَّا أنه بمعنى التعجُّب من حالهم ؛ والمعنى : ما لهم ، وما أُعدَّ لهم من الشَّرِّ؟! ثم بيَّن لهم سوء مُنْقَلَبِهم فقال : (في سَموم) قال ابن قتيبة : هو حَرُّ النَّار .

قوله تعالى : (وظِلٍّ من يَحْمومٍ) قال ابن عباس : ظِلٌّ من دخان . قال الفراء : اليَحْموم : الدُّخان الأسود ، (لا باردٍ ولا كريمٍ) فوجه الكلامِ الخفض تبعاً لما قبله ، ومثله (زَيْتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيَّةٍ) [النور : ٣٥] ، وكذلك قوله : (وفاكهةٍ كثيرةٍ ، لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ) ، ولو رفعتَ ما بعد « لا » كان صواباً ، والعرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه فعلاً يُنوى [به] الذم ، فتقول : ماهذه الدار بواسعة ولا كريمة ، وما هذا بسمين ولا كريم . قال ابن عباس : لا بارد المدخل ولا كريم المنظر .

قوله تعالى : (إنهم كانوا قَبْلَ ذلك) أي : في الدنيا (مُتْرَفِينَ) أي : متنعِّمين في ترك أمر الله ، فشغلهم تَرفُهم عن الاعتبار والتعبُّد .

(وكانوا يُصِرُّونَ) أي : يُقيمون (على الحِنْث) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشِّرك ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : الذَّنْب العظيم الذي لا يتوبون منه ، قاله مجاهد . وعن قتادة كالقولين .

والثالث : أنه اليمين الغموس ، قاله الشعبي .

والرابع : الشِّرك والكفر بالبعث ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أَوَ آباؤنا الأوَّلون) قال أبو عبيدة : الواو متحركة لأنها ليست بواو « أو » ، إنما هي « وآباؤنا » ، فدخلت عليها ألف الاستفهام فتُركتْ مفتوحة . وقرأ أهل المدينة ، وابن عامر : « أَوْ آباؤنا » بإسكان الواو .

وقد سبق بيان مالم يُذْكَر هاهنا [هود: ١٠٣ ، الصافات : ٦٢ ، الأنعام : ٧٠] إلى قوله : (فشاربونَ شُربَ الهِيمِ) قرأ أهل المدينة ، وعاصم ، وحمزة : « شُرْبَ » بضم الشين ، والباقون بفتحها . قال الفراء : والعرب تقول : شَرِبْتُه شُرْباً ، وأكثر أهل نجد يقولون : شَرْباً بالفتح ، أنشدني عامَّتهم :

تَكْفيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بِها من الشِّواءِ ويَكْفِي شَرْبَهُ الغُمَرُ[1]

وزعم الكسائي أن قوماً من بني سعد بن تميم يقولون : « شِرْبَ الهِيم » بالكسر . وقال الزجاج : « الشَّرْب » المصدر ، و « الشُّرْب » بالضم : الاسم ، قال : وقد قيل : إنه مصدر أيضاً .

وفي « الهِيم » قولان .

أحدهما : الإبل العِطاش ، رواه ابن أبي طلحة والعوفيُّ عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، وقتادة . قال ابن قتيبة : هي الإبل يُصيبها داءٌ فلا تَرْوَى من الماء ، يقال : بعيرٌ أَهْيَمُ ، وناقةٌ هَيْماءُ .

والثاني : أنهـا الأرض الرَّملة التي لا تَرْوَى من الماء ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً . قال أبو عبيدة : الهِيم : مالا يَرْوَى من رَمْل أو بعير .

قوله تعالى : (هذا نُزُلُهم) أي : رزقهم . ورواه عباس عن أبي عمرو :

---

(١) البيت لأعشى باهلة من قصيدته الجيدة التي يرثي بها أخاه المنتشر بن وهب الباهلي ومطلعها :

قد جاء من عَلُ أنباءٌ أنبَؤها إليَّ لاعَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

وهي في « الأصمعيات » : ٨٩ ، و «جمهرة أشعار العرب» : ٢٥٤ ، و«مختارات ابن الشجري» : ١٩ ، و « أمالي المرتضى » : ٣/١٠٥ وغيرها ، والحزة : ما قطع من اللحم طولاً ، والفلذ : كبد البعير ، والغمر : أصغر الأقداح .

« نُزْلُهم » بسكون الزاي ، أي : رزقهم وطعامهم . وفي « الدِّين » قولان قد ذكرناهما في « الفاتحة » .

﴿ نَحْنُ خلقناكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقونَ ، أَفرأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (نحن خلقناكم) أي : أوجدناكم ولم تكونوا شيئاً ، وأنتم تُقِرُّونَ بهذا (فلولا) أي : فهلاَّ (تصدِّقونَ) بالبعث ؟ !

ثم احتجَّ على بعثهم بالقدرة على ابتدائهم فقال : (أفرأيتم ما تُمْنونَ) قال الزجاج : أي : ما يكون منكم من المَنِيِّ ، يقال : أمنى الرجل يُمْني ، ومَنَى يَمْني ، فيجوز على هذا « تَمْنونَ » بفتح التاء إن ثبتت به رواية .

قوله تعالى : (أأنتم تَخْلُقونه أَمْ نحن الخالقون) أي : تخلُقون ما تُمنون بَشَراً ؟ ! وفيه تنبيه على شيئين .

أحدهما : الامتنان ، إذ خلق من الماء المَهين بَشَراً سوياً .

والثاني : أن من قدَر على خَلْق ما شاهدتموه من أصل وجودكم كان أقدَرَ على خَلْق ما غاب عنكم من إعادتكم .

قوله تعالى : (نحن قدَّرْنا بينكم المَوْتَ) وقرأ ابن كثير : « قَدَرْنا » بتخفيف الدال . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : قضينا عليكم بالموت .

والثاني : سوّينا بينكم في الموت (وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدِّل أمثالكم) قال الزجاج : المعنى : إن أردنا أن نخلُق خَلْقاً غيركم لم يسبقنا

سابق ، ولا يفوتنا ذلك . وقال ابن قتيبة : لسنا مغلوبين على أن نستبدل بكم أمثالكم .

قوله تعالى : (ونُنْشِئكم في مالا تعلمون) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : نبدّل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم ، قاله الحسن .

والثاني : ننشئكم في حواصل طير سود تكون بـ « برهوت » كأنها الخطاطيف ، قاله سعيد بن المسيّب [1] .

والثالث : نخلقكم في أيّ خلق شئنا ، قاله مجاهد .

والرابع : نخلقكم في سوى خلقكم ، قاله السدي . قال مقاتل : نخلقكم سوى خلقكم في مالا تعلمون من الصور .

قوله تعالى : (ولقد علمتم النَّشأة الأُولى) وهي ابتداء خلقكم من نطفة وعلقة (فلولا تذكّرون) أي : فهلاّ تعتبرون فتعلموا قدرة الله فتقرّوا بالبعث .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(أفرأيتم ما تحرثون) أي : ماتعملون في الأرض من إثارتها ، وإلقاء

---

(١) برهوت : وادٍ باليمن ، وقد روي أن أرواح الكفار تجتمع فيه ، وأن أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام ، ولكن لادليل عليه من الكتاب والسنة الصحيحة ، ولعل ذلك من الاسرائيليات .

البذور فيها ، (أأنتم تزرعونه) أي : تُنبِتونه ؟ ! وقد نبَّه هذا الكلام على أشياء منها إحياء الموتى ، ومنها الامتنان بإخراج القُوت ، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد .

قوله تعالى : (لجَعَلْناه) يعني الزرع (حُطاماً) قال عطاء : تبناً لا قمح فيه . وقال الزجاج : أبطلْناه حتى يكون محتطماً لا حنطة فيه ، ولا شيء .

قوله تعالى : (فظَلْتُم) وقرأ الشعبي ، وابو العالية ، وابن ابي عبلة : « فظِلْتُم » بكسر الظاء ، وقد بيناه في قوله : (ظَلْتَ عليه عاكفاً) [طه : ٩٧] .

قوله تعالى : (تَفَكَّهونَ) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع ، والقاسم بن محمد ، وعروة : « تفَكَّنونَ » بالنون . وفي المعنى أربعة أقوال .

أحدها : تَعَجَّبون ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، ومقاتل . قال الفراء : تتعجَّبون مما نَزَل بكم في زرعكم .

والثاني : تَنَدَّمون ، قاله الحسن ، والزجاج . وعن قتادة كالقولين . قال ابن قتيبة : يقـــال : « تفكَّهون » : تَنَدَّمون ، ومثلها : تَفَكَّنونَ ، وهي لغة لعُكْلٍ .

والثالث : تتلاومون ، قاله عكرمة .

والرابع : تتفجَّعون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (إنّا لَمُغْرَمونَ) قال الزجاج : أي : تقولون : قد غَرِمْنا وذهب زرعنا . وقال ابن قتيبة : « لَمُغْرَمونَ » أي : لَمُعَذَّبون[1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : إنا لمعذّبون ، وذلك أن الغرام عند العرب : العذاب .

قوله تعالى : (بل نحن محرومون) أي : حُرِمْنا ماكنّا نطلبه من الرّيع في الزرع . وقد نبَّه بهذا على أمرين .

أحدهما : إنعامه عليهم إذ لم يجعل زرعهم حُطاماً .

والثاني : قدرته على إهلاكهم كما قدر على إهلاك الزرع . فأمّا المُزْن ، فهي السَّحاب ، واحدتها : مُزْنة .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (تُورُونَ) قال أبو عبيدة : تستخرجون ، من أَوْرَيت ، وأكثر ما يقال : وَرَيت . وقال ابن قتيبة : التي تَستخرجون من الزّنود . قال الزجاج : « تورون » أي : تقدحون ، تقول : أَوريتُ النّار : إذا قدحتَها .

قوله تعالى : (أأنتم أنشأتم شَجرَتَها) في المراد بشجرَتها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحديد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها الشجرة التي تُتَّخذ منها الزّنود ، وهو خشب يُحَكُّ بعضُه ببعض فتخرج منه النار ، هذا قول ابن قتيبة ، والزجاج .

والثالث : أن شجرتها : أصلُها ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (نحن جعلْناها تذْكِرَةً) قال المفسرون : إذا رآها الرائي ذكر نار جهنم ، وما يخاف من عذابها ، فاستجار بالله منها (ومتاعاً) أي : منفعة (للمقوين) وفيهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم المسافرون ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . قال ابن قتيبة : سموا بذلك لنزلهم القَوَى ، وهو القفر . وقال بعض العلماء : المسافرون أكثر حاجة إليها من المقيمين ، لأنهم إذا أوقدوها هربت منهم السباع واهتدى به الضال .

والثاني : أنهم المسافرون والحاضرون ، قاله مجاهد .

والثالث : أنهم الجائعون ، . قال ابن زيد : المقوي : الجائع في كلام العرب .

والرابع : أنهم الذين لا زاد معهم ولا مردّ لهم ، قاله أبو عبيدة [١] .

قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) قال الزجاج : لما ذكر ما يدل على توحيده ، وقدرته ، وإنعامه ، قال : « فسبح » أي : برّئ الله ونزّهه عما يقولون في وصفه . وقال الضحاك : معناه : فصل باسم ربك ، أي : استفتح الصلاة بالتكبير . وقال ابن جرير : سبح بذكر ربك وتسميته . وقيل : الباء زائدة . والاسم يكون بمعنى الذات ، والمعنى : فسبح ربك .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَايَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَفَبِهٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلا أقسم) في « لا » قولان .

أحدهما : أنها دخلت توكيداً . والمعنى : فأقسم ، ومثله (لئلا يعلم أهل الكتاب) [الحشر : ٢٩] قال الزجاج : وهو مذهب سعيد بن جبير .

والثاني : أنها على أصلها . ثم في معناها قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى ما تقدم ، ومعناها : النهي ، تقدير الكلام : فلا تكذبوا ، ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج ، قاله الماوردي .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : عُني بذلك المسافر الذي لا زاد معه ولا شيء له ، وأصله من قولهم : أقوت الدار : إذا خليت من أهلها وسكانها . اهـ .

والثاني : أنّ[1] « لا » ردّ لما يقوله الكفار في القرآن : إنه سحر ، وشعر،وكهانة . ثم استأنف القسم على أنه قرآن كريم ، قاله علي بن أحمد النيسابوري : وقرأ الحسن : فلأقسم بغير ألف بين اللام والهمزة .

قوله تعالى : (بمواقع) وقرأ حمزة ، والكسائي : « بموقع » على التوحيد . قال أبو علي : مواقعها : مساقطها . ومَنْ أَفْرَدَ ، فلأنه اسم جنس . ومَنْ جَمَعَ ، فلاختلاف ذلك . وفي « النجوم » قولان .

أحدهما : نجوم السماء ، قاله الأكثرون . فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوال . أحدها : انكدارها وانتثارها يوم القيامة ، قاله الحسن . والثاني : منازلها ، قاله عطاء ، وقتادة . والثالث : مغيبها في المغرب ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أنها نجوم القرآن ، رواه ابن جبير عن ابن عباس . فعلى هذا سميت نجوماً لنزولها متفرقة ، ومواقعها : نزولها (وإنه لَقَسَمٌ) الهاء كناية عن القسم . وفي الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عِظَمَهُ . ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى : (إنه لقرآن كريم) والكريم : اسم جامع لما يحمد ، وذلك أن فيه البيان ، والهدى ، والحكمة ، وهو مُعَظَّم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : (في كتاب) فيه قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه المصحف الذي بأيدينا ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وفي « المكنون » قولان .

أحدهما : مستور عن الخلق ، قاله مقاتل ، وهذا على القول الأول .

والثاني : مصون ، قاله الزجاج .

---

(١) في الأصل : أنه .

قوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) من قال : إنَّه اللوح المحفوظ . فالمطهرون عنده : الملائكة ، وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير . فعلى هذا يكون الكلام خبراً . ومن قال : هو المصحف ، ففي المطهرين أربعه أقوال .

أحدها : أنهم المطهرون من الأحداث ، قاله الجمهور . فيكون ظاهر الكلام النفي ، ومعناه النهي .

والثاني : المطهرون من الشرك ، قاله ابن السائب .

والثالث : المطهرون من الذنوب والخطايا ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : أن معنى الكلام : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، حكاه الفراء [1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر أنه لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون ، فعم بخبره المطهرين ، ولم يخصص بعضاً دون بعض ، قال : فالملائكة من المطهرين ، والرسل والأنبياء من المطهرين ، قال : وكل من كان مطهراً من الذنوب ، فهو ممن استُثني وعني بقوله : (إلا المطهرون) اه .

وقال ابن كثير : وقال آخرون : (لا يمسه الا المطهرون) أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا : المصحف ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » مخافة أن يناله العدو ، واحتجوا في ذلك بما رواه الامام مالك في « موطئه » عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر ، قال : وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال : قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال : « لا يمس القرآن إلا طاهر » اه . قلت : وقد روي الحديث موصولاً عن كثير من الصحابة ، وهو صحيح بمجموع طرقه اه .

قوله تعالى : (تنزيل) أي : هو تنزيل . والمعنى : هو منزل ، فسمي المنزل تنزيلاً في اتساع اللغة ، كما تقول للمقدور : قدر ، وللمخلوق : خلق .

قوله تعالى : (أفبهذا الحديث) يعني : القرآن (أنتم مدهنون) فيه قولان .

أحدهما : مكذّبون ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والفراء .

والثاني : ممالئون الكفار على الكفر به ، قاله مجاهد . قال أبو عبيدة : المدهن : المداهن ، وكذلك قال ابن قتيبة « مدهنون » أي : مداهنون . يقال : أدهن في دينه ، وداهن (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) روى مسلم في « صحيحه »[1] من حديث ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر » . قالوا : هذه رحمة وضعها الله حيث شاء . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا ، وكذا ، فنزلت هذه الآية « فلا أقسم بمواقع النجوم » حتى بلغ « أنكم تكذبون » . وروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث زيد بن خالد الجهني ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة بالحديبية على إثْرِ سماء[2] كانت من الليل . فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . فأما المؤمن فقال : مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب »[3] .

---

(١) ١/٨٣ ، ٨٤ .

(٢) إِثْر وأَثَر ، لغتان مشهورتان ، أي بعد المطر ، والسماء : المطر .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » ٢/٤٣٤ ومسلم ١/٨٤ واللفظ للبخاري . قال أبو عمرو بن الصلاح : النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب ، فإنه مصدر ناء ينوء ، أي : سقط وغاب ، وقيل : أي نهض وطلع . اهـ .

وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الرزق هاهنا بمعنى الشكر . روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (وتجعلون رزقكم) قال : « شكركم » [1] ، وهذا قول علي بن أبي طالب ، وابن عباس . وكان علي يقرأ « وتجعلون شكركم » [2] .

والثاني : أن المعنى : وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم ، قاله الأكثرون . وذلك أنهم كانوا يمطرون ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا .

والثالث : أن الرزق بمعنى الحظ . فالمعنى : وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون ، ذكره الثعلبي . وقرأ أبي بن كعب ، والمفضل عن عاصم « تَكْذِبون » بفتح التاء ، وإسكان الكاف ، مخفّفة الذال .

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ

---

(١) لم نقف على هذا الحديث من طريق عائشة وإنما هو من طريق علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ كما رواه الطبري : ٢٠٧/٢٧ وفي سنده عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف ، ورواه أحمد أيضاً ٧٧/٢ من حديث عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي عن النبي ﷺ قال : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : شكركم (وفي « المسند » شركم وهو خطأ). مُطِرنا بنوء كذا وكذا : بنجم كذا وكذا .

وروى ابن جرير في تفسيره ٢٠٨/٢٧ باسناد صحيح عن ابن عباس قال : مامطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وقرأ ابن عباس (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) .

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٠٨/٢٧ عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كان علي رضي الله عنه يقرأ (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) وفي سنده عبد الأعلى الثعلبي ، وقد حمل بعض الشراح هذه القراءة على التفسير ، من غير قصد للتلاوة .

كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ . إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (فلولا) أي : فهلاّ (إذا بلغت الحلقوم) يعني : النَّفْس ، فترك ذكرها لدلالة الكلام ، وأنشدوا من ذلك :

إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ [1]

قوله تعالى : (وأنتم) يعني أهل الميت (تنظرون) إلى سلطان الله وأمره . والثاني : تنظرون إلى الإنسان في تلك الحالة ، ولا تملكون له شيئاً (ونحن أقرب إليه منكم) فيه قولان .

أحدهما : ملك الموت أدنى إليه من أهله (ولكن لا تبصرون) الملائكة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : ونحن أقرب إليه منكم بالعلم والقدرة والرؤية (ولكن لاتبصرون) أي : لا تعلمون ، والخطاب للكفار ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : (غير مدينين) فيه خمسة أقوال .

أحدها : محاسبين ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وابن جبير ، وعطاء ، وعكرمة . والثاني : موقنين ، قاله مجاهد . والثالث :

---

(١) البيت لحاتم الطائي ، ديوانه (٥٠) وصدره :

أماويّ ما يغني الثّراء عن الفتى

والحشرجة : الغرغرة عند الموت ، وتردد النفس ، وهو في « أمالي المرتضى » ٦٣/٤ و « العمدة » ٢٦٣/٢ و « مجموعة المعاني » ٣١ و « العقد الفريد » ٢٣٦/١ و « أمالي ابن الشجري » ٥٠/١ .

مبعوثين ، قاله قتادة . والرابع : مجزيين . ومنه يقال : دِنته ، وكما تدين تدان ، قاله أبو عبيدة . والخامس : مملوكين أذِلّاء من قولك : دِنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (ترجعونها) أي : تردُّون النَّفْس . والمعنى : إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم ، فهلاّ تردُّون هذه النَّفْس ؟! فإذا لم يمكنكم ذلك ، فاعلموا أن الأمر لغيركم .

قال الفراء : وقوله تعالى : (ترجعونها) هو جواب لقوله تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم) ولقوله تعالى : (فلولا إن كنتم غير مدينين) فإنهما أجيبتا بجواب واحد . ومثله قوله تعالى : (فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم) [البقرة : ٣٨] ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت فقال تعالى : (فأما إن كان) يعني : الذي بلغت نَفْسه الحلقوم (من المقربين) عند الله . قال أبو العالية : هم السابقون (فَرَوْحٌ) أي : فَلَهُ رَوْحٌ . والجمهور يفتحون الراء . وفي معناها ستة أقوال .

أحدها : الفرح ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : الراحة ، رواه أبو طلحة عن ابن عباس . والثالث : المغفرة والرحمة ، رواه العوفي عن ابن عباس . والرابع : الجنة ، قاله مجاهد . والخامس : رَوْحٌ من الغَمّ الذي كانوا فيه ، قاله محمد بن كعب . والسادس : رَوْح في القبر ، أي : طيب نسيم ، قاله ابن قتيبة [1] . وقرأ أبو بكر الصديق ، وأبو رزين ، والحسن ، وعكرمة ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : عنى بالرَّوْح : الفرح والرحمة والمغفرة ، وأصله من قولهم : وجدت رَوْحاً : إذا وجد نسيماً يستروح إليه من كرب الحرّ . وروى الإمام أحمد في « المسند » عن أم هانىء أنها —

وابن يعمر ، وقتادة ، ورويس عن يعقوب ، وابن أبي سُريج عن الكسائي : « فرُوحٌ » برفع الراء . وفي معنى هذه القراءة قولان .

أحدهما : أن معناها : فرحمة ، قاله قتادة .

والثاني : فحياة وبقاء ، قاله ابن قتيبة . وقال الزجاج : معناه : فحياة دائمة لا موت معها . وفي « الريحان » أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرزق ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنه المستراح ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه الجنة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والرابع : أنه الريحان المشموم . وقال أبو العالية : لا يخرج أحد من

ـ سألت رسول الله ﷺ : أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسيم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » وفي سنده ابن لهيعة ، قال ابن كثير : هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن . ومعنى يعلق : يأكل ، ويشهد لهذا الحديث بالصحة ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام محمد بن ادريس الشافعي ، عن الإمام مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » قال : وهذا إسناد عظيم ومتن قويم ، قال : وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش ... » الحديث . اهـ وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالت عائشة أو بعض أزواجه ﷺ : إنا نكره الموت ، قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب اليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره اليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » .

المقربين من الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة ، فيشمه ، ثم تقبض فيه روحه ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن . وقال أبو عمران الجوني : بلغنا أن المؤمن إذا قبض روحه تلقى بضبائر [1] الريحان من الجنة ، فتجعل روحه فيه .

قوله تعالى : (فسلام لك من أصحاب اليمين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فسلامة لك من العذاب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : تسلّم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، قاله عطاء .

والثالث : أن المعنى : أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة . وقد علمت ما أُعدّ لهم من الجزاء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وأما إن كان من المكذّبين) أي : بالبعث (الضالّينَ) عن الهدى (فنُزل) وقد بيَّناه في هذه السورة [الواقعة : ٥٦] .

قوله تعالى : (إن هذا) يعني : ما ذكر في هذه السورة (لهو حق اليقين) أي : هو اليقين حقاً ، فأضافه إلى نفسه ، كقولك : صلاة الأولى ، وصلاة العصر ، ومثله : (ولَدَار الآخرة) [يوسف : ١٠٩] وقد سبق هذا المعنى وقال قوم : معناه : وإنه للمتقين حقاً . وقيل للحق : اليقين .

---

(١) الضبائر – كما في « اللسان » – الجماعات في تفرقة ، وفي الحديث : أتته الملائكة بحريرة فيها مسك ، ومن ضبائر الريحان . قلت : أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وعبد الله بن أحمد في « زوائد الزهد » عن أبي عمران الجوني في قوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان) قال : بلغني أن المؤمن إذا نزل به الموت يلقى بضبائر الريحان من الجنة فتجعل روحه فيها . انظر « الدر المنثور » : ١٦٧/٦ .

قوله تعالى : (فسبح باسم ربك) قد ذكرناه في هذه السورة [الواقعة : ٧٤] [1] .

---

(١) روى الامام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ (فسبح باسم ربك العظيم) قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » ورواه أيضاً أبو داود وابن ماجة . واسناده صحيح . وروى البخاري في آخر « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

سورة الحديد

وفيها قولان .

أحدهما : أنها مدنية ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وجابر بن زيد ، وقتادة ، ومقاتل .

والثاني : أنها مكية ، قاله ابن السائب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم . هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى ٱلعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

قوله تعالى : (سَبَّحَ لله ما في السموات والأرض) أمّا تسبيح ما يعقل ، فمعلوم ، وتسبيح ما لا يعقل ، قد ذكرنا معناه في قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شيء إلا يُسَبِّحُ بحمده) [الاسراء : ٤٤] .

قوله تعالى : (هو الأول) قال أبو سليمان الخطابي : هو السابق للأشياء (والآخِر) الباقي بعد فناء الخلق (والظاهر) بحججه الباهرة ، وبراهينه النيِّرة ، وشواهده الدّالة على صِحّة وحدانيته . ويكون : الظاهر فوق كل شيء بقدرته . وقد يكون الظهور بمعنى العلوّ ، ويكون بمعنى الغلبة . والباطن : هو المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهُّم الكيفية . وقد يكون معنى الظهور والبطون : احتجابه عن أبصار الناظرين ، وتجلّيه لبصائر المتفكّرين . ويكون معناه : العالم بما ظهر من الأمور ، والمطّلع على ما بطن من الغيوب [١] (هو الذي خلق السموات والأرض) مفسر في (الأعراف : ٥٤) إلى قوله تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض) وهو مفسر في (سبأ : ٢) إلى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) أي : بعلمه وقدرته [٢] . وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى : (آمنوا بالله ورسوله)

(١) قال ابن كثير : وقد اختلفت عباراتُ المفسرين في هذه الآية وأقوالُهم على نحو من بضعة عشر قولاً ، وقال البخاري : قال يحيى : (يريد به يحيى بن زياد الفراء صاحب « معاني القرآن ») الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً . اهـ . وروى مسلم في « صحيحه » ٢٠٨٤/٤ عن سهيل بن أبي صالح قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحد أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » قال : وكان (يعني أبا صالح) يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : (وهو معكم أينما كنتم) يقول : وهو شاهد لكم أيها الناس ، أينما كنتم يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سبع سماواته السبع ، (والله بما تعملون بصير) يقول : والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسيء ، —

قال المفسرون : هذا الخطاب لكفار قريش (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) يعني : المال الذي كان بأيدي غيرهم ، فأهلكهم الله ، وأعطى قريشاً ذلك المال ، فكانوا فيه خلفاء من مضى .

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ . وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومالكم لا تؤمنون بالله) هذا استفهام إنكار ، والمعنى : أيُّ شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله (وقد أخذ ميثاقكم ؟) قرأ أبو عمرو « أُخذ » بالرفع . وقرأ الباقون « أخذ » بفتح الخاء (ميثاقكم) بالفتح .

ـ وطاعة ومعصية ، ذو بصر ، وهو لها محص ، ليجازي المحسن منكم بإحسانه ، والسيء بإساءته . اهـ .
وقال ابن كثير : وقوله : (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) أي رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) وقال تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) فلا إله غيره ولا رب سواه . قال : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . اهـ .

والمراد به : حين أُخرجتم من ظهر آدم (إن كنتم مؤمنين) بالحجج والدلائل .

قوله تعالى : (هو الذي ينزِّل على عبده) يعني : محمداً ﷺ (آياتٍ بيناتٍ) يعني : القرآن (ليخرجكم من الظلمات) يعني الشرك (إلى) نور الإيمان (وإن الله بكم لرؤوف رحيم) حين بعث الرسول ونصب الأدلة . ثم حثهم على الإنفاق فقال : (ومـــا لكم أَلّا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أي : أي شيءٍ لكم في ترك الإنفاق مما يقرب إلى الله عز وجل وأنتم ميتون تاركون أموالكم ؟ ! ثم بين فضل من سبق بالإنفاق فقال : (لايستوي منكم من أنفق من قبلِ الفتح) وفيه قولان .

أحدهما : أنه فتح مكة ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه فتح الحديبية ، قاله الشعبي . والمعنى : لا يستوي من أنفق قبل ذلك (وقاتل) ومن فعل ذلك بعد الفتح [1] . قال المفسرون : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق [2] . (أولئك أعظم درجةً) قال ابن عباس : أعظم

(١) أي : لايستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصدّيقون ، وأما بعد الفتح ، فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى : (أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى) والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا : فتح مكة ، وعن الشعبي وغيره : أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٠٣ عن محمد بن فضيل بن غزوان عن الكلبي ، والكلبي متهم بالكذب ، ورواه الواحدي بسنده عن ابن عمر ، وفي سنده ضعف . وذكره ابن كثير وقال : هذا الحديث ضعيف الاسناد من هذا الوجه . اهـ . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فانه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

منزلةً عند الله . قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدمين كانت بصائرهم أنفذ ، ونالهم من المشقة أكثر (وكلاً وعد الله الحسنى) أي : وكلا الفريقين وعده الله الجنة . وقرأ ابن عامر « وكُلٌّ » بالرفع .

قوله تعالى : (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له) قرأ ابن كثير ، وابن عامر « فيضعِّفَه » مشددة بغير ألف ، إلا أن ابن كثير يضم الفاء ، وابن عامر يفتحها . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي « فيضاعفُه » بالألف وضم الفاء ، وافقهم عاصم ، إلا أنه فتح الفاء . قال أبو علي : يضاعِف ويضعِّف بمعنى واحد ، إلا أن الرفع في « يضاعف » هو الوجه ، لأنه محمول على « يُقرض » . أو على الانقطاع من الأول ، كأنه [قال :] فهو يضاعف . ويحمل قول الذي نصب على المعنى ، لأنه إذا قال : من ذا الذي يُقرض اللهَ ، معناه : أيقرض اللهَ أحدٌ قرضاً فيضاعفه . والآية مفسرة في (البقرة : ٢٤٥) والأجر الكريم : الجنة [1] .

---

(١) قوله تعالى : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) قال عمر بن الخطاب : هو الانفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية ، ولهذا قال تعالى : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) كما قال في الآية الأخرى : (أضعافاً كثيرة وله أجر كريم) أي : جزاء جميل ، ورزق باهر ، وفي الجنة يوم القيامة. اهـ . وقال الآلوسي : القرض الحسن : الانفاق بالاخلاص ، وتحري أكرم المال وأفضل الجهات قال : وذكر بعضهم أن القرض الحسن : ما يجمع عشر صفات : أن يكون من الحلال ، فإن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيباً ، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء ، وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر ، وأن يضعه في الأحوج الأولى ، وأن يكتم ذلك ، وألا يتبعه بالمن والأذى ، وأن يقصد به وجه الله تعالى ، وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر ، وأن يكون من أحب أمواله إليه ، وأن يتوخى في إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته ، قال : ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر . اهـ .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (يسعى نورهم) قال المفسرون : يضيء لهم نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم . قال ابن مسعود : منهم مَن نوره مثل الجبل ، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه يطفىء مرة ، ويتَّقد أخرى . وفي قوله تعالى : (وبأيمانهم) قولان .

أحدهما : أنه كتبهم يعطَونها بأيمانهم ، قاله الضحاك .

والثاني : أنه نورهم يسعى ، أي : يمضي بين أيديهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم . والباء بمعنى : « في » . و « في » بمعنى « عن » ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : (بشراكم اليوم) هذا قول الملائكة لهم .

قوله تعالى : (انظرونا نقتبس) وقرأ حمزة : « أنظِرونا » بقطع الهمزة ، وفتحها ، وكسر الظاء . قال المفسرون : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة ، فيعطَى المؤمنون النور ، فيمشي المنافقون في نور المؤمنين ، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا : انظرونا نقتبس من نوركم (قيل : ارجعوا وراءكم) في القائل قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون ، قاله ابن عباس .

والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدهـــا : ارجعـوا إلى المكان الذي قبستم فيه النور ، فيرجعون ، فلا يرون شيئاً .

والثاني : ارجعوا فاعملوا عملاً يجعله الله لكم نوراً .

والثالث : أن المعنى : لا نور لكم عندنا (فضرب بينهم بسُور) قال ابن عباس : هو الأعراف ، وهو سُورٌ بين الجنة والنار (باطنه فيه الرحمة) وهي : الجنـــة (وظـاهره) يعني : من وراء السور (من قِبله العذاب) وهو جهنم . وقد ذهب قوم إلى أن هذا السور يكون ببيت المقدس في مكان السور الشرقي بين الوادي الذي يسمى : وادي جهنم ، وبين الباب الذي يسمى : باب الرحمة ، وإلى نحو هذا ذهب عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ، وكعب [(١)] .

قوله تعالى : (ينـادونهم) أي : ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور : (ألم نكن معكم) أي : على دينكم نصلي بصلاتكم ، ونغزو معكم ؟! فيقول لهـــم المؤمنون : (بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) قال الزجاج : استعملتموها في الفتنة . وقال غيره : آثمتموها بالنفاق (وتربَّصتم) فيه قولان .

---

(١) قال ابن كثير : وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ، ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعيّن ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بـ « وادي جهنم » فان الجنة في السموات في أعلى عليين ، والنار في الدركات أسفل سافلين ، قال : وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد ، فهذا من اسرائيلياته وترّهاته ، وإنما المراد بذلك : سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقـون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة . اهـ .

أحدهما : تربَّصتم بالتوبة .

والثاني : تربَّصتم بمحمد الموتَ ، وقلتم : يوشك أن يموت فنستريح (وارتبتم) شككتم في الحق (وغرَّتكم الأمانيُّ) يعني : ما كانوا يتمنَّون من نزول الدوائر بالمؤمنين (حتى جاء أمر الله) وفيه قولان .

أحدهما : أنه الموت .

والثاني : إلقاؤهم في النار (وغركم بالله الغَرور) أي : غركم الشيطان بحكم الله وإمهاله (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، ويعقوب « لا تؤخذ » بالتاء ، أي : بدل وعوض عن عذابكم . وهذا خطاب للمنافقين ، ولهذا قال تعالى : (ولا من الذين كفروا) .

قوله تعالى : (هي مولاكم) قال أبو عبيدة : أي : أولى بكم .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . إِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في المؤمنين . قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين[1] ، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً .

والثاني ، أنها نزلت في المنافقين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس[2] . قال

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ٤/٢٣١٩ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/١٧٥ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) هذا غير صحيح ، لأن الآية صريحة في الذين آمنوا .

مقاتل : سأل المنافقون سلمان الفارسي فقالوا : حدّثنا عن التوراة ، فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية [١] . وقال الزجاج : نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حَثّوا على الرِّقَّة والخشوع . فأما من كان وصفه الله عز وجل بالخشوع ، والرِّقَّة ، فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء . فعلى الأول : يكون الإيمان حقيقة . وعلى الثاني : يكون المعنى : « ألم يأن للذين آمنوا » بألسنتهم . قال ابن قتيبة : المعنى : ألم يحن ، تقول : أنى الشيء : إذا حان .

قوله تعالى : (أن تخشع قلوبهم) أي : تَرِقّ وتلين لذكر الله [٢] . المعنى : أنه يجب أن يورثهم الذِّكْر خشوعاً (وما نزل من الحق) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « وما نزّل » بفتح النون ، والزاي ، مع تشديد الزاي . وقرأ نافع ، وحفص ، والمفضل عن عاصم « نزل » بفتح النون ، وتخفيف الزاي . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، ويونس بن حبيب عن أبي عمرو ، وأبان عن عاصم « نُزِّل » برفع النون ، وكسر الزاي ، مع تشديدها . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء « وما أنزل » بهمزة مفتوحة ، وفتح الزاي . وقرأ أبو مجلز ، وعمرو بن دينار مثله ، إلا أنه بضم الهمزة ، وكسر الزاي . و « الحق » القرآن (ولا يكونوا) قرأ رويس عن يعقوب « لا تكونوا » بالتاء (كالذين أوتوا الكتاب) يعني : اليهود ، والنصارى

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول ٣٠٣ » عن الكلبي ومقاتل بغير سند ، وكذلك ذكره البغوي ، والصحيح الأول كما جاء في « صحيح مسلم » وغيره عن ابن مسعود .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله والموعظة وسماع القرآن فتفهم وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . اهـ وقال الآلوسي : المعنى : ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها ؟ ! اهـ .

(فطال عليهم الأمد) وهو : الزمان . وقال ابن قتيبة : الأمد : الغاية .
والمعنى : أنه بَعُد عهدهم بالأنبياء والصالحين (فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)
وهم الذين لم يؤمنوا بعيسى ومحمد عليهما السلام [١] (إعلموا أن الله يحيي الأرض
بعد موتها) أي : يخرج منها النبات بعد يبسها ، فكذلك يقدر على إحياء
الأموات [٢] (قد بينا لكم الآيات) الدالة على وحدانيته وقدرته (لعلكم تعقلون) ،
أي : لكي تتأملوا .

﴿ إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ
أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

قوله تعالى : (إن المصّدّقين والمصّدّقات) قرأ ابن كثير ، وعاصم إلا حفصاً
بتخفيف الصاد فيهما على معنى التصديق وقرأ الباقون ، بالتشديد على معنى الصدقة [٣] .

---

(١) قال ابن كثير : نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لمّا تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج اليها النور بعد أن كانت مقفلة لايصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعّال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال . اهـ .

(٣) قال ابن جرير الطبري : قرأته عامة قراء الأمصار خلا ابن كثير وعاصم بتشديد ـ

قوله تعالى : (أولئك هم الصِّدِّيقون والشهداء عند ربهم) اختلفوا في نظم الآية على قولين .

أحدهما : أن تمام الكلام عند قوله تعالى : (أولئك هم الصِّدِّيقون) ثم ابتدأ فقال تعالى : (والشهداء عند ربهم) هذا قول ابن عباس ، ومسروق ، والفراء في آخرين .

والثاني : أنها على نظمها . والواو في « والشهداء » واو النسق . ثم في معناها قولان .

أحدهما : أن كل مؤمن صِدِّيق شهيد ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد .

والثاني : أنها نزلت في قوم مخصوصين ، وهم ثمانية نفر سبقوا إلى الإسلام : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة بن عبد المطلب ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وزيد ، قاله الضحاك . وفي الشهداء قولان .

أحدهما : أنه جمع شاهد . ثم فيهم قولان . أحدهما : أنهم الأنبياء خاصة ،

ـ الصاد والدال ، بمعنى : إن المتصدقين والمتصدقات ، قال : ثم تدغم التاء في الصاد فتجعلها صاداً مشددة ، كما قيل : (يا أيها المزمّل) يعني : المتزمل : قال : وقرأ ابن كثير وعاصم : (إن المصدّقين والمصدّقات) بتخفيف الصاد وتشديد الدال ، بمعنى : إن الذين صدّقوا الله ورسوله . قال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : إنها قراءتان معروفتان صحيح معنى كل واحدة منها ، فبأيتها قرأ القارئ فمصيب . قال : فتأويل الكلام إذن على قراءة من قرأ ذلك بالتشديد في الحرفين أعني في الصاد والدال : إن المتصدقين من أموالهم والمتصدقات (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) بالنفقة في سبيله ، وفيما أمر بالنفقة فيه ، أو فيما ندب اليه (يضاعف لهم ولهم أجر) يقول : يضاعف الله لهم قروضهم التي أقرضوها إياه ، فيوفيهم ثوابها يوم القيامة « ولهم أجر كريم » يقول : ولهم ثواب من الله على صدقهم وقروضهم إياه « كريم » ، وذلك الجنة . اهـ .

قاله ابن عباس . والثاني : أنهم الشاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان لله ، قاله مجاهد .

والقول الثاني : أنه جمع شهيد ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

﴿ إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (إعلموا أنما الحياة الدنيا) يعني : الحياة في هذه الدار (لعب ولهو) أي : غرور ينقضي عن قليل . وذهب بعض المفسرين إلى أن المشار بهذا إلى حال الكافر في دنياه ، لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزين الدنيا ، ويفاخر قرناءه وجيرانه ، ويكاثرهم بالأموال والأولاد ، فيجمع من غير حلّه ، ويتطاول على أولياء الله بماله ، وخدمه ، وولده ، فيفنى عمره في هذه الأشياء ، ولا يلتفت إلى العمل للآخرة . ثم بين لهذه الحياة شبهاً ، فقال : (كمثل غيث) يعني : مطراً (أعجب الكفار) وهم الزُرّاع ، وسموا كفاراً ، لأن الزارع إذا ألقى البذر في الأرض كفره ، أي : غطاه (نباتُه) أي : ما نبت من ذلك الغيث (ثم يهيج) أي : ييبس (فتراه مصفراً) بعد خضرته ورَيِّه (ثم يكون حطاماً) أي : ينحطم ، وينكسر بعد يبسه [1] . وشرح هذا المثل قد تقدم في « يونس » عند قوله تعالى :

(١) قال ابن كثير : هكذا الحياة الدنيا ، تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، قال : والانسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً ، لين الأعطاف ـ

(إنما مثل الحياة الدنيا) [آية : ٢٤] ، وفي « الكهف » عند قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) [آية : ٤٥] .

قوله تعالى : (وفي الآخرة عذاب شديد) أي : لأعداء الله (ومغفرة من الله ورضوان) لأوليائه وأهل طاعته . وما بعد هذا مذكور في (آل عمران : ١٨٥) إلى قوله : (ذلك فضل الله) فبين أنه لايدخل الجنة أحد إلا بفضل الله[١] .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

- بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير ، كما قال تعالى : (الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق مايشاء وهو العليم القدير) قال : ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لامحالة ، وأن الآخرة كائنة لامحالة ، حذّر من أمرها ، ورغب فيما فيها من الخير فقال : (وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أي : وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا ، وإما هذا ، إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان ، (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أي هي متاع فان غارٌ لمن ركن اليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لادار سواها ولا معاد وراءها وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . اهـ .

(١) وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة » متفق عليه واللفظ لمسلم .

قوله‌تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض) يعني : قحط المطر ، وقلة النبات ، ونقص الثمار (ولا في أنفسكم) من الأمراض ، وفقد الأولاد (إلا في كتاب) وهو اللوح المحفوظ (من قبل أن نبرأها) أن نخلقها ، يعني : الأنفس (إن ذلك على الله يسير) أي : إثبات ذلك على كثرته هيِّن على الله عز وجل (لكيلا تأسَوا) أي : تحزنوا (على ما فاتكم) من الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) وقرأ أبو عمرو ـ الا اختيار اليزيدي ـ بالقصر على معنى : جاءكم من الدنيا . وقرأ الباقون بالمدّ على معنى : أعطاكم الله منها . وأعلم أنه من علم أن ما قضي لا بدّ أن يصيبه قلَّ حُزنه وفرحه . وقد روى قتيبة بن سعيد قال : دخلت بعض أحياء العرب ، فإذا بفضاء من الأرض فيه من الإبل ما لا يحصى عدده كلُّها قد مات ، فسألت عجوزاً : لمن كانت هذه الإبل ؟ فأشارت إلى شيخ على تلٍّ يغزل الصوف ، فقلت له : يا شيخ ألك كانت هذه الإبل ؟ قال : كانت باسمي ، قلت : فما أصابها ؟ قال : ارتجعها الذي أعطاها ، قلت : فهل قلت في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم ، قلت :

لا والَّذي أَنَـا عَبْدٌ في عِبَادَتِهِ
والمَرْءُ في الدَّهْرِ نصْبَ الرُّزْءِ والحَزَنِ
ما سَرَّني أَنَّ إبْلي في مَبَارِكِها
وما جرى في قَضَا رَبِّ الوَرَى يَكُنِ

وما بعد هذا قد ذكرناه في سورة (النساء : ٣٧) والذي قيل في البخل هناك هو الذي قيل هاهنا إلى قوله : (ومن يتول) أي : عن الإيمان (فإن الله هو الغني) عن عباده (الحميد) إلى أوليائه . وقد سبق معنى الاسمين في (البقرة : ٢٦٧)

وقرأ نافع وابن عامر « فإن الله الغني الحميد » ليس فيها « هو » وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة ، والشام .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) أي : بالآيات والحجج (وأنزلنا معهم الكتاب) ببيان الشرائع ، والأحكام . وفي « الميزان » قولان .

أحدهما : أنه العدل ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : أنه الذي يوزن به ، قاله ابن زيد ومقاتل . فعلى القول الأول : يكون المعنى : وأمرنا بالعدل . وعلى الثاني : ووضعنا الميزان ، أي : أمرنا به (ليقوم الناس بالقسط) أي : لكي يقوموا بالعدل .

قوله تعالى : (وأنزلنا الحديد) فيه قولان .

أحدهما : أن الله تعالى أنزل مع آدم السندان ، والكلبتين ، والمطرقة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن معنى « أنزلنا » : أنشأنا وخلقنا ، كقوله تعالى : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) [الزمر : ٦] .

قوله تعالى : (فيه بأس شديد) قال الزجاج : وذلك أنه يُمتنع به ، ويُحارَب به (ومنافع للناس) في أدواتهم ، وما ينتفعون به من آنية وغيرها[1] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، قال : ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى اليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان ـ

قوله تعالى : (وليعلمَ الله) هذا معطوف على قوله تعالى : (ليقومَ الناس) ، والمعنى : ليتعامل الناس بالعدل وليعلم الله (من ينصره بالقتال في سبيله ، ونصرة دينه ، وذلك أنه أمر في الكتاب الذي أنزل بذلك . وقد سبق معنى قوله تعالى : (وليعلم الله) في مواضع . وقوله تعالى : (بالغيب) أي : ولم ير اللهَ ، ولا أحكام الآخرة ، وإنما يجهد ويثاب من أطاع بالغيب .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجعلنا في ذريتها النبوة والكتاب) يعني : الكتب (فمنهم) يعني : من الذرية (مهتدٍ وكثير منهم فاسقون) فيه قولان .

أحدهما : كافرون ، قاله ابن عباس . والثاني : عاصون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (ثم قفَّينا على آثارهم) أي : أتبعنا على آثار نوح ، وإبراهيم ، وذريتها (بعيسى) وكان آخر أنبياء بني إسرائيل ، (وجعلنا في قلوب الذين

ـ وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده قال : ولهذا قال تعالى : (فيه بأس شديد) يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها (ومنافع للناس) أي في معايشهم ، كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ومالاقوام للناس بدونه ، وغير ذلك . اهـ .

اتَّبعوه) يعني : الحواريين وغيرهم من أتباعه على دينه (رأفةً) وقد سبق بيانها [النور : ٢] متوادّين ، كما وصف الله تعالى أصحاب نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى : (رحماء بينهم) [الفتح : ٢٩] .

قوله تعالى : (ورهبانية ابتدعوها) ليس هذا معطوفاً على ما قبله ، وإنما انتصب بفعل مضمر ، يدل عليه ما بعده ، تقديره : وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها ، أي : جاؤوا بها من قِبل أنفسهم ، وهي غلوُّهم في العبادة ، وحمل المشاق على أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبُّد في الجبال (ما كتبناها عليهم) أي : ما فرضناها عليهم . وفي قوله تعالى : (إلا ابتغاء رضوان الله) قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى قوله تعالى : « ابتدعوها » ، وتقديره : ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، ذكره علي بن عيسى ، والرماني عن قتادة ، وزيد بن أسلم .

والثاني : أنه راجع إلى قوله تعالى : « ما كتبناها » ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : ما كتبناها عليهم بعد دخولهم فيها تطوعاً إلا ابتغاء رضوان الله . قال الحسن : تطوَّعوا بابتداعها ثم كتبها الله عليهم . وقال الزجاج : لما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع لزمهم إتمامه ، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفترض عليه ، لزمه أن يتمَّه[1] . قال القاضي أبو يعلى : والابتداع قد يكون بالقول ،

---

(١) وهو مذهب الحنفية والمالكية ، وأما عند الشافعية فلم يوجبوا الإتمام ، ففي « المجموع » ٣٩٢/٦ : قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله تعالى : فاذا دخل في صوم تطوع أو صلاة تطوع ، استحب له إتمامها ، لقوله تعالى : (ولا تبطلوا أعمالكم) وللخروج من خلاف العلماء ، فان خرج منها بعذر أو بغير عذر ، لم يحرم عليه ذلك ، ولا قضاء عليه ، لكن يكره الخروج منها بلا عذر ، لقوله تعالى : (ولا تبطلوا أعمالكم) هذا هو المذهب .

وهو ما ينذره ويوجبه على نفسه ، وقد يكون بالفعل بالدخول فيه . وعموم الآية تتضمن الأمرين ، فاقتضى ذلك أن كل من ابتدع قربة ، قولاً ، أو فعلاً ، فعليه رعايتها وإتمامها . والثاني : أن المعنى : ما أمرناهم منها إلا بما يرضي الله عز وجل ، لا غير ذلك ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فما رَعَوْها حق رعايتها) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية ، قاله الجمهور . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال . أحدها : أنهم ما رَعَوْها لتبديل دينهم وتغييرهم له ، قاله عطية العوفي . والثاني : لتقصيرهم فيما ألزموه أنفسهم . والثالث : لكفرهم برسول الله ﷺ لما بُعث ، ذكر القولين الزجاج .

والثاني : أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم ، ما رَعوها بسلوك طريق أوليهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس [١] .

قوله تعالى : (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : الذين آمنوا بمحمد (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يؤمنوا به .

والثاني : أن الذين آمنوا : المؤمنون بعيسى ، والفاسقون : المشركون .

والثالث : أن الذين آمنوا : مبتدعو الرهبانية ، والفاسقون : متبعوهم على غير القانون الصحيح .

---

(١) جاء في تفسير القاسمي ١٦/٥٦٩٨ : « فما رعوها حق رعايتها » أي : ماقاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهُّد والتخلِّي للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد وإخضاع الشعب لأهوائهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) عامة المفسرين على أن هذا الخطاب لليهود والنصارى . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ (يؤتكم كفلين) أي : نصيبين ، وحظَّين (من رحمته) [1] قال الزجاج : الكفل : كساء يمنع الراكب أن يسقط ، فالمعنى : يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي . وقد بينا معنى « الكفل » في سورة (النساء : ٨٥) وفي المراد بالكفلين هاهنا قولان .

أحدهما : لإيمانهم بمن تقدَّم من الأنبياء ، والآخر : لإيمانهم بمحمد ﷺ ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أحدهما : أجر الدنيا ، والثاني : أجر الآخرة ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (ويجعل لكم نوراً) فيه أربعة أقوال .

---

(١) حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، كما في الآية التي في (القصص) ، وكما في حديث «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدَّب أمة فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة ابن أبي حكيم وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين) أي ضعفين (من رحمته) وزادهم (ويجعل لكم نوراً تمشون به) يعني هدىً يتبصر به من العمى والجهالة ، (ويغفر لكم) ، ففضلهم بالنور والمغفرة .

أحدهـا : القرآن ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عبـاس . والثاني : نوراً تمشون به على الصراط ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : الهدى، قاله مجاهد . والرابع : الإيمان ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (لئلا يعلم) «لا» زائدة . قال الفراء : والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد ، فهذا مما ُجعل في آخره جحد . والمعنى : ليعلم (أهل الكتاب) الذين لم يؤمنوا بمحمد (ألاّ يقدرون) أي : أنهم لا يقدرون (على شيء من فضل الله) والمعنى : أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجـر لهم ولا نصيب في فضل الله (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) فآتاه المؤمنين . هذا تلخيص قول الجمهور في هاتين الآيتين . وقد ذهب قوم إلى أنه لما نزل في ُمسلمة أهل الكتاب (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله تعالى : (أولئك يؤتَون أجرهم مرتين) [القصص : ٥٢ - ٥٤] افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر ، فشق ذلك على المسلمين ، فنزلت هاتان الآيتـان ، وهذا المعنى في رواية أبي صـالح عن ابن عباس ، وبه قـال مقاتل . فعلى هذا يكون الخطـاب للمسلمين ، ويكون المعنى : يؤتكم أجرين ليعلم مؤمنو أهل الكتـاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي خصكم ، فإنه فضّلكم على جميع الخلائق . وقال قتادة : لما نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ...) الآية ، حسد أهل الكتـاب المسلمين عليهـا ، فأنزل الله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب ...) الآية .

سورة المجادلة

وهي مدنية في قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، والجمهور . وروي عن عطاء أنه قال : العشر الأول منها مدني ، والباقي مكي . وعن ابن السائب : أنها مدنية سوى آية ، وهي قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) أما سبب نزولها ، فروي عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة فكلَّمتْ رسولَ الله ﷺ ، وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرتُ له بطني ، حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات [1] .

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٠٤ والطبري ٦٠٥/٢٨ ، والحاكم في « المستدرك » ٤٨١/٢ وصححه ، ووافقه الذهبي ، وابن ماجه في « سننه » رقم (٢٠٦٣) وسنده صحيح ، والبيهقي في « سننه » ٣٨٢/٧ .

فأما تفسيرها ، فقوله تعالى : (قد سمع الله) قال الزجاج : إدغام الدال في السين حسن لقرب المخرجين ، لأنهما من حروف طرف اللسان ، وإظهار الدال جائز ، لأنه وإن قرب من مخرج السين ، فله حيِّز على حدة ، ومن موضع الدال الطاء والتاء ، فهذه الأحرف الثلاثة موضعها واحد ، والسين والزاي والصاد من موضع واحد ، وهي تسمى : حروف الصفير . وفي اسم هذه المجادلة ونسبتها أربعة أقوال .

أحدها : خولة بنت ثعلبة ، رواه مجاهد ، عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، والقرظي .

والثاني : خولة بنت خويلد ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : خولة بنت الصامت ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : خولة بنت الدليج ، قاله أبو العالية . واسم زوجها : أوس بن الصامت ، وكانا من الأنصار .

قال ابن عباس : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، حَرُمَتْ عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقي إلى رسول الله ﷺ فسليه ، فأتته ، فنزلت هذه الآيات [1] . فأما مجادلتها رسول الله ﷺ ، فإنه كان كلَّما قال لها : قد حرمتِ عليه تقول : والله ما ذكر طلاقاً ، فقال : ما أُوحي إليَّ في هذا شيء ، فجعلت تشتكي إلى الله . وتشتكي بمعنى : تشكو . يقال : اشتكيت ما بي ، وشكوته . وقالت : إن لي

---

(١) رواه البيهقي في « سننه » ٣٨٣/٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وفي سنده أبو حمزة الثمالي ، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » والخبر ذكره السيوطي في « الدر » ٦ / ١٧٩ وزاد نسبته للنحاس ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس .

صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا . فأما التحاور ، فهو مراجعة الكلام . قال عنترة في فرسه :

لو كان يدْري ما المُحاورةُ اشتكى ولكانَ لو علِم الكلامَ مُكلِّمي [١]

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱللَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « يظَّهَّرون » بفتح الياء ، وتشديد الظاء والهاء وفتحها من غير ألف . وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بفتح الياء ، وتشديد الظاء ، وبألف ، وتخفيف الهاء . وقرأ عاصم « يُظاهِرون » بضم الياء ، وتخفيف الظاء والهاء ، وكسر الهاء في الموضعين مع إثبات الألف . وقرأ ابن مسعود « يتظاهرون » بياء ، وتاء ، وألف . وقرأ أبي بن كعب « يتظَهَّرون » بياء ، وتاء ، وتخفيف الياء ، وتشديد الهاء من غير ألف . وقرأ الحسن ، وقتادة ، والضحاك « يظهرون » بفتح الياء ، وفتح الظاء ، مخففة ، مكسورة الهاء مشددة . والمعنى : تقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا (ماهنَّ أمهاتِهم) قرأ الأكثرون بكسر التاء . وروى المفضل عن عاصم رفعها . والمعنى : ما اللواتي تجعلن كالأمهات بأمهات لهم (إن أمهاتهم)

(١) هو من معلقته المشهورة . وفي «شرح القصائد السبع» لابن الأنباري : أو كان لو علم الكلام مكلمي . وفي « مختار الشعر الجاهلي » ١/٣٧٩ : أو كان يدري ماجواب تكلُّمي .

أي : ما أمهاتهم (إلا اللائي وَلَدْنَهُم) قال الفراء : وانتصاب « الأمهات » هاهنا بإلقاء الباء ، وهي قراءة عبد الله « ما هُنَّ بأمهاتهم » ، ومثله : (ما هذا بشراً) [يوسف : ٣١] ، المعنى : ما هذا ببشرٍ ، فلما ألقيت الباء أُبقي أثرها ، وهو : النصب ، وعلى هذا كلام أهلِ الحجاز . فأما أهل نجد ، فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا ، وقالوا : « ما هن أمهاتُهم » و« ما هذا بشرٌ » أنشدني بعض العرب :

رِكابُ حُسَيْلٍ آخِرَ الصَّيْفِ بُدَّنٌ ... وَنَاقَةُ عَمْروٍ مَا يُحَلُّ لَها رَحْلُ[1]

وَيَزْعُمُ حَسْلٌ أَنَّهُ فَرْعُ قَوْمِهِ ... وَمَا أَنْتَ فَرْعٌ يا حُسَيْلُ ولَا أَصْلُ

قوله تعالى : (وإنهم) يعني : المظاهرين (ليقولون منكراً من القول) لتشبيههم الزوجات بالأمهات ، والأمهات محرمات على التأبيد ، بخلاف الزوجات . (وزوراً) أي : كذباً (وإن الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) إذ شرع الكفارة لذلك[2] .

قوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) اللام في « لما » بمعنى « إلى » والمعنى : ثم يعودون إلى تحليل ما حرَّموا على أنفسهم من وطء الزوجة بالعزم على الوطء . قال الفراء : معنى الآية : يرجعون عما قالوا ، وفي نقض ما قالوا . وقال سعيد بن جبير : المعنى : يريدون أن يعودوا الى الجماع الذي قد حرَّموه على

(١) أنشد البيتين صاحب « الإنصاف في مسائل الخلاف » : ٦٩٤ ولم يعزهما لقائل ، والشاهد في قوله : « وما أنت فرع ياحُسَيْل ولا أصل » فإنه أهمل « ما » النافية فلم يرفع بها الاسم وينصب الخبر ، وإهمالها لغة تميم ، وإعمالها لغة الحجاز .

(٢) قال ابن كثير : أصل الظهار : مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت عليَّ كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخصَ الله لهذه الأمة ، وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد من السلف . ا هـ .

أنفسهم . وقال الحسن ، وطاووس ، والزهري : العَود : هو الوطء . وهذا يرجع الى ما قلناه . وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد الظهار مدة يمكنه طلاقها فيه فلا يطلقها . فإذا وجد هذا ، استقرت عليه الكفارة ، لأنه قصد بالظهار تحريمها ، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ، وان سكت عن الطلاق ، فقد ندم على ما ابتدأ به ، فهو عود الى ما كان عليه ، فحينئذ تجب الكفارة . وقال داود : هو إعادة اللفظ ثانياً ، لأن ظاهر قوله تعالى : (يعودون) يدل على تكرير اللفظ . قال الزجاج : وهذا قول من لا يدري اللغة . وقال أبو علي الفارسي : ليس في هذا كما ادَّعَوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن الإنسان عليه قبلُ ، وسميت الآخرةُ معاداً ، ولم يكن فيها أحد ثم عاد إليها . قال الهذلي :

وعَادَ الفتَى كالكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ
سِوى الحَقِّ شيئاً واستَرَاحَ العَواذِلُ [1]

وقد شرحنا هذا في قوله تعالى : (وإلى الله ترجع الأمور) [البقرة : ٢١٠] قال ابن قتيبة : من توهم أن الظهار لا يقع حتى يلفظ به ثانية ، فليس بشيء ، لأن الناس قد أجمعوا أن الظهار يقع بلفظ واحد . وإنما تأويل الآية : أن أهل الجاهلية كانوا يطلِّقون بالظهار ، فجعل الله حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في

---

(١) في الأصلين : كالطفل ، وهو خطأ ، وقائل البيت أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي ، وهو في « شرح أشعار الهذليين » ٣/١٢٢٣ ، و « ديوان الهذليين » ٢/١٥٠ ، و «سيرة ابن هشام» : ٢/٤٧٣ ، و«الطبري» : ٢/١٦٣ ، و « الأغاني » : ٢١/٤١ ، و « الكامل » ١/٢٦٧ ، و « مشكل القرآن » : ١١٢ ، و « شرح الحماسة » للمرزوقي : ١٣١٤ من أبيات جياد في رثاء صديق له . وفي « ديوان الهذليين » : يقول : رجع الفتى عما كان عليه من قوته ، وصار كأنه كهل . قوله . فاستراح العواذل ، لأنهن لا يجدن مايعذلن فيه سوى العدل ، أي : سوى الحق .

الجاهلية ، وأنزل قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم » يريد في الجاهلية « ثم يعودون لما قالوا » في الإسلام ، أي : يعودون لما كانوا يقولونه من هذا الكلام [١] ، (فتحرير رقبة) قال المفسرون : المعنى : فعليهم ، أو فكفارتهم تحرير رقبة ، أي : عتقها . وهل يشترط أن تكون مؤمنة؟ فيه عن أحمد روايتان [٢] .

قوله تعالى : (من قبل أن يتماسا) وهو : كناية عن الجماع على أن العلماء قد اختلفوا : هل يباح للمظاهر الاستمتاع باللمس والقبلة ؟ وعن أحمد روايتان .

وقال أبو الحسن الأخفش : تقدير الآية « والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ثم يعودون إلى نسائهم .

---

(١) قال ابن كثير : اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) فقال بعض الناس : العود : هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم وقول داود . حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام . وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق . وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفّر بهذه الكفارة ، وقد حكي عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك ، وعنه : أنه الجماع . وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد . وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء عن سعيد بن جبير (ثم يعودون لما قالوا) يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّموه على أنفسهم .. قال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج ، وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفّر .

(٢) قال ابن كثير : هاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق هاهنا على ما قيّد هناك ، لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » وقد رواه أحمد في « مسنده » ومسلم في « صحيحه » .

فصل

إذا وطىء المظَاهِرُ قبل أن يكفِّر أَثِمَ ، واستقرَّت الكفارة . وقال أبو حنيفة : يسقط الظهار والكفارة . واختلف العلماء فيما يجب عليه إذا فعل ذلك ، فقال الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وطاووس ، ومجاهد ، وإبراهيم ، وابن سيرين : عليه كفارة واحدة ، وقال الزهري ، وقتادة في آخرين : عليه كفارتان . فإن قال : أنت عليَّ كظهر أمي اليوم ، بطل الظهار بمضيِّ اليوم ، هذا قول أصحابنا ، وأبي حنيفة ، والثوري ، والشافعي . وقال ابن أبي ليلى ، ومالك ، والحسن بن صالح : هو مظاهر أبداً .

واختلفوا في الظهار من الأمة ، فقال ابن عباس : ليس من أمة ظهار ، وبه قال سعيد بن المسيب ، والشعبي ، والنخعي ، وأبو حنيفة ، والشافعي . وقال سعيد بن جبير ، وطاووس ، وعطاء ، والأوزاعي ، والثوري ، ومالك : هو ظهار . ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال : لا يكون مظاهراً من أمته ، ولكن تلزمه كفارة الظهار ، كما قال في المرأة إذا ظاهرت من زوجها لم تكن مظاهرة ، وتلزمها كفارة الظهار .

واختلفوا فيمن ظاهر مراراً ، فقال أبو حنيفة ، والشافعي : إن كان في مجالس ، فكفارات ، وإن كان في مجلس واحد ، فكفارة : قال القاضي أبو يعلى : وعلى قول أصحابنا : يلزمه كفارة واحدة ، سواء كان في مجلس ، أو في مجالس ، ما لم يكفِّر ، وهذا قول مالك .

قوله تعالى : (ذلكم توعَظون به) قال الزجاج : ذلكم التغليظ توعظون به . والمعنى : أن غِلَظَ الكفارة وَعْظٌ لكم حتى تتركوا الظهار .

قوله تعالى : (فمن لم يجد) يعني : الرقبة (فصيام شهرين) أي : فعليه صيام شهرين (متتابعين فمن لم يستطع) الصيام (فـ) كفَّارته (إطعام ستين مسكيناً ذلك) أي : الفرض ذلك الذي وصفنا (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي : تصدَّقوا بأنَّ الله أمر بذلك ، وتصدَّقوا بما أتى به الرسولُ (وتلك حدود الله) يعني : ما وصفه الله من الكفَّارات في الظِّهار (وللكافرين عذاب أليم) قال ابن عباس : لمن جحد هذا وكذَّب به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلٰثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه) قد ذكرنا معنى المحادَّة في (التوبة : ٦٣) ومعنى « كُبتوا » في (آل عمران) عند قوله تعالى : (أو يكبتهم) [آية : ١٢٧] . وقال ابن عباس : أُخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي الذين من قبلهم ممن قاتل الرسل .

قوله تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعاً) أي : من قبورهم (فينبِّئهم بما عملوا) من معاصيه ، وتضييع فرائضه (أحصاه الله) أي : حفظه الله عليهم (ونسوه والله على كل شيء) من أعمالهم في السِّر والعلانية (شهيد) . (ألم تر) أي : ألم تعلم .

قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة) وقرأ أبو جعفر « ما تكون » بالتاء . قال ابن قتيبة : النجوى : السرار . وقال الزجاج : ما يكون من خلوة

ثلاثة يسرّون شيئاً ، ويتناجَوْن به (إلا هو رابعهم) أي : عالم به . و «نجوى» مشتق من النجوة ، وهو ما ارتفع . وقرأ يعقوب « ولا أكثرُ » بالرفع . وقال الضحاك : « إلا هو معهم » أي : علمه معهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين نُهُوا عن النجوى) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يتناجَوْن فيما بينهم دون المؤمنين ، وينظرون إلى المؤمنين ، ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا ، قتل أو موت ، أو مصيبة ، فيقع ذلك في قلوبهم ، ويحزنهم ، فلايزالون كذلك حتى تقدَّم أصحابهم . فلما طال ذلك وكثر ، شكا المؤمنون إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن لا يتناجَوْا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس[1] .

والثاني : نزلت في اليهود ، قاله مجاهد . قال مقاتل : وكان بين اليهود وبين رسول الله موادعة ، فإذا رأوا رجلاً من المسلمين وحده تناجَوْا بينهم ، فيظن

(١) هو في « أسباب النزول » (٣٠٦) عن ابن عباس ومجاهد بغير سند .

المسلم أنهم يتناجَوْن بقتله ، أو بما يكره ، فيترك الطريق من المخافة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنهاهم عن النجوى ، فلم ينتهوا ، وعادوا إليها ، فنزلت هذه الآية .
وقال ابن السائب : نزلت في المنافقين . والنجوى : بمعنى المناجاة (ثم يعودون) إلى المناجاة التي نهوا عنها (ويتناجَوْن) قرأ حمزة ، ويعقوب إلا زيداً ، ورَوحاً « ويتنجَّون » وقرأ الباقون « ويتناجون » بألف . وفي معنى تناجيهم (بالإثم والعدوان) وجهان .

أحدهما : يتناجون بما يسوء المسلمين ، فذلك الإثم والعدوان ، ويوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول .

والثاني : يتناجَوْن بعد نهي الرسول ، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول .

قوله تعالى : (وإذا جاؤوك حَيَّوْكَ بما لم يحيِّكَ به الله) اختلفوا فيمن نزلت على قولين.

أحدهما : نزلت في اليهود . قالت عائشة رضي الله عنها : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقلت : السام عليكم ، وفعل الله بكم ، فقال رسول الله ﷺ : مه يا عائشة ، فإن الله لايحب الفحش ، ولا التفحش ، فقلت : يا رسول الله : ترى ما يقولون ؟ فقال : ألست تريني أردُّ عليهم ما يقولون ، وأقول : وعليكم ، قالت : فنزلت هذه الآية في ذلك[1] . قال الزجاج : والسام : الموت .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروق عن عائشة وإسناده صحيح ، وهو أيضاً في « صحيح مسلم » ١٧٠٧/٤ عن عائشة رضي الله عنها . ورواه أحمد في « المسند » رقم (٦٥٨٩) عن عبد الله بن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سامٌ عليك ، ثم —

والثاني : أنها نزلت في المنافقين ، رواه عطية عن ابن عباس .

قال المفسرون : ومعنى « حيَّوك » سلَّموا عليك بغير سلام الله عليك ، وكانوا يقولون : سام عليك . فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم ، أو يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذّبنا بقولنا له ما نقول .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم) فيها قولان .

أحدهما : نزلت في المنافقين ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بزعمهم ، وهذا قول عطاء ومقاتل .

والثاني : أنها في المؤمنين ، والمعنى : أنه نهاهم عن فعل المنافقين واليهود ، وهذا مذهب جماعة ، منهم الزجاج .

قوله تعالى : (تتناجوا) هكذا قرأ الجماعة بألف . وقرأ يعقوب وحده « فلا تنتجَّوا » . فأما « البرّ » فقال مقاتل : هو الطاعة ، و « التقوى » ترك المعصية . وقال أبو سليمان الدمشقي : « البِرْ » الصدق ، و « التقوى » ترك الكذب . ثم ذكر أن ما يفعله اليهود والمنافقون ، من الشيطان ، فقال تعالى : (إنما النجوى من الشيطان) أي : من تزيينه ، والمعنى : إنما يزيِّن لهم ذلك (ليحزن الذين آمنوا) وقد بيَّنا اتقّاه ما كان يحزن المؤمنين من هذه النجوى[1] (وليس بضارّهم شيئاً) أي : وليس الشيطان بضارّ المؤمنين شيئاً (إلا بإذن الله) أي : بإرادته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي : فليكلوا أمورهم إليه .

- يقولون في أنفسهم : (لولا يعذّبُنا الله بما نقول) فنزلت هذه الآية (وإذا جاؤك حيّوك بما لم يحيّك به الله) . وقال ابن كثير : إسناد حسن ، وهو في « مجمع الزوائد : ١٢١/٧ » ، وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني ، وإسناده جيد ، لأن حماداً سمع من عطاء في حالة الصحة . .

(١) انظر صفحة (١٨٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجلس) وقرأ عاصم « في المجالس » على الجمع ، وذلك لأن كل جالس له مجلس ، فالمعنى : ليفسح كل رجل منكم في مجلسه . قال المفسرون : نزلت في نفر من المؤمنين كانوا يسابقون إلى مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا أقبل المهاجرون وأهل السابقة ، لم يجدوا موضعاً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يليه أولو الفضل ليحفظوا عنه ، فبينا رسول الله ﷺ يوم جمعة جالس في صُفَّةٍ ضيِّقةٍ في المسجد ، جاء نفر من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس ، فسلَّموا وانتظروا أن يوسّعوا لهم ، فأوسعوا لبعضهم ، وبقي بعضهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى أقام من المجلس على عدة من هو قائم من أهل السابقة ، فرأى رسول الله ﷺ في وجوه من أقامهم الكراهة ، وتكلَّم المنافقون في ذلك وقالوا : والله ما عدل ، فنزلت هذه الآية . وقال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا أقبل مقبل ضنّوا بمجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . قال المفسرون : ومعنى « تفسَّحوا » توسَّعوا وذلك أنهم كانوا يجلسون متضايقين حول رسول الله ﷺ فلا يجد غيرهم مجلساً عنده ، فأمرهم أن يوسِّعوا لغيرهم ليتساوى الناس في الحظّ منه ، ويظهر فضيلة المقرَّبين إليه من أهل بدر وغيرهم .

وفي المراد « بالمجلس » هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، كان الرجل يأتي القوم في

الصفّ ، فيقول لهم : توسَّعوا ، فيأبَوْن عليه لحرصهم على القتال ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وأبي العالية ، والقرظي .

والثاني : أنه مجلس رسول الله ﷺ ، قاله مجاهد . وقال قتادة : كان هذا للنبي ﷺ ومن حوله خاصة .

والثالث : مجالس الذكر كلّها ، روي عن قتادة أيضاً[1] . وقرأ علي ابن أبي طالب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، والأعمش : « تفسحوا في المجالس » بألف على الجمع .

قوله تعالى : (يفسح الله لكم) أي : يوسّع الله لكم الجنة ، والمجالس فيها . (وإذا قيل انشزوا) قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم « انشُزوا فانشُزوا » برفع الشين . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بكسر الشين فيهما . ومعنى « انشزوا » قوموا . قال الفراء : وهما لغتان . وفي المراد بهذا القيام خمسة أقوال .

أحدها : أنه القيام إلى الصلاة ، وكان رجال يتثاقلون عنها ، فقيل لهم : إذا نودي للصلاة فانهضوا ، هذا قول عكرمة ، والضحاك .

والثاني : أنه القيام إلى قتال العدو ، قاله الحسن .

والثالث : أنه القيام إلى كل خير ، من قتال ، أو أمر بمعروف ، ونحو ذلك ، قاله مجاهد .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره ، أمر المؤمنين أن يتفسحوا في المجلس ، ولم يخصص بذلك مجلس النبي ﷺ دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس من مجالس رسول الله ﷺ ومجالس القتال . ا هـ .

والرابع : أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله ﷺ أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به ، فأُمروا أن ينشُزوا إذا قيل لهم : انشزوا ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن المعنى : قوموا وتحرّكوا وتوسّعوا لإخوانكم ، قاله الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم) أي : يرفعهم بإيمانهم على مَن ليس بمنزلتهم من الإيمان (و) يرفع (الذين أوتوا العلم) على مَن ليس بعالم . وهل هذا الرفع في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ فيه وجهان .

أحدهما : أنه إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة . والثاني : أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا ، فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدّين والعلم . وكان

(١) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « لايقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . وروى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به » . قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث « قوموا إلى سيدكم » ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فانه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة ، فرآه مقبلاً ، قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . قال : فأما اتخاذه ديدناً ، فإنه من شعار العجم ، قال : وقد جاء في « السنن » أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لايقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك . اهـ .

ابن مسعود يقول : أيها الناس : افهموا هذه الآية ولتُرغّبكم في العلم ، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق مَن لايعلم درجات [١] .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إذا ناجيتم الرسول) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن الناس سألوا رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فأنزل هذه الآية ، قاله ابن عباس [٢] .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) أي : لاتعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لايضيع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ولهذا قال الله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لايستحقه . اهـ .

وروى مسلم في « صحيحه » ١ / ٥٥٩ عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان وكان عمر يستعمله على مكة . فقال : من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى ، قال : ومَن ابن أبزى ؟ قال : مولىً من موالينا ، قال : فاستخلفت عليهم مولىً ! قال : إنه قارىء لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالم بالفرائض ، قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » .

(٢) ذكر سبب النزول هذا البغوي في تفسيره عن ابن عباس بغير سند ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦ / ١٨٥ من رواية ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس وقال في آخره : فأنزل الله بعد هذا (ءأشفقتم ...) الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق .

والثاني : أنها نزلت في الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يكثرون مناجاة رسول الله ﷺ ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك ، فنزلت هذه الآية ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا ، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزلت الرخصة ، قاله مقاتل بن حيَّان ، وإلى نحوه ذهب مقاتل بن سليمان ، إلا أنه قال : فقدر الفقراء حينئذ على مناجاة رسول الله ﷺ ، ولم يقدِّمْ أحدٌ من أهل الميسرة صدقة غيرَ علي بن أبي طالب .

وروى مجاهد عن علي رضي الله عنه قال : آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ، ولن يعمل بها أحد بعدي ، آية النجوى . كان لي دينار ، فبعته بعشرة دراهم ، فكلما أردت أن أناجي رسول الله ﷺ قدَّمت درهماً ، فنسختها الآية الأخرى (أأشفقتم أن تقدِّموا ...) الآية .

قوله تعالى : (ذلك خير لكم وأطهر) أي : تقديم الصدقة على المناجاة خير لكم ، لما فيه من طاعة الله ، وأطهر لذنوبكم (فإن لم تجدوا) يعني : الفقراء (فإن الله غفور رحيم) إذ عفا عمن لا يجد .

قوله تعالى : (أأشفقتم) أي : خِفتم بالصدقة الفاقةَ (وتاب الله عليكم) أي : فتجاوز عنكم ، وخفَّف بنسخ إيجاب الصدقة . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال . قال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ . إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم) نزلت في المنافقين الذين تولَّوا اليهود ، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين . وقال السدي ، ومقاتل : نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق ، وذلك أنه كان يجالس رسول الله ﷺ ، ويرفع حديثه إلى اليهود ، فدخل عليه يوماً ، وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبي ﷺ : « فعلت » فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما سبّوه ، فأنزل الله هذه الآيات . وروى الحاكم أبو عبد الله في « صحيحه » من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان في ظل حُجرة من حجره ، وعنده نفر من المسلمين ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تُكلِّموه ، فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : علام تشتمني أنت وفلان وفلان ؟ فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا بالله ، واعتذروا إليه ، فأنزل الله تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون ...) الآية [1] .

فأما التفسير ، فالذين تولَّوا : هم المنافقون ، والمغضوب عليهم : هم اليهود (ما هم منكم) يعني : المنافقين ليسوا من المسلمين ، ولا من اليهود (ويحلفون على الكذب) وهو ما ذكرنا في سبب نزولها . وقال بعضهم : حلفوا أنهم ماسبُّوا رسول الله ﷺ ، ولا تولَّوْا اليهود (وهم يعلمون) أنهم كَذَبة (اتخذوا أَيمانهم

---

(١) الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٤٨٢ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، ورواه أحمد في « المسند » رقم (٣٢٧٧) ، وإسناده جيد كما قال ابن كثير .

جُنَّةً) أي : سترة يَتَّقُون بها القتل . قال ابن قتيبة : المعنى : استتروا بالحلف ، فكلما ظهر لهم شيء يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين ،(فصدُّوا عن سبيل الله) فيه قولان .

أحدهما : صَدُّوا النَّاس عن دين الإسلام قاله السدي .

والثاني : صَدُّوا عن جهادهم بالقتل وأخذ مالهم .

قوله تعالى : (فيحلفون له) قال مقاتل ، وقتادة : يحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين ، كما حلفوا لأوليائه في الدنيا (ويحسبون أنهم على شيء) من أيمانهم الكاذبة (ألا إنهم هم الكاذبون) في قولهم وأيمانهم .

قوله تعالى : (استحوذ عليهم الشيطان) قال أبو عبيدة : غلب عليهم ، وحاذهم ، وقد بينا هذا في سورة (النساء) عند قوله تعالى : (نستحوذ عليكم) [آية : ١٤١] ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: (أولئك في الأذلِّين) أي : في المغلوبين ، فلهم في الدنيا ذُلٌّ ، وفي الآخرة خِزْيٌ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (كتب الله) أي : قضى الله (لأغلبن أنا ورسلي) وفتح الياء نافع ، وابن عامر .

قال المفسرون : من بُعث من الرسل بالحرب ، فعاقبة الأمر له ، ومن لم يبعث بالحرب ، فهو غالب بالحجة (إن الله قويٌّ عزيزٌ) أي : مانع حزبه من أن يذل .

قوله تعالى : (لا تجد قوماً ...) الآية . اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ، قتل أباه يوم أحد ، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، فقال : يا رسول الله دعني أكون في الرَّعلة الأولى [١] ، فقال : متِّعنا بنفسك يا أبا بكر ، وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ، وفي عمرو قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر . وفي علي وحمزة قتلا عتبة وشيبة يوم بدر ، قاله ابن مسعود [٢] .

والثاني : أنها نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق ، وذلك أن أبا قحافة سبَّ رسول الله ﷺ ، فصكَّه أبو بكر صَكَّةً شديدةً سقط منها ، ثم ذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « أو فَعلته » ؟ قال : نعم . قال : فلا تعُد إليه ، فقال أبو بكر : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن جريج [٣] .

(١) الرَّعلة والرَّعيل : القطعة المتقدِّمة من الخيل ، يريد : الفوج الأول المتقدِّم ليقتل في سبيل الله .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٣١٠ بغير سند ، وروى الحاكم في « المستدرك » ٢٦٥/٣ عن عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينصب الألَّ (وهي الحربة العريضة النصل) لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده أبو عبيدة ، فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية حين قتل أباه (لا تجد قوماً ...) وقال الحافظ في « الإصابة » ٢٤٤/٢ : وأخرجه الطبري بسند جيد عن عبد الله بن شوذب .

(٣) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣١٠ عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة ... الخ ، وقال الحافظ في « تخريج أحاديث الكشاف » ١٦٦ : نقله الثعلبي عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة .... فذكره .

والثالث : نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ، وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله ، فشرب رسول الله ماء ، فقال عبد الله : يا رسول الله أبق فضلة من شرابك ، قال : وما تصنع بها ؟ قال : أسقيها أبي ، لعل الله سبحانه يطهر قلبه ، ففعل ، فأتى بها أباه ، فقال : ما هذا ؟ قال : فضلة من شراب رسول الله جئتك بها لتشربها ، لعل الله يطهر قلبك ، فقال : هلا جئتني ببول أُمّكَ ! فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله : ائذن لي في قتل أبي ، قال : فقال رسول الله ﷺ : ارفق به ، وأحسن إليه ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي .

والرابع : أنها نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ حين كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد عزم على قصدهم ، قاله مقاتل ، واختاره الفراء ، والزجاج .

وهذه الآية قد بيَّنتْ أن مودّة الكفار تقدح في صحة الإيمان ، وأن من كان مؤمناً لم يوالِ كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أحداً من عشيرته .

قوله تعالى : (أولئك) الذين ، يعني : الذين لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله (كَتب في قلوبهم الإيمان) وقرأ المفضل عن عاصم « كُتِبَ » برفع الكاف والنون من « الإيمان » . وفي معنى « كتب » خمسة أقوال .

أحدها : أثبت في قلوبهم الإيمان ، قاله الربيع بن أنس .

والثاني : جعل ، قاله مقاتل .

والثالث : كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان ، حكاه الماوردي .

والرابع : حكم لهم بالإيمان . وإنما ذكر القلوب ، لأنها موضع الإيمان ، ذكره الثعلبي .

والخامس : جمع في قلوبهم الإيمان حتى استكملوه ، قاله الواحدي .

قوله تعالى : (وأيَّدهم) أي : قوّاهم (بروحٍ منه) وفي المراد « بالروح » هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : أنه النصر ، قاله ابن عباس ، والحسن . فعلى هذا سمي النصر روحاً ، لأن أمرهم يحيا به . والثاني : الإيمان ، قاله السدي . والثالث : القرآن ، قاله الربيع . والرابع : الرحمة ، قاله مقاتل . والخامس : جبريل عليه السلام أيَّدهم به يوم بدر ، ذكره الماوردي . فأما (حِزْب الله) فقال الزجاج : هم الداخلون في الجمع الذين اصطفاهم وارتضاهم ، و « ألا » كلمة تنبيه وتوكيد للقصة .

سورة الحشر

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وذكر المفسرون أن جميعها أُنزلت في بني النَّضِير[١] . وكان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير »[٢] وهذه الإشارة إلى قصتهم .

ذكر أهل العلم بالتفسير والسِّيَر : أن رسول الله ﷺ خرج إلى مسجد قباء ، ومعه نفر من أصحابه ، فصلَّى فيه ، ثم أتى بني النضير ، فكلَّمهم أن يعينوه في دية رجلين كان قد آمنها ، فقتلها عمرو بن أمية الضمري وهو لا يعلم ، فقالوا : نفعل ، وهَمُّوا بالغَدْر به ، وقال عمرو بن جحاش : أنا أظهر على البيت ، فأطرح عليه صخرة ، فقال سلاَّم بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليُخبرَن بما هممتم به ، وجاء رسولَ الله ﷺ الخبرُ ، فنهض سريعاً ، فتوجه إلى المدينة ، فلحقه أصحابه ، فقالوا : قمت ولم نشعر ؟! فقال : هَمَّتْ يهودُ بالغدر ، فأخبرني الله بذلك ، فقمت ، وبعث إليهم رسول الله محمد بن مسلمة : أن اخرجوا من بلدتي ،

(١) وهم طائفة من اليهود أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة بعدما نقضوا العهد الذي بينه وبينهم على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد كما ذكر ذلك عبد الرزاق في « مصنفه » عن معمر عن الزهري عن عروة .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » ٢٥٦/٧ عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : (سورة الحشر) ؟ قال : قل : (سورة النضير) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤٨٣/٨ كأنه كره تسميتها بالحشر ، لئلا يظن أن المراد : يوم القيامة ، وإنما المراد به هنا : إخراج بني النضير .

فلا تساكنوني ، وقد هممتم بما هممتم به ، وقد أجّلتكم عشراً [١] . فمن رئي بعد ذلك ضربتُ عنقه ، فمكثوا أياماً يتجهّزون ، فأرسل إليهم ابنُ أُبَيٍّ : لا تخرجوا ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم ، وَتَمُدُّكُم قريظة ، وحلفاؤكم من غطفان ، وطمع حُيَي فيما قال ابن أُبَيٍّ ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ : إنا لا نخرج ، فاصنع ما بدا لك ، فكبّر رسول الله ﷺ ، وكبّر المسلمون لتكبيره ، وقال : حاربت يهود ، ثم سار إليهم في أصحابه ، فلما رأَوْه ، قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة ، فاعتزلتْهم قريظةُ ، وخذلهم ابن أُبَيٍّ ، وحلفاؤهم من غطفان ، وكان رئيسهم كعب بن الأشرف قد خرج إلى مكة فعاقد المشركين على التظاهر على رسول الله ، فأخبر الله رسوله بذلك ، فبعث محمد بن مسلمة فاغترّه فقتله ، وحاصرهم رسول الله ، وقطع نخلهم ، فقالوا : نحن نخرج عن بلادك ، فأجلاهم عن المدينة ، فمضى بعضهم إلى الشام ، وبعضهم إلى خيبر ، وقَبَضَ سلاحهم وأموالهم ، فوجد خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً [٢] .

فأما التفسير فقد ذكرنا فاتحة هذه السورة في (الحديد : ١) .

---

(١) هكذا رواية ابن سعد : « وقد أجّلتكم عشراً » . والذي في « دلائل النبوة » للبيهقي كما في « فتح الباري » ٧/٢٥٤ من حديث محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام .

(٢) روى هذا الخبر ابن سعد في « الطبقات » ٢/٥٧ — ٥٨ في غزوة بني النضير ، وذكره ابن هشام في « السيرة » ٢/١٩٠ بنحوه من رواية ابن إسحاق ، وانظر « البداية والنهاية » لابن كثير الدمشقي ٤/٧٥ ، و « شرح المواهب اللدنية للزرقاني » ٢/٩٥ — ٩٦ . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٧/٢٥٥ : وروى ابن مردويه قصة بني النضير باسناد صحيح إلى معمر عن الزهري : أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهدّدونهم بايوائهم النبي ﷺ وأصحابه ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب ، فهمّ —

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾

ـــ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين ، فأتاهم النبي ﷺ فقال : ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش ، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم ، فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا ، فلما كانت وقعة بدر كتب كفار قريش بعدها إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون يتهدّدونهم ، فأجمع بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج الينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتّبعناك ، ففعل ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير ، فأخبر أخوها النبيّ ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه ، ثم غدا على بني قريظة ، فحاصرهم ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بني النضير ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أنّ لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح ، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم ، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها . وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام ، قال الحافظ : وكذا أخرجه عبد بن حميد في « تفسيره » عن عبد الرزاق ، قال : وفي ذلك رد على ابن التين في زعمه أنه ليس في هذه القصة حديث باسناد . قلت (القائل ابن حجر) : فهذا أقوى مما ذكر ابن اسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين ، لكن وافق ابن اسحاق جلّ أهل المغازي ، فالله أعلم . اه

قوله تعالى : (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) يعني : يهود بني النضير (من ديارهم) أي : من منازلهم (لأول الحشر) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أول من حُشر وأُخرج من داره ، قاله ابن عباس . وقال ابن السائب : هم أول من نفي من أهل الكتاب .

والثاني : أن هذا كان أول حشرهم ، والحشر الثاني : إلى أرض المحشر يوم القيامة ، قاله الحسن . قال عكرمة : من شك أن المحشر إلى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبي ﷺ قال لهم يومئذ : اخرجوا ، فقالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر (١) .

والثالث : أن هذا كان أول حشرهم . والحشر الثاني : نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، قاله قتادة .

والرابع : أن هذا كان أول حشرهم من المدينة ، والحشر الثاني : من خيبر (٢) ،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أبيه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما أجلى يهود بني النضير من المدينة لغدرهم ، ذهبوا إلى خيبر ، وأذرعات ، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرُد (٩٦ ميلاً) من المدينة إلى جهة الشام ، فتحها رسول الله سنة سبع من الهجرة . وقد روى البخاري في « صحيحه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صبحنا خيبر بكرة ، فخرج أهلها بالمساحي (آلات الحرث) فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس (الجيش) فقال النبي ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » وكذلك رواه مسلم ، ثم بعدما فتحها رسول الله ﷺ قسم غنائمها ، فأعطى الراجل سهماً ، والفارس ثلاثة أسهم ، بعد أن خمسها خمسة أجزاء ، ثم دفعها لأهل خيبر ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع على أن يخرجهم منها إذا شاء ، فاستمروا على ذلك إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة رضي الله عنهم .

وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات [١] ، وأريحا [٢] من أرض الشام في أيام عمر بن الخطاب ، قاله مرة الهمْداني .

قوله تعالى : (ما ظننتم) يخاطب المؤمنين (أن يخرجوا) من ديارهم لعزّهم ، ومَنَعَتِهم ، وحُصُونهم (وظَنُّوا) يعني : بني النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) وذلك أنَّه أمر نبيَّه بقتالهم وإجلائهم ، ولم يكونوا يظنون أن ذلك يكون ، ولا يحسبونه (وقذف في قلوبهم الرعب) لخوفهم من رسول الله ﷺ ، وقيل : لقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) قرأ أبو عمرو « يُخَرِّبون » بالتشديد . وقرأ الباقون « يَخْرِبُون » . وهل بينهما فرق ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أن المشددة معناها : النقض والهدم . والمخففة معناها : يخرجون منها ويتركونها خراباً معطَّلة ، حكاه ابن جرير . روي عن أبي عمرو أنه قال : إنما اخترت التشديد ، لأن بني النضير نقضوا منازلهم ، ولم يرتحلوا عنها وهي معمورة .

والثاني : أن القراءتين بمعنى واحد . والتخريب والإخراب لغتان بمعنى ، حكاه ابن جرير عن أهل اللغة [٣] . وللمفسرين فيما فعلوا بمنازلهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان المسلمون كلما ظهروا على دارٍ من دُورهم هدموها ليتسع

---

(١) أذرعات : بفتح الهمزة ، وسكون الذال ، وكسر الراء ، وعين مهملة ، وألف ، وتاء : بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان ، والنسب إليها أذرعي ، وقد خرج منها طائفة من أهل العلم .

(٢) أريحا : بفتح الهمزة وكسر الراء وياء ساكنة وحاء مهملة وألف بالقصر : مدينة في الغور من أرض الأردن بالشام .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأ بالتخفيف لإجماع الحجة من القراء عليه . اهـ .

لهم مكان القتال ، وكانوا هم ينقبون دورهم ، فيخرجون إلى ما يليها ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان المسلمون كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذي خربه المسلمون ، قاله الضحاك .

والثالث : أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم ، أو العمود ، أو الباب ، فيستحسنونه ، فيهدمون البيوت ، وينزعون ذلك منها ، ويحملونه معهم ، ويخرب المؤمنون باقيها ، قاله الزهري .

والرابع : أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون ، حسداً منهم ، وبغياً ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (فاعتبروا يا أولي الأبصار) الاعتبار : النظر في الأمور ، ليعرف بها شيء آخر من جنسها ، و « الأبصار » العقول . والمعنى : تدبَّروا ما نزل بهم (ولولا أن كتب الله) أي : قضى (عليهم الجلاء) وهو خروجهم من أوطانهم . وذكر الماوردي بين الإخراج والجلاء فرقين .

أحدهما : أن الجلاء : ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج : قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

والثاني : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة . والإخراج : قد يكون لواحد ولجماعة . والمعنى : لولا أن الله قضى عليهم بالخروج (لعذَّبهم في الدنيا) بالقتل والسبي ، كما فعل بقريظة (ولهم في الآخرة) مع ما حلَّ بهم في الدنيا (عذابُ النَّار ، ذلك) الذي أصابهم (بأنهم شاقُّوا الله) وقد سبق بيان الآية [الأنفال : ١٣] و [محمد : ٣٢] . قال القاضي أبو يعلى : فقد دلت هذه الآية على جواز مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير سبي ولا استرقاق ،

والثاني : أنه النخل والشجر ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنها ألوان النخل كلّها إلا العجوة ، والبرنية ، قـــاله الزهري ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . وقـال الزجـاج : أهل المدينة يسمون جميع النخيل : الألوان ، مـــا خلا البرني ، والعجوة . وأصل « لينة » لِوْنة ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

والرابع : أنها النخل كلّه ، قاله مجاهد وعطية ، وابن زيد . قال ابن جرير : معنى الآية : ما قطعتم من ألوان النخيل .

والخامس : أنها كرام النخل ، قاله سفيان .

والسـادس : أنهـا ضرب من النخل يقـال لتمرها : اللون ، وهي شديدة الصُّفْرة ، ترى نواه من خارج ، وكان أعجب ثمرهم إليهم[1] ، قاله مقاتل[2] . وفي عدد ما قطع المسلمون ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قطعوا وأحرقوا ست نخلات ، قاله الضحاك . والثاني : أحرقوا نخلة وقطعوا نخلة ، قاله ابن إسحاق . والثالث : قطعوا أربع نخلات ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فبإذن الله) قال يزيد بن رومان ومقاتل : بأمر الله .

قوله تعالى : (وليخزي الفاسقين) يعني اليهود . وخزيهم : أن يُريَهم أموالهم يتحكَّم فيها المؤمنون كيف أحبُّوا . والمعنى : وليخزي الفاسقين ، أذن في ذلك ، ودل على المحذوف قوله : (فبإذن اللّه) .

---

(١) في الأصل : إليه .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : اللينة : النخلة ، وهو من ألوان النخل ما لم تكن عجوة .

ولا جزية ، ولا دخول في ذمة ، وهذا حكم منسوخ إذا كان في المسلمين قوة على قتالهم ، لأن الله تعالى أمر بقتال الكفار حتى يسلموا ، أو يُؤدُّوا الجزية . وإنما يجوز هذا الحكم إذا عجز المسلمون عن مقـــاومتهم فلم يقدروا على إدخـالهم في الإسلام أو الذمـــة ، فيجوز لهم حينئذ مصالحتهم على الجلاء من بلادهم . وفي هذه القصة دلالة على جواز مصالحتهم على مجهول من المال ، لأن النبي ﷺ صالحهم على أرضهم ، وعلى الحلقة ، وترك لهم ما أقلّت الإبل ، وذلك مجهول .

قوله تعالى : (ما قطعتم من لينة) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير ، وقطع ، فنزلت هذه الآية ، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر [١] . وذكر المفسرون أنه لما نزلت بيني النضير تحصّنوا في حصونهم ، فأمر بقطع نخيلهم ، وإحراقها ، فجزعوا ، وقالوا : يا محمد زعمتَ أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر ، وقطع النخل ؟ وهل وجدت فيا أنزل عليك الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم . واختلف المسلمون ، فقال بعضهم : لا تقطعوا ، فإنه مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : بل نغيظهم بقطعها ، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى [٢] .

وفي المراد « باللينة » ستة أقوال .

أحدها : أنه النخل كلُّه ما خلا العجوة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وبه قال عكرمة ، وقتادة ، والفراء .

---

(١) البخاري في « صحيحه » ٧/٢٥٦ و ٨/٤٨٣ ومسلم ٣/١٣٦٥ — ١٣٦٦ .

(٢) الواحدي في « أسبـــاب النزول » : ٣١٢ ، ورواه الطبري ٢٨/٣٤ من رواية ابن اسحاق ثنا يزيد بن رومان .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وما أفاء الله على رسوله) أي : ماردَّ عليهم (منهم) يعني : من بني النضير (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) قال أبو عبيدة : الإيجاف : الإيضاع ، والركاب : الإبل . قال ابن قتيبة : يقال : وجف الفرس والبعير ، وأوجفته ، ومثله : الإيضاع ، وهو الإسراع في السير . وقال الزجاج : معنى الآية : أنه لا شيء لكم في هذا ، إنما هو لرسول الله ﷺ خاصة .

قال المفسرون : طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يخمِّسَ أموال بني النضير لما أُجْلُوا ، فنزلت هذه الآية تبين أنها فيء لم تحصل لهم بمحاربتهم ، وإنما هو بتسليط رسول الله ﷺ ، فهو له خاصة ، يفعل فيه مايشاء ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منه شيئاً ، إلا ثلاثة نفر كانت

بهم حاجة ، وهم : أبو دُجَانة ، وسهل بن حُنيف ، والحارث بن الصِّمَّة . ثم ذكر حكم الفيىء فقال تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أي : من أموال كفار أهل القرى (فلله) أي : يأمركم فيه بما أحب ، (ولرسوله) بتحليل الله إياه . وقد ذكرنا « ذوي القربى واليتامى » في (الأنفال : ٤١) وذكرنا هناك الفرق بين الفيىء والغنيمة .

فصل

واختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فذهب قوم : أن المراد بالفيىء هاهنا : الغنيمة التي يأخذها المسلمون من أموال الكافرين عنوة ، وكانت في بدوء الإسلام للذين سمَّاهم الله هاهنا دون الغالبين[1] الموجفين عليها ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في (الأنفال : ٤١) (واعلموا أنما غنمتم من شيء ...) الآية ، هذا قول قتادة ويزيد بن رومان . وذهب قوم إلى أن هذا الفيىء : ما أخذ من أموال المشركين ما لم يوجف بخيل ولا ركاب ، كالصلح ، والجزية ، والعشور ، ومال من مات منهم في دار الإسلام ولا وارث له ، فهذا كان يقسم في زمن رسول الله ﷺ خمسة أخماس ، فأربعة لرسول الله ﷺ يفعل بها ما يشاء ، والخمس الباقي للمذكورين في هذه الآية .

واختلف العلماء فيما يصنع بسهم رسول الله ﷺ بعد موته على ما بيَّنَّا في (الأنفال : ٤١) فعلى هذا تكون هذه الآية مثبتة لحكم الفيىء والتي في (الأنفال : ٤١) مثبتة لحكم الغنيمة ، فلا يتوجه النسخ[2] .

(١) في الأصل : العالمين .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى مبيناً ما الفيء ؟ وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيىء : كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بني النضير هذه ، فانها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة —

قوله تعالى : (كي لايكون) يعني : الفيىء (دُولة) وهو اسم للشيء يتداوله القوم . والمعنى : لئلا يتداوله الأغنياء بينهم فيغلبوا الفقراء عليه . قال الزجاج : الدُّولة : اسم الشيء يتداول . والدَّولة ، بالفتح : الفعل والانتقال من حال إلى حال (وما آتاكم الرسول) من الفيىء (فخذوه وما نهاكم) عن أخذه (فانتهوا) وهذا نزل في أمر الفيىء ، وهو عام في كل ما أمر به ، ونهى عنه[1] . قال الزجاج : ثم بين مَن المساكين الذي لهم الحق ، فقال تعالى : (للفقراء

— والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية فقال تعالى : (وما أفاء الله على رسوله منهم) أي من بني النضير (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) يعني الإبل (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع ، بل هو القاهر لكل شيء ، ثم قال تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أي : جميع البلدان التي تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بني النضير ، ولهذا قال تعالى : (فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...) إلى آخرها والتي بعدها . فهذه مصارف أموال الفيىء ووجوهه . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وما آتاكم الرسول فخذوه) يقول تعالى ذكره : وما أعطاكم رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه من أهل القرى فخذوه ، (وما نهاكم عنه) من الغلول وغيره من الأمور (فانتهوا) . اهـ وقال ابن كثير : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) أي : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . اهـ . وقال الشوكاني في « فتح القدير » : والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصاً ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع ، فقد أعطانا إياه وأوصلنا إليه ، قال : وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها ! ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرسول وترك مانهاهم عنه ، أمرهم بتقواه وخوّفهم شدة عقوبته فقال : (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فهو معاقب من لم يأخذ ماآتاه الرسول ولم يترك مانهاه عنه . اهـ . —

المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم) قال المفسرون : يعني بهم المهاجرين (يبتغون فضلاً من الله) أي : رزقاً يأتيهم (ورضواناً) رضى ربهم حين خرجوا إلى دار الهجرة (أولئك هم الصادقون) في إيمانهم . ثم مدح الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيىء ، فقال تعالى : (والذين تبوَّؤُا الدار) يعني : دار الهجرة ، وهي المدينة (والإيمان من قبلهم) فيها تقديم وتأخير ، تقديره : والذين تبوَّؤُوا الدار من قبلهم ، أي : من قبل المهاجرين ، والإيمان عطف على « الدار » في الظاهر ، لا في المعنى ، لأن « الإيمان » ليس بمكان يُتَبَوَّأ ، وإنما تقديره : وآثروا الإيمان ، وإسلام المهاجرين قبل الأنصار ، وسكنى الأنصار المدينة قبل المهاجرين . وقيل : الكلام على ظاهره ، والمعنى : تبوَّؤوا الدار والإيمان قبل الهجرة (يحبُّون من هاجر إليهم) وذلك أنهم شاركوهم في منازلهم ، وأموالهم (ولا يجدون في صدورهم حاجة) أي : حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون .

وفيما أوتوه قولان :

أحدهما : مال الفيء ، قاله الحسن . وقد ذكرنا آنفاً أن النبي ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر .

ـــ وقد روى الامام أحمد في « المسند » ، والبخاري ومسلم في « صحيحيها » عن علقمة قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيِّرات خلق الله عز وجل ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال : ومالي لاألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ؟ ! قالت : لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدت فيه شيئاً من هذا ؟ قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأت : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا) ؟ ! قالت : بلى ، قال : فإن رسول الله ﷺ قد نهى عنه ...

وروى البخاري ومسلم في « صحيحيها عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

ﷺ حتى يشبع ، ففعلت ذلك ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه ، فشبع هو ، وباتا طاويَين ، فلما أصبحا غَدَوَا إلى رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليهما تبسَّم ، ثم قال : ضحك الله الليلة ، أوعجب من فَعالكما[1] ، فأنزل الله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ...) الآية . أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة[2] وفي بعض الألفاظ عن أبي هريرة : أن الضيف كان من أهل الصُّفَّة ، والمضيف كان من الأنصار ، وأن النبي ﷺ قال : « لقد عجب من فعالكما أهلُ السماء »[3] .

والثاني : أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ أُهْدِيَ له رأسُ شاةٍ ، فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد حتى تداولها سبعة أهل أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عمر[4] . وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك

(١) قال الحافظ ابن حجر : نسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية ، والمراد بها : الرضى بصنيعها : وقوله « فعالكما » وفي رواية « فعلكما » بالإفراد ، قال في « البارع » : الفعال بالفتح : اسم الفعل الحسن ، مثل الجود والكرم ، قال : وفي « التهذيب » : الفعال بالفتح : فعل الواحد في الخير خاصة ، يقال : هو كريم الفعال بفتح الفاء ، وقد يستعمل في الشر . والفعال بالكسر : إذا كان الفعل بين اثنين ، يعني أنه مصدر فاعل ، مثل قاتل قتالاً .

(٢) البخاري في « صحيحه » ٧ / ٩٠ ، ٩١ و ٨ / ٤٨٤ ومسلم ٣ / ١٦٢٤

(٣) كذا لفظ الحديث في « أسباب النزول » للواحدي ٣١٣ ، ٣١٤ ، وكون المضيف من الأنصار ثابت في « الصحيحين » . وأهل الصُّفَّة : أضياف الإسلام من فقراء المهاجرين ، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، كانوا يبيتون في مسجد رسول الله ﷺ ، والصُّفَّة : موضع مظلَّل من المسجد كانوا يأوون إليه .

(٤) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣١٤ عن عبد الله بن عمر ، وفي سنده عبيد الله ابن الوليد الوصافي ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ضعيف ، والحديث رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٤٨٤ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي —

والثاني : الفضل والتقدُّم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم) بأموالهم ومنازلهم (ولو كان بهم خصاصة) أي فقر وحاجة ، فبين الله عز وجل أن إيثارهم لم يكن عن غنى[1].
وفي سبب نزول هذا الكلام قولان :

أحدهما : أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ ، وقد أصابه الجهد ، فقال : يا رسول الله : إني جائع فأطعمني ، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه : هل عندكنّ شيء ؟ فكلُّهن قلن : والذي بعثك بالحق ماعندنا إلا الماء ، فقال : ماعند رسول الله ﷺ مايطعمكَ هذه الليلة . ثم قال : « مَن يضيف هذا هذه الليلة يرحمه الله ؟ » فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله ، فأتى به منزله ، فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله ﷺ ، فأكرميه ولا تدَّخري عنه شيئاً ، فقالت : ماعندنا إلا قوت الصبية ، فقال : قومي فعلِّليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً ، ثم أصبحي سراجِك[2] ، فإذا أخذ الضيف ليأكل ، فقومي كأنك تصلحين السراج ، فأطفئيه ، وتعالَيْ نمضغ ألسنتنا لأجل ضيف رسول الله

(١) ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله تعالى بقوله : (ويطعمون الطعام على حبه) وقوله : (وآتى المال على حبه) فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ماتصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ماأنفقوا ، من هذا الباب تصدق الصّديق رضي الله عنه بجميع ماله ، فقال رسول الله ﷺ : « ماأبقيت لأهلك ؟ » فقال رضي الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إليه ، فرده الآخر إلى الثالث ، حتى وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم .

(٢) أي أوقديه

قال : أُهدي لبعض الصحابة رأسُ شاةٍ مشويّ ، وكان مجهوداً ، فوجَّه به إلى جارٍ له فتناوله تسعةُ أنفس ، ثم عاد إلى الأول ، فنزلت هذه الآية [1] .

قوله تعالى : (ومن يوق شح نفسه) وقرأ ابن السميفع ، وأبو رجاء « ومن يُوَقَّ » بتشديد القاف . قال المفسرون : هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه ، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه . والمعنى : أن الأنصار ممن وُقِيَ شُحَّ نفسه حين طابت أنفسهم بترك الفيء للمهاجرين .

فصل

وقد اختلف العلماء في الشح والبخل ، هل بينهما فرق ، أم لا ؟ فقال ابن جرير : الشُّحُّ في كلام العرب : هو منع الفضل من المال . وقال أبو سليمان الخطابي : الشح أبلغ في المنع من البخل ، وإنما الشُّحُّ بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع ، وأكثر ما يقال في البخل : إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشح عام ، فهو كالوصف اللازم للإنسان من قِبَل الطَّبع والجِبِلَّة . وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال : البخل : أن يَضِنَّ بماله ، والشح : أن يبخل بماله ومعروفه . وقد روى أبو الشعثاء أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : أسمع الله يقول : « ومن يوق

فقال : قلت : عبيد الله بن الوليد ، ضعفوه . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/١٩٥ وزاد نسبته لابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » في رواية البخاري الأولى : هذا هو الأصح في سبب نزول هذه الآية ، ثم ذكر رواية ابن مردويه هذه وقال : ويحتمل أن تكون نزلت بسبب ذلك كله . اهـ .

(١) ذكره القرطبي في « تفسيره » ١٨/٢٥ ونسبه إلى الثعلبي عن أنس ، بلفظ « فتداولته سبعة أنفس في سبعة أبيات » بدل « فتناوله تسعة أنفس » .

شح نفسه » وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يديَّ شيء ، فقال : ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن ، الشُّحُّ : أن تأكل مال أخيك ظلماً ، إنما ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل [١] وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « بريء من الشُّحِّ من أدَّى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى في النائبة » [٢] .

قوله تعالى : (والذين جاؤوا من بعدهم) يعني التابعين إلى يوم القيامة . قال الزجاج : والمعنى : ما أفاء الله على رسوله فلله وللرسول ولهؤلاء المسلمين ، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ ، ودليل هذا قوله تعالى : (والذين جاؤوا من بعدهم) أي : الذين جاؤوا في حال قولهم : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا) فمن ترحَّم على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يكن في قلبه غِلٌّ لهم ، فله حَظٌّ من فيء المسلمين ، ومن شتمهم ولم يترحَّم عليهم ، وكان في قلبه غِلٌّ لهم ، فما جعل الله له حقاً في شيء من فيء المسلمين بنص الكتاب . وكذلك روي عن مالك بن أنس رضي الله عنه أنه قال : من تنقص أصحاب رسول الله ﷺ ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ ، فليس له حق في فيء المسلمين ، ثم تلا هذه الآيات .

---

(١) رواه ابن جرير : ٤٣/٢٨ ، وذكره ابن كثير ٣٣٩/٤ ونسبه إلى ابن أبي حاتم ، وإسناده صحيح ، إلا أن المسعودي أحد رواته اختلط قبل موته .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٤٤/٢٨ وفي سنده ضعف ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٩٧/٦ وزاد نسبته لابن مردويه ، والبيهقي عن أنس رضي الله عنه اهـ . وقد روى مسلم في « صحيحه ١٩٩٦/٤ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُا ٱلظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين نافقوا) يعني : عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه (يقولون لإخوانهم) في الدِّين ، لأنهم كفَّار مثلهم ، وهم اليهود (لئن أُخرجتم) من المدينة (لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم) أي : في خذلانكم (أحداً أبداً) فكذَّبهم الله تعالى في ذلك بقوله : (والله يشهد إنهم لكاذبون) ثم ذكر أنهم يُخلفونهم ماوعدوهم من الخروج والنصر بالآية التي تلي هذه ، فكان الأمر على ماذكره الله تعالى ، لأنهم أُخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقُوتلوا فلم ينصروهم ، ومعنى (ولئن نصروهم) : لئن قُدِّر وجودُ نصرهم ، لأن الله نفى نصرهم ، فلا يجوز وجوده . وقوله تعالى : (ثم لاينصرون) يعني : بني النضير.

قوله تعالى : (لأنتم أشد) يعني : المؤمنين أشد (رهبة في صدورهم) وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم المنافقون ، قاله مقاتل . والثاني : بنو النضير ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (لا يقاتلونكم جميعاً) فيهم قولان .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله الأكثرون .

والثاني : اليهود والمنافقون ، قاله ابو سليمان الدمشقي . والمعنى : أنهم لا يبرزون لحربكم ، إنما يقاتلون مُتَحَصِّنين (في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبان « جدار » بألف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي « جُدُر » بضم الجيم والدّال . وقرأ أبو بكر الصّدّيق ، وابن أبي عبلة « جَدَر » بفتح الجيم والدال جميعاً ، وقرأ عمر بن الخطاب ، ومعاوية ، وعاصم الجحدري « جَدْر » بفتح الجيم وسكون الدال . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والحسن ، وابن سيرين ، وابن يعمر « جُدْر » بضم الجيم وإسكان الدال (بأسُهم بينهم شديدٌ) فيما وراء الحصون شديد ، وإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله .

قوله تعالى : (تحسبهم جميعاً) فيهم قولان .

أحدهما : أنهم اليهود والمنافقون ، قاله مقاتل .

والثاني : بنو النضير ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (وقلوبهم شتى) قال الزجاج : أي : هم مختلفون لا تستوي قلوبهم ، ولا يتعاونون بنيّات مجتمعة ، لأن الله تعالى ناصر حزبه ، وخاذل أعدائه .

قوله تعالى : (ذلك) يعني : ذلك الاختلاف (بأنهم قوم لا يعقلون) مافيه الحظُّ لهم . ثم ضرب لليهود مثلاً ، فقال تعالى : (كمثل الذين من قبلهم قريباً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بنو قينقـــاع ، وكانوا وادعوا رسول الله ، ثم غدروا ، فحصروهم ، ثم نزلوا على حكمه أن له أموالهم ، ولهم النساء والذُّرِّيَّة . فالمعنى : مثل بني النضير فيما فعل بهم كبني قينقاع فيما فعل بهم .

والثاني : أنهم كفار قريش يوم بدر ، قاله مجاهد . والمعنى : مَثَلُ هؤلاء اليهود كمثلِ المشركين الذين كانوا من قبلهم قريباً ، وذلك لقرب غزاة بني النضير من غزاة بدر .

والثالث : أنهم بنو قريظة ، فالمعنى : مَثَلُ بني النضير كبني قريظة (ذاقوا وبال أمرهم) بأن قُتلت مقاتلتهم ، وسُبِيَتْ ذراريهم ، وهؤلاء أُجلوا عن ديارهم فذاقوا وبال أمرهم (ولهم عذاب أليم) في الآخرة . ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال تعالى : (كمثل الشيطان) . والمعنى : مثل المنافقين في غرورهم بني النضير ، وقولهم : لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم ، كمثل الشيطان (إذ قال للإنسان اكفر) وفيه قولان .

أحدهما : أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكافر في طاعة الشيطان ، وهو عام في جميع الناس ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه مَثَلٌ ضربه الله لشخص معين ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وهذا شرح قصته .

ذكر أهل التفسير أن عابداً من بني إسرائيل كان يقال له : برصيصا تعبَّد في صومعةٍ له أربعين ســـنة لا يقدر عليه الشيطان ، فجمع إبليس يوماً مردة الشياطين ، فقال : ألا أحدٌ منكم يكفيني برصيصا ، فقال الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء : أنا أكفيكه ، فانطلق على صفة الرهبان ، وأتى صومعته ، فناداه فلم

يجيه ، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ، ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام ، فلما رأى أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته ، فلما انفتل برصيصا ، اطّلع فرآه منتصباً يصلي على هيئة حسنة ، فناداه : ما حاجتك ؟ فقال: إني أحببت أن أكون معك ، أقتبس من عملك ، وأتأدّب بأدبك ، ونجتمع على العبادة ، فقال برصيصا : إني لفي شغل عنك ، ثم أقبل على صلاته ، وأقبل الأبيض يصلي ، فلم يُقبِلْ إليه برصيصا أربعين يوماً ، ثم انفتل ، فرآه يصلي ، فلما رأى شدة اجتهاده قال : ما حاجتك ؟ فأعاد عليه القول ، فأذن له ، فصعِد إليه ، فأقام معه حولاً لا يفطر إلا كل أربعين يوماً ، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً ، وربما زاد على ذلك ، فلما رأى برصيصا اجتهاده ، أعجبه شأنه وتقاصرت إليه نفسه ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إني منطلق عنك ، فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى ، وكان يبلغنا عنك غير الذي أرى ، فاشتد ذلك على برصيصا ، وكره مفارقته ، فلما ودّعه قال له الأبيض : إن عندي دَعواتٍ أعلمكها ، يشفي الله بها السقيم ، ويعافي بها المبتلى ، فقال برصيصا : إني أكره هذه المنزلة ، لأن لي في نفسي شغلاً ، فأخاف أن يعلم الناس بهذا ، فيشغلوني عن العبادة ، فلم يزل به حتى علمه إياها ، ثم انطلق إلى إبليس فقال : قد والله أهلكتُ الرجل ، فانطلق الأبيض ، فتعرّض لرجل فخنقه ، ثم جاءه في صورة رجل متطبّب ، فقال لأهله : إن بصاحبكم جنوناً فأعالجه ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : إني لا أقوى على جنّيّه ، ولكن سأرشدكم إلى من يدعو له فيعافى ، فقالوا له : دُلنّا ، قال : انطلقوا إلى برصيصا العابد ، فإن عنده اسم الله الأعظم ، فانطلقوا اليه ، فدعا بتلك الكلمات ، فذهب عنهم الشيطان ، وكان الأبيض يفعل بالناس ذلك ، ثم يرشدهم الى برصيصا ، فيُعافَوْن ، فلما طال ذلك

عليه انطلق الى جارية من بنات ملوك بني اسرائيل ، لها ثلاثة إخوة ، فخنقها ، ثم جاء اليهم في صورة متطبِّب ، فقال : أعالجها ؟ قالوا : نعم . فقال : إن الذي عرض لها مارد لايطاق ، ولكن سأرشدكم الى رجل تَدْعونها عنده ، فإذا جاء شيطانها دعا لها ، قالوا ، ومن هو ؟ قال : برصيصا ، قالوا : فكيف لنا أن يقبلها منّا ، وهو أعظم شأناً من ذلك ؟ ! قال : إن قبلها ، والا فضعوها في صومعته ، وقولوا له : هي أمانة عندك ، فانطلقوا اليه ، فأبى عليهم ، فوضعوها عنده . وفي بعض الروايات أنه قال : ضعوها في ذلك الغار ، وهو غار الى جنب صومعته ، فوضعوها ، فجاء الشيطان فقال له : انزل إليها فامسحها بيدك تعافى ، وتنصرف الى أهلها ، فنزل ، فلما دنا الى باب الغار دخل الشيطان فيها ، فإذا هي تركض ، فسقطت عنها ثيابها ، فنظر العابد الى شيء لم ير مثله حسناً وجمالاً ، فلم يتمالك أن وقع عليها ، وضرب على أذنه ، فجعل يختلف اليها الى أن حملت ، فقال له الشيطان : ويحك يا برصيصا قد افتُضحت ، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب ؟ ! فإن سألوك عنها فقل : جاء شيطانها ، فذهب بها ، فلم يزل بها حتى قتلها ، ودفنها ، ثم رجع الى صومعته ، فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يسألون عنها ، فقالوا : يا برصيصا ! ما فعلت أختنا ؟ قال : جاء شيطانها فذهب بها ، ولم أطقه ، فصدّقوه ، وانصرفوا . وفي بعض الروايات أنه قال : دعوت لها ، فعافاها الله ، ورجعتْ اليكم ، فتفرّقوا ينظرون لها أثراً ، فلما أمسَوْا جاء الشيطان الى كبيرهم في منامه ، فقال : ويحك : إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا ، وإنه دفنها في موضع كذا من جبل كذا ، فقال : هذا حلم ، وبرصيصا خير من ذلك ، فتتابع عليه ثلاث ليال ، ولا يكترث ، فانطلق إلى الأوسط كذلك ، ثم إلى الأصغر مثل ذلك ، فقال الأصغر لإخوته : لقد رأيت كذا وكذا ، فقال

الأوسط : وأنا والله ، فقال الأكبر : وأنا والله ، فأتوا برصيصا ، فسألوه عنها ، فقال : قد أعلمتكم بحالها ، فكأنكم اتَّهمتموني ، قالوا : لا والله ، واستحيَوْا ، وانصرفوا ، فجاءهم الشيطان فقال : ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن إزارها لخارج من التراب ، فانطلقوا ، فحفروا عنها ، فرأوها ، فقالوا : يا عدوَّ الله لم قتلتها ؟ اهبط ، فهدموا صومعته ، ثم أوثقوه ، وجعلوا في عنقه حبلاً ، ثم قادوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه ، وذلك أن الشيطان عرض له ، فقال : تقتلها ثم تكابر ، فاعترف ، فأمر الملك بِقَتْلِهِ وصَلْبِهِ ، فعرض له الأبيض ، فقال : أتعرفني ؟ قال : لا ، قال : أنا صاحبك الذي علَّمتك الدعوات ، ويحك ما اتَّقيت اللَّه في أمانة خنت أهلها ، أما استحيَيْتَ من الله ؟ ! ألم يكفك ذلك حتى أقررت ففضحت نفسك وأشباهك بين الناس ؟ ! فإن مِتَّ على هذه الحالة لم تفلح ، ولا أحدٌ من نظرائك ، قال : فكيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خصلة حتى أُنجيك ، وآخذ بأعينهم ، وأُخرجك من مكانك ، قال : ما هي ؟ قال : تسجد لي ، فسجد له ، فقال : هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك أن كفرت (إني بريء منك) ثم قتل [1] . فضرب اللّه هذا المثل لليهود حين غرَّهم المنافقون ، ثم أسلموهم .

---

(١) الخبر بطوله أخرجه ابن جرير الطبري ٢٨/٥٠ وغيره عن ابن عباس موقوفاً عليه وإسناده ضعيف جداً ، وأخرجه الحاكم في « المستدرك » ٢/٤٨٤ عن علي رضي الله عنه قال : كان راهب يتعبد في صومعته وامرأة زينت له نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها فدفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينا هم يمشون ، إذ جاءه الشيطان فقال : أنا الذي زينت لك ، فاسجد لي سجدة أنجيك ، فسجد له ، فأنزل الله عز وجل (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك ...) الآية . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه ـــ

قوله تعالى : (إِنّي أخاف اللّه) ونصب ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ياء « إنيَ » وأسكنها الباقون . وقد بيَّنا المعنى في (الأنفال : ٤٨) (فكان عاقبتها) يعني : الشيطان وذلك الكافر .

الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ١٩٩/٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق وابن راهويه ، وأحمد في « الزهد » والبخاري في « تاريخه » ، وابن المنذر ، وابن مردويه والبيهقي في « شعب الإيمان » عن علي رضي الله عنه . اه .

وما رواه ابن أبي الدنيا وغيره عن عبيد بن رفاعة الزرقي يبلغ به النبي ﷺ في قصة هذا الراهب ، فلا يصح رفعها ، بل الصحيح أنها موقوفة على علي رضي الله عنه وغيره ، ولعلها من الاسرائيليات ، والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة ابن كثير في « تفسيره » من رواية ابن جرير الطبري عن ابن مسعود ثم قال : وكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك ، قال : واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو « برصيصا » فالله أعلم .

وجاء في هامش نسخة الرباط بخط مغربي ما يلي :

لله در الحافظ ابن الجوزي ، إذ لم ينص على ضعف هذه القصة ، إذ نسبها صاحب « الدر المنثور » لعبد الرزاق ، وابن راهويه ، وأحمد في « الزهد » وعبد بن حميد ، والبخاري في « تاريخه » ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححها ، وسلمه الذهبي في « التلخيص » وابن مردويه ، والبيهقي عن علي موقوفاً . ثم أوردها أيضاً من عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً ، ثم عن ابن مسعود كذلك ، أخرجه ابن جرير ، ثم عن ابن أبي الدنيا ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عبد الله بن رفاعة الزرقي مرفوعاً ، لكن رفعها لا يصح ، إنما الصحيح فيها الوقف على علي ، خلافاً لقول ابن عطية لما علقها : منسوبة للقصاص ضعيفة . اه . فلان كاتبه محمد بن جبر اسلام . وقال الشوكاني في « فتح القدير » : والمراد بالانسان هنا ـ (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر) ـ جنس من أطاع الشيطان من نوع الانسان . وقيل: هو عابد كان في بني اسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه ، فلما كفر قال : إني بريء منك . وقيل : المراد بالانسان هنا : أبو جهل ، قال : والأول أولى اه . يريد بذلك عموم جنس الانسان . وقال الرازي في « تفسيره » : أي مثل المنافقين الذين غرّوا بني النضير بقولهم : (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) ثم خذلوهم وما وفوا بعهدهم ، كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر) ثم تبرأ منه في العاقبة . اه .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ . لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) أي : لينظر أحدكم أيّ شيء قَدَّم ؟ أعملاً صالحاً يُنجيه ؟ أم سيئاً يُوبِقُه ؟ (ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه) أي : تركوا أمره (فأنساهم أنفسهم) أي : أنساهم حظوظ أنفسهم ، فلم يعملوا بالطاعة ، ولم يقدّموا خيراً . قال ابن عباس : يريد قريظة ، والنضير ، وبني قينقاع .

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ . هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) أخبر اللّه بهذا عن تعظيم شأن القرآن ، وأنه لو جعل في جبل — على قساوته وصلابته — تمييزاً ، كما جعل في بني آدم ، ثم أنزل عليه القرآن لتشقّق من خشية اللّه ، وخوفاً أن لا يؤدِّيَ حق اللّه في تعظيم القرآن . و « الخاشع » : المتطأطئ الخاضع ، و « المتصدّع » : المتشقّق . وهذا توبيخ لمن لا يحترم القرآن ، ولا يؤثّر في قلبه مع الفهم والعقل ، ويَدُلُّك على هذا المثل قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس) ثم أخبر بعظمته وربوبيته ، فقال تعالى : (هو اللّه الذي لا إله الا هو) قال الزجاج : قوله

تعالى : (هو الله) ردٌّ على قوله تعالى في أول السورة : (سبح لله مافي السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) .

فأما هذه الأسماء ، فقد سبق ذكر « الله » ، و « الرحمن » ، و « الرحيم » في (الفاتحة) وذكرنا معنى « عالم الغيب والشهادة » في (الأنعام : ٧٣) . و « الملك » في سورة (المؤمنين : ١١٦) .

فأما « القدوس » فقرأ أبو الأشهب ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء بفتح القاف . قال أبو سليمان الخطابي : « القدوس » : الطاهر من العيوب ، المنزَّه عن الأنداد والأولاد . و « القدس » : الطهارة . ومنه سمي : بيت المقدس ، ومعناه : المكان الذي يُتَطَهَّرُ فيه من الذنوب . وقيل للجنة : حظيرة القدس ، لطهارتها من آفات الدنيا . والقدس : السطل الذي يتطهر فيه ، ولم يأت من الأسماء على ُفعُّول بضم الفاء الا « قُدُّوس » ، و « سُبُّوح » وقد يقال أيضاً : قَدُّوس ، وسَبُّوح بالفتح فيهما ، وهو القياس في الأسماء ، كقولهم : سَفُّود ، وكَلُّوب .

فأما « السلام » فقال ابن قتيبة : سمى نفسه سلاماً ، لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء . وقال الخطابي : معناه : ذو السلام . والسلام في صفة الله سبحانه : هو الذي سَلِمَ من كل عيب ، وبرىء من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين . قال : وقد قيل : هو الذي سَلِمَ الخلقُ من ظلمه .

فأما « المؤمن » ، ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنه الذي أَمِنَ النـاسُ ظلمَهُ ، وأَمِنَ مَنْ آمَنَ به عذابَهُ ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنه المجير ، قاله القرظي .

والثالث : الذي يصدّق المؤمنين اذا وحّدوه ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه الذي وحّد نفسه ، لقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله الا هو) [آل عمران : ١٨] ذكره الزجاج .

والخامس : أنه الذي يُصدّق عباده وعده ، قاله ابن قتيبة .

والسادس : أنه يصدّق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيّب آمالَهم ، كقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي »[1] حكاه الخطابي .

فأما « المهيمن » ففيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشهيد ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والكسائي . قال الخطابي : ومنه قوله تعالى : (ومهيمناً عليه) [المائدة : ٤٨] ، فالله الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل .

والثاني : أنه الأمين ، قاله الضحاك ، قال الخطابي : وأصله : مؤيمن ، فقلبت الهمزة هاء ، لأن الهاء أخفُّ عليهم من الهمزة . ولم يأت مُفَيْعِلٌ في غير التصغير ، إلا في ثلاثة أحرف « مسيطر » و « مُبيطر » و « مهيمن » . وقد ذكرنا في سورة (الطور : ٣٧) عن أبي عبيدة ، أنها خمسة أحرف .

والثالث : المصدّق فيما أخبر ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه الرقيب على الشيء ، والحافظ له ، قاله الخليل . قال الخطابي : وقال بعض أهل اللغة . الهيمنة : القيام على الشيء ، والرعاية له ، وأنشد :

أَلاَ إنَّ خَيْرَ ٱلنَّاس بَعْدَ نَبِيِّهِ ... مُهَيْمِنُهُ ٱلتاليـــه في ٱلعُرْفِ وٱلنُّكْرِ

(١) هـــذه قطعة من حديث قدسي رواه البخاري في « صحيحه » ٣٢٥/١٣ ، ومسلم ٢١٠٢/٤ ، ولفظـــه عند البخاري بتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ـــ

يريد القائم على الناس بعده بالرِّعاية لهم . وقد زدنا هذا شرحاً في (المائدة : ٤٨) وبيَّنَّا معنى « العزيز » في (البقرة : ١٢٩) .

فأما « الجبار » ، ففيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه العظيم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على مايريد ، قاله القرظي والسدي . وقال قتادة : جبر خلقه على ماشاء . وحكى الخطابي : أنه الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه . يقال : جبره السلطان ، وأجبره .

والثالث : أنه الذي جبر مفاقر الخلق ، وكفاهم أسباب المعاش والرزق .

والرابع : أنه العالي فوق خلقه ، من قولهم : تجبر النبات : إذا طال وعلا ، ذكر القولين الخطابي .

فأما « المتكبر » ففيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه الذي تكبرّ عن كل سوء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الذي تكبرّ عن ظلم عباده ، قاله الزجاج .

- النبي ﷺ : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم ، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» . والحديث يرشد إلى تحسين الظن بالله عز وجل ، ولكن حسن الظن إنما يكون لمن تاب وندم وأقلع وبدّل السيئة بالحسنة ، واستقبل بقية عمره بوسائل النجاة ، فمن فعل ذلك ، ثم أحسن الظن ، فقد أحسن وحله محله ، وأما من أساء وأصر على الكبائر فوحشة المعاصي لايجامعها إحسان الظن بالله تعالى . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤٢٧/١٣ : قال صاحب « المشارق » : والمراد بما جاء في الحديث سرعة قبول توبة الله للعبد ، أو تيسير طاعته وتقويته عليها ، وتمام هدايته وتوفيقه ، والله أعلم بمراده . اهـ .

والثالث : أنه ذو الكبرياء ، وهو الملك ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أنه المتعالي عن صفات الخلق .

والخامس : أنه الذي يتكبَّر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة ، فقصمهم، ذكرهما الخطابي . قال : والتاء في « المتكبر » تاء التفرُّد ، والتخصُّص ، لأن التعاطي والتكلّف والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين ، وإنما سمة العبد الخضوع والتذلل . وقيل : إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله ، لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق[1] .

وأما « الخالق » فقال الخطابي : هو المبتدىء للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق ، فأما في نعوت الآدميين ، فمعنى الخلق : كقول زهير :

وَلأَنتَ تَفري ماخَلَقْتَ وبَعْـ ضُ ٱلْقَوْمِ يَخْلُقُ ثم لاَ يَفْرِي[2]

يقول : إذا قدرت شيئاً قطعته ، وغيرك يقدر ما لايقطعه ، أي : يتمنَّى ما لايبلغه . (والبارىء) الخالق . يقال : بَرَأَ اللّه الخلق يَبْرَؤُهُمْ . و «المصوِّر» :

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١٦/١٧٣ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « العزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته » قال النووي : هكذا هو في جميع النسخ « العزُّ إزاره والكبرياء رداؤه » فالضمير في « إزاره ورداؤه » يعود إلى الله تعالى ، للعلم به ، وفيه محذوف تقديره ، قال الله تعالى : ومن ينازعني ذلك أعذبه ، ومعنى ينازعني : يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك .

(٢) ديوانه : ٩٤ « ومختار الشعر الجاهلي » ١/٢٦٥ و«الأضداد» لابن السكيت : ٢٠٥ ، و« شرح شواهد الشافية » : ٢٢٩ ، و«الكتاب» ٢/٢٨٩ و«الحيوان» : ٣/٣٨٣ . والخالق هنا : الذي يقدر الجلد ويهيئه لأن يقطعه ويخرزه . والفري : القطع ، يريد أنك إذا تهيأت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه كما يعجز بعض القوم عن إتمامه .

الذي أنشأ خلقه على صُوَرٍ مختلفةٍ ليتعارفوا بها . ومعنى : التصوير : التخطيط والتشكيل . وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن السميفع « البارىء المصور » بفتح الواو والراء جميعاً ، يعني : آدم عليه السلام . وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأعراف : ١٨٠ ، والإسراء : ١١٠] إلى آخر السورة .



سورة الممتحنة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) ذكر أهل التفسير أنها نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعَة ، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو ابن صَيْفِيّ بن هاشم أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، ورسول الله ﷺ يتجهَّزُ لفتح مكة ، فقال لها : « أمسلمةً جئتِ ؟ » قالتْ : لا ، قال : « فما جاء بكِ ؟ » قالت : أنتم الأهل والعشيرة والموالي ، وقد احتجت حاجةً شديدة ، فقدِمت إليكم لتعطوني . قال لها رسول الله ﷺ : « فأين أنتِ من شباب أهل مكة ؟ » وكانت مغنية ، فقالت : ما طُلِبَ مني شيءٌ بعد وقعة بدر ،

فحثَّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب ، فَكَسَوْها ، وحملوها ، وأعطَوها ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة ، وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة ، [وكتب في الكتاب : مِن حاطب إلى أهل مكة] إن رسول الله ﷺ يريدكم ، فخذوا حذركم ، فخرجت به سارة ، ونزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله ﷺ علياً ، وعماراً ، والزبير ، وطلحة ، والمقداد ، وأبا مَرْثَدٍ ، وقال : « انطلقوا حتى تأتوا « روضة خاخ »[1] ، فإن فيها ظعينةً[2] معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، فخذوه منها ، وخَلُّوا سبيلها ، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها » فخرجوا حتى أدركوها ، فقالوا لها : أين الكتاب؟ فحلفت بالله مامعها من كتاب ، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ : والله ما كَذَبْنَا ولا كُذِّبْنَا ، وسلَّ سيفه ، وقال : أخرجي الكتابَ ، وإلا ضربت عنقكِ ، فلما رأت الجدَّ أخرجته من ذؤابتها[3] ، فخلَّوا سبيلها ، ورجعوا بالكتاب الى رسول الله ﷺ فأرسل الى حاطب ، فأتاه ، فقال له : « هل تعرف الكتاب ؟ » قال : نعم . قال : « فما حملك على ماصنعت ؟ » فقال : يارسول الله والله ماكفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاَّ وَلَه بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت [غريباً] فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانَيْهم ، فخشيتُ على أهلي ، فأردت أن أتَّخِذَ عندهم يداً ، وقد علمتُ أن الله ينزل بهم بأسه ، وكتابي لايغني عنهم شيئاً ، فصدَّقه رسول الله

(١) « روضة خاخ » : موضع بين مكة والمدينة ، شرفها الله تعالى ، بقرب المدينة .

(٢) الظعينة هنا : الجارية ، وهي في الأصل : الهودج ، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه .

(٣) الذؤابة ، الناصية ، أومنبتها من الرأس ، وشعر في أعلى ناصية الفرس ، والمراد هنا : الشعر المضفور من شعر الرأس .

ﷺ وعَذَرَهُ ، ونزلت هذه السورة تنهى حاطباً عما فعل ، وتنهى المؤمنين أن يفعلوا كفعله ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول االله : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله اطَّلع على أهل بدر ، فقالوا : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم »[1] . وقد أخرج هذا الحديث في « الصحيحين » مختصراً ، وفيه ذكر علي ، وابن الزبير ، وأبي مَرْثَدٍ فقط[2] .

قوله تعالى : (تلقون إليهم بالمودة) وفيه قولان .

أحدهما : أن الباء زائدة ، والمعنى : تلقون اليهم المودَّة ، ومثله « ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم) [الحج : ٢٥] ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، وابن قتيبة ، والجمهور .

والثاني : تلقون اليهم أخبار النبي ﷺ وسِرَّه بالمودة التي بينكم وبينه ، قاله الزجاج .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣١٥ ولم ينسبه لأحد ، بل قال : قال جماعة من المفسرين نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ... فذكره

(٢) انظر « صحيح البخاري » ٧/٤٠٠ و ٨/٤٨٦ « ومسلم » ٤/١٩٤١ ، والحديث أورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٠٢ من رواية «الصحيحين» وزاد نسبته لأحمد في « المسند » والحميدي ، وعبد بن حميد ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وأبي عوانة ، وابن حبان ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي وأبي نعيم في « الدلائل » عن علي رضي الله عنه . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح ٨/٤٨٧ في شرح قوله ﷺ : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » : قال القرطبي : وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف ، تضمن أن هؤلاء ، حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة ، وتأهلوا أن يغفر لهم مايستأنف من الذنوب اللاحقة ، ولا يلزم من وجود الصلاحية للشيء وقوعه ، وقد أظهر الله صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك ، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا ، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريق المثلى ، ويعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم . اهـ .

قوله تعالى : (وقد كفروا) الواو للحال ، وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق ، وهو القرآن (يخرجون الرسول وإيّاكم) من مكة (أن تؤمنوا بالله (إن كنتم خرجتم) هذا شرط ، جوابه متقدّم ، وفي الكلام تقديم وتأخير . قال الزجاج : معنى الآية : إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء .

قوله تعالى : (تُسِرُّون اليهم بالمودَّة) الباء في « المودّة » حكمها حكم الأولى . قال المفسرون : والمعنى : تُسِرُّون اليهم النصيحة (وأنا أعلم بما أخفيتم) من المودَّة للكفار (وما أعلنتم) أي : أظهرتم بألسنتكم . وقال ابن قتيبة : المعنى : كيف تستسرُّون بمودتكم لهم مني وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون ؟ !

قوله تعالى : (ومن يفعلْه منكم) يعني : الاسرار والإلقاء اليهم (فقد ضلَّ سواء السبيل) أي : أخطأ طريق الهدى . ثم أخبر بعداوة الكفار فقال تعالى : (إن يثقفوكم) أي : يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) لا موالين (ويبسطوا إليكم أيديهم) بالضرب والقتل (وألسنتَهم بالسوء) وهو : الشتم (وودُّوا لو تكفرون) فترجعون الى دينهم . والمعنى : أنه لاينفعكم التقرُّب اليهم بنقل أخبار رسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (لن تنفعَكم أرحامُكم) أي : قراباتكم . والمعنى : ذوو أرحامكم ، أراد : لن ينفعَكم الذين عصيتم الله لأجلهم ، (يوم القيامة يفصل بينكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « يُفصَل » برفع الياء ، وتسكين الفاء ، ونصب الصاد . وقرأ ابن عامر : « يُفصَّل بينكم » برفع الياء ، والتشديد ، وفتح الصاد ، وافقه حمزة ، والكسائي ، وخلف ، إلا أنهم كسروا الصاد . وقرأ عاصم ، غير المفضل ، ويعقوب بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد ، وتخفيفها . وقرأ أبي بن كعب ،

وابن عباس ، وأبو العالية : « نُفصِّل » بنون مرفوعة ، وفتح الفاء ، مكسورة الصاد مشددة . وقرأ أبو رزين ، وعكرمة ، والضحاك : « نَفصِل » بنون مفتوحة ، ساكنة الفاء ، مكسورة الصاد خفيفة ، أي : نفصل بين المؤمن والكافر وإن كان ولده . قال القاضي أبو يعلى : في هذه القصة دلالة على أن الخوف على المال والولد لا يبيح التقية في إظهار الكفر ، كما يبيح في الخوف على النفس ، ويبين ذلك أن الله تعالى فرض الهجرة ، ولم يعذرهم في التخلُّف لأجل أموالهم وأولادهم . وإنما ظن حاطب أن ذلك يجوز له ليدفع به عن ولده ، كما يجوز له أن يدفع عن نفسه بمثل ذلك عند التقيَّة ، وإنما [قال] [1] عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق لأنه ظن أنه فعل ذلك عن غير تأويل .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . عَسَى ٱللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَٱللهُ قَدِيرٌ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا يَنْهٰكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهٰكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾

(١) زيادة ليست في الأصل والسياق يقتضيها .

قوله تعالى : (قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم) وقرأ عاصم : « أُسوة » بضم الألف ، وهما لغتان ، أي : اقتداء حَسَن به وبمن معه . وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم الأنبياء .

والثاني : المؤمنون (إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءاء منكم) قال الفراء : يقول : أفلا تَأَسَّيْتَ يا حاطب بإبراهيم وقومه فتبرَّأت من أهلك كما تبرؤوا من قومهم ؟ !

قوله تعالى : (إلا قولَ إبراهيم لأبيه) قال المفسرون : والمعنى : تأسّوا بإبراهيم الا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تأسَّوا به في ذلك ، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه (وما أملك لك من الله من شيء) أي : ما أدفع عنك عذاب الله إن أشركت به ، وكان من دعاء إبراهيم وأصحابه : (ربنا عليك توكلنا) الى قوله تعالى : (العزيز الحكيم) قال الفراء : قولوا أنتم : ربنا عليك توكلنا . وقد بينا معنى قوله تعالى : (لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) في « يونس » [آية : ٨٥] . ثم أعاد الكلام في ذكر الأُسوة فقال تعالى : (لقد كان لكم فيهم) أي : في ابراهيم ومن معه ، وذلك أنهم كانوا يبغضون من خالف الله . وقوله تعالى : (لمن كان يرجو الله) بدل من قوله تعالى : (لكم) وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ، ويخشى عقاب الآخرة .

قوله تعالى : (ومن يتولَّ) أي : يعرض عن الإيمان ويوال الكفار (فإن الله هو الغني) عن خلقه (الحميد) الى أوليائه . فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادَوْا أقرباءهم ، فأنزل الله تعالى : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم) أي : من كفار مكة (مودة) ففعل ذلك ، بأن أسلم كثير منهم يوم الفتح ، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فانكسر أبو سفيان

عن كثير مما كان عليه حتى هداه الله للإسلام (والله قدير) على جعل المودة (والله غفور) لهم (رحيم) بهم بعدما أسلموا .

قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين) اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : أنها في أسماء بنت أبي بكر ، وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العُزّى ، قَدِمَت عليها المدينة بهدايا ، فلم تقبل هداياها ، ولم تدخلها منزلها ، فسألت لها عائشة رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها ، وتقبل هديتها ، وتكرمها ، وتحسن اليها ، قاله عبد الله بن الزبير [1] .

والثاني : أنها نزلت في خزاعة وبني مدلج ، وكانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه أحداً ، قاله ابن عباس . وروي عن الحسن

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣١٧ من رواية عبد الله بن المبارك عن مصعب ابن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عبد الله بن الزبير . ومصعب بن ثابت لين الحديث كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » . ورواه أحمد في « المسند » ٤/٤ من رواية ابن المبارك ، والطبري ، والحاكم في « المستدرك » ٤٨٥/٢ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٢٣/٧ من رواية أحمد والطبراني والبزار ، وقال : وفيه مصعب بن ثابت ، وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٠٤/٦ وزاد نسبته للطيالسي ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس في « تاريخه » وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه . وروى أحمد في « مسنده » والبخاري ومسلم في « صحيحيها » بغير هذا السياق عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفاصلها ؟ قال : « نعم صلي أمك » .

البصري أنها نزلت في خزاعة ، وبني الحارث بن عبد مناف ، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فداموا على الوفاء به .

والثالث : نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس ، قاله عطية العوفي ومرة .

والرابع : أنها عامة في جميع الكفار ، وهي منسوخة بقوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) [التوبة : ٥] ، قاله قتادة .

والخامس : نزلت في النساء والصبيان ، حكاه الزجاج .

قال المفسرون : وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين ، وجواز بِرّهم ، وان كانت الموالاة منقطعة منهم .

قوله تعالى : (ولم يخرجوكم من دياركم) أي : من مكة (أن تبرُّوهم وتقسطوا اليهم) أي : تعاملوهم بالعدل فيما بينكم وبينهم .

قوله تعالى : (وظاهروا على إخراجكم) اي : عاونوا على ذلك (أن تولَّوهم) والمعنى : إنما ينهاكم عن أن تَولّوا هؤلاء ، لأن مكاتبتهم بإظهار ما أسرّه رسول الله ﷺ موالاة . وذكر بعض المفسرين أن معنى الآية والتي قبلها منسوخ بآية السيف . قال ابن جرير : لا وجه لادّعاء النسخ ، لأن بِرّ المؤمنين للمحاربين سواء كانوا قرابة أو غير قرابة ، غير محرم اذا لم يكن في ذلك تقوية لهم على الحرب بكراع أو سلاح ، أو دلالة لهم على عورة أهل الإسلام . ويدل على ذلك حديث أسماء وأمّها الذي سبق .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ

حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنَّ) قال ابن عباس : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحُديبية على أنَّ من أتاه من أهل مكة ردَّه اليهم . ومن أتى أهل مكة من أصحابه ، فهولهم ، وكتبوا بذلك الكتاب ، وختموه ، فجاءت سُبَيْعَة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحُديبية ، فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال : يا محمد : اردد عليَّ امرأتي ، فإنك قد شرطت لنا أن تردَّ علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تَجِفَّ بعدُ ، فنزلت هذه الآية[1] . وذكر جماعة من العلماء منهم محمد ابن سعد[2] كاتب الواقدي[3] أن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٦٨ : هكذا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند .

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري ، مولاهم أبو عبد الله (١٦٨ — ٢٣٠ هـ) صاحب « الطبقات الكبرى » مؤرخ ثقة ومن حفاظ الحديث الثقات ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد فتوفي فيها وصحب الواقدي المؤرخ زماناً ، فكتب له وروى عنه ، وعرف بـ « كاتب الواقدي » المؤرخ . قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : صدوق فاضل .

(٣) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء ، المدني ، أبو عبد الله الواقدي (١٣٠ — ٢٠٧ هـ) من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ومن حفاظ الحديث ، ولد بالمدينة ، ثم انتقل إلى العراق ، وولي قضاء بغداد ، واستمر فيها إلى أن توفي ، وهو الذي ينسب إليه كتاب « فتوح الشام » وأكثره مما لا تصح نسبته إليه ، له مؤلفات كثيرة ، ولكنه مع سعة علمه متروك ، كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد الزهري ، صاحب « الطبقات » .

معيط ، وهي أول من هاجر من النساء الى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ ، فَقَدِمَتْ المدينة في هدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخواها الوليد وعُمارة ابنا عقبة ، فقالا : يا محمد ، أوف لنا بشرطنا ، وقالت أم كلثوم : يا رسول الله ، أنا امرأة ، وحال النساء الى الضعف ماقد علمت ، فتردّني الى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي؟! فنقض الله عزّ وجل العهد في النّساء ، وأنزل فيهن المحنة ، وحكم فيهنّ بحكم رضوه كلّهم ، ونزل في أم كلثوم (فامتحنوهنّ) فامتحنها رسول الله ﷺ ، وامتحن النساء بعدها ، يقول : والله ما أخرجكنّ الا حبُّ الله ورسولهِ ، وما خرجتنّ لزوج ولا مال ؟ فإذا قلن ذلك تركن ، فلم يرددن الى أهليهن [١] .

وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبباً لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال.

أحدها : أنها سبيعة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط ، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل العلم ، وهو المشهور .

والثالث : أُميمة بنت بشر من بني عمرو بن عوف ، ذكره أبو نعيم الأصبهاني . قال الماوردي : وقد اختلف أهل العلم هل دخل ردُّ النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً ؟

---

(١) ذكره ابن سعد في « الطبقات » ٢٣٠/٨ بغير سند . وخرجه السيوطي في « الدر » ٢٠٦/٦ من رواية ابن سعد عن ابن شهاب بنحوه وهو مقطوع . وذكره بنحوه الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٢٢/٧ من رواية الطبراني عن عبد الله بن أبي أحمد ، وقال : وفيه عبد العزيز بن عمران ، وهو ضعيف ، وأورده بنحوه الحافظ السيوطي في « الدر » ٢٠٦/٦ فقال : أخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد ... فذكره .

فقالت طائفة : قد كان شرط ردّهن في لفظ الهدنة لفظاً صريحاً ، فنسخ الله تعالى ردّهن من العقد ، ومنع منه ، وأبقاه في الرجال على ماكان . وقالت طائفة : لم يشرط ردّهن في العقد صريحاً ، وإنما أطلق العقد ، وكان ظاهر العموم اشتماله مع الرجال ، فبين الله عز وجل خروجهنّ عن عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين .

أحدهما : أنهن ذوات فروج تحرمن عليهم .

والثاني : أنهن أرقّ قلوباً ، وأسرع تقلّباً منهم . فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم . وقال القاضي أبو يعلى : وإنما لم يردّ النساء عليهم ، لأن النسخ جائز بعد التمكين من الفعل ، وإن لم يقع الفعل [١] .

قال المفسرون : والمراد بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) رسول الله ﷺ ، لأنه هو الذي تولّى امتحانهن ، ويراد به سائر المؤمنين عند غيبته ﷺ . قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن، لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة ، قالت : لألحقنّ بمحمد . وفيما كان يمتحنهن به ثلاثة أقوال .

---

(١) قال القرطبي في « تفسيره » ٦٣/١٨ : أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشاً ، من أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلماً ، فنسخ من ذلك النساء ، قال : وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن . وقال ابن كثير في « تفسيره » : ٣٥٠/٤ : تقدم في سورة (الفتح) ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . وفي رواية : على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، قال : وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد ، والزهري ، ومقاتل بن حيان ، والسدي ، قال : فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، قال : وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهنّ ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هنّ حل لهم ، ولا هم يحلون لهن . اهـ .

أحدها : أنه كان يمتحنهن بـ « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله » رواه العوفي عن ابن عباس (١) .

والثاني : أنه كان يستحلف المرأة بالله : ما خرجتِ من بغض زوج ، ولا رغبةً عن أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجتِ إلا حباً لله ولرسوله ، روي عن ابن عباس أيضاً (٢) .

والثالث : أنه كان يمتحنهن بقوله تعالى : (إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) فمن أقرت بهذا الشرط قالت : قد بايعتك ، هذا قول عائشة (٣) .

قوله تعالى : (الله أعلم بإيمانهن) أي : إن هذا الامتحان لكم ، والله أعلم بهن ، (فإن علمتموهن مؤمنات) وذلك يُعلم بإقرارهن ، فحينئذ لا يحل ردُّهن (إلى الكفار) [لأن الله تعالى لم يبح مؤمنة لمشرك (وآتوهم) يعني أزواجهن الكفار] (ما أنفقوا) يعني : المهر . قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم . فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شيء (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهنّ) وهي المهور .

---

(١) رواه الطبري ٦٨/٢٨ باسناد مسلسل بالضعفاء عن ابن عباس .

(٢) رواه الطبري ٦٧/٢٨ من حديث قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح عن خليفة ابن حصين ، عن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عباس ... وقيس بن الربيع الأسدي قال الحافظ : صدوق تغير لما كبر ، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به ، وأبو نصر الأسدي وثقه أبو زرعة ، وقال البخاري : لم يعرف سماعه من ابن عباس .

(٣) رواه الطبري ٦٨/٢٨ من رواية ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ، والترمذي ١٦٤/٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

فصل

عندنا إذا هاجرت الحرة بعد دخول زوجها بها ، وقعت الفرقة على انقضاء عدتها . فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي امرأته ، وهذا قول الأوزاعي ، والليث ، ومالك ، والشافعي . وقال أبو حنيفة : تقع الفرقة باختلاف الدارين[1] .

قوله تعالى : (ولا تُمسِكوا بعصم الكوافر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « تُمسِكوا » بضم التاء ، والتخفيف . وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب : « تُمسِّكوا » بضم التاء ، وبالتشديد . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، وابن يعمر ، وأبو حيوة : « تَمسَّكوا » بفتح التاء ، والميم ، والسين مشددة . و « الكوافر » جمع كافرة ، والمعنى : إن الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ، وأمرهم بفراقهن . وقال الزجاج : المعنى : أنها إذا كفرت ، فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن ، أي : قد انبتّ عَقْدُ النكاح . وأصل العصمة : الحبل ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه .

قوله تعالى : (واسألوا ما أنفقتم) أي : إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدَّة ، فاسألوهم ما أنفقتم من المهر اذا لم يدفعوها اليكم (وليسألوا ما أنفقوا) يعني : المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن الكفار من تزوجهن « ما أنفقوا » وهو المهر . والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

---

(١) قال القرطبي عند قوله تعالى : (فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها ، لا هجرتها . وقال أبو حنيفة : الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين ، قال : والصحيح الأول ، لأن الله تعالى قال : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) فبين أن العلة عدم الحل بالإسلام ، وليس باختلاف الدار . والله أعلم .

قال أهل السِّيَر : وكانت أم كلثوم حين هاجرت عاتقاً لم يكن لها زوج فيبعث إليه قدر مهرها ، فلما هاجرت تزوجت زيد بن حارثة .

قوله تعالى : (ذلكم حكم الله) يعني ما ذكر في هذه الآية .

فصل

وذكر بعضهم في قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » أنه نسخ ذلك في حرائر أهل الكتاب بقوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) [المائدة : ٥] ، وهذا تخصيص لا نسخ .

قوله تعالى : (وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم) قال الزجاج : أي : أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم . وقرأ ابن مسعود ، والأزهري ، والنخعي : « فعَقَبتم » بغير ألف ، وبفتح العين والقاف ، وبتخفيفها . وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، وحميد ، والأعمش مثل ذلك ، إلا أن القاف مشددة . قال الزجاج : المعنى في التشديد والتخفيف واحد ، فكانت العقبى لكم بأن غلبتم . وقرأ أُبي بن كعب ، وعكرمة ، ومجاهد : « فأعقبتم » بهمزة ساكنة العين ، مفتوحة القاف خفيفة . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو عمران الجوني : « فعَقِبتم » بفتح العين ، وكسر القاف وتخفيفها من غير ألف (فآتُوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) أي : أعطُوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر .

وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في عياض بن غنم [1] ، كانت زوجته

---

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري ، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد ، وكان يقال له : زاد الراكب ، لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده ، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده ، فإن نفذ نحر لهم جمله .

مسلمة ، وهي أم الحكم بنت أبي سفيان ، فارتدَّتْ ، فلحقت بمكة ، فأمر الله المسلمين أن يعطُوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : (براءة من الله ورسوله) [التوبة : ١] إلى رأس الخمس .

فصل

قال القاضي أبو يعلى : وهذه الأحكام في أداء المهر ، وأخذه من الكفار ، وتعويض الزوج من الغنيمة ، أو من صداق قد وجب ردُّه على أهل الحرب ، منسوخة عند جماعة من أهل العلم . وقد نص أحمد على هذا . قلت : وكذا قال مقاتل : كل هؤلاء الآيات نسختها آية السيف .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) قال المفسرون : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته النساء يبايعنه ، فنزلت هذه الآية ، وشرط في مبايعتهن الشرائط المذكورة في الآية ، فبايعهن وهو على الصفا ، فلما قال : ولا يزنين ، قالت هند [1] : أوَتزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن ، فقالت : ربَّيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم [2] . وقد صح في الحديث أن النبي ﷺ

(١) هي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان .

(٢) ذكره بنحوه البغوي في « تفسيره » وكذلك الخازن ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : لم أره بسياقه ، لكن أخرجه الطبري بمعناه وأخص منه من طريق العوفي عن ابن عباس ، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حيان ، وفيه قول هند : ربّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى استلقى .

لم يصافح في البيعة امرأة ، وإنما بايعهن بالكلام [1] . وقد سمّينا من أحصينا من

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٨/٤٨٨ عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ...) إلى قوله : (غفور رحيم) قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات : قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك كلاماً » والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . والحديث أورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٠٩ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن ماجة ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها .

وروى الامام أحمد من حديث سفيان عن محمد بن المنكدر عن أُميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن : أن لا نشرك بالله شيئاً ... الآية وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة » قال ابن كثير : هذا إسناد صحيح ، قال : وقد رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة ، والنسائي أيضاً من حديث الثوري ، ومالك بن أنس ، كلهم عن محمد بن المنكدر به ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر ، وقد رواه أحمد أيضاً من حديث محمد بن إسحاق عن محمد بن المنكدر عن أُميمة به ، وزاد : « لم يصافح منا امرأة » قال : وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى ابن عقبة عن محمد بن المنكدر به .

والمبايعة عبارة عن المعاهدة ، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاوضة المالية .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٨/٤٨٨ قوله : « قد بايعتك كلاماً » أي يقول ذلك كلاماً فقط ، لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

وقال الشيخ محمد السفاريني الحنبلي في كتابه « شرح ثلاثيات مسند الامام أحمد » طبع المكتب الاسلامي ٢/٩٢٨ : وما جاء عن ابن خزيمة وابن حبان ، والبزار ، والطبراني ، وابن مردويه ، من طريق اسماعيل بن عبد الرحمن عن جدته أم عطية رضي الله عنها في قصة المبايعة ، قالت : فمد يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : « اللهم اشهد » وكذا حديثها الذي في البخاري وغيره : فقبضت منا امرأة يدها ، فإنه يشعر بأنهن كن —

المبايِعات في كتاب « التلقيح » على حروف المعجم ، وهن أربعمائة وسبع وخمسون امرأة ، والله الموفق .

قوله تعالى : (ولا يقتلن أولادهن) قال المفسرون : هو الوأد الذي كانت الجاهلية تفعله .

قوله تعالى : (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، قاله ابن عباس ، والجمهور ، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى . وإنما قال : « بين أيديهن وأرجلهن » لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها . وقيل : معنى « يفترينه بين أيديهن » : يأخذنه لقيطاً « وأرجلهن » ما ولدنه من زنى .

والثاني : السحر .

والثالث : المشي بالنميمة ، والسعي في الفساد ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : (ولا يعصينك في معروف) فيه ثلاثة أقوال .

= يبايعنه بأيديهن ، والتي قبضت يدها هي أم عطية أبهمت نفسها . قال : وأجيب عن الأول بأن مدّ الأيدي من وراء الحجاب ، إشارة إلى وقوع المبايعة وإن لم تقع مصافحة ، وعن الثاني بأن المراد بقبض الأيدي : التأخر عن القبول .

وأم عطية التي قبضت يدها وتأخرت عن المبايعة ، رجعت بعد ذلك وبايعها رسول الله ﷺ . فهذه النصوص التي تقدمت تدل على أن المبايعة كانت كلاماً ، ولم تكن مصافحة باليد ، وأن الرسول ﷺ ما مست يده يد امرأة قط .

أحدها : أنه النَّوح ، قاله ابن عباس ، وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ [١] .

والثاني : أنه لا يَدْعين ويلاً ، ولا يَخْدِشْنَ وجهاً ، ولا يَنْشُرنَ شعراً ، ولا يَشْقُقْنَ ثوباً ، قاله زيد بن أسلم .

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله ﷺ من شرائع الإسلام وآدابه ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي هذه الآية دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المباح دون المحظور .

قوله تعالى : (فبايعهن) المعنى : إذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتولَّوا قوماً غضب الله عليهم) وهم اليهود ، وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين ، يتقرَّبون إليهم بذلك ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم ، فنزلت هذه الآية [٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » ٢/٦٤٦ من حديث أم عطية قالت : لما نزلت هذه الآية (يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئاً ولا يعصينك في معروف) قالت : كان منه النياحة .... وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وغيرهم من حديث أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة ، ماهذا المعروف الذي لاينبغي أن نعصيك فيه ؟ فقال ﷺ : « لاتنحن .... » الحديث

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول ٣١٨ بغير سند ولم يعزه لأحد ، وكذلك البغوي والخازن في تفسيريهما ، وقال الحافظ السيوطي في « الدر » ٦/٢١١ : أخرج ابن إسحاق وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عبد الله بن عمر ، وزيد بن حارثة ، يوادُّون رجالاً من يهود ، فأنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم) الآية .

قوله تعالى : (قد يئسوا من الآخرة) وذلك أن اليهود بتكذيبهم محمداً ، وهم يعرفون صدقه ، قد يئسوا من أن يكون لهم في الآخرة خير ، والمعنى : قد يئسوا من ثواب الآخرة ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح . وقال قتادة : قد يئسوا أن يبعثوا ، (كما يئس الكفار) فيه قولان .

أحدهما : كما يئس الكفار مِن بعث مَن في القبور ، قاله ابن عباس .

والثاني : كما يئس الكفار الذين ماتوا من ثواب الآخرة ، لأنهم أيقنوا بالعذاب ، قاله مجاهد .

سورة الصف

ويقال لها : سورة الحواريين

وفيها قولان .

أحدهما : مدنية ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : مكية ، قاله ابن يسار .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾

قوله تعالى : (لم تقولون ما لا تفعلون) في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام ، قال : قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل عملناه ، فأنزل الله (سبح لله ما في السموات) إلى آخر السورة[1] .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » ٢/٢٠٠ والواحدي في « أسباب النزول » ورواه بمعناه أحمد في « المسند » ٥/٤٥٢ ، والحاكم في « المستدرك » ٢/٤٨٦ مسلسلاً وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، والترمذي ٢/١٦٤ وذكره السيوطي في —

والثاني : أن الرجل كان يجيء إلى النبي ﷺ ، فيقول : فعلتُ كذا وكذا ، وما فعل ، فنزلت « لم تقولون ما لا تفعلون » رواه عكرمة عن ابن عباس [١] ، وكذلك قال الضحاك : كان الرجل يقول : قاتلتُ ، ولم يقاتل ، وطعنت ، ولم يطعن ، وصبرت ، ولم يصبر ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن ناساً من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد : لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه ، فلما نزل الجهاد ، كرهه ناس من المؤمنين ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس [٢] .

والرابع : أن صهيباً قتل رجلاً يوم بدر ، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه ، فقال صهيب : أنا قتلته يا رسول الله ، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيب ، ونزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيب عن صهيب .

والخامس : أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه : لو قد خرجتم خرجنا معكم ، ونصرناكم . فلما خرج النبي ﷺ نكصوا عنه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن زيد .

ـــ « الدر » ١١٢/٦ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن حبان ، ثم قال : وأخرجه ابن المنذر مسلسلًا ، والبيهقي في « الشعب » و « السنن » مسلسلًا ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤١٩/٨ : وقد وقع لنا سماع هذه السورة مسلسلًا في حديث ذكر في أوله سبب نزولها وإسناده صحيح قلّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه .

(١) ذكره السيوطي بنحوه في « الدر » ١١٢/٦ من رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٨٤/٢٨ من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » ١١٢/٦ من رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وهذا القول اختاره ابن جرير الطبري .

قوله تعالى : (كَبُرَ مقتاً عند الله) قال الزجاج : « مقتاً » منصوب على التمييز ، والمعنى : كَبُرَ قولُكم ما لاتفعلون مقتاً عند الله[1] . ثم أعلم عز وجل ما الذي يحبه ، فقال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) أي : بنيان لاصق بعضه ببعض ، فأعلم أنه يحب من يثبت في الجهاد ، ويلزم مكانه كثبوت البنيان المرصوص . ويجوز أن يكون عنى أن يستوي ثباتهم في حرب عدوّهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . وللمفسرين في المراد بـ « المرصوص » قولان .

أحدهما : أنه الملتصق بعضه ببعض ، فلا يرى فيه خلل لإحكامه ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه المبنيُّ بالرصاص ، وإلى نحو هذا ذهب الفراء ، وكان أبو بحرية

---

(١) وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) فيه إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفهمه ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود ، أم لا ، واحتجوا أيضاً بما ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان » وفي الحديث الآخر في الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . . . » فذكر منهن إخلاف الوعد ، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون) وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : تزوج ولك عليّ كل يوم كذا ، فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي ، وهو مبني على المضايقة ، وذهب الجمهور إلى أنه لايجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنّوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، وهكذا هذه الآية معناها ، وهذا اختيار ابن جرير .

يقول : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبّون القتال على الأرض لهذه الآية [١] اسم أبي بحرية : عبد الله بن قيس التَّراغمي ، يروي عن معاذ [٢] ، وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفّون في الغالب إنما يَصْطَفُّ الرَّجَّالة [٣] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ . وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » ٢٨/٨٦ وفي سنده بقية بن الوليد ، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء ، وقد عنعن في هذا الخبر .

(٢) هو عبد الله بن قيس الكندي السكوني التراغمي أبو بحرية الحمصي ، شهد خطبة عمر بالجابية ، روى عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وأبي الدرداء وأبي هريرة ومالك ابن يسار السكوني وحمزة بن ثعلبة ، وعنه ابنه بحرية ، ويزيد بن قطيب السكوني ، وخالد ابن معدان ، ويزيد بن أبي زياد مولى ابن عباس ، وأبو ظبية الكلاعي ، وعبد الملك بن مروان ، وأبو بكر بن عبيد الله بن أبي مريم ، قال ابن عبد البر : تابعي ثقة ، وذكر أبو الحسن بن سميع أنه أدرك الجاهلية قال الحافظ في « التقريب » : حمصي مشهور مخضرم ثقة ، مات سنة سبع وسبعين .

(٣) الرَّجّالة ، جمع راجل ، وهو الذي يمشي على رجليه ، وله جموع كثيرة ، قال في « القاموس » : ورَجِل ـ كفرح ـ فهو راجل ، ورَجُل ، ورَجِل ، ورجيل ، ورَجْل ، ورَجْلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والجمع رِجال ، ورَجّالة ، ورُجّال ، ورُجالى ، ورَجالى ، ورَجْلى ، ورُجْلان ، ورَجْلة ، ورِجْلة ، وأَرْجِلة ، وأراجل ، وأراجيل .

قوله تعالى : (وإذ قال موسى) المعنى : اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ماصنعتْ بالذين آذَوْا موسى . وقد ذكرنا ما آذَوْا به موسى في (الأحزاب : ٦٩)[١] .

قوله تعالى : (فلما زاغوا) أي : مالوا عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) أي : أمالها عن الحق جزاءً لما ارتكبوه ، ومابعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى (يأتي من بعدي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم « من بعديَ اسمُه » بفتح الياء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم « من بعديْ اسمه » بإسكان الياء[٢] (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب) وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله مقاتل .

والثاني : النصارى حين قالوا : عيسى ابن الله ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرف « يَدَّعِي إلى الإسلام » بفتح الياء ، والدال ، وتشديدها ، وبكسر العين ، ومابعد هذا في (براءة : ٣٢) الى قوله تعالى : (مُتِمُّ نورِهِ) قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم وخلف « مُتِمُّ نورِهِ » مضاف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم « مُتِمٌّ » رفع منون .

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، قال : ولهذا قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » قال : وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذىً ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) .

(٢) قال ابن كثير : فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة . وانظر الجزء السادس صفحة (٣٩٤) من كتابنا هذا .

﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (هل أدلكم على تجارة) قال المفسرون : نزلت هذه الآية حين قالوا : لو علمنا أي الأعمال أحب الى الله لعملنا به أبداً ، فدلَّهم الله على ذلك ، وجعله بمنزلة التجارة لمكان ربحهم فيه[1] .

قوله تعالى : « تنجيكم » قرأ ابن عامر « تنجِّيكم » بالتشديد . وقرأ الباقون بالتخفيف . ثم بيَّن التجارة ، فقال تعالى : (تؤمنون بالله) الى قوله تعالى : (يغفر لكم) قال الزجاج : وقوله : « يغفر لكم » جواب قوله : « وتجاهدون » ، لأن معناه معنى الأمر . والمعنى : آمنوا بالله وجاهدوا ، يغفر لكم ، أي : إن فعلتم ذلك ، يغفر لكم . وقد غلط بعض النحويين ، فقال : هذا جواب « هل » وهذا غلط بيِّنٌ ، لأنه ليس اذا دلَّهم على ماينفعهم غفر لهم ، إنما يغفر لهم اذا عملوا بذلك . ومن قرأ « يغفر لهم » بادغام الراء في اللام ، فغير جائز عند سيبويه ،

(١) ذكر ذلك البغوي والخازن في « تفسيريهما » وقد تقدم في حديث عبد الله بن سلام في أول السورة أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذه الآية .

والخليل ، لأنه لاتدغم الراء في اللام في قولهم . وقد رُوِيَتْ عن أبي عمرو بن العلاء ، وهو إمام عظيم ، ولا أحسبه قرأها إلا وقد سمعها من العرب . وقد زعم سيبويه والخليل وجميع البصريين ، ماخلا أبا عمرو ، أن اللام تدغم في الراء ، وأن الراء لاتدغم في اللام ، وحُجَّتهم أن الراء حرف مكرر قوي ، فإذا أدغمت في اللام ذهب التكرير منها . وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى : (وأخرى تحبُّونها) قال الفراء : والمعنى : ولكم في العاجل مع ثواب الآخرة أخرى تحبُّونها ، ثم فسرها فقال تعالى (نَصْرٌ من الله وفتح قريب) وفيه قولان .

أحدهما : أنه فتح مكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : فتح فارس والروم ، قاله عطاء .

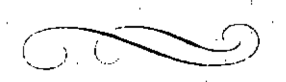
قوله تعالى : (وبشر المؤمنين) أي : بالنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة .

ثم حضَّهم على نصر دينه بقوله تعالى : (كونوا أنصار الله) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « كونوا أنصاراً لله » منوَّنة . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « أنصارَ الله » ومعنى الآية : دُوموا على ما أنتم عليه ، وانصروا دين الله ، مثل نُصْرَة الحواريين لمَّا قال لهم عيسى : (مَن أنصاري إلى الله) وحرَّك نافع ياء « مَن أنصاريَ إلى الله » وقد سبق تفسير هذا الكلام [آل عمران : ٥٢] (فآمنت طائفة من بني إسرائيل) بعيسى (وكفرت طائفة)[1] (فأيَّدنا الذين

---

(١) قال ابن كثير : أي لما بلَّغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورَمَوه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، قال : وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقاً وشيعاً ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ، ومن قائل : إنه الله ، وهم النصارى ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وقال ابن كثير أيضاً في سورة (المائدة : ٧٢ ، ٧٣) عند قوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله المسيح ابن مريم ...) و (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ـــ

آمنوا) بعيسى (على عدوّهم)وهم مخالفو عيسى ، كذلك قال ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ، وقال مقاتل : تم الكلام عند قوله تعالى : (وكفرت طائفة) ، (فأيدنا الذين آمنوا) بمحمد (على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) بمحمد على الأديان . وقال إبراهيم النخعي : أصبح من آمن بعيسى ظاهرين بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه بتعليم الحجة[1] . قال ابن قتيبة : (فأصبحوا ظاهرين) أي : غالبين عليهم بمحمد . من قولك : ظهرت على فلان : إذا علوته ، وظهرت على السطح : إذا صرتَ فوقه .



ـــ ثلاثة ...) تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ، قال : وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : (إني عبد الله) ولم يقل : إني أنا الله ، ولا : ابن الله، بل قال : (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) إلى أن قال : (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لاشريك له . ولهذا قال تعالى : (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

(١) والأول أظهر ، والله أعلم .

سورة الجمعة

وهي مدنية كلها بإجماعهم

وقد سبق شرح فاتحتها . وقرأ أبو الدرداء ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والنخعي ، والوليد عن يعقوب (الملك القدوس العزيز الحكيم) بالرفع فيهن .

فإن قيل : فما الفائدة في إعادته ذكر التسبيح في هذه السورة ؟

فالجواب : أن ذلك لاستفتاح السور بتعظيم الله عز وجل ، كما تستفتح بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وإذا جلَّ المعنى في تعظيم الله ، حسن الاستفتاح به .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي بعث في الأميين) يعني : العرب ، وكانوا لا يكتبون وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة : ٧٨) (رسولاً) يعني : محمداً ﷺ (منهم) أي : من جنسهم ونسبهم .

فإن قيل : فما وجه الامتنان في أنه بعث نبياً أمياً[1] ؟

فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : لموافقة ماتقدّمت البشارة [به في كتب] الأنبياء .

والثاني : لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب لموافقتهم .

والثالث : لئلا يظن به أنه يعلم كتب من قبله . وما بعد هذا في سورة (البقرة : ١٢٩) . إلى قوله تعالى : (وإن كانوا من قَبْلُ) ، أي : وما كانوا قبل بعثته إلا في (ضلال مبين) بيّن ، وهو الشرك[2] .

(١) قال ابن كثير : وتخصيص الأميين بالذّكر لاينفي من عداهم ، ولكن المنّة عليهم أبلغ وأكثر ، كما قال تعالى في قوله : (وإنه لذكر لك ولقومك) وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) وهذا وأمثاله لاينافي قوله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقوله : (لأنذركم به ومن بلغ) وقوله إخباراً عن القرآن (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

(٢) وهذه الآية ، هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أي : نزراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى بن مريم عليه السلام . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدّلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ،واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى مايقربهم إلى الجنة ورضى الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع الله تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

قوله تعالى : (وآخرين منهم) فيه قولان :

أحدهما : وبعث محمداً في آخرين منهم ، أي : من الأميين .

والثاني : ويعلم آخرين منهم ، ويزكّيهم . وفي المراد بالآخرين أربعة أقوال .

أحدها : أنهم العجم ، قاله ابن عمر ، وسعيد بن جبير ، وهي رواية ليث عن مجاهد [1] . فعلى هذا إنما قال : « منهم » ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، إذ المسلمون يد واحدة ، وملّةٌ واحدة .

والثاني : أنهم التابعون ، قاله عكرمة ، ومقاتل .

والثالث : جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، قاله ابن زيد ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٤٩٢/٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جاوساً عند النبي ﷺ ، فأنزلت عليه سورة (الجمعة) (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال : قلت : من هم يا رسول الله ، فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي ، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال — أو رجل — من هؤلاء » .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » تعليقاً على قوله : فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) : كأنه يريد أنزلت عليه هذه الآية من سورة (الجمعة) وإلا فقد نزل منها قبل إسلام أبي هريرة الأمر بالسعي ، قال : ووقع في رواية الدراوردي عن ثور عند مسلم : نزلت عليه سورة (الجمعة) فلما قرأ (وآخرين منهم) ...

قال ابن كثير : والحديث رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من طرق عن ثور بن يزيد الديلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به ، قال : ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ، لأنه فسر قوله تعالى : (وآخرين منهم) بفارس ، قال : ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به ، ولهذا قال مجاهد وغيره في قوله تعالى : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال : هم الأعاجم وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب .

والرابع : أنهم الأطفال ، حكاه الماوردي [١] .

قوله تعالى : (لما يلحقوا بهم) أي : لم يلحقوا بهم .

قوله تعالى : (ذلك فضل الله) يعني : الإسلام والهدى (والله ذو الفضل العظيم) بإرسال محمد ﷺ .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ . قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ثم ضرب لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً ، فقال تعالى : (مثل الذين حُمِّلوا التوراة) أي : كُلِّفوا العمل بما فيها (ثم لم يحملوها) أي : لم يعملوا بموجبها ، ولم يؤدُّوا حقها (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) وهي جمع سفر . والسِّفْر : الكتاب ، فشبَّههم بالحمار لا يعقل ما يحمل ، إذ لم ينتفعوا بما في التوراة ، وهي دالَّة على الإيمان بمحمد [وهذا المثل يلحق من لم يعمل بالقرآن ولم يفهم معانيه (بئس مثل القوم) ذم مثلهم ، والمراد ذمُّهم ، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتوراة حين لم يؤمنوا بمحمد] (والله لا يهدي القوم الظالمين) أنفسهم بتكذيب الأنبياء .

---

(١) ذكر ابن جرير الطبري أن أولى الأقوال بالصواب قول من قال : عنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبي ﷺ في إسلامهم من أي الأجناس ، لأن الله عز وجل عم بقوله : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) كل لاحق بهم من آخرين ، ولم يخصص منهم نوعاً دون نوع ، فكل لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأولين الذين كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم آيات الله .

قوله تعالى : (إن زعمتم أنكم أولياء لله) وذلك أن اليهود ، قالوا : نحن ولد اسرائيل الله ، بن ذبيح الله ، بن خليل الله ، ونحن أولى بالله عز وجل من سائر الناس ، وإنما تكون النبوة فينا . فقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام (قل) لهم إن كنتم (أولياء لله فتمنَّوا الموت) لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا . وقد بيَّنا هذا وما بعده في (البقرة : ٩٤) إلى قوله تعالى : (قل إن الموت الذي تفرُّون منه) وذلك أن اليهود علموا أنهم أفسدوا على أنفسهم أمر الآخرة بتكذيبهم محمداً ، وكانوا يكرهون الموت ، فقيل لهم : لا بد من نزوله [بكم] بقوله تعالى : (فإنه ملاقيكم) قال الفراء : العرب تدخل الفاء في كل خبر كان اسمه مما يوصل ، مثل : « من » و « الذي » فمن أدخل الفاء هاهنا ذهب « بالذي » إلى تأويل الجزاء . وفي قراءة عبد الله « إن الموت الذي تفرُّون منه ملاقيكم » وهذا على القياس ، لأنك تقول : إن أخاك قائم ، ولا تقول: فقائم ، ولو قلت : إن ضاربك فظالم ، لجاز ، لأن تأويله : إن من يضربك فظالم . وقال الزجاج : إنما جاز دخول الفاء ، لأن في الكلام معنى الشرط والجزاء . ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله تعالى : « تفرُّون منه » كأنه قيل : إن فررتم من أي موت كان من قتل أو غيره « فإنه ملاقيكم » وتكون « فإنه » استئنافاً بعد الخبر الأول .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (إذا نودي للصلاة) وهذا هو النداء الذي ينادى به إذا جلس الإمام على المنبر ، ولم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه ، كان إذا

جلس على المنبر أذَّن بلال على باب المسجد ، وكذلك كان على عهد أبي بكر ، وعمر ، فلما كثر الناس على عهد عثمان أمر بالتأذين على دارٍ له بالسُّوق ، يقال لها : « الزوراء » [1] وكان إذا جلس أذَّن أيضاً [2] .

قوله تعالى : (للصلاة) أي : لوقت الصلاة . وفي « الجمعة » ثلاث لغات . ضم الجيم والميم ، وهي قراءة الجمهور . وضم الجيم مع إسكان الميم ، وبها قرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رجاء ، وعكرمة ، والزهري ، وابن أبي ليلى ، وابن أبي عبلة ، والأعمش . وبضم الجيم مع فتح الميم ، وبها قرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، والنخعي ، وعدي بن الفضل عن أبي عمرو . قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم ، فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين . وأما فتح الميم ، فمعناها : الذي يجمع الناس ، كما تقول : رجل لُعَنَة : يكثر لعنة الناس ، وضُحَكَة : يكثر الضحك .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٣٢٦/٢عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء . وفي رواية أخرى للبخاري عن السائب بن يزيد بزيادة « فثبت الأمر على ذلك » . قال ياقوت في « معجم البلدان » الزَّوراء : موضع عند سور المدينة قرب المسجد . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » قوله : « زاد النداء الثالث » في رواية وكيع عن ابن أبي ذئب « فأمر عثمان بالأذان الأول » ونحوه للشافعي من هذا الوجه . قال : ولا منافاة بينهما ، لأنه باعتباره مزيداً يسمى ثالثاً ، وباعتبار كونه جعل مقدماً على الأذان والإقامة يسمى أولاً ، قال : ولفظ رواية عقيل : (يعني في البخاري) أن التأذين بالثاني أمر به عثمان ، قال : وتسميته ثانياً أيضاً متوجه بالنظر إلى الأذان الحقيقي لا الإقامة . والمقصود من الأذان الثالث ، الإقامة .

(٢) أي إذا جلس على المنبر أذن الأذان الثاني .

وفي تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة ثلاثة أقوال .

أحدها : لأن فيه جُمع آدم . روى سلمان قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أتدري ما الجمعة ؟ » قلت : لا . قال : « فيه جُمع أبوك » ، يعني : تمام خلقه في يوم [1] .

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه أحمد في « المسند » ٥/٤٤٠ وتتمته قال النبي ﷺ : « ألا أحدثك عن يوم الجمعة ، لايتطهر رجل مسلم ثم يمشي إلى المسجد ، ثم ينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة لما بينها وبين الجمعة التي بعدها ما اجتنبت المقتلة » . وهو حديث حسن ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٢/١٧٤ : رواه الطبراني في « الكبير » وإسناده حسن ، قال : وروى النسائي بعضه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢١٦ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

وروى مسلم في « صحيحه » ٢/٥٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » . وروى مالك في « الموطأ » ١/١٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مصيخة (مصغية لنفخة الساعة) يوم الجمعة ، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة ، إلا الإنس والجن ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » وسنده صحيح ، ورواه بنحوه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، قال الترمذي ٢/٣٦٣ هذا حديث صحيح .

وروى أبو داود في « سننه » رقم (١٠٤٧) عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يومَ الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي ، قال : قالوا : يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ يقولون : بليت ، فقال : « إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . وسنده صحيح . ورواه النسائي وابن ماجة وغيرهما .

والثاني : لاجتماع الناس فيه للصلاة .

والثالث : لاجتماع المخلوقات فيه ، لأنه اليوم الذي منه فرغ من خلق الأشياء[١] .

وفي أول من سماها بالجمعة قولان .

أحدهما : أنه كعب بن لؤي سماها بذلك ، وكان يقال ليوم الجمعة : العَروبة ، قاله أبو سلمة . وقيل : إنما سماها بذلك لاجتماع قريش فيه .

والثاني : أول من سماها بذلك الأنصار ، قاله ابن سيرين[٢] .

قوله تعالى : (فاسعَوا إلى ذكر الله) وفي هذا السعي ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المشي ، قاله ابن عباس . وكان ابن مسعود يقرؤها « فامضوا » ويقول : لو قرأتها « فاسعَوْا » لسعَيت حتى يسقط ردائي[٣] . وقال عطاء : هو الذهاب والمشي إلى الصلاة .

---

(١) قال ابن كثير : إنما سميت الجمعة جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع ، فان أهل الاسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ، قال : وفيه كمل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٢/٢٩٤ : روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة ، فقال الأنصار : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى كذلك ، فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلي ونشكر . فجعلوه يوم العَروبة .

(٣) رواه الطبري ٢٨/١٠٠ من رواية إبراهيم عن ابن مسعود ، وفي سنده انقطاع . قال الحافظ الهيثمي في « المجمع » ٧/١٢٤ : رواه الطبراني ، وابراهيم لم يدرك ابن مسعود ، ورجاله ثقات ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢١٩ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، والفريابي ، وأبي عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن الأنباري من طرق عن عبد الله بن مسعود . وصح عن عمر أنه قرأها كذلك . ونقل القرطبي عن ابن شهاب أنه قرأها كذلك ، ثم قال : وهو كله تفسير منهم . وقال البخاري في « صحيحه » (باب فرض الجمعة) لقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ـــ

والثاني : أن المراد بالسعي : العمل ، قاله عكرمة ، والقرظي ، والضحاك ، فيكون المعنى : فاعملوا على المضي إلى ذكر الله بالتفرغ له ، والاشتغال بالطهارة ونحوها .

والثالث : أنه النية بالقلب ، قاله الحسن . وقال ابن قيبة : هو المبادرة بالنية والجدّ .

وفي المراد « بذكر الله » قولان .

أحدهما : أنه الصلاة ، قاله الأكثرون . والثاني : موعظة الإمام ، قاله سعيد بن المسيب .

قوله تعالى : (وذروا البيع) أي : دعوا التجارة في ذلك الوقت . وعندنا : أنه لا يجوز البيع في وقت النداء ، ويقع البيع باطلاً في حق من يلزمه فرض

فاسعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع) قال : فاسعَوا : فامضوا . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وهو تفسير منه للمراد بالسعي ، بخلاف قوله في الحديث : « فلا تأتوها تسعون » فالمراد به : الجري ، وقد جاء أن عمر قرأ « فامضوا » وهو يؤيد ذلك .

وقال ابن كثير : أي : اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها ، قال : وليس المراد بالسعي هاهنا : المشي السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) قال : وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود ، رضي الله عنهما يقرآنها (فامضوا إلى ذكر الله) قال : فأما المشي السريع إلى الصلاة ، فقد نهي عنه ، لما أخرجاه في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » .

الجمعة ، وبه قال مالك [١] خلافاً للأكثرين [٢] .

فصل

تجب الجمعة على من سمع النداء من المصر ، إذا كان المؤذن صيّتاً ، والريح ساكنة . وقد حدّه مالك بفرسخ ، ولم يحدّه الشافعي . وعن أحمد في التحديد نحوهما . وتجب الجمعة على أهل القرى [٣] . وقال أبو حنيفة : لاتجب إلا على أهل الأمصار . ويجوز لأهل المصر أن يقيموا الجمعة في الصحراء القريبة من المصر خلافاً للشافعي . ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين . وعن أحمد : أقله خمسون . وعنه : أقله ثلاثة . وقال أبو حنيفة : تنعقد بثلاثة والإمام ، والعدد شرط في

(١) قال القرطبي في تفسير الآية : ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نودي للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت ، ولايفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع ، قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لايفسخ . قال : قال ابن العربي : والصحيح فسخ الجميع ، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به ، فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها ، فهو حرام شرعاً منسوخ ردعاً .

(٢) كأبي حنيفة ، والشافعي ، وغيرهما ، فان البيع عندهم ينعقد مع الحرمة بعد النداء ولايفسخ . قال ابن كثير : اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط ، أم لا ؟ على قولين ، قال : وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه ، والله أعلم .

(٣) قال الحافظ ابن حجر : عن عمر أنه كتب إلى أهل البحرين أن جمّعوا حيثما كنتم . قال : وهذا يشمل المدن والقرى ، أخرجه ابن أبي شيبة من طريق أبي رافع عن أبي هريرة عن عمر ، وصححه ابن خزيمة ، قال : وعند عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يرى أهل المياه بين مكة والمدينة يجمّعون فلا يعيب عليهم .

الجمعة[١] وقال أبو حنيفة في إحدى الروايتين : يصح أن يخطب منفرداً . وهل تجب الجمعة على العبيد ؟ فيه عن أحمد روايتان . وعندنا : تجب على الأعمى إذا وجد قائداً ، خلافاً لأبي حنيفة . ولا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين ، خلافاً لأبي حنيفة . وهل تجب الجمعة والعيدان من غير إذن سلطان ؟ فيه عن أحمد روايتان . وتجوز الجمعة في موضعين في البلد مع الحاجة . وقال مالك ، والشافعي ، وأبو يوسف : لا تجوز إلا في موضع واحد . وتجوز إقامة الجمعة قبل الزوال خلافاً لأكثرهم ، وإذا وقع العيد يوم الجمعة أجزأ حضوره عن يوم الجمعة ، وبه قال الشعبي ، والنخعي ، خلافاً للأكثرين . والمستحب لأهل الأعذار أن يصلوا الظهر في جماعة . وقال أبو حنيفة : يكره . ولا يجوز السفر يوم الجمعة بعد الزوال . وقال أبو حنيفة : يجوز . وهل يجوز السفر بعد طلوع الفجر ؟ فيه عن أحمد روايتان . ونقل عن أحمد : أنه لايجوز الخروج في الجمعة إلا للجهاد . وقال أبو حنيفة : يجوز لكل سفر . وقال الشافعي : لا يجوز أصلاً .

والخطبة شرط في الجمعه . وقال داود : هي مستحبة . والطهارة لاتشترط في الخطبة ، خلافاً للشافعي في أحد قوليه . والقيام ليس بشرط في الخطبة ، خلافاً للشافعي . ولا تجب القعدة بين الخطبتين ، خلافاً له أيضاً .

---

(١) لاخلاف بين العلماء في أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، ولكن اختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة إلى عدة أقوال ذكرها الحافظ ابن حجر في « الفتح » ، والراجح أنها تصح باثنين فأكثر ، قال الشوكاني في « نيل الأوطار » : وقد انعقدت سائر الصلوات بالاثنين بالاجماع ، والجمعة صلاة ، فلا تختص بحكم يخالف غيرها إلا بدليل ، ولا دليل على اعتبار عدد فيها زائد على المعتبر في غيرها ، وقد قال عبد الحق الاشبيلي : إنه لايثبت في عدد الجمعة حديث ، وكذلك قال السيوطي : لم يثبت في شيء من الأحاديث تبين عدد مخصوص ، وممن ذهب إلى هذا : الطبري ، وداود ، والنخعي ، وابن حزم .

ومن شرط الخطبة : التحميد ، والصلاة على النبي ﷺ ، وقراءة آية ، والموعظة . وقال أبو حنيفة : يجوز أن يخطب بتسبيحة .

والخطبتان واجبتان . وأما القراءة في الخطبة الثانية ، فهي شرط ، خلافاً للشافعي .

والسُّنَّة للإمام إذا صعِد المنبر ، واستقبل الناس : أن يسلِّم ، خلافاً لأبي حنيفة ، ومالك . وهل يحرم الكلام في حال سماع الخطبة ؟ فيه عن أحمد روايتان . ويحرم على المستمع دون الخاطب ، خلافاً للأكثرين . ولا يكره الكلام قبل الابتداء بالخطبة ، وبعد الفراغ منها ، خلافاً لأبي حنيفة .

ويستحب له أن يصليَ تحية المسجد والإمام يخطب ، خلافاً لأبي حنيفة ، ومالك [1] .

وهل يجوز أن يخطب واحد ، ويصلي آخر ، فيه عن أحمد روايتان .

قوله تعالى : (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أي : إن كان لكم علم بالأصلح (فإذا قضيت الصلاة) أي : فرغتم منها (فانتشروا في الأرض) هذا أمر إباحة (وابتغوا من فضل الله) إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى : « وذروا البيع » وقال الحسن ، وابن جبير : هو طلب العلم .

---

(١) وذهب الشافعي إلى الاستحباب أيضاً . وحجتها في ذلك ما رواه البخاري ومسلم في « صحيحيها » عن جابر رضي الله عنه قال : دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب ، فقال : « صليت » ؟ قال : لا ، قال : « فصل ركعتين » والرجل هو : سليك الغطفاني رضي الله عنه . وروى مسلم في « صحيحه » عن جابر رضي الله عنه قال : جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب ، فجلس ، فقال له : « يا سليك قم فاركع ركعتين وتجوز فيها » ثم قال : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيها » .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة) سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة ، إذ أقبلت عير قد قَدِمَتْ ، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا إثنا عشر رجلاً ، فنزلت هذه الآية ، أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث جابر بن عبد الله[1] ، قاله الحسن : وذلك أنهم أصابهم جوع ، وغلاء سعر ، فلما سمعوا بها خرجوا إليها ، فقال النبي ﷺ : « لو اتبع آخرُهم أوَّلهم التهب عليهم الوادي ناراً »[2] . قال المفسرون : كان الذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي ، قال مقاتل : وذلك قبل أن يسلم . قالوا : قَدِمَ بها من الشام ، وضرب لها طبل يُؤذن الناس بقدومها . وهذه كانت عادتهم إذا قدمت عير[3] . قال جابر بن عبد الله : كانت التجارة طعاماً . وقال أبو مالك : كانت زيتاً . والمراد باللهو : ضرب الطبل . و (انفضوا) بمعنى : تفرَّقوا عنك ، فذهبوا إليها . والضمير للتجارة . وإنما خصت برد الضمير إليها ، لأنها كانت أهم إليهم ، هذا قول الفراء ، والمبرد . وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا

(١) البخاري ٤٩٣/٨ ومسلم ٥٩٠/٢ .

(٢) ذكره بنحوه البغوي والخازن عن الحسن بغير سند . وذكره السيوطي في « الدر » ٢٢١/٤ من رواية عبد بن حميد عن الحسن مرسلًا بنحوه . قال ابن كثير : وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا هشيم ، عن حصين ، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان ، عن جابر بن عبد الله قال : بينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عير إلى المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً » ونزلت هذه الآية (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً) .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر » ٢٢١/٦ من رواية البيهقي عن قتادة مرسلًا .

تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا اليه ، فحذف خبر أحدهما ، لأن الخبر الثاني يدل على الخبر المحذوف . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة « انفضوا اليهما » على التثنية . وعن ابن مسعود ، وابن أبي عبلة « انفضوا اليه » على ضمير مذكر (وتركوك قائماً) وهذا القيام كان في الخطبة (قل ماعند الله) من ثواب الصلاة والثبات مع رسول الله ﷺ (خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده ، ومن يكفر به ويجحده ، فهو يعطي من سأل ، ويبتدىء من لا يسأل ، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعته ، ويُقبل على خدمته[1] .



(١) قال ابن جرير الطبري : (والله خير الرازقين) يقول : والله خير رازق ، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم ، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره .

سورة المنافقون

وهي مدنية بإجماعهم

وذكر أهل التفسير أنها نزلت في عبد الله بن أُبيّ ونظرائه . وكان السبب أن عبد الله خرج مع النبي ﷺ في خَلْقٍ كثيرٍ من المنافقين إلى المُرَيْسيع ، وهو ماء لبني المصطلق طلباً للغنيمة ، لا للرغبة في الجهاد ، لأن السفر قريب . فلما قضى رسول الله ﷺ غزوه ، أقبل رجل من جهينة ، يقال له : سِنان ، وهو حليف لعبد الله بن أبيّ ، ورجل من بني غفار يقال له : جهجاه بن سعيد ، وهو أجير لعمر بن الخطاب لاستقاء الماء ، فدار بينهما كلام ، فرفع الغفاري يده فلطم الجهني ، فأدماه ، فنادى الجهني : يا آل الخزرج ، فأقبلوا ، ونادى الغفاري : يا آل قريش ، فأقبلوا ، فأصلح الأمر قوم من المهاجرين . فبلغَ الخبرُ عبد الله ابن أُبَيٍّ ، فقال وعنده جماعة من المنافقين : والله ما مَثَلكم ومَثَل هؤلاء الرهط من قريش إلا مَثَل ما قال الأوّل : سَمِّنْ كلبكَ يأكُلْكَ ، ولكن هذا فعلكم بأنفسكم ، آويتموهم في منازلكم ، وأنفقتم عليهم أموالكم ، فقووا وضَعُفْتُم . وايم الله : لو أمسكتم أيديكم لتفرّقت عن هذا جموعه ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، وكان في القوم زيد بن أرقم ، وهو غلام يومئذ لا يؤبَهُ له ، فقال لعبد الله : أنت والله الذّليل القليل ، فقال : إنما كنت ألعب ، فأقبل زيد بالخبر إلى رسول الله ﷺ ، فقال : دعني أضرب عنقه . فقال : إذن ترعد له آنف كبيرة ، قال : فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين ، فمر سعد بن عبادة ، أو محمد بن مسلمة ، أو عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال : إذن يتحدث

الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، فأرسل رسول اللّه ﷺ إلى عبد اللّه بن أُبَيٍّ ، فأتاه ، فقال : أنت صاحب هذا الكلام ؟ فقال : والذي أنزل عليك ما قلت شيئاً من هذا ، وإن زيداً لكذّاب ، فقال من حضر : لا يصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وهم ، فعذره رسول اللّه ﷺ ، وفشت الملامة من الأنصار لزيد ، وكذّبوه ، وقال له عمّه : ما أردت إلا أن كذّبك رسول اللّه ﷺ والمسلمون ، ومقتوك ! فاستحيا زيد ، وجلس في بيته . فبلغ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أُبَيّ ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول اللّه ﷺ فقال : بلغني أنك تريد قتل عبد اللّه بن أُبي ، لما بلغك عنه . فإن كنت فاعلاً فمرني ، فأنا أحمل اليك رأسه ، فإني أخشى أن يقتلَه غيري ، فلا تدعني نفسي حتى أقتل قاتله ، فأدخل النار ، فقال رسول اللّه ﷺ : « بل تحسن صحبته ما بقي معنا » ، وأنزل اللّه سورة (المنافقين) في تصديق زيد ، وتكذيب عبد اللّه ، فأرسل رسول اللّه ﷺ فقرأها عليه ، فقال : إن اللّه قد صدقك . ولما أراد عبد اللّه بن أُبي أن يدخل المدينة جاء ابنه ، فقال : ما وراءك ، قال : مالك ويلك ؟ قال : واللّه لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول اللّه ﷺ ليعلم اليوم مَنِ الأعزُّ ، ومَنِ الأذَلُّ ، فشكا عبد اللّه الى رسول اللّه ﷺ ما صنع ، فأرسل اليه رسول اللّه ﷺ أن خلِّ عنه حتى يدخل ، فلما نزلت السورة وبان كذبه قيل له : يا أبا حباب : إنه قد نزلت فيك آيات شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه ليستغفر لك ، فلوى به رأسه ، فذلك قوله تعالى : (لوَّوْا رؤوسهم)[1] وقيل : الذي قال له هذا

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢١ ، ٣٢٢ بنحوه مختصراً . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : حديث أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع ، وهو ماء لهم وهزمهم ، وقتل منهم ، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد — أجير عمر — يقود فرسه ، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أُبيٍّ واقتتلا ... الحديث ، وفيه —

عبادة بن الصامت [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

ـــ قصة زيد بن أرقم في قول عبد الله بن أبي : ليخرجن الأعز منها الأذل ، وغير ذلك إلى قوله : إن الله قد صدقك وكذب المنافق .. هكذا ذكره الواقدي في « المغازي » بغير إسناد ، وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير ، قال : وأخرجه ابن إسحاق في « السيرة » : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق ، فذكر الغزوة بطولها ، والقصة المذكورة باختلاف يسير ، وكذا أخرجه الطبري من طريقه ، وأصل القصة في « الصحيحين » من طريق أبي إسحاق عن زيد بن أرقم قال : « كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أُبيّ يقول ... الحديث . وأوله عندهما أيضاً من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال : كنا في غزوة بني المصطلق ، فتبع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار .. » قال : ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق أبي سعد الأودي : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا ، فسبق أعرابي فملأ الحوض فذكر القصة بطولها ، وفي سياقها اختلاف .

(١) يعني قوله : يا أبا الحباب إنه قد نزلت فيك آيات شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك ، والصحيح الأول .

قوله تعالى : (اذا جاءك المنافقون) يعني : عبد الله بن أبَيّ وأصحابه (قالوا نشهد إنك لرسول الله) وهاهنا تم الخبر عنهم . ثم ابتدأ فقال تعالى : (والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وانما جعلهم كاذبين ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا . قال الفراء : إنما كذب ضميرهم . (اتخذوا أَيْمانهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيل الله) قد ذكرناه في (المجادلة : ١٦) . قال القاضي أبو يعلى : وهذه الآية تدل على أن قول القائل : « أشهد » يمين ، لأنهم قالوا : « نشهد » فجعله يميناً بقوله تعالى : (اتخذوا أَيْمانهم جُنَّة) وقد قال أحمد ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبو حنيفة : أَشْهَدُ ، وأُقْسِمُ ، وأَعْزِمُ ، وأَحْلِفُ ، كُلُّها أَيْمان . وقال الشافعي : « أقسم » ليس بيمين . وانما قوله : « أقسم بالله » يمين اذا أراد اليمين [1] .

قوله تعالى : (ذلك) أي : ذلك الكذب (بأنهم آمنوا) باللسان (ثم كفروا) في السِّرّ (فطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون) الإيمان والقرآن (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) يعني : أن لهم أجساماً ومناظر . قال ابن عباس : كان

(١) قال القرطبي في « تفسيره » : من قال : أقسم بالله ، أو أشهد بالله ، أو أعزم بالله ، أو أحلف بالله ، أو أقسمت بالله ، أو أشهدت بالله ، أو أعزمت بالله ، أو أحلفت بالله ، فقال في ذلك كله « بالله » فلا خلاف في أنها يمين . قال : وكذلك عند الله وأصحابه إن قال : أقسم ، أو أشهد ، أو أعزم ، أو أحلف ، ولم يقل : « بالله » إذا أراد « بالله » ، قال : وإن لم يرد « بالله » فليس بيمين ، قال : وحكاه الكيا عن الشافعي ، قال : الشافعي : إذا قال : أشهد بالله ونوى اليمين كان يميناً ، قال : وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو قال : أشهد بالله لقد كان كذا ، كان يميناً ، ولو قال : أشهد لقد كان كذا دون النية كان يميناً ، لهذه الآية ، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ، ثم قال : (اتخذوا أيمانهم جنة) قال : وعند الشافعي لايكون ذلك يميناً وإن نوى اليمين ، لأن قوله تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة) ليس يرجع إلى قوله : (قالوا نشهد) وإنما يرجع إلى ما في (براءة) من قوله تعالى : (يحلفون بالله ما قالوا) .

عبد الله بن أُبَيّ جسيماً فصيحاً ، ذَلْقَ اللسان[1] ، فإذا قال ، سمع النبيُّ ﷺ قوله . وقال غيره : المعنى : تصغي إلى قولهم ، فتَحْسِب أنه حق (كأنهم خشب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : وحمزة : « خُشُبٌ » بضم الخــاء ، والشين جميعاً ، وهو جمع خَشبة . مثل ثَمَرَةٍ ، وثُمُرٍ . وقرأ الكسائي : بضم الخاء ، وتسكين الشين ، مثل : بَدَنَةٍ ، وبُدْنٍ ، وأَكَمَةٍ ، وأُكْمٍ . وعن ابن كثير ، وأبي عمرو ، مثله . وقرأ أبو بكر الصديق ، وعروة ، وابن سيرين : « خَشَبٌ » بفتح الخــاء ، والشين جميعــاً . وقرأ أبو نهيك ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران بفتح الخاء ، وتسكين الشين ، فوصفهم الله بحسن الصورة ، وإبانة المنطق ، ثم أعلم أنهم في ترك التفهُّم والاستبصار بمنزلة الخُشُب . والمُسَنَّدة : الممالة إلى الجدار . والمراد : أنهــا ليست بأشجار تثمر وتنمي ، بل خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ إلى حائط . ثم عابهم بالجبن فقال تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم) أي : لا يسمعون صوتاً إلا ظنوا أنهم قد أُتوا لما في قلوبهم من الرعب أن يكشف الله أسرارهم ، وهذه مبالغة في الجبن . وأنشدوا في هذا المعنى :

وَلَوْ أَنَّها عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَها مُسَوَّمةً تدعو عُبَيْداً وَأَزْنَما[2]

أي : لو طارت عصفورة لحسبتها من جبنك خيلاً تدعو هاتين القبيلتين .

قوله تعالى : (هم العَدُوُّ فــاحذرهم) أي : لا تأمنهم على سِرِّك ، لأنهم

---

(١) أي طَلْقَ اللسان ، يقال : تكلم فلان بلسان ذَلْقٍ طَلْقٍ . أي : فصيح بليغ . قــال في « اللسان » لسان ذَلْقٌ طَلْقٌ ، وذَلِيقٌ طَلِيقٌ ، وذُلُقٌ طُلُقٌ ، وذُلَّقٌ طُلَّقٌ ، أربع لغات فيها ، والذليق : الفصيح اللسان .

(٢) البيت للعوام بن شوذب الشيباني ، وهو في « مشكل القرآن » ٦ و « غريب القرآن » ٤٦٨ ، و « النقائض » ٥٨٥ ، و « العقد الفريد » ١٩٥/٥ و « معجم الشعراء » ٣٠٠ و « عيون الأخبار » ١٦٦/١ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » زنم ، والقرطبي ١٢٦/٢٨ و « أزنم » بطن من بني يربوع .

عيون لأعدائك من الكفار (قاتلهم الله أنى يؤفكون) مفسر في (براءة : ٣٠) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ . هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا قيل لهم تعالَوْا يستغفر لكم رسول الله) قد بيَّنَّا سببه في نزول السورة (لوَّوا رؤوسهم) وقرأ نافع ، والمفضل عن عاصم ، ويعقوب : « لَوَوْا » بالتخفيف . واختار أبو عبيدة التشديد . وقال : لأنهم فعلوا ذلك مرَّة بعد مرَّة . قال مجاهد : لما قيل لعبد الله بن أُبَيٍّ : تعال يستغفر لك رسول الله لوَّى رأسه ، قال : ماذا قلتَ ؟ وقال مقاتل : عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار . وقال الفراء : حرَّكوها استهزاء بالنبي وبدعائه .

قوله تعالى : (ورأيتهم يَصُدُّون) أي : يعرضون عن الاستغفار . (وهم مستكبرون) أي : متكبِّرون عن ذلك . ثم ذكر أن استغفاره لهم لا ينفعهم بقوله تعالى : (سواءٌ عليهم أستغفرتَ لهم) وقرأ أبو جعفر : (آستغفرت) بالمدّ .

قوله تعالى : (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله) قد بيَّنَّا أنه قول ابن أُبَيٍّ . و (يَنْفَضُّوا) بمعنى : يتفرَّقوا (ولله خزائن السموات والأرض) قال المفسرون : خزائن السموات : المطر ، وخزائن الأرض : النبات . والمعنى : أنه هو الرَّزَّاق لهؤلاء المهاجرين ، لا أولئك ، (ولكن المنافقين

لا يفقهون) أي : لا يعلمون أن الله رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم (يقولون لئن رجعنا) من هذه الغزوة . وقد تقدم ذكرها وهذا قول ابن أُبَيّ (لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ) يعني : نفسه ، وعنى بـ (الأذلّ) رسول الله ﷺ . وقرأ الحسن : « لنُخرِجنّ » بالنون مضمومة وكسر الراء « الأعزّ » بنصب الزاي [والأذل منصوب] على الحال [بناءً على جواز تعريف الحال ، أو زيادة « أل » فيه ، أو بتقدير « مثل »] . المعنى : لنخرجنّه ذليلاً على أيّ حال ذلّ . والكل نصبوا « الأذل » فرد الله عز وجل عليه فقال : (ولله العزّة) وهي : المَنَعة والقوّة (ولرسوله وللمؤمنين) بإعزاز الله ونصره إياهم (ولكن المنافقين لا يعلمون) ذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (لا تلهكم) أي : لا تشغلكم . وفي المراد بذكر الله هاهنا أربعة أقوال .

أحدها : طاعة الله في الجهاد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الصلاة المكتوبة ، قاله عطاء ، ومقاتل .

والثالث : الفرائض من الصلاة ، وغيرها ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه على إطلاقه . قال الزجاج : حضّهم بهذا على إدامة الذكر .

قوله تعالى : (وأنفِقوا مما رزقناكم) في هذه النفقة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه زكاة الأموال ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها النفقة في الحقوق الواجبة بالمال ، كالزكاة والحج ، ونحو ذلك ، وهذا المعنى مروي عن الضحاك .

والثالث : أنه صدقة التطوّع ، ذكره الماوردي . فعلى هذا يكون الأمر ندباً ، وعلى ما قبله يكون أمر وجوب .

قوله تعالى : (من قبل أن يأتيَ أحدَكم الموتُ) قال الزجاج : أي : من قبل أن يعاين ما يعلم منه أنه ميت .

قوله تعالى : (لولا أخرتني) أي : هلاّ أخرتني (إلى أجل قريب) يعني بذلك الاستزادة في أجله ليتصدَّق ويزكّي ، وهو قوله تعالى : (فأصَّدَّق) قال أبو عبيدة : « فأصدق » نصب ، لأن كل جواب بالفاء للاستفهام منصوب . تقول : مَنْ عندك فآتيَك . هلاّ فعلت كذا فأفعلَ كذا ، ثم تبعتْها (وأكنْ من الصالحين) بغير واو . وقال أبو عمرو : إنما هي ، وأكون ، فذهبت الواو من الخط . كما يكتب أبو جاد أبجـــد هجاء ، وهكذا يقرؤها أبو عمرو « وأكونَ » بالواو ، ونصب النون . والباقون يقرؤون « وأكن » بغير واو . قال الزجاج : من قرأ « وأكونَ » فهو على لفظ فأصَّدَّقَ . ومن جزم « أكنْ » فهو على موضع « فأصدق » لأن المعنى : إن أخرتني أصدق وأكن . وروى أبو صالح عن ابن عباس « فأصَّدَّق » أي : أزكي مالي « وأكنْ من الصالحين » أي : أَحُجَّ مع المؤمنين ، وقال في قوله تعالى : (والله خبير بما تعملون) والمعنى : بما تعملون من التكذيب بالصدقة . قال مقاتل : يعني : المنافقين . وروى الضحاك عن ابن عباس ، ما من أحد يموت ، وقد كان له مال لم يزكّه ، وأطاق الحج فلم يحج ، إلا سأل الله الرجعة عند الموت ، فقالوا له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : أنا أتلو عليكم به قرآنا ، ثم قرأ هذه الآية[1] .

---

(١) في سنده انقطاع كما قال ابن كثير والله أعلم .

سورة التغابن

وفيها قولان .

أحدهما : أنها مدنية ، قاله الجمهور ، منهم ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة .

والثاني : أنها مكية ، قاله الضحاك . وقال عطاء بن يسار : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم) واللتان بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

وقد سبق تفسير فاتحتها إلى قوله تعالى : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وفيه قولان .

أحدهما : أن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والأحاديث تعضد هذا القول ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « خلق فرعون في بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمـــه مؤمناً »[١] ، وقوله : « فيؤمر الملك بأربع كلمات : بكتبِ رزقِه ، وأجلِه ، وعملِه ، وشقيٌ أم سعيدٌ »[٢] .

والثاني : أن تمام الكلام عند قوله تعالى : (خلقكم) ثم وصفهم ، فقال تعـالى : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ، واختلف أرباب هذا القول فيـه على أربعة أقوال .

أحدها : فمنكم كافر يؤمن ، ومنكم مؤمن يكفر ، قاله أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني : فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة ، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة ، قاله أبو سعيد الخدري .

والثالث : فمنكم كافر باللهِ مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر

---

(١) ذكر هذا الحديث السيوطي في « الجامع الصغير » من رواية ابن عدي ، والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ « خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً ، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً » قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » : وكذا رواه الديلمي عن ابن مسعود ، وفي سنده محمد بن سليم العبدي الراسبي ، قال النسائي : ليس بالقوي في الحديث ، وقال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : صدوق فيه لين .

(٢) هو قطعة من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

بالكواكب ، قاله عطاء بن أبي رباح ، وعنى بذلك شأن الأنواء .

والرابع : فمنكم كافر بالله خلقه ، ومؤمن بالله خلقه ، حكاه الزجاج[1] . والكفر بالخلق مذهب الدهرية ، وأهل الطبائع . وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى : (وصوَّركم فأحسن صوركم) قال الزجاج : أي : خلقكم أحسن الحيوان كلِّه . وقرأ الأعمش « صوركم » بكسر الصاد . ويقال في جمع صورة : صُور ، وصِور ، كما يقال في جمع لحية : لِحىً ، ولُحىً . وذكر ابن السائب أن معنى « فأحسن صُوَرَكم » أحكمها . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (ويعلم ما تسرون) روى المفضل عن عاصم « يسرُّون » و « يعلنون » بالياء فيهما (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) هذا خطاب لأهل مكة خوفهم ما نزل بالكفار قبلهم ، فذلك قوله تعالى : (فذاقوا وبال أمرهم) أي : جزاء أعمالهم ، وهو ما أصابهم من العذاب في الدنيا (ولهم عذاب أليم) في الآخرة (ذلك) الذي أصابهم (بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) فينكرون ذلك ، ويقولون : (أبشر) أي : ناس مثلنا (يهدوننا ؟!) والبشر اسم جنس معناه الجمع ، وإن كان لفظه واحداً (فكفروا وتولَّوا) أي : أعرضوا عن الإيمان (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم .

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

(١) جاء في القرطبي ١٨/١٣٣ : وقال الزجاج — وهو أحسن الأقوال ، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة . — : إن الله خلق الكافر ، وكفرُه فِعلٌ له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر ، وخلق المؤمن ، إيمانُه فعلٌ له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان .

فِيهَا أَبداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ . ٱللهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَٱتَّقُوا ٱللهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . إِنْ تُقْرِضُوا ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (زعم الذين كفروا) كان ابن عمر يقول : « زعموا » كناية الكذب . وكان مجاهد يكره أن يقول الرجل : زعم فلان .

قوله تعالى : (وذلك على الله يسير) يعني : البعث (والنّور) هو القرآن ، وفيه بيان أمر البعث والحساب والجزاء .

قوله تعالى : (يوم يجمعكم) هو منصوب بقوله تعالى : « لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم » (يوم يجمعكم ليوم الجمع) وهو يوم القيامة . وسمي بذلك لأن الله تعالى يجمع فيه الجن والإنس ، وأهل السموات ، وأهل الأرض (ذلك يوم التغابن) تفاعل من الغبن ، وهو فوت الحظ . والمراد في تسميته يوم القيامة يوم التغابن فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة ، فيرث ذلك المؤمن ، فيغبن حينئذ الكافر ، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : غبن أهل الجنة أهل النار ، قاله مجاهد ، والقرظي . والثالث : أنه يوم غبن المظلوم الظالم ، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً ، فصار في الآخرة غابناً ، ذكره الماوردي .

والرابع : أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان ، ذكره الثعلبي . قال الزجاج : وإنما ذكر ذلك مثلاً للبيع والشراء ، كقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) [البقرة : ١٦] ، وقوله تعالى : (هل أدلكم على تجارة) [الصف : ١٠] وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (يكفر عنه سيئآته) قرأ نافع ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم « نكفر » « وندخله » بالنون فيهما . والباقون : بالياء (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) قال ابن عباس : بعلمه وقضائه (ومن يؤمن بالله يهد قلبَه) فيه ستة أقوال .

أحدها : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من قبل الله تعالى ، فيسلم ، ويرضى .

والثاني : يهد قلبه للاسترجاع ، وهو أن يقول : إنا لله ، وإنا إليه راجعون قاله مقاتل .

والثالث : أنه إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر ، قاله ابن السائب ، وابن قتيبة .

والرابع ، يهد قلبه ، أي : يجعله مهتدياً ، قاله الزجاج .

والخامس : [يهد وليَّه بالصبر والرضى ، قاله أبو بكر الورّاق .

والسادس :] يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه ، قاله أبو عثمان الحيري .
وقرأ أبو بكر الصديق ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : « يَهْدَ » بياءٍ مفتوحة .

ونصب الدال « قَلْبُهُ » بالرفع . قال الزجاج : هذا من هدأ يهدأ : إذا سكن . فالمعنى : إذا سلَّم لأمر الله سَكَنَ قلبُه . وقرأ عثمان بن عفان ، والضحاك ، وطلحة بن مصرف ، والأزرق عن حمزة : « نَهْد » بالنون . وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو عبد الرحمن : « يُهْدَ » بضم الياء ، وفتح الدال « قَلْبُهُ » بالرفع . ومابعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) سبب نزولها أن الرجل كان يسلم . فإذا أراد الهجرة منعه أهله ، وولده ، وقالوا : نَنْشُدُكَ الله أن تذهب وتَدَعَ أهلك وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال . فمنهم من يَرِقُّ لهم ، ويقيم فلا يهاجر ، فنزلت هذه الآية . فلما هاجر أولئك ، ورأَوا الناس قد فَقُهوا في الدِّين همُّوا أن يعاقبوا أَهلهم الذين منعوهم ، فأنزل الله تعالى : (وإن تعفوا وتصفحوا) إلى آخر الآية ، هذا قول ابن عباس[1] . وقال الزجاج : لما أرادوا الهجرة قال لهم أزواجهم ، وأولادهم : قد صبرنا لكم على مفارقة الدِّين ولا نصبر لكم على مفارقتكم ، ومفارقة الأموال ، والمساكن ، فأعلم الله عز وجل أن من كان بهذه الصورة ، فهو عدوٌّ ، وإن كان ولداً ، أو كانت زوجة . وقال مجاهد : كان حب الرجل ولده وزوجته يحمله على قطيعة رحمه ومعصية ربه . وقال قتادة : كان من أزواجهم ، وأولادهم من ينهاهم عن الإسلام ، ويثبِّطهم عنه ، فخرج في قوله تعالى : (عدواً لكم) ثلاثة أقوال .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنه ، ورواه بنحوه الترمذي في « جامعه » ٢/١٦٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الطبري في « التفسير » ٢٨/١٢٤ ، والحاكم في « المستدرك » ٢/٤٩٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وصححه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٢٨ وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

أحدها : بمنعه من الهجرة ، وهذا على قول ابن عباس . والثاني : بكونهم سبباً للمعاصي ، وعلى هذا قول مجاهد . والثالث : بنهيهم عن الإسلام ، وهذا على قول قتادة .

قوله تعالى : (فاحذروهم) قال الفراء : لا تطيعوهم في التخلُّف .

قوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي : بلاء وشغل عن الآخرة . فالمال والأولاد يوقعان في العظائم إلا من عصمه الله . وقال ابن قتيبة : أي : إغرام . يقال : فتن فلان بالمرأة ، وشغف بها ، أي : أغرم بها . وقال الفراء : قال أهل المعاني : إنما دخل « من » في قوله تعالى : « إن من أزواجكم » لأنه ليس كل الأزواج ، والأولاد أعداء . ولم يذكر « من » في قوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة » لأنها لا تخلو من الفتنة ، واشتغال القلب بها . وقد روى بريدة عن رسول الله ﷺ أنه كان يخطب ، فجاء الحسن ، والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ، ويعثران ، فنزل من المنبر ، فحملهما ، فوضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله عز وجل : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ، ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ، ورفعتهما »[1] .

قوله تعالى : (والله عنده أجر عظيم) أي : ثواب جزيل ، وهو الجنة .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « مسنده » ٥/٣٥٤ وفي سنده الحسين بن واقد المروزي أبو عبد الله القاضي ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : ثقة له أوهام ، قال ابن كثير : ورواه أهل « السنن » من حديث حسين بن واقد به ، وقال الترمذي : حسن غريب لانعرفه إلا من حديثه . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٧٣ : أخرجه أصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، والبزار ، من رواية حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه ، قال : قال البزار : لا نعلم له طريقاً إلا هذا .

والمعنى : لا تعصوه بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم (فاتقوا الله ما استطعتم) أي : ما أطقتم (واسمعوا) ما تُؤمَرُون به (وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم) وفي هذه النفقة ثلاثة أقوال .

أحدها : الصَّدقة ، قاله ابن عباس .

والثاني : نفقة المؤمن على نفسه ، قاله الحسن .

والثالث : النفقة في الجهاد ، قاله الضحاك (ومن يُوقَ شُحَّ نفسه) حتى يعطيَ حق الله في ماله . وقد تقدم بيان هذا في (الحشر : ٩) وما بعده قد سبق بيانه إلى آخر السورة [البقرة : ٢٤٥ ، والحديد : ١١ ، ١٨ ، والحشر : ٢٣ ، ٢٤] .

سورة الطلاق

وتسمى سورة النساء القُصْرَى[1]، وهي مدنية كلُّها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ﴾

قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) قال الزجاج : هذا خطاب للنبي ﷺ . والمؤمنون داخلون معه فيه . ومعناه : إذا أردتم طلاق النساء ، كقوله تعالى : (إذا قمتم إلى الصلاة) [المائدة : ٦] . وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها نزلت حين طلَّق رسول الله ﷺ حَفْصَةَ ، وقيل له : راجعها ، فإنها صَوَّامةٌ قَوَّامةٌ ، وهي من إحدى زوجاتك في الجنة ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها نزلت في عبد الله بن عمر ، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً ،

---

(١) سماها بذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما في « صحيح البخاري » ٥٠٢/٨ .

فأمره النبي ﷺ أن يراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، قاله السدي [١] .

قوله تعالى : (لِعِدَّتِهِنَّ) أي : لزمان عِدَّتهن ، وهو الطهر . وهذا للمدخول بها ، لأن غير المدخول بها لا عدةَّ عليها .

والطلاق على ضربين : سُنِّيٌّ ، وبِدْعيٌّ .

فالسُّنِّيٌّ : أن يطلِّقها في طهر لم يجامعها فيه ، وذلك هو الطلاق لِلْعِدَّة ، لأنها تعتدُّ بذلك الطهر من عدَّة ، وتقع في العدة عقيب الطلاق ، فلا يطول عليها زمان العدة .

والطلاق البدعي : أن يقع في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، فهو واقع ، وصاحبه آثم . وإن جمع الطلاق الثلاث في طهرٍ واحد ، فالمنصور من مذهبنا أنه بدعة .

قوله تعالى : (وأحصوا العدة) أي : زمان العدة . وفي إحصائها فوائد . منها : مراعاة زمان الرجعة ، وأوان النفقة ، والسكنى ، وتوزيع الطلاق على الإقرار إذا أراد أن يطلِّق ثلاثاً ، ولِيَعْلَمَ أنها قد بانت ، فيتزوَّج بأختها ، وأربع سواها .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٣ عن السدي بغير سند . وأخرج البخاري ومسلم من حديث سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ، ثم قال : « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل » ولفظ مسلم « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » وفي رواية لمسلم قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن » .

قوله تعالى : (واتقوا الله ربَّكم) أي : فلا تعصوه فيما أمركم به . (ولا تخرجوهن من بيوتهن) فيه دليل على وجوب السكنى . ونسب البيوت إليهن ، لسكناهن قبل الطلاق فيهن ، ولا يجوز لها أن تخرج في عدتها إلا لضرورة ظاهرة . فإن خرجت أثمتْ (إلا أن يأتين بفاحشة) وفيها أربعة أقوال .

أحدها : المعنى : إلا أن يخرجن قبل انقضاء المدة ، فخروجهن هو الفاحشة المبّينة ، وهذا قول عبد الله بن عمر ، والسدي ، وابن السائب .

والثاني : أن الفاحشة : الزنا ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وعكرمة ، والضحاك . فعلى هذا يكون المعنى : إلا أن يزنين فَيُخْرَجْنَ لإقامة الحدّ عليهنّ .

والثالث : الفاحشة : أن تبذُوَ على أهلها ، فيحلُّ لهم إخراجها ، رواه محمد ابن إبراهيم عن ابن عباس .

والرابع : أنها إصابة حدّ ، فتخرج لإقامة الحدّ عليها ، قاله سعيد ابن المسيب[1] .

قوله تعالى : (وتلك حدود الله) يعني : ماذكر من الأحكام (ومن يتعدّ

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) أي : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل ، قال : الفاحشة المبينة ، تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، والحسن ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو قلابة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، وسعيد بن أبي هلال ، وغيرهم . قال : وتشمل ما إذا نشزت المرأة ، أو بذؤت على أهل الرجل ، وآذتهم في الكلام والفعال ، كما قاله أبي ابن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم .

حدود الله) التي بيَّنها ، وأمر بهـا (فقد ظلم نفسه) أي : أثم فيما بينه وبين الله تعالى (لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) أي : يُوقع في قلب الزوج المحبَّة لرجعتها بعد الطَّلْقة والطلقتين . وهذا يدل على أن المستحب في الطلاق تفريقه ، وأن لايجمع الثلاث .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾

قوله تعالى : (فإذا بلغن أجلهن) أي : قاربن انقضاء العدة (فأمسكوهن بمعروف) وهذا مبيَّن في (البقرة : ٢٣١) (وأشهدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم) قال المفسرون : أشهدوا على الطلاق ، أو المراجعة . واختلف العلماء : هـل الإشهاد على المراجعة واجب ، أم مستحب ؟ وفيه عن أحمد روايتان ، وعن الشافعي قولان[1] ثم قال للشهداء : (وأقيموا الشهادة لله) أي : اشهدوا بالحق ، وأدُّوها على الصحة ، طلباً لمرضاة الله ، وقياماً بوصيَّته . وما بعده قد سبق بيانه [البقرة : ٢٣٢] إلى قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) فذكر أكثر

---

(١) وقال عطاء : لايجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل (وأشهدوا ذوي عدل منكم) إلا أن يكون من عذر . وروى أبو داود في « سننه » رقم (٢١٨٦) وابن ماجة (٢٠٢٥) عن عمران بن حصين رضي الله عنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ؟ فقال : طلقت لغير سنة ، وراجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد . وإسناده صحيح كما قال الحافظ في « بلوغ المرام » .

المفسرين أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، أسر العدوُّ ابناً له ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : اتق الله ، واصبر ، وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ففعل الرجل ذلك ، فغفل العدوُّ عن ابنه ، فساق غنمهم ، وجاء بها إلى أبيه ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلت هذه الآية (١) .

وفي معناها للمفسرين خمسة أقوال .

أحدها : ومن يتق الله يُنجِه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : بأن مَخرَجَه : علمُه بأن ما أصابه من عطاءٍ أو مَنْع ، من قِبَل الله ، وهو معنى قول ابن مسعود .

والثالث : ومن يتق الله ، فيطلق للسُّنَّةِ ، ويراجع للسُّنَّةِ ، يَجْعَلْ له مخرجاً ، قاله السدي .

والرابع : ومن يتَّق الله بالصبر عند المصيبة ، يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، قاله ابن السائب .

والخامس : يجعل له مخرجاً من الحرام إلى الحلال ، قاله الزجاج . والصحيح أن هذا عام ، فإن الله تعالى يجعل للتقي مخرجاً من كل مايضيق عليه . ومن لايتقي ، يقع في كل شدة . قال الربيع بن خُثَيْم : يجعل له مخرجاً من كل مايضيق

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٤ بغير سند . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٣٣ من رواية ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وبنحوه من رواية الخطيب البغدادي في « تاريخه » من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس . ورواه ابن جرير الطبري من طريق سالم أبي الجعد مرسلاً قال : نزلت في رجل من أشجع ، فذكره بنحوه . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٧٤ : رواه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . قال : وروى الحاكم من طريق سالم أبي الجعد عن جابر قال : نزلت هذه الآية في رجل من أشجع ... فذكره قال : وفيه عبيد بن كثير تركه الأزدي .

على الناس (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أي : من حيث لا يأمل، ولا يرجو . قال الزجاج : ويجوز أن يكون : إذا اتقى الله في طلاقه ، وجرى في ذلك على السُّنَّة ، رزقه الله أهلاً بدل أهله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي : مَنْ وَثِقَ به فيما نابه ، كفاه الله ما أهمّه (إن الله بالغُ أمـــرَه) وروى حفص ، والمفضل عن عاصم « بالغُ أمرِه » مضاف . والمعنى : يقضي مايريد (قد جعل الله لكل شيء قدراً) أي : أجلاً ومنتهىً ينتهي إليه ، قدَّر الله ذلك كلَّه ، فلا يقدَّم ولا يؤخر[1] . قال مقاتل : قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء قدراً ، فقدَّر متى يكون هذا الغني فقيراً ، وهذا الفقير غنياً .

﴿ وَٱللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً . ذٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾

قوله تعالى : (واللائي يئسن من المحيض) في سبب نزولها قولان .

---

(١) روى أحمد في « المسند » والترمذي في « سننه » عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال . وروى أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لو أنكم توكلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » قال الترمذي : حسن صحيح ، وصححه الحاكم وأقره الذهبي . ومعنى خماصاً : جياعاً ، وبطاناً : شباعاً .

أحدهما : أنها لما نزلت عِدَّة المطلَّقة ، والمتوفَّى عنها زوجُها في (البقرة : ٢٢٧ ، ٢٣٢) قال أُبَيُّ بن كعب : يا رسول الله : إن نساء من أهل المدينة يقلن : قد بقي من النساء مالم يذكر فيه شيء . قال : « وماهو ؟ » قال : الصغار والكبار ، وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية ، قاله عمرو بن سالم[1] .

والثاني : أنه لما نزل قوله تعالى : والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن ...) الآية [البقرة : ٢٢٨] قال خلاَّد بن النعمان الأنصاري : يارسول الله ، فما عِدَّة التي لاتحيض ، وعدَّة التي لم تحض ، وعدة الحُبلى ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل[2] .

ومعنى الآية : (إن ارتبتم) ، أي : شككتم فلم تَدْرُوا ماعِدَّتهن (فَعِدَّتُهنَّ ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن) كذلك[3] .

فصـــل

قال القاضي أبو يعلى : والمراد بالارتياب هاهنا : ارتياب المخاطبين في مقدار عدة الآيسة والصغيرة كم هو ؟ وليس المراد به ارتيـاب المعتدات في اليأس من المحيض ، أو اليأس من الحمل للسبب الذي ذكر في نزول الآية . ولأنه لو أريد

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٤ عن عمرو بن سالم ، ورواه بنحوه ابن جرير الطبري ١٤١/٢٨ ، والحاكم ٤٩٢/٢ وقال : صحيح الإسنـــاد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٣٤/٦ وزاد نسبته لاسحاق بن راهويه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢) روه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٤ عن مقاتل بغير سند . وكذلك ذكره البغوي والخازن عن قتادة .

(٣) قال ابن كثير : وهذا مروي عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر في المعنى . وذكر أنه يحتج لذلك بحديث عمرو بن سالم الذي تقدَّم ذكره .

بذلك النساء لتوجّه الخطاب إليهن ، فقيل : إن ارتبتنْ ، أو ارتبنَ ، لأن الحيض إنما يعلم من جهتهنّ .

وقد اختلف في المـــرأة إذا تأخر حيضها لا لعارض كم تجلس ؟ فمذهب أصحابنا أنها تجلس غالب مدة الحمل ، وهو تسعة أشهر ، ثم ثلاثة . والعدة : هي الثلاثة التي بعد التسعة . فإن حاضت قبل السنة بيوم ، استأنفت ثلاث حيض ، وإن تَمَّتْ السَّنَةُ من غير حيض ، حلّت ، وبه قال مالك . وقال أبو حنيفة ، والشافعي في الجديد : تمكث أبداً حتى يعلم براءة رحمها قطعاً ، وهي أن تصير في حدّ لا يحيض مثلها ، فتعتدُّ بعد ذلك ثلاثة أشهر .

قوله تعالى : (واللائي لم يحضن) يعني : عدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ، لأنه كلام لا يستقلُّ بنفسه ، فلا بدَّ له من ضمير ، وضميره تقدَّم ذكره مظهراً ، وهو العدَّة بالشهور . وهذا على قول أصحابنا محمول على من لم يأت عليها زمان الحيض : أنها تعتد ثلاثة أشهر . فأما من أتى عليها زمان الحيض ، ولم تحض ، فإنها تعتدُّ سنة .

قوله تعالى : (وأولات الأحمال أجلُهن أن يضعن حملهن) عامٌّ في المطلقات ، والمتوفّى عنهن أزواجهن ، وهذا قول عمر ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبي مسعود البدري ، وأبي هريرة ، وفقهاء الأمصار . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : تعتدُّ آخر الأجلين . ويدل على قولنا عموم الآية . وقول ابن مسعود : من شاء لاعنته ، ما نزلت « وأولات الأحمال » إلا بعد آية المتوفّى عنها زوجها[1] ،

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/٢٣٥ : أخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وسعيد ابن منصور ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول : تعتد ـــ

وقولِ أم سلمة : إن سُبَيعة وضعت بعد وفاة زوجها بأيام ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتزوج [1] .

قوله تعالى : (ومن يتق الله) أي : فيما أُمِرَ به (يَجْعَلْ له من أمره يسراً) يُسَهِّلْ عليه أمر الدنيا والآخرة ، وهذا قول الأكثرين . وقال الضحاك : ومن يتق الله في طلاق السُّنَّة ، يجعل الله له من أمره يسراً في الرَّجعة (ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله) بطاعته (يُكفِّرْ عنه سيآتِه) أي : يمح عنه خطاياه (ويُعظِم له أجراً) في الآخرة .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى. لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾

(أسكنوهنَّ من حيثُ سكنتم) و « من » صلة قوله : (من وُجدكم)

ـــ آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته ، إن الآية التي نزلت في سورة النساء القصرى (يريد بذلك سورة الطلاق) نزلت بعد سورة (البقرة) (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) بكذا وكذا شهراً ، فكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٥٠١/٨ عن أم سلمة قالت : قتل زوج سُبَيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها . قال ابن كثير : هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً ، وقد رواه مسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر ، وذكره من روايه أحمد ثم قال : ورواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من طرق عن أم سلمة رضي الله عنها . وأورده السيوطي في « الدر » ٢٣٦/٦ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه .

قرأ الجمهور بضم الواو . وقرأ أبو هريرة ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو رزين ، وقتادة ، ورَوْح عن يعقوب بكسر الواو . وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة : بفتح الواو . قال ابن قتيبة : أي : بِقَدْر وُسْعِكم . والوُجد : المقدرة ، والغنى ، يقال : افتقر فلان بعد وُجْدٍ . قال الفراء : يقول : على ما يجد ، فإن كان مُوَسَّعاً عليه ، وسَّعَ عليها في المسكن والنَّفَقة ، وإن كان مقتَّراً عليه ، فعلى قَدْرِ ذلك .

قوله تعالى : (ولا تُضَارُّوهنَّ) بالتضييق عليهنّ في المسكن ، والنفقة ، وأنتم تجدون سَعَة . قال القاضي أبو يعلى : المراد بهذا : المطلقة الرجعية دون المبتوتة ، بدليل قوله تعالى : (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) [الطلاق : ١] . وقوله : (فــإذا بلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهن بمعروف) [الطلاق : ٢] فدل ذلك على أنه أراد الرجعية .

وقد اختلف الفقهاء في المبتوتة : هل لها سكنى ، ونفقة في مدة العدة ، أم لا ؟ فالمشهور عند أصحابنا : أنه لا سكنى لها ولا نفقة ، وهو قول ابن أبي ليلى . وقال أبو حنيفة : لها السكنى ، والنفقة . وقال مالك والشافعي : لها السكنى ، دون النفقة . وقد رواه الكوسج [1] عن أحمد . ويدل على الأول حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال لها : إنما النفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعة ، فإذا لم يكن له عليها ، فلا نفقة ولا سكنى [2] . ومن حيث المعنى : إن النفقة إنما تجب لأجل التمكين من الاستمتاع ، بدليل أن الناشز لا نفقة لها .

---

(١) هو إسحاق بن منصور بن بهرام أبو يعقوب المروزي المعروف بالكوسج ، وهو الذي دوّن المسائل الفقهية عن الإمام أحمد بن حنبل ، روى عنه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ، وهو ثقة ثبت من رجال الحديث ، توفي رحمه الله سنة (٢٥١ هـ) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٣٧٣/٦ عن فاطمة بنت قيس وهو جزء من حديث طويل . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » ١٠٨/٧ : تفرد برفعه مجالد بن سعيد ، وهو ـــ

واختلفوا في الحامل ، والمتوفَّى عنها زوجها ، فقال ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو العالية ، والشعبي ، وشريح ، وإبراهيم : نفقتها من جميع المال ، وبه قال مالك ، وابن أبي ليلى ، والثوري . وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، والحسن ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء : نفقتها في مال نفسها ، وبه قال أبو حنيفة ، وأصحابه . وعن أحمد كالقولين .

قوله تعالى : (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) يعني : أجرة الرضاع . وفي هذا دلالة على أن الأم إذا رضيت أن ترضعه بأجرة مثله ، لم يكن للأب أن يسترضع غيرها (وَأْتمروا بينكم بمعروف) ، أي : لاتشتطُّ المرأة على الزوج فيما تطلبه من أجرة الرضاع ، ولا يقصِّر الزَّوج عن المقدار المستحق (وإن تعاسرتم) في الأجرة ، ولم يتراضَ الوالدان[1] على شيء (فسترضع له أخرى) لفظه لفظ الخبر ، ومعناه : الأمر ، أي : فليسترضع الوالد غير والدة الصبي .

(لينفق ذو سَعَةٍ من سَعَتِهِ) أمر أهل التَّوسِعَة أن يوسِّعوا على نسائهم المرضعات أولادهن على قدر سَعتِهم . وقرأ ابن السميفع « لينفق » بفتح القاف (ومن قُدِرَ عليه رِزْقُه) أي : ضُيِّق عليه من المطلّقين . وقرأ أبي بن كعب ، وحميد « قُدِّر » بضم القاف ، وتشديد الدال . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة « قَدَّر » بفتح القاف وتشديد الدال « رزقَه » بنصب القاف (فلينفقْ مما آتاه الله) على قدر ما أعطاه (لايكلف الله نفساً إلا ما آتاها) أي : على قدر ما أعطاها من المال (سيجعل الله بعد عسر يسراً) أي : بعد ضيق وشدة ، غنًى وسَعَةً ، وكان الغالب عليهم حينئذ الفقر ، فأعلمهم أنه سيفتح عليهم بعد ذلك .

ـــ ضعيف ، قال : وقد تابعه في رفعه بعض الرواة ، قال في « الفتح » : ولكنه أضعف من مجالد ، وهو في أكثر الروايات موقوف عليها ، والرفع زيادة يتعين قبولها لما بيناه في غير موضع ، ورواية الضعيف مع الضعيف توجب الارتقاء عن درجة السقوط إلى درجة الاعتبار .

(١) في الأصل : الولدان .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً . أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا ٱللهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾

قوله تعالى : (وكأين) أي : وكم (من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، أي : عن أمر رسله . والمعنى : عتا أهلها . قال ابن زيد : عتت ، أي : كفرت ، وتركت أمر ربها ، فلم تقبله . وفي باقي الآية قولان .

أحدهما : أن فيها تقديماً ، وتأخيراً . والمعنى : عذّبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع ، والسيف ، والبلايا ، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة ، قاله ابن عباس ، والفراء في آخرين .

والثاني : أنها على نظمها ، والمعنى : حاسبناها بعملها في الدنيا ، فجازيناها بالعذاب على مقدار عملها ، فذلك قوله تعالى : « وعذّبناها » فجعل المجازاة بالعذاب محاسبة . والحساب الشديد : الذي لاعفو فيه ، والنكر : المنكر (فذاقت وبال أمرها) أي : جزاء ذنبها (وكان عاقبة أمرها خسراً) في الدنيا ، والآخرة ، وقال ابن قتيبة : الخسر : الهلكة .

قوله تعالى : (قد أنزل الله إليكم ذكراً) أي : قرآنا (رسولاً) أي : بعثه رسولاً ، قاله مقاتل . وإلى نحوه ذهب السدي . وقال ابن السائب : الرسول هاهنا : جبرائيل ، فعلى هذا : يكون الذّكر والرسول جميعاً منزّلين . وقال ثعلب : الرسول : هو الذّكر . وقال غيره : معنى الذّكر هاهنا : الشرف .

وما بعده قد تقدَّم [البقرة : ٢٥٧ ، والأحزاب : ٤٣ ، والتغابن : ٩] إلى قوله تعالى : قد أحسن الله له رزقاً) يعني : الجنة التي لاينقطع نعيمها .

﴿ اَللَّهُ اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اَللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

قوله : (ومن الأرض مثلهن) أي : وخلق الأرض بعددهن [1] . وجاء في الحديث : كثافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، ومابينها وبين الأخرى كذلك ، وكثافة كل أرض خمسمائة عام ، ومابينها وبين الأرض الأخرى كذلك [2] . وقد

(١) قال ابن كثير : وقوله : (ومن الأرض مثلهن) أي : سبعاً أيضاً ، كما ثبت في « الصحيحين » « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وفي « صحيح البخاري » « خسف به الله سبع أرضين » قال : ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند .

وقد صح من رواية البخاري وغيره قوله ﷺ : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ... » الحديث .

(٢) روى ابن جرير الطبري (١٥٣/٢٨) وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب « الرد على الجهمية » ص ٢٦ طبع المكتب الإسلامي من طريق عاصم عن زرّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال : خلق الله سبع سموات ، غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام ، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام ، وفوق السبع السموات الماء ، والله جل ثناؤه فوق الماء ، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم ، والأرض سبع ، وبين كل أرضين خمسمائة عام ، وغلظ كل أرض خمسمائة عام . وإسناده حسن ولكنه موقوف .

ورواه مرفوعاً أحمد في « المسند » رقم (١٧٧٠) و (١٧٧١) ، وأبو داود رقم (٤٧٢٣) ، وعثمان بن سعيد الدارمي في « الرد على الجهميه » ص ٢٤ ، وفي سنده عندهم عبد الله بن عميرة وهو مجهول ، وفيه أسطورة الأوعال . ورواه الترمذي ١٦٢/٢ من رواية الحسن عن أبي هريرة وليس فيه ذكر الأوعال وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويروى عن أيوب ويونس وعلي بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . وروى شريك بعض هذا المعنى عن سماك ووقفه ، فالحديث لايصح مرفوعاً وهو حسن موقوفاً والله أعلم .

روى أبو الضحى عن ابن عباس قال : في كل أرض آدم مثل آدمكم ، ونوح مثل نوحكم ، وإبراهيم مثل إبراهيمكم ، وعيسى كعيسى ، فهذا الحديث [تارة] يرفع إلى ابن عباس ، وتارة يوقف على أبي الضحى [1] ، وليس له معنى إلا ماحكى أبو سليمان الدمشقي ، قال : سمعت أن معناه : إن في كل أرض خلقاً من خلق الله لهم سادة ، يقوم كبيرهم ومتقدّمهم في الخلق مقام آدم فينا ، وتقوم ذُرِّيَّتُه في السّنّ والقِدَم كمقام نوح . وعلى هذا المثال سائرهم . وقال كعب : ساكن الأرض الثانية : البحر العقيم ، وفي الثالثة : حجارة جهنم ، والرابعة : كبريت جهنم ، والخامسة : حيات جهنم ، والسادسة : عقارب جهنم ، والسابعة : فيها إبليس [2] .

قوله تعالى : (يتنزّل الأمر بينهن) ، في الأمر قولان .

أحدهما : قضاء الله وقدره ، قاله الأكثرون . قال قتادة : في كل أرض

---

(١) قال ابن كثير في « التفسير » ٤/٢٨٥ : وروى البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » هذا الأثر عن ابن عباس فقال : أنا أبو عبد الله الحافظ ، ثنا أحمد بن يعقوب ، ثنا عبيد بن غنام الحنفي ، أنا علي بن حكيم ، ثنا شريك ، عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال : في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كابراهيم ، وعيسى كعيسى . قال : ثم رواه البيهقي من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن ابن عباس في قول الله عز وجل : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال : في كل أرض نحو إبراهيم عليه السلام ، قال : ثم قال البيهقي : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة ، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً ، والله أعلم .

وقال ابن كثير أيضاً في « البداية والنهاية » ١/٢١ : وهو محمول إن صح نقله عن ابن عباس على أنه أخذه رضي الله عنه عن الاسرائيليات ، والله أعلم .

(٢) وهذا أيضاً — والله أعلم — من الاسرائيليات التي نقلها كعب وغيره عن أهل الكتاب .

من أرضهِ وسماء من سمائه خَلْقٌ من خَلْقهِ ، وأمْرٌ من أمْرهِ ، وقَضَاءٌ من قَضَائهِ .

والثاني : أنه الوحي ، قاله مقاتل [١] .

قوله تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء [٢] .

(١) قال ابن جرير : وقوله تعالى : (يتنزل الأمر بينهن) يقول تعالى ذكره : ينزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) يقول تعالى ذكره : ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك ، كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لايتعذّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شاءه ، ولكنه على ما يشاء قدير (وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) يقول جل ثناوه : ولتعلموا أيها الناس أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً ، ولايعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يقول جل ثناؤه : فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته ، فانه لايمنعه من عقوبتكم مانع ، وهو على كل شيء قادر ، ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلايخفى عليه منها خاف ، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

سورة التحريم [1]

وهي مدنية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾

قوله تعالى : (لم تحرِّم ما أحل الله لك) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن حفصة ذهبتْ إلى أبيها تتحدّثُ عنده ، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم [الذي] يأتي فيه عائشة ،

---

(١) ويقال لها : سورة التحريم ، وسورة « لم تحرم » قال الآلوسي : ويقال لها « سورة النبي ﷺ » وعن ابن الزبير : سورة النساء .

فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غَيْرةً شديدةً . فلما دخلت حفصة قالت : قد رأيت من كان عندك . والله لقد سُؤْتَني ، فقال النبي ﷺ « والله لأُرْضِينَّك ، وَإني مُسِرٌّ إليك سراً فاحفظيه » ، قالت : وما هو ؟ قال : « إني أشهدكِ أن سرِّيَّتي هذه عليَّ حرام رضىً لكِ » ، وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي ﷺ ، فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فقالت لها : أبشري ، إن النبي ﷺ قد حرَّم عليه فتاته ، فنزلت هذه الآية رواه العوفي عن ابن عباس [1] . وقد روي عن عمر نحو هذا المعنى ، وقال فيه : فقالت حفصة : كيف تحرمها عليك ، وهي جاريتك ؟! فحلف لها أن لايقربها ، فقال لها : « لا تذكريه لأحد » ، فذكرته لعائشة ، فآلى أن لايدخل على نسائه شهراً ، فنزلت هذه الآية [2] وقال الضحاك : قال لها : « لا تذكري لعائشة ما رأيت » ، فذكرته ، فغضبت عائشة ، ولم تزل بنبي الله حتى حلف أن لايقربها ، فنزلت هذه الآية [3] ، وإلى هذا المعنى : ذهب سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والشعبي ، ومسروق ، ومقاتل ، والأكثرون .

---

(١) رواه ابن جرير الطبري ١٥٧/٢٨ عن محمد بن سعد صاحب « الطبقات » من رواية عطية العوفي عن ابن عباس ، وعطية ضعيف . وأورده السيوطي في « الدر » ٢٣٩/٦ وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٢٥ ، قال ابن كثير : وقال الهيثم بن كليب في « مسنده » : ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي ، ثنا مسلم بن ابراهيم ، ثنا جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر قال : قال النبي ﷺ لحفصة : « لا تخبري أحداً ، وإن أم ابراهيم عليَّ حرام » فقالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : « فوالله لا أقربها » قال : فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، قال : فأنزل الله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، قال : وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه « المستخرج » .

(٣) رواه الطبري ١٥٦/٧٨ وفي آخره : وأمره أن يكفر عن يمينه ويأتي جاريته ، وفي سنده انقطاع .

والثاني : ما روى عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحَلْواء والعسل [١] ، وكان إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نسائه ، فدخل على حَفصَة بنت عمر ، واحتبس عندها ، فسألت عن ذلك ، فقيل : أهدت لها امرأة من قومها عُكَّةً من عسل [٢] ، فسقت رسول الله ﷺ ، فقلت : أما والله لنحتالَنَّ له [٣] ، فقلت لسودة : إنه سيدنو منكِ إذا دخل عليك ، فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ، فانه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ [٤] وسأقول ذلك ، وقولي أنت يا صفية ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قالت : تقول : سودة سبحان الله ، والله لقد حَرَمْنَاه [٥] قلت لها : اسكتي ، أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » [٦] . وفي رواية ابن أبي ملكية عن ابن عباس :

---

(١) المراد بالحلواء هنا : كل شيء حلو ، وذكر العسل بعدها تنبيه على شرفه ومزيته ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفيه جواز أكل لذيذ الأطعمة والطيبات من الرزق ، وأن ذلك لاينافي الزهد والمراقبة ، لاسيا إذا حصل اتفاقاً .

(٢) قال الجوهري : العُكة : آنية السمن ، أو القربة الصغيرة .

(٣) أي لنطلبن له الحيلة ، وهي الحذق في تدبير الأمور وتقلب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود .

(٤) أي : رعت نحل هذا العسل الذي شربته ، يقال : جرست النحل تجرس جرساً : إذا أكلت لتعسل ، ويقال للنحل : جوارس ، والعرفط : مفعول جرست ، وهو شجر ينضح الصمغ المعروف بالمغافير ، أي لكونها رعته وأخذت منه حصلت هذه الرائحة .

(٥) حرمناه ، هو بتخفيف الراء ، أي : منعناه منه ، يقال فيه : حرمته وأحرمته ، والأول أفصح .

(٦) رواه البخاري في « صحيحه » ٢٩٥/١١ — ٢٩٧ ومسلم ١١٠١/٢ ، ١١٠١ من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها .

أن التي شرب عندها العسل سودة ، فقالت له عائشة : إني لأجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة ، فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فقال : إني أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت هذه الآية [١] . وفي حديث عبيد بن عمير عن عائشة أن التي شرب عندها العسل زينب بنت جحش ، فتواطأت حفصة وعائشة أن تقولا له ذلك القول [٢] . قال أبو عبيد : المغافير : شيء شبيه بالصمغ فيه حلاوة . وخرج الناس يتمغفرون : إذا خرجوا يجتنونه . ويقال : المغاثير بالثاء ، مثل جدث ، وجدف . وقال الزجاج : المغافير : صمغ متغير الرائحة . فخرج في المراد بالذي أحلّ الله له قولان .

---

(١) وقال السيوطي في « الدر » ٦/٢٣٩ : أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فأنزل الله (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ...) الآية . وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ١١/٢٩٢ : وأخرج ابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس أن شرب العسل كان عند سودة ... والراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة ، لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير .

(٢) رواه البخاري ١١/١٩٣ ومسلم ٢/١١٠٠ قال ابن كثير بعد أن ساق حديث عبيد ابن عمير وحديث عروة : وقد يقال : إنها واقعتان ، ولا بُعد في ذلك ، إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ، والله أعلم ، قال : ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان ، الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس ، وفيه أنه سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ، فقال : هي عائشة وحفصة . والحديث بطوله أخرجه البخاري ٨/٥٠٣ وغيره .

أحدهما : أنه جاريته . والثاني : العسل [1] .

قوله تعالى : (تبتغي مرضات أزواجك) أي : تطلب رضاهن بتحريم ذلك . (والله غفور رحيم) غفر الله لك التحريم (قد فرض الله لكم) قال مقاتل : قد بيّن الله لكم (تَحِلَّةَ أَيْمانِكم) أي : كفارة أيمانكم ، وذلك البيان في (المائدة : ٨٩) قال المفسرون : وأصل « تَحِلَّة » تَحْلِلَه على وزن تَفْعِلَة ، فأدغمت ، والمعنى : قد بين الله لكم تحليل أيمانكم بالكفّارة ، فأمره الله أن يكفّر يمينه ، فأعتق رقبة [2] .

---

(١) قال الحافظ في « الفتح » ١١/١٩٩ : وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوقب على تحريمه كما اختلف في سبب حلفه على أن لايدخل على نسائه على أقوال ، فالذي في « الصحيحين » أنه العسل ، وقول آخر : إنه في تحريم جاريته مارية ، ووقع في رواية يزيد ابن رومان عن عائشة عند ابن مردويه ما يجمع القولين ، وذكر غيره ، ثم قال : والراجح من الأقوال كلها قصة مارية ، لاختصاص عائشة وحفصة بها ، بخلاف العسل ، فإنه اجتمع فيه جماعة منهن ، قال : ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها ، ويؤيده شمول الحلف للجميع ، ولو كان مثلاً في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة .

(٢) ذكر الحافظ السيوطي في « الدر » ٦/٢٤٠ من رواية ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه : فأعتق رسول الله ﷺ رقبة . قال القرطبي : وقد قال جماعة من أهل التفسير : إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعتق رقبة وعاد إلى مارية ﷺ ، قاله زيد بن أسلم وغيره . وكذلك ذكر الزمخشري والخازن ، والشوكاني ، والآلوسي . وأخرج النسائي ٦/١٥١ من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً جاءه فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً ، قال : كذبت ما هي عليك بحرام ، ثم تلا (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) ثم قال له : عليك رقبة . وإسناده صحيح . قال الحافظ : وكأنه أشار عليه بالرقبة لأنه عرف أنه موسر ، فأراد أن يكفر بالأغلظ من كفارة اليمين ، لا أنه تعين عليه عتق الرقبة . وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٣٤١ من رواية ابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس .

واختلفوا هل حرّم مارية على نفسه بيمين ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : حرّمها من غير ذكر يمين ، فكان التحريم موجباً لكفارة اليمين ، قاله ابن عباس [١] .

والثاني : أنه حلف يميناً حرّمها بها ، قاله الحسن . والشعبي ، وقتادة [٢] ، (والله مولاكم) أي : وليُّكم وناصركم .

قوله تعالى : (وإذا أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) يعني : حفصة من غير خلاف علمناه .

وفي هذا السِّرّ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قال لها : إني مُسِرٌّ إليك سِرّاً فاحفظيه ، سرِّيتي هذه عليَّ حرام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، والشعبي ، والضحاك ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، والسدي .

---

(١) رواه ابن جرير ٢٨/١٥٧ من طريق العوفي عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٢٣٩ من رواية ابن سعد ، وابن مردويه عن ابن عباس . قال ابن كثير : ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جارية أو زوجة أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة ، قال : وذهب الشافعي إلى أنه لاتجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم يمينهما أو أطلق التحريم فيهما في قول ، فأما إن نوى طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما .

(٢) قال السيوطي في « الدر » : أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن الشعبي وقتادة رضي الله عنهما ، (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) قال : حرم جاريته ، قال الشعبي : وحلف يميناً على التحريم ، فعاتبه الله في التحريم ، وجعل له كفارة اليمين ، وقال قتادة : حرمها فكانت يميناً .

والثاني : أنه قال لها : أبوك ، وأبو عائشة ، والِيا الناس من بعدي ، فإياك أن تخبري أحداً ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس [١] .

والثالث : أنه أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي ، قاله ميمون بن مهران [٢] .

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » ١١/٢٠٠ من رواية ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية فقال : لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة ، إن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إذا أنا مت ... قال : وفي سنده ضعف .

(٢) قال السيوطي في « الدر » ٦/٣٤١ : أخرج ابن عساكر عن ميمون بن مهران في قوله : (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) قال : أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي . وهذان الأثران مخالفان للأحاديث الصحيحة ، فإنها ليس فيها التصريح بامارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وإلا لما حصل خلاف في ذلك أبداً ، ولكنها تشير إلى أن أحق الناس بالخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه ، من ذلك ما رواه مسلم في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه : « ادعي لك أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر . وروى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال : أتت النبي ﷺ امرأة ، فكلمته في شيء ، فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك — كأنها تريد الموت — قال : « فأتي أبا بكر » . وروى الترمذي بسند جيد عن عمر رضي الله عنه قال : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ . وقال ﷺ في أبي بكر وعمر فيما رواه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لا أدري ما بقائي فيكم ؟ فاقتدوا باللّذين من بعدي أبي بكر وعمر » وهو حديث حسن ، وروى الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » وهو حديث صحيح . وروى الترمذي عن عقبة ابن عامر قال : قال النبي ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » وهو حديث حسن . وروى البخارى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل فيهم .

قوله تعالى : (فلما نبَّأَتْ به) أي : أخبرت به عائشة (وأظهره الله عليه) أي : أطلع الله نبيه على قول حفصة لعائشة ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، لأنه استكتم حفصة ذلك ، ثم دعاها ، فأخبرها ببعض ما قالت ، فذلك قوله تعالى : (عرَّف بعضَه وأعرض عن بعض) وفي الذي عرَّفها إياه قولان .

أحدهما : أنه حدَّثها ما حدثتها عائشة من شأن أبي بكر وعمر ، وسكت عما أخبرتْ عائشة من تحريم مارية ، لأنه لم يبال ما أظهرت من ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن الذي عرَّف : تحريم ماريّة ، والذي أعرض عنه : ذِكر الخلافة لئلا ينتشر ، قاله الضحاك [1] ، وهذا اختيار الزجاج . قال : ومعنى « عرَّف بعضه » عرَّف حفصة بعضه . وقرأ الكسائي ، « عَرَفَ » بالتخفيف . قال الزجاج : على هذه القراءة قد عرف كل ما أسرَّه ، غير أن المعنى جارٍ على بعضه ، كقوله تعالى : (وما تَفْعلوا من خَير يعلمْه الله) [البقرة : ١٧٩] ، أي : يعلمه ويجازِ عليه ، وكذلك : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) [الزلزلة : ٧] أي : ير جزاءه . فقيل : إن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقة ، فكان ذلك جزاءها عنده ، فأمره الله أن يراجعها . وقال مقاتل بن حيَّان : لم يطلقها ، وإنما همَّ بطلاقها ، فقال له جبريل : لاتطلقها ، فإنها صوَّامة قوَّامة [2] . وقال الحسن : ما استقصى كريم قط ، ثم قرأ « عرَّف

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » أخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية ، فقال : لاتخبري عائشة ، فأخبرتها ، فعاتبها ولم يعاتبها على أمر الخلافة ، فلهذا قال الله تعالى : (عرف بعضه وأعرض عن بعض) . قال : وأخرج الطبراني في « الأوسط » وفي « عشرة النساء » عن أبي هريرة نحوه بتمامه ، وفي كل منها ضعف .

(٢) تقدم الحديث في الصفحة ٢٨٧ من هذا الجزء بلفظ « راجعها فإنها صوَّامة قوَّامة » وهو يدل على أنه ﷺ طلقها ، ويؤيده مارواه أبو داود ٣٨٢/٢ والنسائي ٢١٣/٦ عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ طلق حفصة ثم راجعها . وإسناده صحيح .

بعضه وأعرض عن بعض » وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن السميفع « عُرّاف » برفع العين ، وتشديد الراء وبألف « بعضِه » بالخفض .

قوله تعالى : (فلما نَبّأها به) أي : أخبر حفصة بإفشائها السرّ (قالت من أنبأك هذا ؟) أي : من أخبرك بأني أفشيت سرك ؟ (قال نبأني العليم الخبير) ثم خاطب عائشة وحفصة ، فقال : (إن تتوبا إلى الله) أي : من التعاون على رسول الله ﷺ بالإيذاء (فقد صغت قلوبكما) قال ابن عباس : زاغت ، وأثمت . قال الزجاج : عدلت ، وزاغت عن الحق . قال مجاهد : كنا نرى قوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما » شيئاً هيِّناً حتى وجدناه في قراءة ابن مسعود : فقد زاغت قلوبكما . وإنما جعل القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة . وقد أشرنا إلى هذا في قوله تعالى : (فإن كان له إخوة) [النساء : ١١] ، وقوله تعالى : (إذ تسوَّروا المحراب) [ص : ١١] . قال المفسرون : وذلك أنهما أحبَّا ما كَرِهَ رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته ، (وإن تظاهرا)[1] وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن ومجاهد ، والأعمش « تظاهرا » بتخفيف الظاء ، أي : تعاونا على النبي ﷺ بالإيذاء (فإن الله هو مولاه) أي : وَليُّه في العون ، والنصرة (وجبريل) وليُّه (وصالح المؤمنين) وفي المراد بصالح المؤمنين ستة أقوال .

أحدها : أنهم أبو بكر وعمر ، قاله ابن مسعود ، وعكرمة ، والضحاك .

والثاني : أبو بكر ، رواه مكحول عن أبي أمامة .

والثالث : عمر ، قاله ابن جبير ، ومجاهد .

والرابع : خيار المؤمنين ، قاله الربيع بن أنس .

---

(١) بحذف إحدى التاءين وتخفيف الظاء وهي قراءة عاصم ونافع في رواية ، وقرأ الجمهور « تظّاهرا » بتشديد الظاء .

والخامس : أنهم الأنبياء ، قاله قتادة ، والعلاء بن زياد العدوي ، وسفيان.

والسادس : أنه علي رضي الله عنه ، حكاه الماوردي. قاله الفراء : «وصالح المؤمنين» موحّد في مذهب جميع ، كما تقول : لايأتيني إلا سائس الحرب ، فمن كان ذا ساسة للحرب ، فقد أمر بالمجيء ، ومثله قوله تعالى : (والسارق السارقة) [المائدة : ٣٨] ، وقوله تعالى : (واللّذان يأتيانها منكم) [النساء : ١٦] ، وقوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً) [المعارج : ١٩] في كثير من القرآن يؤدي معنى الواحد عن الجميع[1] .

قوله تعالى : (والملائكة بعد ذلك ظهير) أي : ظهراً ، وهذا مما لفظه لفظ الواحد ، ومعناه الجميع ، ومثله (يخرجكم طفلاً) [غافر : ٦٧] ، وقد شرحناه هناك . ثم خوّف نساءه ، فقال تعالى : (عسى ربُّه إن طلقكنّ) وسبب نزولها ما روى أنس عن عمر بن الخطاب قال : بلغني بعض ما آذى به رسولَ الله نساؤه ، فدخلتُ عليهنّ ، فجعلت أَستقرئهن واحدةً واحدةً ، فقلت : والله لتنتهِنّ ، أو ليبدلنَّه الله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت هذه الآية[2] . والمعنى : واجبٌ من الله (إن طلقكنّ) رسوله (أن يبدلَه أزواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ) أي : خاضعات لله بالطاعة (مؤمناتٍ) مصدّقات بتوحيد الله (قانتاتٍ) أي : طائعات (سائحات) فيه قولان .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن قوله : (وصالح المؤمنين) وإن كان في لفظ واحد ، فإنه بمعنى الجميع ، وهو بمعنى قوله : (إن الإنسان لفي خسر) فالإنسان وإن كان في لفظ واحد ، فإنه بمعنى الجميع ، وهو نظير قول الرجل: لاتقْرِينّ إلا قارىء القرآن ، يقال : قارىء القرآن ، وإن كان في اللفظ واحداً ، فمعناه الجميع ، لأنه قد أذن لكل قارىء القرآن أن يَقريه واحداً كان أو جماعة .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٦٤/٢٨ وسنده صحيح ، وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم .

أحدهما : صائمات ، قاله ابن عباس ، والجمهور . وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى : (السائحون) [التوبة : ١١٢] .

والثاني : مهاجرات ، قاله زيد بن أسلم ، وابنه . (والثيّبات) جمع ثيِّب ، وهي المرأة التي قد تزوَّجت ، ثم ثابت إلى بيت أبويها ، فعادت كما كانت غير ذات زوج . « والأبكار » : العذارى .

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلٰئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وقاية النفس : بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، ووقاية الأهل : بأن يُؤْمَروا بالطاعة ، ويُنْهَوا عن المعصية . وقال علي رضي الله عنه : علِّموهم وأدِّبوهم [1] (وقودها الناس والحجارة) وقد

---

(١) روي ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى : (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) قال : يقيهم : أن يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصيته ، وأن يقوم عليهم بأمر الله ، يأمرهم به ، ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها ، وزجرتهم عنها .

وقد قال تعالى لرسوله ﷺ (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أي : استنقذهم من عذاب الله بإقامة الصلاة واصبر أنت على مثلها .

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » ١٨٧/٢ وأبو داود في « سننه » رقم (٤٩٥) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ـــ

ذكرناه في (البقرة : ٢٤) (عليها ملائكةٌ غِلاظٌ) على أهل النار (شِدادٌ) عليهم . وقيل : غلاظ القلوب شِدَاد الأبدان . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : خَزَنَةُ النَّار تسعةَ عشر ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، وقوَّته : أن يضرب بالمقمعة ، فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً ، فيهوُون في قعر جهنَّم (لا يعصون الله ما أمرهم) أي : لا يخافون فيما يأمر (ويفعلون ما يؤمرون) فيه قولان .

أحدهما : لايتجاوزون ما يؤمرون . والثاني : يفعلونه في وقته لا يؤخِّرونه ، ولايقدِّمونه . ويقال لأهل النار : (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) .

قوله تعالى : (توبوا إلى الله توبة نصوحاً) قرأ أبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع « نصوحاً » بضم النون . والباقون بفتحها . قال الزجاج : فمن فتح فعلى صفة التوبة ، ومعناه : توبةً بالغةً في النصح ، و « فَعُول » من أسماء الفاعلين التي تستعمل للمبالغة في الوصف . تقول : رجل صبور ، وشكور . ومن قرأ بالضم ، فمعناه : ينصحون فيها نصوحاً ، يقال : نصحت له نصحاً ، ونصاحة ، ونصوحاً . وقال غيره : من ضم أراد : توبة نُصْحٍ لأنفسكم . وقال

— ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع » وهو حديث حسن . ومعنى : فرقوا بينهم في المضاجع : أي : ذكوراً كانوا أو إناثاً ، وهو من باب سد الذرائع ، ومن محاسن هذه الشريعة الغراء .

قال ابن كثير : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

ويدخل هذا في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) والإنسان مسؤول يوم القيامة عن أهله ورعيته ، فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » .

عمر بن الخطاب : التوبة النصوح : أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدِّث نفسه أنَّه لايعود . وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح ، فقال : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لايعود . وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله تعالى : (يوم لايخزي الله النبي) قد بيَّنا معنى « الخزي » في (آل عمران : ١٩٢) وبيَّنا معنى قوله تعالى : (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) في (الحديد : ١٢) (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا) وذلك إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يُطفأ سألوا الله تعالى أن يتمم لهم [نورهم] ، ويبلِّغهم به الجنة . قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة . فأما المنافق فيُطفَأ نورُه ، والمؤمن مُشفِق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون : « ربنا أتمم لنا نورنا » .

﴿ يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلاَ ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ . وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَـا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ﴾

قوله تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين) قد شرحناه في (براءة : ٧٣) .

قوله تعالى : (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح) قال المفسرون منهم مقاتل : هذا المثل يتضمَّن تخويف عائشة وحفصة أنها إن عصيا ربَّهما لم يُغْنِ

رسول الله ﷺ عنها شيئاً . قال مقاتل : اسم امرأة نوح « والهة » وامرأة لوط « والغة » .

قوله تعالى : (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) يعني : نوحاً ولوطاً عليهما السلام (فخانتاهما) قال ابن عباس : مابغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتهما في الدّين ، كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف ، فإذا نزل بلوط ضيفٌ بالليل أوقدت النار ، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه قد نزل به ضيف . وقال السدي : كانت خيانتهما : كفرهما . وقال الضحاك : نميمتهما . وقال ابن السائب : نفاقهما .

قوله تعالى : (فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً) أي : فلم يدفعا عنهما من عذاب الله شيئاً . وهذه الآية تقطع طمع مَن ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره . ثم أخبر أن معصية الغير لاتضر المطيع بقوله تعالى : (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون) وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها . وقال يحيى بن سلام : ضربَ الله المثل الأول يحذّر به عائشة وحفصة رضي الله عنهما . ثم ضرب لهما هذا المثل يرغبهما في التمسك بالطاعة . وكانت آسية قد آمنت بموسى . قال أبو هريرة : ضرب فرعون لامرأته أوتاداً في يديها ورجليها ، وكانوا إذا تفرّقوا عنها أظلتها الملائكة ، فقالت : (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته قبل موتها[1] (ونجني من فرعون وعمله) فيه قولان .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٦/٢٤٥ : أخرج أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها ، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة عليهم السلام ، فقالت : (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) فكشف لها عن بيتها في الجنة .

أحدهما : أن عمله : جِماعُه .

والثاني : أنه دينه [١] رويا عن ابن عباس (ونجني من القوم الظالمين) يعني: أهل دين المشركين .

قوله تعالى : (والتي أحصنت فرجها) قد ذكرنا فيه قولين في سورة (الأنبياء : ٩٢) فمن قال : هو فرج ثوبها ، قال « الهاء » في قوله تعالى : (فنفخنا فيه) يرجع إليه ، وذلك أن جبريل مَدَّ جيب درعها ، فدخل فيه . ومن قال : هو مخرج الولد ، قال : « الهاء » كناية عن غير مذكور ، لأنه إنما نفخ في درعها لا في فرجها [٢] .

قوله تعالى : (وصدَّقت بكلمات ربها) وفيه قولان .

أحدهما : أنها قول جبريل (إنما أنا رسول ربكِ) [مريم : ١٩] .

والثاني : أن الكلمات هي التي تضمنَّتها كتب الله المنزلة . وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وأبو مجلز ، وعاصم الجحدري « بكلمةِ ربها » على التوحيد « وكُتُبه » قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « وكتابِهِ » على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وخارجة عن نافع « وكُتُبه »

(١) أي : شركه وكفره ، وهذا القول أولى ، والمعنى : نجني من نفس فرعون الخبيثة وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة غير الله والتعذيب بغير جرم وغير ذلك من قبائحه .

(٢) قال ابن كثير : (فنفخنا فيه من روحنا) أي : بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمره الله أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام .

جماعة ، وهي التي أنزلت على الأنبياء ، ومن قرأ « وكتابه » فهو اسم جنس على مابيَّنَّا في خاتمة (البقرة : ٢٨٥) وقد بيَّنَّا فيها القنوت مشروحاً [البقرة : ١١٦] .
ومعنى الآية : وكانت من القانتين ، ولذلك لم يقل : من القانتات [1] .



(١) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

سورة الملك

وهي مكية بإجماعهم

قال ابن مسعود : هي المانعة من عذاب القبر [1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ . ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ . وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٢٤٦/٦ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه ، وقد ورد هذا المعنى عن ابن عباس مرفوعاً ، وهو ضعيف .

قوله تعالى : (تبارك) قد شرحناه في (الأعراف : ٥٤) [1] .

قوله تعالى : (الذي بيده الملك) قال ابن عباس : يعني : السلطان يُعِزُّ ويُذِلُّ .

قوله تعالى : (الذي خلق الموت والحياة) قال الحسن : خلق الموت المزيل للحياة ، والحياة التي هي ضد الموت (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) قد شرحناه في (هود : ٧) قال الزجاج : والمعلَّق بـ (أيكم) مضمر تقديره : ليبلوكم ، فيعلم أيكم أحسن عملاً ، وهذا علم وقوع . وارتفعت « أي » بالابتداء ، ولا يعمل فيها ما قبلها ، لأنها على أصل الاستفهام ، ومثله « أيُّ الحزبين أحصى » [الكهف : ١٢] . والمعنى : خلق الحياة ليختبركم فيها ، وخلق الموت ليبعثكم ويجازيكم . وقال غيره : اللام في « ليبلوكم » متعلق بخلق الحياة دون خلق الموت ، لأن الابتلاء بالحياة ، (الذي خلق سبع سموات طباقاً) أي : خلقهنَّ مطابقات ، أي : بعضها فوق بعض (ما ترى) يا ابن آدم (في خلق الرحمن من تفاوت) قرأ حمزة والكسائي : « من تفوُّت » بتشديد الواو من غير ألف . وقرأ الباقون بألف . قال الفراء : وهما بمنزلة واحدة ، كما تقول : تعاهدت الشيء ، وتعهَّدته . والتفاوت : الاختلاف . وقال ابن قتيبة : التفاوت : الاضطراب والاختلاف ، وأصله من الفوت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً ، فيقع الخلل ، ولكنه متصل بعضه ببعض .

قوله تعالى : (فارجع البصر) أي : كرِّر البصر (هل ترى من فطور)

---

(١) روى أحمد في « المسند » وأصحاب « السنن » الأربعة بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له ، وهي (تبارك الذي بيده الملك) .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي « هل ترى » بإدغام اللام في التاء ، أي : هل ترى فيها فروجاً وصُدوعاً .

قوله تعالى : (ثم ارجع البصر كرَّتين) أي : مرَّةً بعد مرَّة (ينقلبْ إليك البصر خاسئاً) قال ابن قتيبة : أي : مبعداً من قولك : خسأتُ الكلب : إذا باعدتَه (وهو حسير) أي : كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه . وقال الزجاج : قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خَلَلاً .

قوله تعالى : (ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح) وقد شرحناه في (حم السجدة : ١٢) (وجعلناها رجوماً للشياطين) أي : يرجم بها مسترقو السمع . وقد سبق بيان هذا المعنى [الحجر : ١٨] (وأعتدنا لهم) أي : في الآخرة (عذاب السعير) وهذا وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى : (سمِعوا لها شهيقاً) أي : صوتاً مثل صوت الحمار . وقد بينا معنى الشهيق في (هود : ١٠٦) (وهي تفور) أي : تغلي بهم كغلي المِرْجَل (تكاد تميَّز) أي : تتقطَّع من تَغَيُّظها عليهم (كلما أُلقِي فيها فَوْجٌ) أي : جماعة منهم (سألهم خزَنَتُها ألم يأتكم نذير ؟ !) وهذا سؤال توبيخ .

قوله تعالى : (إن أنتم) أي : قلنا للرسل : (إن أنتم إلا في ضلال) أي : في ذهاب عن الحق بعيد . قال الزجاج : ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا : (لو كنا نسمع) أي : سماع من يعي ويفكِّر (أو نعقل) عقل من يُميِّز وينظر (ما كنا) من أهل النار (فسحقاً) أي : بُعْداً . وهو منصوب على المصدر ، المعنى : أسحقهم الله سحقاً ، أي : باعدهم الله من رحمته مباعدة ، والسحيق : البعيد . وكذلك روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس « فسحقاً » أي : بُعْداً . وقال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : السُّحق : وادٍ في جهنم يقال له : سُحق .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ . وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب) قد شرحناه في سورة (الأنبياء : ٤٩) (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) وهو : الجنة . ثم عاد إلى خطاب الكفَّار ، فقال تعالى : (وأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به) قال ابن عباس : نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ ، فيخبره جبرائيل بما قالوا ، فيقول بعضهم : أسروا قولكم حتى لا يسمع إله محمد .

قوله تعالى : (ألا يعلم من خلق ؟ !) أي : ألا يعلم ما في الصدور خالقها ؟ ! ، و « اللطيف » مشروح في (الأنعام : ١٠٣) و « الخبير » في (البقرة : ٢٣٤) .

قوله تعالى : (هو الذي جعل لكم الأرض ذَلُولاً) أي : مُذَلَّلةً سَهْلَةً لم يجعلها ممتنعة بالحُزُونَة والغِلَظ .

قوله تعالى : (فامشوا في مناكبها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : طرقاتها ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : جبالها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، واختاره الزجاج ، قال : لأن المعنى : سهل لكم السلوك فيها ، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ في التذليل .

والثالث : في جوانبها ، قاله مقاتل ، والفراء ، وأبو عبيدة ، واختاره ابن قتيبة [١] ، قال : ومنكبا الرجل : جانباه .

قوله تعالى : (وإليه النشور) أي : إليه تُبْعَثُون من قبوركم .

﴿ ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ . وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ ٱلرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾

ثم خوف الكفار فقال : (أأمنتم) قرأ ابن كثير : « وإليه النشور وأمنتم » وقرأ نافع ، وأبو عمرو : « النشور آمنتم » بهمزة ممدودة . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « أأمنتم » بهمزتين (مَنْ في السماء) قال ابن عباس : أمنتم عذاب مَنْ في السماء ، وهو الله عزّ وجل؟! و « تمور » بمعنى : تدور . قال مقاتل : والمعنى : تدور بكم إلى الأرض السفلى .

قوله تعالى : (أن يرسل عليكم حاصباً) وهي : الحجارة ، كما أرسل على قوم لوط (فستعلمون كيف نذيرِ) أي : كيف كانت عاقبة إنذاري لكم في الدنيا إذا نزل بكم العذاب (ولقد كذّب الذين من قبلهم) يعني : كفار الأمم (فكيف كان نكيرِ) أي : إنكاري عليهم بالعذاب .

(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات) أي : تصفُّ أجنحتها في الهواء ، وتقبض أجنحتها بعد البسط ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط (ما يُمسِكُهنّ) أن يقعن (إلا الرحمنُ) .

---

(١) وهو اختيار ابن جرير الطبري أيضاً .

﴿ أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ . أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ . أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ . قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (أمَّن هذا الذي هو جند لكم) هذا استفهام إنكار . ولفظ « الجُنْدِ » مُوحَّد ، فلذلك قال تعالى : « هذا الذي هو » والمعنى : لا جُنْدَ لكم (ينصركم) أي : يمنعكم من عذاب الله إن أراده بكم (إنِ الكافرون إلا في غرور) وذلك أن الشيطان يغرُّهم ، فيقول : إن العذاب لا ينزل بكم (أمَّن هذا الذي يرزقكم) المطر وغيرَه (إن أمسك) الله ذلك عنكم (بل لجُّوا في عُتُوٍّ) أي : تمادٍ في كفر (ونفور) عن الإيمان .

ثم ضرب مثلاً ، فقال تعالى : (أفمن يمشي مُكِباً على وجهه) قال ابن قتيبة : أي : لا يبصر يميناً ، ولا شمالاً ، ولا من بين يديه . يقال : أكبَّ فلانٌ على وجهه بالألف ، وكبَّه الله لوجهه ، وأراد : الأعمى . قال المفسرون : هذا مثل للمؤمن ، والكافر . و « السويُّ » : المعتدل ، أي : الذي يبصر الطريق . وقال قتادة : هذا في الآخرة يحشر الله الكافر مُكِباً على وجهه ، والمؤمن يمشي سوياً .

قوله تعالى : (قليلاً ما تشكرون) فيه قولان .

أحدهما : أنهم لا يشكرون ، قاله مقاتل . والثاني : يشكرون قليلاً ، قاله أبو عبيد .

قوله تعالى : (ذَرَأَكُمْ) أي : خلقكم (ويقولون متى هذا الوعد) يعنون بالوعد : العذابَ (فلما رأوه زُلْفَةً) أي : رأوا العذاب قريباً منهم (سِيئَتْ وجوه الذين كفروا) قال الزجاج : أي : تبين فيها السُّوء . وقال غيره : قُبِّحَتْ بالسواد (وقيل هذا الذي كنتم به تَدَّعُونَ) فيه قولان .

أحدهما : أنَّ « تدَّعون » بالتشديد ، بمعنى تدعون بالتخفيف ، وهو « تفتعلون » من الدعاء . يقال : دعوت ، وادَّعيت ، كما يقال : خَبَرْتُ وَاخْتَبَرْتُ ، ومثله : يَدَّكِرون ، ويَذْكُرون ، هذا قول الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أن المعنى : هذا الذي كنتم من أجله تَدَّعون الأباطيلَ والأكاذيبَ ، تَدَّعون أنكم إذا مُتُّم لا تُبْعَثُون ؟ ! وهذا اختيار الزجاج . وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : « تَدْعون » بتخفيف الدال ، وسكونها ، بمعنى تَفْعَلون من الدعاء . وقال قتادة : كانوا يَدعُون بالعذاب .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾

قوله تعالى : (قل أرأيتم إن أهلكنيَ اللهُ) بعذابه (ومن معيَ) من المؤمنين . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « معيَ » بفتح الياء . وقرأ أبو بكر عن عاصم ، والكسائي : « معي » بالإسكان (أو رَحِمَنَا) فلم يعذِّبْنَا (فَمَنْ يجير الكافرين) أي يمنعهم ويؤمِّنُهم (من

غذاب أليم) ومعنى الآية : إنا مع إيماننـــا ، بين الخوف والرَّجاء : فمن يجيرُكم مع كفركم من العذاب ؟! أي : لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين (قل هو الرحمن) الذي نعبُدُ (فستعلمون) وقرأ الكسائي : « فسيعلمون » بالياء عند معاينة العذاب مَن الضالُّ نَحْن أم أنتم .

قوله تعالى : (إن أصبح ماؤكم غَوْراً) قد بيَّنّاه في (الكهف : ٤١) (فمن يأتيكم بماء معينٍ ؟!) أي : بماء ظاهر تراه العيون ، وتناله الأرشية .



سورة القلم

وهي مكية كلها بإجماعهم

إلا ما حكي عن ابن عباس وقتادة أن فيها من المدني قوله تعالى : (إنا بلوناهم) إلى قوله تعالى : (لو كانوا يعلمون) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (نـ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وحفص : (نْ والقلم) النون في آخر الهجاء من نون ظاهرة عند الواو ، وهذا اختيار الفراء . وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان لا يُبين النون من (نون) . وبها قرأ الكسائي ، وخلف ، ويعقوب ، وهو اختيار الزجاج . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وقتادة ، والأعمش : « نونِ والقلم » بكسر النون . وقرأ الحسن ، وأبو عمران ، وأبو نهيك : « نُ والقلم » برفع النون .

وفي معنى نون سبعة أقوال .

أحدها : أنها الدواة . روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« أول ما خلق الله القلم ، ثم خلق النون ، وهي الدواة »[(١)] وهذا قول ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ، وبه قال الحسن وقتادة .

والثاني : أنه آخر حروف الرحمن ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه الحوت الذي على ظهر الأرض ، وهذا المعنى في رواية أبي ظبيان عن ابن عباس[(٢)] ، وهو مذهب مجاهد ، والسدي ، وابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : أنه لَوْح من نور ، قاله معاوية بن قُرَّة .

والخامس : أنه افتتاح اسمه « نصير » ، و « ناصر » ، قاله عطاء .

والسادس : أنه قَسَمٌ بِنُصْرَةِ الله للمؤمنين ، قاله القرظي .

والسابع : أنه نهر في الجنة ، قاله جعفر الصادق[(٣)] .

---

(١) رواه ابن عساكر ١/٢٤٧/١٧ عن الحسن بن يحيى الخشني عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه بأطول منه ، وتمامه : « ثم قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب مايكون ـ أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أجل ، فكتب ذلك إلى يوم القيامة ، فذلك قوله : (ن والقلم وما يسطرون) ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة ، ثم خلق العقل وقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت » . والحسن بن يحيى صدوق كثير الغلط كما قال الحافظ في « التقريب » ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ٣١٧/٥ من طرق عن الوليد بن عبادة عن أبيه عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وليس فيه ذكر النون في أوله ، ولا ذكر العقل في آخره ، ورواه الترمذي ١٦٢/٢ بنحو رواية أحمد وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواه أيضاً أبو داود في « سننه » رقم (٤٧٠٠) والطبري ١٧/٢٩ وهو حديث صحيح بهذا القدر .

(٢) رواه الطبري ١٤/٢٩ وأبو ظبيان قابوس ، فيه لين كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » .

(٣) والصواب أن (نون) من الحروف الهجائية التي ذكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته ، وقد تقدم ذلك .

وفي « القلم » قولان .

أحدهما : أنه الذي كتب به في اللوح المحفوظ .

والثاني : أنه الذي يكتب به الناس [1] . وإنما أقسم به ، لأن كتبه إنما تكتب و (يسطرون) بمعنى : يكتبون . وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة . وفيما أرادوا بما يكتبونه قولان . أحدهما : أنه الذّكر ، قاله مجاهد ، والسدي . والثاني : أعمال بني آدم ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أنهم جميع الكَتَبة ، حكاه الثعلبي (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أي : ما أنت بِإنْعامِ ربِّك عليك بالإيمان والنُّبوَّة بمجنون . قال الزجاج : هذا جواب قولهم : إنك لمجنون . وتأويله : فارقك الجنون بنعمة الله .

قوله تعالى : (وإنَّ لك) بصبرك على افترائهم عليك ، ونسبتهم إيّاك إلى الجنون (لأجراً غير ممنون) أي : غير مقطوع ولا منقوص ، (وإنك لعلى خلق عظيم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : دين الإسلام ، قاله ابن عباس .

والثاني : أدب القرآن ، قاله الحسن .

والثالث : الطبع الكريم . وحقيقة « الخُلُق » : ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب ، فسمي خُلُقاً ، لأنه يصير كالخِلْقة في صاحبه . فأما ما طبع عليه فيسمى : « الخِيم » فيكون الخِيم : الطبع الغريزي ، والخُلُق : الطبع المُتكلَّف . هذا قول الماوردي . وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ ،

---

(١) قال ابن كثير : والظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، كقوله تعالى : (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، ولهذا قال : (وما يسطرون) .

فقالت : كان خُلُقُه القرآن [١] . تعني : كان على ما أمره الله به في القرآن .

قوله تعالى : (فستبصر ويبصرون) يعني : أهل مكة . وهذا وعيد لهم بالعذاب . والمعنى : سترى ويرون إذا نزل بهم العذاب بِبَدْرٍ (بأيكم المفتون) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : الضالُّ ، قاله الحسن . والثاني : الشيطان ، قاله مجاهد . والثالث : المجنون ، قاله الضحاك . والمعنى : الذي قد فتن بالجنون . والرابع : المعذَّب ، حكاه الماوردي .

وفي الباء قولان .

أحدهما : أنها زائدة ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة . وأنشدوا :

[نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الفَلَجْ]
نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ [٢]

---

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في « مسنده » ٥١/٦ ، ٥٢ ، ورواه مسلم ٥١٢/١ بنحو حديث أحمد . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٤٩٩/٢ مختصراً ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٥٠/٦ مختصراً ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها . قال ابن كثير : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيّة له وخُلُقاً تطبعه وترك طبعه الجبليّ ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء ، والكرم ، والشجاعة ، والصفح ، والحلم ، وكل خلق جميل .

(٢) هو لراجز من بني جعدة ، كما في « مجاز القرآن » ٥/٢ ، و « الخزانة » ١٦٠/٤ ، و « الاقتضاب » ٤٥٨ ، وشواهد « المغني » ١١٤ ، والطبري ١٤/١٨ و ٢٠/٢٩ والقرطبي ٣٥/١٢ . والفلج بتحريك اللام : موضع لبني جعدة بن قيس بنجد ، وهو في أعلى بلاد قيس ، والبيت شاهد على زيادة الباء في قوله « بالفرج » ، أي : ونرجو الفرج ، وهي زائدة في المفعول به سماعاً ، ويروى البيت : نضرب بالبيض ونرجو بالفرج . وكلا الروايتين بمعنى واحد .

والثاني : أنها أصلية ، وهذا قول الفراء ، والزجاج . قال الزجاج : ليس كونها لغواً بجائز في العربية في قول أحد من أهلها .

وفي الكلام قولان للنحويين .

أحدهما : أن « المفتون » هاهنا : الفتون . والمصادر تجيء على المفعول . تقول العرب : ليس هذا معقود رأي ، أي : عقد رأي ، وتقول : دعه إلى ميسوره ، أي : يسره . والمعنى : بأيكم الجنون .

والثاني : بأيكم المفتون بالفرقة التي أنت فيها ، أم بفرقة الكفار ؟ فيكون المعنى : في أي الفرقتين المجنون . وقد ذكر الفراء نحو ما شرحه الزجاج . وقد قرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : « في أي المفتون » . ثم أخبر أنه عالم بالفريقين بما بعد هذا .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾

قوله تعالى : (فلا تطع المكذبين) وذلك أن رؤساء أهل مكة دَعَوْه إلى دين آبائه ، فنهاه الله أن يطيعهم (وَدُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون) فيه سبعة أقوال .

أحدها : لو ترخص فيرخصون ، قاله ابن عباس .

والثاني : لو تُصَانِعُهم في دينك فيَصانِعون في دينهم ، قاله الحسن .

والثالث : لو تكفر فيكفرون ، قاله عطية ، والضحاك ، ومقاتل .

والرابع : لو تَلِينُ فيلينون لك ، قاله ابن السائب .

والخامس ، لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون ، قاله زيد بن أسلم .

والسادس : ودُّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم . وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مُدَّةً ، ويعبدوا الله مدة ، قاله ابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : هو من المداهنة .

والسابع : لو تقاربهم فيقاربونك ، قاله ابن كيسان [1] .

قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاَّف) وهو كثير الحلف بالباطل (مَهِينٍ) وهو الحقير الدنيء . وروى العوفي عن ابن عباس قال : المَهين : الكذَّاب .

واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : الأخنس بن شريق ، قاله عطاء ، والسدي . والثالث : الأسود بن عبد يغوث ، قاله مجاهد [2] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : ودَّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) قال : وإنما هو مأخوذ من الدُّهن ، شبه التليين في القول بتليين الدُّهن .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » ٨/٥٠٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما (عتلٍّ بعد ذلك زنيم) قال : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : اختلف في الذي نزلت فيه ، فقيل : هو الوليد بن المغيرة . وذكره يحيى بن سلام في « تفسيره » ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، ذكره سنيد بن داود في « تفسيره » وقيل : الأخنس بن شريق ، وذكره السهيلي عن القتيبي . وحكى هذين القولين الطبري ، فقال : يقال : هو الأخنس ، وزعم قوم أنه الأسود ، وليس به ، وأبعد من قال : إنه عبد الرحمن ابن الأسود ، فإنه يصغر عن ذلك ، وقد أسلم ، وذكر في الصحابة .

قوله تعالى : (همَّاز) قال ابن عباس : هو المغتاب . وقال ابن قتيبة : هو العَيَّاب .

قوله تعالى : (مَشَّاء بنميم) أي : يمشي بين الناس بالنميمة ، وهو نقل الكلام السيء من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم [١] (مَنَّاعٍ للخير) فيه قولان .

أحدهما : أنه منع ولده وعشيرته الإسلام ، قاله ابن عباس .

والثاني : مَنَّاعٍ للحقوق في ماله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (معتدٍ) أي : ظلوم (أثيم) فاجر (عُتُلٍّ بعد ذلك) أي : مع ما وصفناه به [٢] . وفي « العُتُلّ » سبعة أقوال .

أحدها : أنه العاتي الشديد المنافق ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه المتوفِّر الجسم ، قاله الحسن . والثالث : الشديدُ الأشِرُ ، قاله مجاهد . والرابع : القويُّ في كفره ، قاله عكرمة . والخامس : الأكول الشروب القوي الشديد ، قاله عبيد بن عمير . والسادس : الشديد الخصومة بالباطل ، قاله الفراء . والسابع : أنه الغليظ الجافي ، قاله ابن قتيبة .

---

(١) وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذَّبان ، وما يعذَّبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمه » . وفي « الصحيحين » أيضاً من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتاتٌ » أي : نمام ، كما في رواية أخرى لمسلم .

(٢) في « الصحيحين » عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ، كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عُتلّ جوّاظ مستكبر » . والجوّاظ : الجموع المنوع .

وفي « الزنيم » أربعة أقوال .

أحدها : أنه الدَّعِيُّ في قريش وليس منهم ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وهذا معروف في اللغة أن الزنيم : هو الملتصق في القوم وليس منهم ، وبه قال الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال حسان :

وأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ في آل هَاشِمٍ
كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ[1]

والثاني : أنه الذي يعرف بالشَّرِّ ، كما تعرف الشاة بِزَنَمتها[2] ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : أنه الذي له زَنَمة مثل زنمة الشاة . وقال ابن عباس : نُعت فلم يعرف حتى قيل : زنيم ، فعرف ، وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها . ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه من ذكر عيوب الوليد ، لأنه وصفه بالحلف ، والمهانة ، والعيب للناس ، والمشي بالنميمة ، والبخل ، والظلم ، والإثم ، والجفاء ، والدّعوة ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة . والزَّنَمتان : المعلقتان عند حلوق المعزى . وقال ابن فارس : يعني التي تتعلق من أذنها .

والرابع : أنه الظلوم ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

قوله تعالى : (أن كان ذا مال وبنين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « أن كان » على الخبر ، أي : لأن كان . والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه . وقرأ ابن عباس بهمزتين ، الأولى : مخففة . والثانية : ملينة ، ونصل بينهما بألف أبو جعفر . وقرأ حمزة : « أأن كان » بهمزتين مخففتين على الاستفهام ، وله وجهان .

---

(١) ديوانه ١٦٠ و « مجاز القرآن » ٢٦٥/٢ ، والطبري ٢٥/٢٩ والقرطبي ٢٣٤/١٨ .

(٢) قال في « المصباح » : الزَّنَمة مثال قصبة : المتدلية من الحلق .

أحدهما : لأن كان ذا مال تطيعه ؟! .

والثاني : ألأن كان ذا مال وبنين ؟! (إذا تتلى عليه آياتنا) يكفر بها ؟ فيقول : (أساطير الأولين) ذكر القولين الفراء . وقرأ ابن مسعود : « أن كان » بهمزة واحدة مقصورة . ثم أوعده فقال تعالى : (سنسمه على الخرطوم) الخرطوم : الأنف . وفي هذه السِّمة ثلاثة أقوال .

أحدها : سنسمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة على أنفه ما عاش ، فقاتل يوم بدر فخطم بالسيف ، قاله ابن عباس .

والثاني : سنُلْحق به شيئاً لا يفارقه ، قاله قتادة ، واختاره ابن قتيبة .

والثالث : أن المعنى : سَنُسَوِّد وجهه . قال الفراء : و « الخرطوم » وإن كان قد خص بالسِّمة ، فإنه في مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدّي عن البعض . وقال الزجاج : سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم . وجائز — والله أعلم — أن يفرد بسمة لمبالغته في عداوته لرسول الله ﷺ يتبيَّن بها عن غيره .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (إنا بلوناهم) يعني : أهل مكة ، أي : ابتليناهم بالجوع ، والقحط (كما بَلَوْنا أصحاب الجنة) حين هلكت جنَّتهم .

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان ، وكان مؤمناً . وذلك بعد عيسى بن مريم عليهما السلام ، وكان يأخذ منه قدر قوته ، وكان يتصدّق بالباقي . وقيل : كان يترك للمساكين ما تعدَّاه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند الدّراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير ، فمات الرجل عن ثلاث بنين ، فقالوا : والله إن المال لقليل ، وإن العيال لكثير ، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذْ كان المال كثيراً ، والعيال قليلاً ، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا . فعزموا على حرمان المساكين ، وتحالفوا بينهم ليغدُنَّ قبل خروج الناس ، فليصرمُنَّ نخلهم ، فذلك قوله تعالى : (إذْ أقسموا) أي : حلفوا (ليصرمُنَّها) أي : ليقطعنّ نخلهم (مصبحين) أي : في أول الصباح . وقد بقيت من الليل ظُلمة لئلا يبقى للمساكين شيء [1] .

وفي قوله تعالى : (ولا يستثنون) قولان .

أحدهما : لا يقولون : إن شاء الله ، قاله الأكثرون .

---

(١) ذكر هذه القصة البغوي في « تفسيره » من رواية محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وذكرها الخازن عن ابن عباس بغير سند .

والثاني : لا يستثنون حق المساكين ، قاله عكرمة (فطاف عليها طائف من ربك) أي : من أمر ربك . قال الفراء : الطائف لا يكون إلا بالليل . قال المفسرون : بعث الله عليها ناراً بالليل ، فاحترقت ، فصارت سوداء ، فذلك قوله تعالى : (فأصبحت كالصريم) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كالرَّماد الأسود ، قاله ابن عباس .

والثاني : كالليل المسودّ ، قاله الفراء . وكذلك قال ابن قتيبة : أصبحت سوداء كالليل محترقة . والليل : هو الصريم ، والصبح أيضاً : صريم ، لأن كل واحد منها ينصرم عن صاحبه .

والثالث : أصبحت وقد ذهب ما فيها من الثمر ، فكأنه قد صرم ، أي : قطع ، وجُذّ حكاه ابن قتيبة أيضاً .

قوله تعالى : (فتنادَوْا مصبحين) أي : نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا (أن اغْدُوا على حرثكم) يعني : الثمار والزروع والأعناب (إن كنتم صارمين) أي : قاطعين للنخل ، (فانطلقوا) أي : ذهبوا إلى جنّتهم (وهم يتخافتون) قال ابن قتيبة : يتسارون بـ (أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدَوْا على حرد) فيه ثمانية أقوال .

أحدها : على قدرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : على فاقة ، قاله الحسن في رواية .

والثالث : على جد ، قاله الحسن في رواية ، وقتادة ، وأبو العالية ، والفراء ، ومقاتل .

والرابع : على أمر مجمع قد أسّسوه بينهم ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والخامس : أن الحرد : اسم الجنة ، قاله السدي .

والسادس : أنه الحنَق والغضب على المساكين ، قاله الشعبي ، وسفيان . وأنشد أبو عبيدة :

أُسُودُ شَرَىً لاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ تَسَاقَوْا على حَرْدٍ دِمَاءَ الأَسَاوِدِ[1]

والسابع : أنه المنع ، مأخوذ من حارَدَتِ السَّنَة فليس فيها مطر ، وحاردت الناقة فليس لها لبن ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثامن : أنه القصد . يقال : حَرَدْتُ حَرْدَكَ ، أي : قَصَدْتُ قَصْدَكَ ، حكاه الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . وأنشدوا :

قَدْ جَاءَ سَيْلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللهْ يَحْرُدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّهْ[2]

أي : يقصد قصدها . قال ابن قتيبة : وفيها لغتان : حَرَدٌ ، وحَرْدٌ ، كما يقال : الدَّرَك ، والدَّرْك .

---

(١) البيت للأشهب بن رُمَيْلة الذي كان يهاجي الفرزدق ، وهو في « مجاز القرآن » ٢٦٦/٢ ، و « الكامل » للمبرد ٤٣٨ ، و « الطبري » ٣٣/١٩ ، و « القرطبي » ١٧٧/٢ ، و « السمط » : ٣٥ ، و « معجم ما استعجم » ٧٨٥/٣ ، و « العيني » ٤٨٢/١ ، و « والخزانة » ٥٠٨/٢ و « شرى » و « خفية » مأسدتان معروفتان ، والحَرَد : الغَضَب ، من حَرِدَ يَحْرَدُ حَرَداً ، مثل غَضِبَ يَغْضَبُ غَضَباً . والأساود : جمع أسود ، وهو اسم للحية ، ولذلك جمع كما تجمع الأسماء على « أفاعل » ، مثل « أرانب » ، ولو كان صفة لجُمِع على : سود .

(٢) الرجز غير منسوب « مجاز القرآن » : ٢٦٦/٢ ، و « الكامل » : ٥٠ ، و « الطبري » : ٣٣/٢٩ ، و « القرطبي » ٣٤٢/١٨ و « شواهد الكشاف » ٢٥٤ ، وفي « معاني القرآن » للفراء : والحرد أيضاً : القصد كما يقول الرجل : قد أقبلت ، وقصدت قصدك ، وحردت حردك ، وأنشدني بعضهم : وجاء سيل كان . . . . وجاء في « الكامل » للمبرد بعد إنشاد البيت : قال أبو حاتم : هذه صنعة من لا أحسن الله ذكره يعني قطرباً . وأبو حاتم : هو سهل بن —

وفي قوله تعالى : (قادرين) ثلاثة أقوال .

أحدها : قادرين على جنَّتهم عند أنفسهم ، قاله قتادة .

والثاني : قادرين على المساكين ، قاله الشعبي .

والثالث : أن المعنى : منعوا وهم قادرون ، أي : واجدون ، قاله ابن قتيبة . قالوا : (فلما رَأَوْها) محترقة (قالوا إنا لضالون) أي : قد ضللنا طريق جنَّتنا ، فليست هذه . ثم علموا أنها عقوبة ، فقالوا : (بل نحن محرومون) أي: خُرِمْنَا ثَمَرَ جَنَّتِنَا بمنعنا المسكين (قال أوسطهم) أي : أعدلهم ، وأفضلهم (لولا) أي : هلاَّ (تسبِّحون) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : هلا تَسْتَثْنُون عند قولكم : « ليصرِمُنَّها مصبحين » قاله ابن جريج والجمهور . والمعنى : هلاَّ قلتم : إن شاء الله . قال الزجاج : وإنما قيل للاستثناء : تسبيح ، لأن التسبيح في اللغة : تنزيه الله عز وجل عن السوء . والاستثناء تعظيم لله ، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئة الله .

والثاني : أنه كان استثناؤهم قول : « سبحان الله » ، قاله أبو صالح .

والثالث : هلا تسبِّحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم ، حكاه الثعلبي . وقوله تعالى : (قالوا سبحان ربنا) فنزَّهوه أن يكون ظالماً فيما صنع ، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم فقالوا : (إنَّا كنَّا ظالمين) بمنعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أي : يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم . يقول هذا

ـــ محمد بن عثمان السجستاني من شيوخ أبي العباس ، وقوله : « هذه صنعة » يريد حذف الألف من لفظ الجلالة ، والأليق باسم الله أن ينطق به على أكمل وجه ، والمراد بـ « قطري » قطري بن الفجاءة الخارجي . قال المرصفي : في شرح « الكامل » : ١/١٨٠ : ومن الغريب من نقل عن ابن السيد شارح الكتاب أن هذا الرجز لقطوب بن المستنير تلميذ سيبويه .

لهذا : أَنْتَ أَشَرْتَ علينا ، ويقول الآخر : أنت فَعَلْتَ ، ثم نادَوْا على أنفسهم بالويل ، فقالوا : (يا ويلنا إنا كنا طاغين) حين لم نصنع ما صنع آباؤنا ، ثم رجعوا إلى الله تعالى فسألوه أن يبدّلهم خيراً منها ، فذلك قوله : (عسى رَبُّنا أن يبدّلنا خيراً منها) . وقرأ قوم : « يبدِلنا » بالتخفيف ، وهما لغتان . وفرّق قوم بينهما ، فقالوا : التبديل : تغيير حال الشيء وصفته والعين باقية . والإبدال : إزالة الشيء ووضع غيره مكانه . ونقل أن القوم أخلصوا ، فبدّلهم الله جنّةً العنقودُ منها وِقْرُ بَغْلٍ .

قوله تعالى : (كذلك العذاب) ما فعلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا . وهاهنا انتهت قصة أهل الجنة . ثم قال تعالى : (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) يعني : المشركين . ثم ذكر ما للمتقين عنده بما بعد هذا ، فقال المشركون : إنا لنُعْطى في الآخرة أفضل مما تُعْطَوْنَ ، فقال تعالى مكذّباً لهم (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ !) قال الزجاج : هذه ألف الاستفهام مجازها هاهنا مجاز التوبيخ ، والتقرير .

قوله تعالى : (كيف تحكمون) أي : كيف تقضون بالجَوْرِ (أم لكم كتاب) أُنْزِلَ من عند الله (فيه) هذا (تدرسون) أي : تقرؤون ما فيه (إن لكم) في ذلك الكتاب (لَمَا تَخَيَّرون) أي : ما تختارون وتشتهون . وقرأ أبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري ، وأبو عمران : « أن لكم » بفتح الهمزة . وهذا تقريع لهم ، وتوبيخ على ما يتمنَّوْن من الباطل « سَلْهم أيُّهم بذلك زعيم » (أم لكم أَيْمانٌ علينا بالغةٌ) أي : ألكم عهود على الله تعالى حلف لكم على ما تَدَّعُونَ بأَيْمانٍ بالغةٍ ، أي : مُؤكَّدةٍ . وكل شيء متناهٍ في الجودة والصحة فهو بالغ . ويجوز أن يكون المعنى : بالغة إلى يوم القيامة ، أي : تبلغ تلك الأيمان إلى يوم القيامة في لزومها وتوكيدها (إن لكم لَمَا تحكمون) لأنفسكم به من الخير والكرامة عند

الله تعالى . قال الفراء : والقرّاء على رفع « بالغةٌ » إلا الحسن فإنه نصبها على مذهب المصدر ، كقوله تعالى : (حقاً) [الروم : ٤٧] . ومعنى الآية : هل لكم أيمان علينا بالغة بأن لكم ما تحكمون ؟ ! . فلما كانت اللام في جواب « إن » كسرتَها .

قوله تعالى : (سلهم أيهم بذلك زعيم) فيه قولان .

أحدهما : أنه الكفيل ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والمعنى : أيُّهُمْ كفل بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين من الخير .

والثاني : أنه الرسول ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (أم لهم شركاء) يعني : الأصنام التي جعلوها شركاء لله تعالى ، والمعنى : ألهم أرباب يفعلون بهم هذا الذي زعموا . وقيل : يشهدون لهم بصدق ما ادَّعَوْا (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) في أنها شركاء الله . وإنما أضيف الشركاء إليهم لادّعائهم أنهم شركاء الله .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ . فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ . أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾

(يوم يُكْشَفُ) المعنى : فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق . قرأ الجمهور : « يُكْشَفُ » بضم الياء ، وفتح الشين . وقرأ ابن أبي عبلة ، وعاصم الجحدري ، وأبو الجوزاء ، بفتح الياء ، وبكسر الشين . وقرأ أبي بن كعب ، وابن عباس : « « تَكْشِف » بتاء مفتوحة ، وكسر الشين . وقرأ ابن مسعود ، وأبو مجلز ، وابن يعمر ، والضحاك : « نَكشف » بنون

مفتوحة مع كسر الشين . وهذا اليوم هو يوم القيامة . وقد روى عكرمة عن ابن عباس : « يوم يُكْشَفُ عن ساق » قال : يُكْشَفُ عن شِدَّةٍ[1] ، وأنشد :

وَقَامَتْ الحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقْ[2]

وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجدّ فيه ، شمّر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، واللغويين . وقد أضيف هذا الأمر إلى الله تعالى . فروي في « الصحيحين » من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه « يكشف عن ساقه »[3] ، وهذا إضافة إليه ، لأن الكل له وفعله . وقال أبو عمر الزاهد : يراد بها النفس ، ومنه قول علي رضي الله عنه : أقاتلهم ولو تلفت ساقي ، أي : نفسي . فعلى هذا يكون المعنى : يتجلّى لهم .

قوله تعالى : (وَيُدْعَوْنَ إلى السجود) يعني : المنافقين (فلا يستطيعون) كأن في ظهورهم سفافيد الحديد . قال النقاش : وليس ذلك بتكليف لهم أن

---

(١) قال النووي في « شرح مسلم » : فسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا بالشدة ، أي : يكشف عن شدة وأمر مهول .

(٢) هذا البيت من الرجز المشطور ، ذكره الطبري ٣٨/٢٩ من رواية ابن حميد عن مهران عن سفيان عن المغيرة عن ابراهيم عن ابن عباس ، ونص رواية عكرمة عن ابن عباس « يوم يكشف عن ساق) قال : هو يوم حرب وشدة ، ولم يذكر الرجز فيها .

(٣) هو جزء من حديث طويل مشهور في البخاري ٣٥٩/١٣ ومسلم ١٦٨/١ ورواه البخاري مختصراً ٥٠٨/٨ ونصه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » .

يسجدوا ، وهم عجزة ، ولكنه توبيخ لهم بتركهم السجود (خاشعةً أبصارهم) أي : خاضعةً (ترهقهم ذِلَّة) أي : تغشاهم (وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود) يعني : بالأذان في دار الدنيا ، ويُؤْمَرون بالصلاة المكتوبة (وهم سالمون) أي : معافَوْن ليس في أصلابهم مثل سفافيد الحديد . وفي هذا وعيد لمن ترك صلاة الجماعة . وكان كعب يقول : والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلَّفون عن الجماعات (فَذَرْني ومن يكذِّب بهذا الحديث) يعني : القرآن . والمعنى : خَلِّ بيني وبينه . قال الزجاج : أي : لا تشغل قلبك به ، كِلْه إليَّ فأنا أكفيك أمره . وذكر بعض المفسرين أن هذا القدر من الآية إلى قوله : « الحديث » منسوخ بآية السيف . وما بعد هذا مفسر في (الأعراف : ١٨٢ . ١٨٣) إلى قوله تعالى : (أم تسألهم أجراً) فإنها مفسرة والتي قبلها في (الطور : ٣٩ ، ٤٠) .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك) أي : اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آتٍ . وقيل : معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (ولا تكن كصاحب الحوت) وهو يونس . وفيماذا نُهِيَ أن يكون مثله قولان .

أحدهما : أنه العجلة ، والغضب ، قاله قتادة .

والثاني : الضعف عن تبليغ الرسالة ، قاله ابن جرير .

قال ابن الأنباري : وهذا لا يُخرجُ يونس من أولي العزم ، لأنها خطيئة .

ولو قلنا : إن كل مخطىء من الأنبياء ليس من أولي العزم ، خرجوا كلهم إلا يحيى . ثم أخبر عن عقوبته إذْ لم يصبر ، فقال تعالى : (إذ نادى وهو مكظوم) قال الزجاج : مملوء غماً وكرباً .

قوله تعالى : (لولا أن تداركه) وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : « لولا أن تَداركتْه » بتاء خفيفة ، وبتاء ساكنة بعد الكاف مع تخفيف الدال . وقرأ أبو هريرة ، وأبو المتوكل : « تَدّاركه » بتاء واحدة خفيفة مع تشديد الدال . وقرأ أُبَيّ بن كعب : « تتداركه » بتاءين خفيفتين (نعمةٌ من ربه) فرحمه بها ، وتاب عليه من معاصيه (لَنُبِذَ بالعَرَاءِ وهو مذموم) وقد بينا معنى « العَراء » في (الصافات : ١٤٥) . ومعنى الآية : أنه نبِذَ غيرَ مذموم لنعمة الله عليه بالتوبة والرحمة . وقال ابن جريج : نُبِذَ بالعراء ، وهي : أرض المحشر ، فالمعنى : أنه كانَ يبقى مكانه إلى يوم القيامة (فاجتباه ربه) أي : استخلصه واصطفاه ، وخلّصه من الذم (فجعله من الصالحين) فردّ عليه الوحي ، وشفّعه في قومه ونفسه (وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم) قرأ الأكثرون بضم الياء من أزلقته ، وقرأ أهل المدينة ، وأبان بفتحها من زَلَقْتُه أزْلِقُهُ ، وهما لغتان مشهورتان في العرب . قال الزجاج : يقال : زلق الرَّجُلُ رأسَه وأزلقه : إذا حلقه . وفي معنى الآية للمفسرين قولان .

أحدهما : أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين ، وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمرُّ به النَّعم ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها عدة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ، فعصم الله نبيَّه ، وأنزل هذه الآية ، هذا قول الكلبي ، وتابعه قوم من المفسرين

تلقّفوا ذلك من تفسيره ، منهم الفراء [١] .

والثاني : أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يكاد يُزْلِقُه من شدته ، أي : يلقيه إلى الأرض . وهذا مستعمل في كلام العرب . يقول القائل : نظر إليّ فلان نظراً كاد يصرعني . وأنشدوا :

يَتَقَارضُون إذا التَقَوْا في مَوْطِنٍ   نَظَراً يُزِيلُ مَواطِنَ الأقْدَامِ [٢]

أي : ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزيل الأقدام ، وإلى هذا ذهب المحققون ، منهم ابن قتيبة ، والزجاج . ويدل على صحته أن الله تعالى قرن هذا النظر بسماع القرآن ، وهو قوله تعالى : (لما سمعوا الذِّكْرَ) والقوم كانوا يكرهون ذلك أَشَدَّ الكراهة ، فيُحِدُّون النظر إليه بالبغضاء . وإصابةُ العين ، إنما تكون مع الإعجاب والاستحسان ، لا مع البغض ، فلا يُظن بالكلي أنه فهم معنى الآية . (وما هو) يعني : القرآن (إلا ذكر) أي : موعظة .

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة . وقد روى مسلم في « صحيحه » ١٧١٩/٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين ، وإذا استُغْسلتم فاغسلوا » .

وروى البخاري وأصحاب « السنن » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين يقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة » .

(٢) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » : ٤٨٢ ، و « مشكل القرآن » : ١٣٠ ، و « البيان والتبيين » : ١١/١ ، و « الصناعتين » : ٢٨١ ، و « اللسان » : قرض ، و « تفسير القرطبي » : ٢٥٦/٨ ، و « البحر المحيط » : ٣١٧/٨ ، و « الكشاف » ١٣٢/٤ : ١٤٥ .

سورة الحاقة

وهي مكية كلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اَلْحَاقَّةُ . مَا اَلْحَاقَّةُ . وَمَا أَدْرٰكَ مَا اَلْحَاقَّةُ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى اَلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾

(الحاقة) : القيامة . قال الفراء : إنما قيل لها : حاقة ، لأن فيها حواق الأمور . وقال الزجاج : إنما سميت الحاقة ، لأنها تحق كل إنسان بعمله من خير وشر .

قوله تعالى : (ما الحاقة ؟) هذا استفهام ، معناه التفخيم لشأنها ، كما تقول : زيد ، وما زيد ؟ على التعظيم لشأنه . ثم زاد في التهويل بأمرها ، فقال تعالى : (وما أدراك ما الحاقة) أي : لأنك لم تعاينها ، ولم تدر ما فيها من الأهوال . ثم أخبر عن المكذّبين بها ، فقال تعالى : (كَذَّبَتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة) قال ابن عباس : القارعة : اسم من أسماء يوم القيامة . قال مقاتل : وإنما سميت

بالقارعة ، لأن الله تعالى يقرع أعداءه بالعذاب . وقال ابن قتيبة : القارعة : القيامة لأنها تقرع ، يقال : أصابتهم قوارع الدهر . وقال الزجاج : لأنها تقرع بالأهوال . وقال غيرهم : لأنها تقرع القلوب بالفزع . فأما (الطاغية) ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها طغيانهم وكفرهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال الزجاج : ومعنى الطاغية عند أهل اللغة : طغيانهم . و « فاعلة » قد يأتي بمعنى المصادر ، نحو عاقبة ، وعافية .

والثاني : بالصيحة الطاغية ، قاله قتادة . وذلك أنها جاوزت مقدار الصياح ، فأهلكتهم .

والثالث : أن الطاغية : عاقر الناقة ، قاله ابن زيد . والريح الصرصر قد فسرناها في (حم السجدة : ١٦) . والعاتية : التي جاوزت المقدار . وجاء في التفسير أنها عَتَتْ على خُزّانها يومئذ ، فلم يكن لهم عليها سبيل .

قوله تعالى : (سخّرها عليهم) أرسلها وسلّطها . والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار . وفي قوله تعالى : (حسوماً) ثلاثة أقوال .

أحدها : تباعاً ، قاله ابن عباس . قال الفراء : الحسوم : التِّباع ، يقال في الشيء إذا تتابع ، فلم ينقطع أوله عن آخره : حسوم . وإنما أُخِذَ — والله أعلم — من حَسْمِ الدّاءِ : إذا كُوي صاحبُه ، لأنه يحمى ثم يكوى ، ثم يتابع الكي عليه .

والثاني : كاملة ، قاله الضحاك . فيكون المعنى : أنها حسمت الليالي والأيام فاستوفتها على الكمال ، لأنها ظهرت مع طلوع الشمس ، وذهبت مع غروبها . قال مقاتل : هاجت الريح غُدْوَةً ، وسكنت بالعَشِيّ في اليوم الثامن ،

وقبضت أرواحهم في ذلك اليوم ، ثم بعث الله طيراً أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر .

والثالث : أنها حسمتهم ، فلم تبق منهم أحداً ، أي : أذهبتهم وأفنتهم ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : (فترى القوم فيها) أي : في تلك الليالي والأيام (صرعى) وهو جمع صريع ، لأنهم صرعوا بموتهم (كأنهم أعجاز نخل) أي : أصول نخل (خاوية) أي : بالية . وقد بيَّنَّا هذا في سورة (القمر : ٢٠) .

قوله تعالى : (فهل ترى لهم من باقية) فيه ثلاثة أقوال ٠

أحدها : من بقاءٍ ، قاله الفراء ٠

والثاني : من بقية ، قاله أبو عبيدة . قال : وهو مصدر كالطاغية ٠

والثالث : هل ترى لهم من أثر ؟ قاله ابن قتيبة (وجاء فرعون ومَن قبله) قرأ أبو عمرو ، ويعقوب ، والكسائي ، وأبان : بكسر القاف ، وفتح الباء . والباقون : بفتح القاف ، وإسكان الباء . فمن كسر القاف أراد : من يليه ويَحفّ به من جنوده وأتباعه . ومن فتحها أراد : من كان قبله من الأمم الكافرة ٠ وفي « المؤتفكات » ثلاثة أقوال ٠

أحدها : قرى قوم لوط ٠ والمعنى : وأهل المؤتفكات ، قاله الأكثرون ٠

والثاني : أنهم الذين ائتفكوا بذنوبهم ، أي : هلكوا بالذنوب التي معظمها الإفك ، وهو الكذب ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه قارون وقومه ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (بالخاطئة) قال ابن قتيبة : أي : بالذنوب ، وقال الزجاج :

الخاطئة : الخطأ العظيم (فعصَوْا رسول ربهم) أي : كذّبوا رسلهم (فأخذهم أخذةً رابيةً) أي : زائدة على الأحداث (إنا لما طغى الماء) أي : تجاوز حدّه حتى علا على كل شيء في زمن نوح (حملناكم) يعني : حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم (في الجارية) وهي : السفينة التي تجري في الماء (لنجعلها) أي : لنجعل تلك الفَعْلةَ التي فعلنا من إغراق قوم نوح ، ونجاة من حملنا معه (تذكرةً) أي : عبرةً ، وموعظةً (وتعيها أذن واعية) أي : أُذنٌ تحفظُ ما سمعتْ ، وتعمل به . وقال الفراء : لتحفظها كل أُذُن ، فتكون عظة لمن يأتي بعده .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَاتَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَؤُا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ . يَالَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ . مَاأَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ . وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَايَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾

قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ) وفيها قولان .

أحدهما : أنها النفخة الأولى ، قاله عطاء .

والثاني : الأخيرة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . (وحُمِلَت الأرضُ

والجبالُ) أي : حملت الأرض والجبـال وما فيها (فَدُكَّتا دكةً واحدةً) أي : كسرتا ، ودقَّتا دقةً واحدة ، لايثنى عليها حتى تستوي بما عليها من شيء ، فتصير كالأديم الممدود . وقد أشرنا إلى هـذا المعنى في (الأعـراف) عند قوله تعالى : (جعله دكاً) [آية : ١٤٣] . قال الفراء : وإنما قال : فدكتا ، ولم يَقُل : فَدُكِكْنَ ، لأنه جعل الجبال كالشيء الواحد ، كقوله تعالى : (أن السموات والأرض كانتا رتقاً) [الأنبياء : ٣٠] ، وأنشدوا :

هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمَانِ وَإِنَّمَا يَسُودَانِنَا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَمَاهُمَا[1]

والعرب تقول : قد يسرت الغنم : إذا ولدت ، أو تهيأت للولادة .

قوله تعالى : (فيومئذ وقعت الواقعة) أي : قـامت القيـامة (وانشقت السماء) لنزول من فيها من الملائكة (فهي يومئذ واهية) فيه قولان .

أحدهما : أن وَهْيَها : ضَعْفُها وتمزُّقُها من الخوف ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه تشققهـا ، قاله الفراء (والملك) يعني : الملائكة ، فهو اسم جنس (على أرجائهـا) أي : على جوانبها . قال الزجاج : ورجـاء كل شيء : ناحيته ، مقصور . والتثنية : رجوان ، والجمع : أرجاء . وأكثر المفسرين على أن

(١) البيت في تفسير ابن جرير الطبري ٢٩/٥٦ ، ونسبه في « اللسان » يسر ، و « العيني في شرح شواهد الألفية » إلى أبي أسيدة الدُّبَيْري ، وأنشد في « اللسان » قبله بيتاً آخر هو :

إن لنا شَيْخَيْنِ لا يَنْفَعَانِنَا غَنِيَّيْنِ لا يُجْدِي علينا غِنَاهُمَا

أي : ليس فيهما من السيـادة إلا كونهما قد يسرت غنماهما ، أي : كثرت ألبانها ونسلها ، والسؤدد يوجب البذل والعطاء والحراسة والحماية وحسن التدبير والحلم ، وليس عندهما من ذلك شيء ، واستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الشاعر قال : غنماهما بلفظ التثنية للغنم ، مع أن الغنم اسم للجمع ، وليس بمفرد ، ولكنه عـامله معاملة المفرد ، كما اعتبرت الجبـال في قوله تعالى : (وحملت الأرض والجبـال فدكتا دكة واحدة) في حكم المفرد كالأرض ، ولذلك قال : فدكتا ، ولم يقل : فدككن .

المشار إليها السماء . قال الضحاك : إذا انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الله تعالى ، فينزلون إلى الأرض ، فيحيطون بها ، ومن عليها . وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : على أرجاء الدنيا .

قوله تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فوق رؤوسهم ، أي : العرش على رؤوس الحَمَلَة ، قاله مقاتل .

والثاني : فوق الذين على أرجائها ، أي : أن حملة العرش فوق الملائكة الذين هم على أرجائها .

والثالث : أنهم فوق أهل القيامة ، حكاهما الماوردي (يومئذ) أي : يوم القيامة (ثمانية) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ثمانية أملاك . وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين ، هذا قول الجمهور [١] .

والثاني : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وعكرمة .

---

(١) رواه الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ ، وهو خبر مقطوع . ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن اسحاق قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « هم اليوم أربعة » يعني حملة العرش « فإذا كانوا يوم القيامة أمدّهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية » وقد قال الله : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وهذا خبر مقطوع أيضاً .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، قال : ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش ، العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب اهـ .

والثالث : ثمانية أجزاء من الكروبيين لا يعلم عددهم إلا الله ، قاله مقاتل . وقد روى أبو داود في « سننه » من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : « أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ، أن ما بين شحمة أذُنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام »[1] .

قوله تعالى : (يومئذ تُعْرَضُون) على الله لحسابكم (لا تخفى) عليه . قرأ حمزة ، والكسائي : « لا يخفى » بالياء . وقرأ الباقون بالتاء . والمعنى : لا يخفى عليه (منكم خافية) أي : نفس خافية ، أو فَعْلَة خافية . وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ، ومعاذير ، وأما الثالثة ، فعندها تتطاير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله »[2] ، وكان عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ، يومئذ لا تخفى منكم خافية . (فيقول : هاؤم) قال الزجاج : « هاؤم » أمر من الجماعة . بمنزلة هاكم . تقول للواحد : ها يا رجل ، وللاثنين : هاؤما يا رجلان . وللثلاثة : هاؤم يا رجال .

---

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٧٢٧) وسنده جيد ، وذكره ابن كثير في « تفسيره » من رواية ابن أبي حاتم وقال : وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات .

(٢) رواه أحمد في « المسند » وابن ماجة : ١٤٣٠/٢ من رواية وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن عن أبي موسى . قال البوصيري في « الزوائد » : رجال الإسناد ثقات ، إلا أنه منقطع ، والحسن لم يسمع من أبي موسى ، قاله علي بن المديني ، وأبو حاتم ، وأبو زرعة ، وقد رواه الترمذي عن الحسن عن أبي هريرة وقال : لا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ورواه الطبري ٥٩/٢٩ من رواية مجاهد بن موسى عن زيد ، عن سليمان بن حامد عن مروان الأصغر عن أبي وائل عن عبد الله نحوه ، وقال ابن كثير : ورواه سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة مرسلًا مثله .

قال المفسرون : إنما يقول هذا ثقة بسلامته وسروراً بنجاته . وذكر مقاتل أنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد .

قوله تعالى : (إني ظننت) أي : علمت وأيقنت في الدنيا (أني ملاقٍ حسابِيَهْ) أي : أبعث ، وأحاسب في الآخرة (فهو في عيشة) أي : حالة من العيش (راضية) قال الفراء : أي : فيها الرضى . وقال الزجاج : أي : ذات رضىً يرضاها من يعيش فيها . وقال أبو عبيدة : مجازها مجاز مرضية (في جنَّةٍ عاليةٍ) أي : عالية المنازل (قطوفها) أي : ثمارها (دانيةٌ) أي : قريبة ممن يتناولها ، وهي جمع قطف . والقطف : ما يقطف من الثمار . قال البراء بن عازب : يتناول الثمرة وهو نائم .

قوله تعالى : (كلوا) أي : يقال لهم : كلوا (واشربوا هنيئاً بما أسلفتم) أي : قَدَّمتم من الأعمال الصالحة (في الأيام الخالية) الماضية ، وهي أيام الدنيا . (وأما من أوتي كتابه بشماله) قال مقاتل : نزلت في الأسود بن عبد الأسود ، قتله حمزة ببدر ، وهو أخو أبي سلمة . وقيل : نزلت في أبي جهل .

قوله تعالى : (يا ليتني لم أوت كتابيه) وذلك لما يرى فيه من القبائح (ولم أدر ما حسابيه) لأنه لا حاصل له في ذلك الحساب ، إنما كلُّه عليه . وكان ابن مسعود ، وقتادة ، ويعقوب ، يحذفون الهاء من « كتابيه » ، و « حسابيه » في الوصل . قال الزجاج : والوجه أن يوقف على هذه الهاآت ، ولا توصل ، لأنها أدخلت للوقف . وقد حذفها قوم في الوصل ، ولا أُحِبُّ مخالفة المصحف ، وكذلك قوله تعالى : (وما أدراك ما هيه) [القارعة : ١٠] .

قوله تعالى : (يا ليتها) يعني : الموتة التي ماتها في الدنيا (كانت القاضية)

أي : القاطعة للحياة ، فكأنه تمنّى دوام الموت ، وأنه لم يُبْعَثْ للحساب (هلك عني سلطانيه) فيه قولان .

أحدهما : ضلّت عني حجتي ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي .

والثاني : زال عني ملكي ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (خذوه) أي : يقول الله تعالى : (خذوه فغلّوه) أي : اجمعوا يده إلى عنقه (ثم الجحيم صَلّوه) أي : أدخلوه النار . وقال الزجاج : اجعلوه يَصْلَى النَّارَ (ثم في سِلْسِلَةٍ) وهي : حَلَقٌ منتظمة (ذَرْعُها سبعون ذراعاً) قال ابن عباس : بذراع المَلَك . وقال نوفٌ الشامي [1] : كل ذراع سبعون باعاً ، الباع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان في رحبة الكوفة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . وقال مقاتل : ذرعها سبعون ذراعاً بالذراع الأول . ويقال : إن جميع أهل النار في تلك السلسلة .

قوله تعالى : (فاسلكوه) أي : أدخلوه . قال الفراء : وذكر أنها تدخل في دبر الكافر فتخرج من رأسه ، فذلك سلكه فيها . والمعنى : ثم اسلكوا فيه السلسلة ، ولكن العرب تقول : أدخلت رأسي في القلنسوة ، وأدخلتها في رأسي . ويقال : الخاتم لا يدخل في يدي ، وإنما اليد تدخل في الخاتم ، وإنما استجازوا ذلك ، لأن معناه معروف .

قوله تعالى : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم) أي : لا يصدّق بوحدانيته وعظمته (ولا يَحُضُّ على طعام المسكين) أي : لا يطعمه ، ولا يأمر بإطعامه

---

(١) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي ، إمام أهل دمشق في عصره ، من رجال الحديث ، ورد ذكره في « الصحيحين » ، وكان راوياً للقصص ، وهو ابن زوجة كعب الأحبار توفي نحو (٩٥ هـ) رحمه الله .

(فليس له اليوم هاهنا حميم) أي : قريب ينفعه ، أي : يشفع له (ولا طعام إلا من غسلين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه صديد أهل النار ، قاله ابن عباس . قال مقاتل : إذا سال القيح ، والدم ، بادروا أكله قبل أن تأكله النار .

والثاني : شجر يأكله أهل النار ، قاله الضحاك ، والربيع .

والثالث : أنه غُسَالَةُ أجوافهم ، قاله يحيى بن سلام . قال ابن قتيبة : وهو « فِعْلين » من « غسلت » كأنه غسالة[1] .

قوله تعالى : (إلا الخاطئون) يعني : الكافرين .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَالَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلا أقسم) « لا » ردٌّ لكلام المشركين ، كأنه قيل : ليس الأمر كما يقول المشركون (أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون) وقال قوم : « لا » زائدة مؤكدة . والمعنى : أقسم بما ترون ، وما لا ترون ، فأراد جميع الموجودات . وقيل : الأجسام والأرواح (إنه) يعني : القرآن (لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ) فيه قولان .

أحدهما : محمد ﷺ ، قاله الأكثرون .

والثاني : جبريل ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . قال ابن قتيبة : لم يرد أنه قول الرسول ، وإنما أراد أنه قول الرسول عن الله تعالى ، وفي الرسول مايدل على ذلك ، فاكتفى به من أن يقول عن الله (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون)

---

(١) في الأصل : الغسالة .

وقرأ ابن كثير : «يؤمنون» و «يذَكَّرون» بالياء فيهما . قال الزجاج : «ما» مؤكدة ، وهي لغو في باب الإعراب . والمعنى : قليلاً تؤمنون . وقال غيره : أراد نفي إيمانهم أصلاً . وقد بيَّنَّا معنى «الكاهن» في (الطور : ٢٩) قال الزجاج : وقوله تعالى : «تنزيل» مرفوع بـ «هو» مضمرة يدل عليها قوله تعالى : «وما هو بقول شاعر» هو تنزيل .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (ولو تَقَوَّلَ علينا) أي : لو تكلَّف محمد أن يقول علينا ما لم نقله (لأخذنا منه باليمين) أي : لأخذناه بالقوة والقدرة ، قاله الفراء ، والمبرد ، والزجاج . قال ابن قتيبة : إنما أقام اليمين مقام القوة ، لأن قوة كل شيء في ميامنه .

قوله تعالى : (ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، فإذا انقطع بطلت القوى ، ومات صاحبه . قال أبو عبيدة : الوتين : نياط القلب ، وأنشد الشَّمَّاخ :

إذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الوَتِينِ [1]

وقال الزجاج : الوتين : عرق أبيض غليظ كأنه قصبة .

---

(١) البيت للشماخ بن ضرار التغلبي ، ديوانه طبع القاهرة ٩٢ والطبري ٢٩/٩٧ والقرطبي ١٨/٢٧٦ من قصيدة يمدح بها عرابة بن أوس بن قيظي ، وكان هو وأبوه من الصحابة ، وكان عرابة مشهوراً بالكرم .

قوله تعالى : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) أي : ليس منكم أحد يحجزنا عنه ، وإنما قال تعالى : (حاجزين) لأن أحداً يقع على الجمع ، كقوله تعالى : (لا نُفَرِّق بين أحد من رسله) [البقرة : ٢٨٥] ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، والزجاج . ومعنى الكلام : أنه لا يتكلَّف الكذب لأجلكم مع علمه أنه لو تكلَّف ذلك لعاقبناه ، ثم لم يقدر على دفع عقوبتنا عنه (وإنه) يعني : القرآن (لحسرة على الكافرين) في يوم القيامة . يندمون إذ لم يؤمنوا به (وإنه لحق اليقين) إضافة إلى نفسه لاختلاف اللفظين ، كقوله تعالى : (ولدار الآخرة) [يوسف : ١٠٩] . وقال الزجاج : المعنى : وإنه لليقين حق اليقين ، وقد شرحنا هذا المعنى ، وما بعده في (الواقعة : ٩٥ ، ٩٦) .

سورة المعارج

سورة سأل سائل ، ويقال لها : سورة المعارج ، ويقال لها : سورة الواقع

وهي مكية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . وَنَرَاهُ قَرِيباً . يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ . وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ . كَلَّا إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةً لِلشَّوَى . تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾

قوله تعالى : (سَأَلَ سَائِلٌ) قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث حين قال : (اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) [الأنفال : ٣٢] (١) ، وهذا مذهب الجمهور ، منهم ابن عباس ، ومجاهد . وقال الربيع بن أنس : هو أبو جهل . قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر :

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٥٠٢ عن سعيد بن جبير وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : على شرط البخاري فقط ، وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٦٣ وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

« سال » بغير همز . والباقون : بالهمز [1] . فمن قرأ : « سأل » بالهمز ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : دَعَا دَاعٍ على نفسه بعذابٍ واقعٍ .

والثاني : سأل سائل عن عذابٍ واقعٍ لمن هو ؟ وعلى من يَنْزِل ؟ ومتى يكون ؟ وذلك على سبيل الاستهزاء ، فتكون الباء بمعنى « عن » ، وأنشدوا :

فَإِنْ تَسْأَلُوني بالنِّساءِ فَإِنَّنِي   خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّساءِ طَبِيبُ [2]

والثالث : سأل سائل عذاباً واقعاً ، والباء زائدة .

ومن قرأ بلا همز ففيه قولان .

أحدهما : أنه من السؤال أيضاً ، وإنما لَيَّن الهمزة ، يقال : سأل ، وسال ، وأنشد الفراء :

تَعَالَوْا فَسَالُوا يَعْلَمِ النَّاسُ أَيُّنَا   لِصَاحِبِهِ في أَوَّلِ الدَّهْرِ تَابِع

والثاني : المعنى : سال وادٍ في جهنم بالعذاب للكافرين ، وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن . وكان ابن عباس في آخرين يقرؤون « سَالَ سَيْلٌ » بفتح السين ، وسكون الياء من غير ألف ولا همز .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأه بالهمز ، لإجماع الحجة من القراء على ذلك ، وأن عامة أهل التأويل من السلف بمعنى الهمزة تأوّلوه .

(٢) البيت لعلقمة بن عَبَدَة ، وهو في « ديوانه » ١١ و « المفضليات » : ٣٩٣ و « أدب الكاتب » ٥٠٥ ، والقرطبي ٢٨/٢٧٩ والشاهد فيه أن الباء في قوله « بالنساء » بمعنى « عن » : والمعنى : فإن تسألوني عن النساء . والأدواء : جمع داء .

وإذا قلنا : إنه من السؤال ، فقوله تعالى : « للكافرين » جواب للسؤال ، كأنه لما سأل : لمن هذا العذاب ؟ قيل : للكافرين . والواقع : الكائن . والمعنى : أن العذاب للذي سأله هذا الكافر كائن لا محالة في الآخرة (للكافرين ليس له دافع من الله) قال الزجاج : المعنى : ذلك العذاب واقع من الله للكافرين .

قوله تعالى : (ذي المعارج) فيه قولان .

أحدهما : أنها السموات ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : هي معارج الملائكة . قال ابن قتيبة : وأصل « المعارج » الدَّرَج ، وهي من عَرَجَ : إذا صَعِدَ . قال الفراء : لما كانت الملائكة تَعْرُجُ إليه ، وصف نفسه بذلك . قال الخطابي : المعارج : الدَّرَج ، واحدها : مَعْرَجٌ ، وهو المَصْعَدُ ، فهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد ، وبأرواح المؤمنين . فالمعارج : الطرائق التي يُصْعَدُ فيها .

والثاني : أن المَعَارِجَ : الفَوَاضِلُ والنِّعم ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (تَعْرُجُ الملائكة) قرأ الكسائي : « يَعْرُجُ » بالياء .

(والروحُ) في « الروح » قولان .

أحدهما : جبريل ، قاله الأكثرون .

والثاني : رُوح الميِّت حين تُقْبَضُ ، قاله قبيصة بن ذُؤَيْب .

قوله تعالى : (إليه) أي : إلى الله عز وجل (في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ) فيه قولان .

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والقرظي ، وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق . وفي

الحديث : « إنه لَيُخفَّفُ على المؤمِن حتى يكون أخَفَّ عليه من صلاة مكتوبة »[١] . وقيل : بل لو ولي حساب الخلق سوى الله عز وجل لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة ، والحقُّ يفرغ منه في ساعة من نهار . وقال عطاء : يفرغ الله من حساب الخلق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . فعلى هذا يكون المعنى : ليس دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . وقيل : المعنى : سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير .

والثاني : أن مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش لو صعِده غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة ، وهذا معنى قول مجاهد .

قوله تعالى : (فاصبر) أي : اصبر على تكذيبهم إياك (صبراً جميلاً) لا جزع فيه ، وهذا قبل أن يُؤْمَرَ بقتالهم ، ثم نسخ بآية السيف (إنهم يَرَوْنَهُ) يعني : العذاب (بعيداً) غير كائن (ونراه قريباً) كائناً ، لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ . ثم أخبر متى يكون فقال تعالى : (يوم تكون السماء كالمهل) وقد شرحناه في (الكهف : ٢٩) (وتكون الجبال كالعهن) أي : كالصوف ، فَشَبَّهَا في ضَعْفها ولِينِها بالصوف . وقيل : شبّهها به في خِفّتِها وسَيْرِها ، لأنه قد نقل أنها تسير على صورها ، وهي كالهباء . قال الزجاج : « العهن » الصوف . واحدته : عِهنَةٌ ، ويقال : عُهْنَةٌ ، وعُهْنٌ ، مثل : صُوفَةٍ ، وصُوفٍ . وقال ابن قتيبة : « العِهْنُ » الصوفُ المصبوغ .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » ورواه ابن جرير الطبري عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، ودراج وشيخه أبو الهيثم ضعيفان .

قوله تعالى : (ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً) قرأ الأكثرون : « سأل » بفتح الياء . والمعنى : لا يسأل قريب عن قرابته ، لاشتغاله بنفسه . وقال مقاتل : لا يسأل الرجل قرابته ، ولا يكلّمه من شدة الأهوال . وقرأ معاوية ، وأبو رزين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة ، وأبو جعفر بضم الياء . والمعنى : لا يقال للحميم : أين حَميمُكَ ؟

قوله تعالى : (يُبَصَّرُونَهم) أي : يُعَرَّفُ الحميم حميمَه حتى يَعْرِفَه ، وهو مع ذلك لا يسأل عن شأنه ، ولا يكلّمه اشتغالاً بنفسه . يقال : بَصَّرْتُ زيداً كذا : إذا عَرَّفْتَهُ إيَّاه . قال ابن قتيبة : معنى الآية : لا يَسْأَلُ ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يُبَصَّرُونَهم ، أي : يُعَرَّفُونَهم . وقرأ قتادة ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران « يُبْصِرُونَهم » بإسكان الباء ، وتخفيف الصاد ، وكسرها .

قوله تعالى : (يَوَدُّ المجرم) يعني : يتمنّى المشرك لو قُبِلَ منه الفداء (يومئذٍ ببنيه ، وصاحبته) وهي الزوجة (وفصيلته) قال ابن قتيبة : أي : عشيرته . وقال الزجاج : هي أدنى قبيلته منه . ومعنى (تُؤْويه) تضمه ، فيودُّ أن يفتديَ بهذه المذكورات (ثم ينجيه) ذلك الفداء (كَلاَّ) لا ينجيه ذلك (إنها لَظَى) قال الفراء : هو اسم من أسماء جهنم ، فلذلك لم يُجْرَ ، وقال غيره : معناها في اللغة : اللهب الخالص . وقال ابن الأنباري : سميت لظى لشدة تَوَقُّدِها وتلهُّبِها ، يقال : هو يتلظَّى ، أي : يتلهَّب ويتوقَّد . وكذلك النار تتلظَّى يراد بها هذا المعنى . وأنشدوا :

جَحِيماً تَلَظَّى لا تَفَتَّرُ سَاعَةً وَلاَ الحَرُّ مِنْها غَابِرَ الدَّهْرِ يَبْرُدُ

(نَزَّاعةً لِلشَّوى) قرأ الجمهور « نَزَّاعةٌ للشوى » بالرفع على معنى : هي نزّاعة .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن أبي عبلة ، وحفص عن عاصم « نَزَّاعةً » بالنصب . قال الزجاج : وهذا على أنها حال مؤكدة ، كما قال تعالى : (هو الحق مصدقاً) [فاطر : ٣١] ويجوز أن ينصب على معنى « إنها تتلظى نزاعة » .

وفي المراد بـ (الشَّوى) أربعة أقوال .

أحدها : جلدة الرأس ، قاله مجاهد . والثاني : محاسن الوجه ، قاله الحسن ، وأبو العالية . والثالث : العصب ، والعقب ، قاله ابن جبير . والرابع : الأطراف : اليدان ، والرجلان ، والرأس ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : (تَدْعُو من أدبر) عن الإيمان (وتولَّى) عن الحق . قال المفسرون : تقول : إليَّ يا مشرك ، إليَّ يا منافق (وجمع فأوعى) قال الفراء : أي جمع المال في وعاء فلم يؤدِّ منه زكاةً ، ولم يصل منه رحماً .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ . فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ . أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ . كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ . فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . فَذَرْهُمْ

يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ • يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ • خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً) قال مقاتل : عنى به أُميَّة بن خلف الجُمَحي . وفي الهَلوع سبعة أقوال •

أحدها : أنه الموصوف بما يلي هذه الآية ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ، والزجاج •

والثاني : أنه الحريص على ما لا يحلُّ له ، رواه أبو صالح عن ابن عباس •

والثالث : البخيل ، قاله الحسن ، والضحاك •

والرابع : الشحيح ، قاله ابن جبير •

والخامس : الشَّرِه ، قاله مجاهد •

والسادس : الضَّجُور ، قاله عكرمه ، وقتادة ، ومقاتل ، والفراء •

والسابع : الشديد الجزع ، قاله ابن قتيبة •

قوله تعالى : (إذا مسه الشر) أي : أصابه الفقر (جزوعاً) لا يصبر ، ولا يحتسب (وإذا مسه الخير) أصابه المال (منوعاً) بمنعه من حق الله عز وجل (إلا المصلين) وهم أهل الإيمان بالله . وإنما استثنى الجمع من الإنسان ، لأنه اسم جنس (الذين هم على صلاتهم دائمون) وفيهم ثلاثة أقوال •

أحدها : أنهم الذين يحافظون على المكتوبات ، وهو معنى قول ابن مسعود •

والثاني : أنهم لا يلتفتون عن أيمانهم وشمائلهم في الصلاة ، قاله عقبة بن عامر ، واختاره الزجاج . قال : ويكون اشتقاقه من الدائم ، وهو الساكن ، كما جاء

في الحديث أنه نهى عن البول في الماء الدائم [1] .

والثالث : أنهم الذين يكثرون فعل التطوع ، قاله ابن جريج . (والذين في أموالهم حق معلوم) قد سبق شرح هذه الآية والتي بعدها في (الذاريات : ١٩) وبينا معنى « يوم الدين » في « الفاتحة » . وما بعد هذا قد شرحناه في (المؤمنين : ٧ ، ٨) إلى قوله تعالى : « لأماناتهم » قرأ ابن كثير وحده : « لأمانتهم » (والذين هم بشهاداتهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « بشهادتهم » على التوحيد . وقرأ حفص عن عاصم : « بشهاداتهم » جمعاً (قائمون) أي : يقومون فيها بالحق ولا يكتمونها (فمالِ الذين كفروا قِبلَكَ مُهْطِعين) نزلت في جماعة من الكفار جلسوا حول رسول الله ﷺ يستهزؤون بالقرآن ، ويكذّبون به . قال الزجاج : والمُهْطِع : المُقْبِلُ بِبَصَره على الشيء لا يُزَايِلُه ، وكانوا ينظرون إلى النبي نظر عداوة . وقد سبق الخلاف في قوله تعالى : (مهطعين) [إبراهيم : ٤٣ ، والقمر : ٨] .

قوله : (عن اليمين وعن الشمال عِزين) . قال الفراء : العِزُون : الحِلَق ، الجماعات ، واحدتها : عِزَةٌ ، وكانوا يجتمعون حول النبي ﷺ فيقولون : إن دخل هؤلاء الجنة ، كما يقول محمد ﷺ ، فلندخلنّها قبلهم ، فنزل قوله تعالى : (أيطمع كل امرىء منهم أن يُدْخَل جنة نعيم) [2] وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، والمفضل عن عاصم « أن يَدْخُلَ » بفتح الياء ، وضم الخاء . وقال أبو عبيدة : عِزِين جمع عِزَة ، مثل ثُبَة ، وثُبِين ، فهي

---

(١) روى البخاري ومسلم في « صحيحيها » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه » .

(٢) ذكره الواحدي عن المفسرين بغير سند ولم يعزه لأحد .

جماعات في تفرقة [1] .

قوله تعالى : (كلا) أي : لا يكون ذلك (إنا خلقناهم مما يعلمون) فيه قولان .

أحدهما : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فالمعنى : لا يستوجب الجنة أحد بما يَدَّعيه من الشرف على غيره ، إذ الأصل واحد ، وإنما يستوجبها بالطاعة .

والثاني : إنا خلقناهم من أقذار . فبماذا يستحقون الجنة ولم يؤمنوا ؟ ! وقد روى بشر [2] بن جَحَّاش عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية « إنا خلقناهم مما يعلمون » ثم بَزَق ، قال : يقول الله عز وجل : أنَّى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه ؟ ! حتى إذا سَوَّيتُك ، وعَدَّلتُك ، مَشَيْتَ بين بُرْدَيْنِ ، وللأرض منك

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١/٣٢٢ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فرآنا حِلَقاً ، فقال : « ما لي أراكم عِزِينَ ؟ » أي جماعات في تفرقة ، جمع عِزَة ، وأصلها « عزوة » فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس كثُبِين جمع ثُبة . والحديث رواه أيضاً أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير الطبري . وفي هذا الحديث دلالة على أن التفرقة في الأجسام تولّد التفرقة في القلوب .

(٢) كذا الأصل : « بشر » وقد ذكره الحافظ ابن حجر في « الاصابة » « بسر » بالسين المهملة بن جحاش قال : بكسر الجيم بعدها مهملة خفيفة ، قال : ويقال : بفتحها بعدها مثقلة ، وبعد الألف معجمة ، قرشي نزل حمص . قال ابن منده : أهل العراق يقولونه بالمعجمة (بشر) وقال الدارقطني وابن زيد : لا يصح بالمعجمة ، وكذا ضبطه بالمهملة أبو علي الهجري في « نوادره » لكن سمى أباه جحشاً . وقال مسلم وابن السكن وغيرهما : لم يرو عنه غير جبير بن نفير ، وحديثه عند أحمد وابن ماجه والحاكم من طريقه باسناد صحيح . قال ابن مندة : عداده في الشاميين ، مات بحمص .

وئيـد ، فجمعتَ ، ومنعتَ ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتَصـدّقُ ، وأنّى أوان الصدقة ؟! »[1] .

قوله تعالى : (فلا أقسم) قد تكلمنا عليه في (الحاقة : ٣٨) والمراد بالمشارق ، والمغـارب : شرقُ كل يوم ومغربُه (إنَّا لقادرون على أن نُبَدّل خيراً منهم) أي : نَخْلُقَ أَمْثَلَ منهم ، وأَطْوَعَ لله حين عَصَوْا (وما نحن بمسبوقين) مفسر في (الواقعة : ٦٠) (فذرهم يخوضوا) في باطلهم (ويلعبوا) أي : يلهوا في دنياهم (حتى يُلاقوا) وقرأ ابن محيصن « يَلْقَوْا يومَهم الذي يوعدون » وهو يوم القيـامة . وهذا لفظ أمر ، معناه الوعيد . وذكر المفسرون أنه منسوخ بآية السيف . وإذا قلنا : إنه وعيد بلقاء يوم القيامة ، فلا وجه للنسخ (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً) أي : يخرجون بسرعة كأنهم يَسْتَبِقُون .

قوله تعالى : (كأنهم إلى نُصُبٍ) قرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم بضم النون والصاد . وقال ابن جرير : وهو واحد الأنصاب ، وهي آلهتهم التي كانوا يعبدونها . فعلى هذا يكون المعنى : كأنهم إلى آلهتهم التي كانوا يعبدونها يُسرعون . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بفتح النون وسكون الصاد ، وهي في معنى القراءة الأولى ، إلا أنه مصدر . كقول القائل : نصبت الشيء أنصبه نصباً . قال قتادة : معناه : كأنهم إلى شيء منصوب يسرعون . وقال ابن جرير : تأويله : كأنهم إلى صنم منصوب يُسْرِعُون . وقرأ ابن عباس ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤/٢١٠ من حديث حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش ، وإسناده حسن ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٥٠٢ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي فقال : صحيح . ورواه ابن ماجه رقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في « الزوائد » : إسناده صحيح . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/١٦٧ من رواية البيهقي في « شعب الإيمان » .

وأبو مجلز ، والنخعي « نُصْب » برفع النون ، وإسكان الصاد . وقرأ الحسن ، وأبو عثمان النَّهدي ، وعاصم الجحدري « إلى نَصَبٍ » بفتح النون والصاد جميعاً . قال ابن قتيبة : النصب : حجر يُنْصَبُ أو صنم ، يقال : نَصْب ، ونُصْب ، ونُصُب . وقال الفراء : النَّصْب والنُّصْبُ واحد ، وهو مصدر ، والجمع : الأنصاب . وقال الزجاج : النَّصْب ، والنُّصُب : العلم المنصوب . قال الفراء : والإيفاض : الإسراع .

قوله تعالى : (ترهقهم ذِلَّةٌ) قرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعمرو ابن دينار « ذِلَّةُ ذلك اليومِ » بغير تنوين ، وبخفض الميم . وباقي السورة قد تقدم بيانه (المعارج : ٤٢) .



سورة نوح

وهي مكية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (أن أنذر قومك) أي : بأن أنذر قومك . و « العذاب الأليم » الغرَق .

قوله تعالى : (أن اعبدوا الله) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وعلي بن نصر عن أبي عمرو « أنُ اعبدوا الله » بضم النون . وقرأ عاصم ، وحمزة ، وعبد الوارث عن أبي عمرو « أنِ اعبدوا الله » بكسر النون . قال أبو علي : من ضم كره الكسر .

قوله تعالى : (وأطيعونِ) أثبت الياء في الحالين يعقوب .

قوله تعالى : (من ذنوبكم) « مِن » هاهنا صلة . والمعنى : يغفر لكم ذنوبكم ، قاله السدي ومقاتل . وقال الزجاج : إنما دخلت « من » هاهنا لتختص الذنوب من سائر الأشياء . ولم تدخل لتبعيض الذنوب ، ومثله (فاجتنبوا الرجس من

الأوثان) [الحج : ٣٠] وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها للتبعيض . والمعنى : يغفر لكم من ذنوبكم إلى وقت الإيمان (ويؤخركم) أي : عن العذاب (إلى أجل مسمى) وهو منتهى آجالهم . والمعنى : فتموتوا عند منتهى آجالكم غير ميتة المعذَّبين (إنَّ أجلَ الله) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أجل الموت ، قاله مجاهد . فيكون المعنى : إن أجل الله الذي أجَّلكم إليه لا يُؤَخَّرُ إذا جاء ، فلا يمكنكم حينئذ الإيمان .

والثاني : أنه أجل البعث ، قاله الحسن .

والثالث : أجل العذاب ، قاله السدي ومقاتل .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً . مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً . قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً . وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً . وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾

قوله تعالى : (فلم يزدهم دعائي إلا فراراً) أي : تباعداً من الإيمان (وإني كلما دعوتهم) إلى الإيمان والطاعة (جعلوا أصابعهم في آذانهم) لئلا يسمعوا صوتي (واستغشَوْا ثيابهم) أي : غطوا بها وجوههم لئلا يَرَوْني (وأصرُّوا) على كفرهم (واستكبروا) عن الإيمان بك واتِّباعي (ثم إني دعوتهم جهاراً) أي : معلناً لهم بالدعاء . قال ابن عباس : بأعلى صوتي (ثم إني أعلنت لهم) أي : كرَّرت الدعاء معلناً (وأسررت لهم إسراراً) قال ابن عباس : يريد أكلِّم الرجل بعد الرجل في السِّرِّ ، وأدعوه إلى توحيدك وعبادتك (فقلت استغفروا ربكم) قال المفسرون : منع الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فقال لهم نوح : (استغفروا ربكم) من الشرك ، أي : استدعوا مغفرته بالتوحيد (يرسلِ السماء عليكم مدراراً) قد شرحناه في أول (الأنعام : ٦) ومعنى الكلام أنه أخبرهم أن الإيمان يجمع لهم خير الدنيا والآخرة [1] .

قوله تعالى : (مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا تَرَوْن لله عظمة ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : لا تخافون عظمة الله ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : لا تَرَوْن لله طاعة ، قاله ابن زيد .

والرابع : لا ترجون عاقبة الإيمان والتوحيد ، قاله الزجاج

---

(١) قال ابن كثير : أي : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم الضرع ، وأمدّكم بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها . ثم قال : هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟) .

(وقد خلقكم أطواراً) أي : وقد جعل لكم في أنفسكم آيةً تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة ، ثم من علقة شيئاً بعد شيء إلى آخر الخلق . قال ابن الأنباري : الطَّوْر : الحال ، وجمعه : أطوار . وقال ابن فارس : الطَّوْر : التارة ، طوراً بعد طور ، أي : تارةً بعد تارة . وقيل : أراد بالأطوار : اختلاف المناظر والأخلاق ، من طويل ، وقصير ، وغير ذلك ، ثم قَرَّرَهم ، فقال تعالى : (ألم تَرَوْا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً) وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة « طباقٍ » بتنوين القاف ، وكسرها من غير ألف . وقد بيَّنَّا هذا في سورة (الملك : ٣) .

قوله تعالى : (وجعل القمر فيهنَّ نوراً) فيه قولان .

أحدهما : أن وجهَ القمر قِبَل السموات ، وظهرَه قِبَل الأرض ، يضيء لأهل السموات ، كما يضيء لأهل الأرض ، وكذلك الشمس ، هذا قول عبد الله ابن عمرو .

والثاني : أن القمر في السماء الدنيا . وإنما قال : « فيهن » لأنهن كالشيء الواحد ، ذكره الأخفش والزجاج ، وغيرهما . وهذا كما تقول : أتيت بني تميم ، وإنما أتيتَ بعضهم ، وركبتُ السفن ، (وجعل الشمس سراجاً) يستضيء بها العالم [1] (والله أنبتكم من الأرض) يعني : أن مبتدأ خلقكم من الأرض ، وهو

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وجعل القمر فيهن نوراً) يقول : وجعل القمر في السموات السبع نوراً ، وجعل الشمس فيهن سراجاً . وقال ابن كثير : المقصود أن الله سبحانه وتعالى : خلق سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ، أي : فاوت بينها في الاستنارة ، فجعل كلاً منها أنموذجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بطلع الشمس ومغيبها ، وقدّر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليدل على مضي الشهور والأعوام ، كما قال تعالى : (هو

آدم (نباتاً) قال الخليل : معناه : فنبتُّم نباتاً . وقال الزجاج : « نباتاً » محمول في المصدر على المعنى ، لأن معنى أنبتكم : جعلكم تنبتون نباتاً . قال ابن قتيبة : هذا مما جاء فيه المصدر على غير المصدر ، لأنه جاء على نبت . ومثله : (وتبتَّل إليه تبتيلاً) [المزمل : ٨] فجاء على « بَتَّل » .

قال الشاعر :

وَخَيْرُ الأَمْرِ ما استقبلتَ منه وليس بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّباعَا [1]

فجاء على اتَّبَعْتُ .

وقال الآخر :

وإن شئتم تعاودنا عواداً

فجاء على « عاودنا » ، وإنما تجيء المصادر مخالفة الأفعال ، لأن الأفعال وإن اختلفت أبنيتها ، واحدة في المعنى .

قوله تعالى : (سبلاً فجاجاً) قال الفراء : هي الطرق الواسعة .

قوله تعالى : (واتَّبعوا مَنْ لم يزده مالُه وولدُه) قرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وعاصم « ووَلَده » بفتح اللام والواو . وقرأ الباقون « وُلْده » بضم الواو ،

ـالذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) . وقال الآلوسي : (وجعل القمر فيهن نوراً) منوّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا ، كما يقال : زيد في بغداد وهو في بقعة منها ، والمرجع له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقاً شفافة .

(١) البيت للقطامي ، وهو في ديوانه ٣٥ و « اللسان » تبع . وضع الاتّباع موضع التتبُّع مجازاً ، لأن تتبَّعْتُ في معنى اتَّبَعْتُ .

وسكون اللام . قال الزجاج : وهما بمعنى واحد ، مثل العَرَب ، والعُرْب ، والعَجَم ، والعُجْم . وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، والجحدري : « وَوِلْده » بكسر الواو ، وإسكان اللام . قال المفسرون : المعنى : أن الأتباع ، والفقراء اتَّبعوا رَأْيَ الرؤساء والكبراء .

قوله تعالى : (ومكروا مكراً كُبَّاراً) قرأ أبو رجاء ، وأبو عمران : « كُبَاراً » برفع الكاف ، وتخفيف الباء . وقرأ ابن يعمر ، وأبو الجوزاء ، وابن محيصن « كِبَاراً » بكسر الكاف مع تخفيف الباء . والمعنى « كبيراً » يقال : كبير ، وكبار . وقد شرحنا هذا في أول (ص) ومعنى « المكر » : السعي في الفساد . وذلك أن الرؤساء منعوا أتباعهم من الإيمان بنوح (وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتَكم) أي : لا تَدَعُنَّ عبادتها (ولا تَذَرُنَّ وداً) قرأ أبو جعفر ، ونافع بضم الواو . والباقون بفتحها . وهذا الاسم وما بعده أسماء آلهتهم . وجاء في التفسير أن هذه أسماء قوم صالحين ، كانوا بين آدم ونوح ، ونشأ قوم بعدهم يأخذون بأخذهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صُوَرَهُمْ كان أنشط لكم ، وأشوق للعبادة ، ففعلوا . ثم نشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم ، وكان ابتداء عبادة الأوثان من ذلك الوقت . وسميت تلك الصور بهذه الأسماء ، لأنهم صوروها على صور أولئك القوم المسمّين بهذه الأسماء . وقيل : إنما هي أسماء لأولاد آدم ، مات منهم واحد ، فجاء الشيطان فقال : هل لكم أن أصور لكم صورته ، فتذكرونه بها ؟ فصورها . ثم مات آخر ، فصور لهم صورته ، إلى أن صور صوراً خمسة . ثم طال الزمان ، وتركوا عبادة الله ، فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ؟ فقالوا : لمن نعبد ؟ قال : هذه آلهتكم ، وآلهة آبائكم ، ألا ترونها مصوَّرة في مصلاكم ؟ ! فعبدوها .

وقال الزجاج: هذه الأصنام كانت لقوم نوح، ثم صارت إلى العرب، فكان «ود» لكلب، و«سواع» لهمدان، و«يغوث» لبني غطيف، وهم حي من مراد. وقيل: لما جاء الطوفان غطى على هذه الأصنام وطمّها التراب، فلما ظهرت بعد الطوفان صارت إلى هؤلاء المذكورين، قال الواقدي: كان «ود» على صورة رجل، و«سواع» على صورة امرأة، و«يغوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس، و«نسر» على صورة النسر من الطير.

قوله تعالى: (وقد أضلوا كثيراً) فيه قولان.

أحدهما: وقد أضلت الاصنام كثيراً من الناس، أي: ضلوا بسببها.

والثاني: وقد أضلّ الكبراء كثيراً من الناس (ولا تزد الظالمين) يعني: الكافرين (إلا ضلالاً) وهذا دعاء من نوح عليهم، لما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْصَاراً. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً. رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾

قوله تعالى: (مما خطيآتهم) «ما»: صلة. والمعنى: من خطيآتهم: أي: من أجلها، وسببها. وقرأ أبو عمرو «مما خطاياهم» وقرأ أبو الجوزاء، والجحدري «خطيئتهم» من غير ألف (أغرقوا فأدخلوا ناراً) قال ابن السائب: المعنى: سيدخلون في الآخرة ناراً، فجاء لفظ الماضي بمعنى الاستقبال، لأن الوعد حق، هذا قول الأكثرين. وقال الضحاك: فأُدخلوا ناراً في الدنيا، وذلك أنهم كانوا يغرقون من جانب، ويحترقون في الماء من جانب.

قوله تعالى : (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) أي : لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله .

قوله تعالى : (دَيَّاراً) قال ابن قتيبة : أي : أحداً . يقال : ما بالمنازل دَيَّارٌ ، أي : ما بها أحد ، وهو من الدار ، أي : ليس بها نازل داراً . وقال الزجاج : أصلها : « دَيْوار » فَيْعَال ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت إحداهما في الأخرى . وإنما دعا عليهم نوح ، لأن الله تعالى أوحى إليه (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) [هود : ٣٦] .

قوله تعالى : (يُضِلُّوا عبادك) وذلك أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إلى نوح ، فيحذِّره تصديقه .

قوله تعالى : (ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفاراً) قال المفسرون : إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً ، فلذلك علم الفاجر الخارج عن الطاعة .

قوله تعالى : (رب اغفر لي ولوالديَّ) قال الحسن : وذلك أنهما كانا مؤمنَين . وقرأ أبو بكر الصديق ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، والجحدري ، والجوني « ولوالدِي » ساكنة الياء على التوحيد . وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، والزهري ، والنخعي « ولولَدَيَّ » من غير ألف على التثنية (ولمن دخلَ بيتي) وقرأ حفص عن عاصم « بيتيَ » بفتح الياء . وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منزله ، قاله ابن عباس . والثاني : مسجده ، قاله الضحاك . والثالث : سفينته ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (وللمؤمنين والمؤمنات) هذا عام في كل من آمن (ولا تزد الظالمين) يعني : الكافرين (إلا تَباراً) أي : هلاكاً . ومنه قوله تعالى : (تَبَّرْنا تَتْبِيراً) [الفرقان : ٣٩] .

سورة الجنّ

كلها مكية بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحداً . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللهِ شَطَطاً . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللهِ كَذِباً . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللهُ أَحداً . وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً . وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ ٱللهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً . وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً . وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً . وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً . وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾

قوله تعالى : (قل أُوحيَ إليّ أنه استمع نَفَرٌ من الجن) قد ذكرنا سبب نزول هذه الآية في (الاحقاف : ٢٩) وبيّنّا هنالك سبب استماعهم . ومعنى « النفر » وعَدَدَهم ، فأما قوله تعالى : (قرآناً عجبا) فمعناه : بليغاً يعجب منه لبلاغته (يهدي إلى الرُّشد) أي : يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان (ولن نشرك بربنا) أي : لن نعدل بربنا أحداً من خلقه . وقيل : عنوا إبليس ، أي : لا نطيعه في الشرك بالله .

قوله تعالى : (وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا) اختلف القراء في اثنتي عشرة همزة في هذه السورة ، وهي : « وأنه تعالى » ، « وأنه كان يقول » ، « وأنا ظننا » ، « وأنه كان رجال » ، « وأنهم ظنوا » ، « وأنا لمسنا » ، « وأنا كنا » ، « وأنا لا ندري » ، « وأنا منا » ، « وأنا ظننا أن لن نعجز الله » ، « وأنا لما سمعنا » ، « وأنا منا » ، ففتح الهمزة في هذه المواضع ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص عن عاصم ، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة مواضع « وأنه تعالى » ، « وأنه كان يقول » ، « وأنه كان رجال » ، وكسر الباقيات . وقرأ الباقون بكسرهن . وقال الزجاج : والذي يختاره النحويون في هذه السورة أن ما كان من الوحي قيل فيه : « أن » بالفتح ، وما كان من قول الجن قيل : « إن » بالكسر . معطوف على قوله تعالى : (إنا سمعنا قرآناً عجباً) وعلى هذا يكون المعنى : وقالوا : إنه تعالى جَدُّ ربنا ، وقالوا : إنه كان يقول سفيهنا . فأما من فتح ، فذكر بعض النحويين : يعني الفراء ، أنه معطوف على الهاء في قوله تعالى : (فآمنّا به) وبأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا . وكذلك ما بعد هذا . وهذا رديء في القياس ، لا يعطف على الهاء المتمكّنة المخفوضة إلا بإظهار الخافض . ولكن وجهه

أن يكون محمولاً على معنى آمنَّا به ، فيكون المعنى : وصدَّقنا أنه تعالى جَدُّ رَبِّنا . وللمفسرين في معنى « تعالى جَدُّ رَبِّنا » سبعة أقوال .

أحدها : قُدْرَةُ رَبِّنا ، قاله ابن عباس . والثاني : غِنى رَبِّنا ، قاله الحسن . والثالث : جَلالُ رَبِّنا ، قاله مجاهد ، وعكرمة . والرابع : عَظَمَةُ رَبِّنا ، قاله قتادة . والخامس : أَمْرُ رَبِّنا ، قاله السدي . والسادس : ارتفاع ذِكرِه وعظمته ، قاله مقاتل . والسابع : مُلْكُ رَبِّنا وثناؤه وسلطانه ، قاله أبو عبيدة (وأنه كان يقول سفيهنا) فيه قولان .

أحدهما : أنه إبليس ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه كفارهم ، قاله مقاتل . و « الشطط » : الجَوْر ، والكذب ، وهو : وصفه بالشريك ، والولد . ثم قالت الجن : (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) وقرأ يعقوب : « أن لن تَقَوَّلَ » بفتح القاف ، وتشديد الواو . والمعنى : ظنناهم صادقين في قولهم : لله صاحبة وولد ، وما ظننَّاهم يكذبون حتى سمعنا القرآن ، يقول الله عز وجل « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن » وذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بِسيِّدِ هذا الوادي من شَرِّ سُفَهَاءِ قومه ، فيبيت في جِوارٍ منهم حتى يصبح . ومنه حديث كردم بن أبي السائب الأنصاري ، قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذُكِرَ رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب ، فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي فنادى : يا عامر الوادي جارك ، فنادى منادٍ لا نراه :

يا سرحان أرسله . فإذا الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة [١] ، فأنزل الله على رسوله ﷺ « وأنه كان رجال من الإنس ... » الآية [٢] .

وفي قوله تعالى : (فزادوهم رهقاً) قولان .

أحدهما : أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوُّذهم بهم ، قاله مقاتل . والمعنى : أنهم لما استعاذوا بسادتهم قالت السادة : قد سدنا الجن والإنس .

والثاني : أن الجن زادوا الإنس رَهَقاً ، ذكره الزجاج . قال أبو عبيدة : زادوهم سَفَهاً وطغياناً . وقال ابن قتيبة : زادوهم ضلالاً . وأصل الرهق : العيب . ومنه يقال : فلان يرهق في دينه .

قوله تعالى : (وأنهم ظنوا) يقول الله عز وجل : ظن الجن (كما ظننتم)

---

(١) أي : أثر عض .

(٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم ، وفي سنده عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٢٩/٧ وقال : رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، قال الحافظ ابن حجر في « الاصابة » في ترجمة « كردم بن أبي السائب » بعدما ساق حديثه هذا من رواية العقيلي من طريق عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب : وأخرجه ابن مردويه في « التفسير » من هذا الوجه ، وأخرج له شاهداً من حديث معاوية بن قرة عن أبيه . وأورده السيوطي في « الدر » ٢٧١/٦ وزاد نسبته لابن المنذر ، وأبي الشيخ في « العظمة » وابن عساكر عن كردم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه . قال ابن كثير : وروي عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي نحوه ، ثم قال : وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة ، كان جنياً حتى يرهب الإنسي ويخاف منه ، ثم ردّه عليه لما استجار به ليضله ويخرجه عن دينه ، والله أعلم . اهـ .

أيها الإنس المشركون أنه لا بعث . وقالت الجن : (وأنا لمسنا السماء) أي : أتيناها (فوجدناها ملئت حَرَسَاً شديداً) وهم الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع (وشُهُباً) جمع شهاب ، وهو النجم المضيء (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أي : كنا نستمع ، فالآن حين حاولنا الاستماع بعد بعث محمد ﷺ رُمينا بالشُّهُب . ومعنى « رصداً » قد أرصد له المرمى به (وأنا لا ندري أشَرٌّ أُريدَ بمن في الأرض) بإرسال محمد إليهم ، فيكذبونه ، فيهلكون (أم أراد بهم ربهم رشداً) وهو أن يؤمنوا فيهتدوا ، قاله مقاتل . والثاني : أنه قول كفرة الجن ، والمعنى : لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرض بحدوث الرجم بالكواكب ، أم صلاح ؟ قاله الفراء . ثم أخبروا عن حالهم ، فقالوا : (وأنا مِنَّا الصالحون) وهم المؤمنون المخلصون (ومِنَّا دون ذلك) فيه قولان .

أحدهما : أنهم المشركون .

والثاني : أنهم أهل الشرّ دون الشرك (كنَّا طرائق قدداً) قال الفراء : أي : فرقاً مختلفة أهواؤنا . وقال أبو عبيدة : واحد الطرائق : طريقة ، وواحد القِددِ : قدة ، أي : ضروباً وأجناساً ومِللاً . قال الحسن ، والسدي : الجن مثلكم ، فمنهم قَدَرِيَّة ، ومرجِئَةٌ ، ورافضة .

قوله تعالى : (وأنا ظننا) أي : أيقنَّا (أن لن نعجز الله في الأرض) أي : لن نَفُوتَه إذا أراد بنا أمراً (ولن نعجزه هَرَباً) أي : أنه يدركنا حيث كنَّا (وأنا لمَّا سمعنا الهدى) وهو القرآن الذي أتى به محمد ﷺ (آمنَّا به) أي : صدَّقنا أنه من عند الله عز وجل (فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخساً) أي : نقصاً من الثواب (ولا رَهقاً) أي : ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه (وأنا مِنَّا المسلمون) قال مقاتل : المخلصون لله (ومِنَّا القاسطون) وهم المَرَدَة . قال

ابن قتيبة : القاسطون : الجائرون . يقال : قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل [١] . قال المفسرون : هم الكافرون (فمن أسلم فأولئك تَحرَّوا رشداً) أي : تَوَخَّوْه ، وأَمُّوه . ثم انقطع كلام الجن . قال مقاتل : ثم رجع إلى كفار مكة فقال تعالى : (وأن لو استقاموا على الطريقة) يعني : طريقة الهدى ، وهذا قول ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، واختاره الزجاج . قال : لأن الطريقة هاهنا بالألف واللام معرفة ، فالأوجب أن تكون طريقة الهدى . وذهب قوم إلى أن المراد بها : طريقة الكفر ، قاله محمد بن كعب ، والربيع ، والفراء ، وابن قتيبة ، وابن كيسان . فعلى القول الأول يكون المعنى : لو آمنوا لوسَّعنا عليهم (لِنَفْتِنَهم) أي : لنختبرَهم (فيه) فننظر كيف شُكْرُهم . والماء الغَدَق : الكثير . وإنما ذكر الماء مثلاً ، لان الخير كله يكون بالمطر ، فأقيم مقامه إذ كان سببه . وعلى الثاني : يكون المعنى : لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم ، لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدراجاً ، ثم نعذبهم على ذلك . وقيل : لأكثرنا لهم الماء فأغرقناهم ، كقوم نوح (ومن يُعْرِضْ عن ذِكْرِ ربِّه) يعني : القرآن (يسلكه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر « نسلكه » بالنون . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالياء . (عذاباً صعداً) قال ابن قتيبة : أي : عذاباً شاقاً . يقال : تصعَّدني الأمر : إذا شَقَّ عليَّ . ومنه قول عمر : ماتَصَعَّدَني شيء ما تصعَّدَتني خِطْبَةُ النِّكاح . ونرى أصل هذا كله من الصعود ، لانه شاق ، فكني به عن المشقَّات . وجاء في التفسير أنه جبل في النار يكلَّف صعوده ، وسنذكره عند قوله تعالى : (سأرهقه

---

(١) ومنه قوله ﷺ فيما رواه مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور » .

صعوداً) [المدثر : ١٧] إن شاء الله تعالى .

﴿ وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحداً . وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحداً . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً . إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً . حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً . قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً . عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحداً . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً . لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾

قوله تعالى : (وأن المساجد لله) فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات ، قاله ابن عباس . قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا ، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم .

والثاني : الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، قاله سعيد بن جبير ، وابن الأنباري ، وذكره الفراء . فيكون المعنى ، لا تسجدوا عليها لغيره [1] .

---

(١) ومنه قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة (وأشار بيده إلى أنفه) ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين » .

والثالث : أن المراد بالمساجد هاهنا : البقاع كلُّها ، قاله الحسن . فيكون المعنى : أن الأرض كلها مواضع للسجود ، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها .

والرابع : أن المساجد : السجود ، فانه جمع مسجد . يقال : سجدت سجوداً ، ومَسْجِداً ، كما يقال : ضربت في الأرض ضرباً ، ومَضْرِباً ، ثم يجمع ، فيقال : المسَاجِد ، والمضارِب . قال ابن قتيبة : فعلى هذا يكون واحدها : مَسْجَداً ، بفتح الجيم . والمعنى : أَخْلِصُوا له ، ولا تسجدوا لغيره . ثم رجع إلى ذكر الجن فقال تعالى : (وأنه لما قام عبد الله) يعني محمداً ﷺ (يدعوه) أي : يعبده . وكان يصلي ببطن نخلة على ما سبق بيانه في (الأحقاف : ٢٩) (كادوا يكونون عليه لِبَداً) قرأ الأكثرون : « لبداً » بكسر اللام ، وفتح البــاء . وقرأ هشام عن ابن عامر ، وابن محيصن « لُبَداً » بضم اللام ، وفتح الباء مع تخفيفها . قال الفراء : ومعنى القراءتين واحد . يقال : لِبَدة ، ولُبَدة . قال الزجاج : والمعنى : كاد يركب بعضهم بعضاً . ومنه اشتقاق اللبد الذي يفترش . وكل شيء أضفته إلى شيء فقد لَبَّدته . وقرأ قوم منهم الحسن ، والجحدري : « لُبَّداً » بضم اللام مع تشديد الباء . قال الفراء : فعلى هذه القراءة يكون صفة للرجال ، كقولك : رُكَّعاً وركوعاً ، وسُجَّداً وسجوداً . قال الزجاج : هو جمع لابد ، مثل راكع ، وركَّع . وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم . والمعنى : أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً ، حِرْصاً على سماع القرآن ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثاني : أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم ، فوصفوا لهم طاعة أصحاب محمد رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع ، والسجود ، فكأنهم قالوا :

لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبداً . وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس .

والثالث : أن المعنى : لما قام رسول الله ﷺ بالدّعوة تلبّدت الإنس والجن ، وتظاهروا عليه ، ليبطلوا الحق الذي جاء به ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد [1] .

قوله تعالى : (قل إنما أدعو ربي) قرأ عاصم ، وحمزة « قل إنما أدعو ربي » بغير ألف . وقرأ الباقون « قال » على الخبر عن النبي ﷺ . قال مقاتل : إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم لم يسمع بمثله فارجع عنه ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : (قل لا أملك لكم ضراً) أي : لا أدفعه عنكم (ولا) أسوق إليكم (رَشَداً) أي : خيراً ، أي : إن الله تعالى يملك ذلك ، لا أنا (قل إني لن يجيرني من الله أحد) أي : إن عصيته لم يمنعني منه أحد ، وذلك أنهم قالوا : اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك (ولن أجد من دونه ملتحداً) وقد بيَّنّاه في (الكهف : ٢٧) (إلا بلاغاً من الله) فيه وجهان ، ذكرهما الفراء .

أحدهما : أنه استثناء من قوله تعالى : (لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) إلا أن أبلغكم .

والثاني : لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلّغ رسالته . وبالأول قال ابن السائب .

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير الطبري . قال ابن كثير : وهو الأظهر لقوله بعده : (قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً) أي قال لهم الرسول لما آذَوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته (إنما أدعو ربي) أي : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به ، وأتوكل عليه (ولا أشرك به أحداً) .

وبالثاني قال مقاتل . وقال بعضهم : المعنى : لن يجيرني من عذاب الله إلا أن أبلّغ عن الله ما أرسِلْتُ ، فذلك البلاغ هو الذي يجيرني (ومن يعص الله ورسوله) بترك الإيمان والتوحيد .

قوله تعالى : (حتى إذا رأوا) يعني : الكفار (ما يوعدون) من العذاب في الدنيا ، وهو القتل ، وفي الآخرة (فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) أي : جنداً ونصراً ، أهم ، أم المؤمنون ؟ (قل إن أدري) أي : ما أدري (أقريب ما توعدون) من العذاب (أم يجعل له ربي أمداً) أي : غاية وبُعْداً [1] . وذلك لأن علم الغيب لله وحده (فلا يُظهِر) أي : فلا يُطلِع على غيبه الذي يعلمه أحداً من الناس (إلا من ارتضى من رسول) لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارَهم بالغيب . والمعنى : أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه . وفي هذا دليل على أن من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر . ثم ذكر أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول فقال تعالى : (فإنه يسلك من بين يديه) أي :

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلّف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره في شيء من الكتب ، وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة ، فلا يجيب عنها ، ولما تبدّى له جبريل في صورة أعرابي ، كان فيما سأله أن قال : يا محمد : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمد متى الساعة ؟ قال : « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » قال : أما إني لم أعدّ لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكني أحب الله ورسوله ، قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث .

من بين يدي الرسول (ومن خلفه رَصَداً) أي : يجعل له حَفَظَةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تَستَرِقَه الشياطين ، فتلقيه إلى الكَهَنة ، فيتكلَّمون به قبل أن يخبر النبي ﷺ الناس . وقال الزجاج : يسلك من بين يَدَيْ المَلَك ومن خلفه رصداً . وقيل : يسلك من بين يدي الوحي . فالرَّصَدُ من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمع ما ينزل من الوحي .

قوله تعالى : (ليعلم) فيه خمسة أقوال .

أحدها : ليعلم محمد ﷺ أن جبرائيل قد بلَّغ إليه ، قاله ابن جبير .

والثاني : ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله (قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم) وأن الله قد حفظها فدفع عنها ، قاله قتادة [1] .

والثالث : ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم ، قاله مجاهد .

والرابع : ليعلم الله عز وجل ذلك موجوداً ظاهراً يجب به الثواب ، فهو كقوله تعالى : (ولمَّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم) [آل عمران : ١٤٢] ، قاله ابن قتيبة .

والخامس : ليعلم النبيُّ أن الرسل قد أتته ، ولم تصل إلى غيره ، ذكره الزجاج . وقرأ رويس عن يعقوب « ليُعْلَم » بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وقال ابن قتيبة : ويُقرأ «لتَعلَم» بالتاء ، يريد : لتعلم الجن أن الرسل قد بلَّغت عن إلـهم بما رَجَوْا من استراق السمع (وأحاط بما لديهم) أي : علم الله ما عند الرسل (وأحصى كل شيء عدداً) فلم يفته شيء حتى الذَّرّ والخردل .

(١) هذا القول اختاره ابن جرير الطبري في « تفسيره » .

سورة المزمل

وهي مكية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

إلا أنه قد روي عن ابن عباس أنه قال : سوى آيتين منها ، قوله تعالى : (واصبر على ما يقولون) والتي بعدها [المزمل : ١٠ ، ١١] . وقال ابن يسار ، ومقاتل : فيها آية مدنية ، وهي قوله تعالى : (إن ربك يعلم أنك تقوم) [المزمل : ٢٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً . وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً . إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً . إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً . فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً . فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً . السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾

قوله تعالى : (يا أيها المُزَّمِّل) وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وأبو مجلز ، وأبو عمران ، والأعمش « المتزمِّل » بإظهار التاء . وقرأ عكرمة ، وابن يعمر : « المزمل » بحذف التاء ، وتخفيف الزاي . قال اللغويون : « المُزَّمِّل » الملتف في ثيابه ، وأصله « المتزمِّل » فأدغمت التاء في الزاي ، فثقِّلت . وكل من التفَّ بثوبه فقد تزمَّل . قال الزجاج : وإنما أدغمت فيها لقربها منها . قال المفسرون : وكان النبي ﷺ يتزمَّل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فَرَقاً منه حتى أنس به . وقال السدي : كان قد تزمَّل للنوم . وقال مقاتل : خرج من البيت وقد لبس ثيابه ، فناداه جبريل : يا أيها المُزَّمِّل . وقيل : أريد به مُتَزَمِّل النبوة . قال عكرمة في معنى هذه الآية : زُمِّلْتَ هذا الأمر ، فَقُمْ به . وقيل : إنما لم يخاطب بالنبي والرسول هاهنا ، لأنه لم يكن قد بلَّغ ، وإنما كان في بدء الوحي .

قوله تعالى : (قم الليل) أي : للصلاة . وكان قيام الليل فرضاً عليه (إلا قليلا نصفَه) هذا بدل من الليل ، كما تقول : ضربت زيداً رأسه . فإنما ذكرت زيداً لتوكيد الكلام ، لأنه أوكد من قولك : ضربت رأس زيد . والمعنى : قم من الليل النصف إلا قليلاً (أو انقص منه قليلاً) أي : من النصف (أو زِد عليه) أي : على النصف . قال المفسرون : انقص من النصف إلى الثلث ، أو زد عليه إلى الثلثين ، فجعل له سَعَة في مدة قيامه ، إذ لم تكن محدودة ، فكان يقوم ومعه طائفة من المؤمنين ، فشق ذلك عليه وعليهم ، فكان الرجل لا يدري كم صلى ، وكم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كلَّه مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب ، فنسخ ذلك عنه وعنهم بقوله تعالى : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ...) الآية ، هذا مذهب جماعة من المفسرين . وقالوا : ليس في القرآن

سورة نَسَخَ آخِرُها أولَها سوى هذه السورة . وذهب قوم إلى أنه نُسِخَ قيامُ اللَّيْلِ في حقّه بقوله تعالى : (ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لكَ) [الإسراء : ٧٩] ، ونسخ في حق المؤمنين بالصلوات الخمس . وقيل : نسخ عن الأمة ، وبقي عليه فرضه أبداً . وقيل : إنما كان مفروضاً عليه دونهم . وفي مدة فرضه قولان .

أحدهما : سَنَةٌ ، قال ابن عباس : كان بين أول (المزَّمِّل) وآخرها سَنَةٌ .

والثاني : ستة عشر شهراً ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وَرَتِّل القرآن) قد ذكرنا الترتيل في (الفرقان : ٣٢)[1] .

قوله تعالى : (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) وهو القرآن . وفي معنى ثِقَله ستة أقوال .

أحدها : أنه كان يثقُل عليه إذا أُوحي إليه ، وهذا قول عائشة . قالت : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، يعني يتخلص عنه ،

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ورتّل القرآن ترتيلا) أي : اقرأه على تمهُّل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبّره ، قال ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتّلها حتى تكون أطول من أطول منها . وفي « صحيح البخاري » عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مَدّاً ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) . ثم قال : وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وإن جبينه ليتفصّد عرقاً [١] .

والثاني : أن العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : أنه يثقل في الميزان يوم القيامة ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه المهيب ، كما يقال للرجل العاقل : هو رزين راجح ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والخامس : أنه ليس بالخفيف ولا السفساف ، لأنه كلام الرب عز وجل ، قاله الفراء .

والسادس : أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه ، كما تقول : هذا كلام رصين ، وهذا قول وزن : إذا استجدته ، ذكره الزجاج [٢] .

قوله تعالى : (إن ناشئة الليل) قال ابن مسعود ، وابن عباس : هي قيام الليل بلسان الحبشة . وهل هي في وقت مخصوص من الليل ، أم في جميعه ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها في جميع الليل . وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : الليل كلُّه ناشئة . وإلى هذا ذهب اللغويون . قال ابن قتيبة : ناشئة الليل :

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ماقال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلّمني فاعي ما يقول : قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصّد عرقاً .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال : إن الله وصفه بأنه قول ثقيل ، فهو كما وصفه به ثقيل محمله ، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه .

ساعاته الناشئة ، من نشأتْ : إذا ابتدأتْ . وقال الزجاج : ناشئة الليل : ساعات الليل ، كلّ ما نشأ منه ، أي : كلّ ما حدث . وقال أبو علي الفارسي : كأن المعنى : إن صلاة ناشئة ، أو عمل ناشئة الليل .

والثاني : أنها في وقت مخصوص من الليل . ثم فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنها ما بين المغرب والعشاء ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها القيام بعد النوم ، وهذا قول عائشة ، وابن الأعرابي . وقد نص عليه أحمد في رواية المروذي .

والثالث : أنها ما بعد العشاء ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو مجلز .

والرابع : أنها بَدْءُ الليل ، قاله عطاء ، وعكرمة .

والخامس : أنها القيام من آخر الليل ، قاله يمان ، وابن كيسان .

قوله تعالى : (هي أشد وَطْأً) قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو « وِطَاءً » بكسر الواو مع المد ، وهو مصدر واطأت فلاناً على كذا مُواطَأَةً ، ووِطاءً ، وأراد أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهُّم للقرآن والإحكام لتأويله [١] . ومنه قوله تعالى : (ليواطئوا عِدَّة ما حَرَّم الله) [التوبة : ٣٧] . وقرأ الباقون « وَطْأً » بفتح الواو مع القصر . والمعنى : إنه أثقل على المصلي من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدت على القوم وَطْأَةُ السلطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم . ومنه قول النبي ﷺ : « اللهم اشدد وطأتك على مضر » [٢] . ذكر معنى القراءتين ابن قتيبة . وقرأ ابن محيصن « أشد وَطَاءً » بفتح الواو ، والطاء ، وبالمد .

(١) في الأصل : والإحكام وتلاوته ، والتصويب من « غريب القرآن » . قال ابن كثير : أي : أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله في قصة القنوت في صلاة الصبح .

قوله تعالى : (وأقْوَمُ قيلا) أي : أخلص للقول وأسمع له ، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة ، ويفرغ القلب لفهم التلاوة ، فلا يكون دون سمعه وتفهّمه حائل .

قوله تعالى : (إن لك في النهار سبحاً طويلاً) أي : فراغاً لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، قاله ابن عباس ، وعطاء . وقرأ علي ، وابن مسعود ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة « سبخاً » بالخاء المعجمة . قال الزجاج : ومعناها في اللغة صحيح . يقال : قد سبخت القطن بمعنى نفشته . ومعنى نَفّشته : وسّعته ، فيكون المعنى : إن لك في النهار توسّعاً طويلاً .

قوله تعالى : (واذكر اسم ربك) أي : بالنهار أيضاً (وتَبتّل إليه تبتيلا) قال مجاهد . أخلص له إخلاصاً . وقال ابن قتيبة : انقطع إليه ، من قولك : بَتَّلتُ الشيء : إذا قطعتَه . وقال الزجاج : انقطع إليه في العبادة . ومنه قيل لمريم : البتول ، لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة . وكذلك صدقة بتلة : منقطعة من مال المصّدّق . والأصل في مصدر تبتّل تبتلاً . وإنما قوله تعالى : « تبتيلاً » محمول على معنى : تبتّل (رب المشرق) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم « ربُّ » بالرفع . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بالكسر . وما بعد هذا قد سبق [الشعراء : ٢٨] إلى قوله تعالى : (واصبر على ما يقولون) من التكذيب لك والأذى (واهجرهم هجراً جميلاً) لا جزع فيه . وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السيف (وذَرْني والمكذّبين) أي : لا تهتمَّ بهم ، فأنا أكفيكهم (أولي النَّعْمة) يعني : التَّنَعُّم . وفيمن عُني بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم المطعِمُون ببَدْرٍ ، قاله مقاتل بن حيان .

والثاني : أنهم بنو المغيرة بن عبد الله ، قاله مقاتل بن سليمان .

والثالث : أنهم المستهزئون ، وهم صناديد قريش ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (وَمَهِّلْهم قليلاً) قالت عائشة : فلم يكن إلا اليسير حتى كانت وقعة بدر ، وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وليس بصحيح .

قوله تعالى : (إن لدينا أنكالاً) وهي القيود ، واحدها : نكل . وقد شرحنا معنى « الجحيم » في (البقرة : ١١٩) (وطعاماً ذا غُصَّةٍ) وهو الذي لا يسوغ في الحلق . وفيه للمفسرين أربعة أقوال .

أحدها : أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولايخرج ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . والثاني : الزَّقُّوم ، قاله مقاتل . والثالث : الضَّريع ، قاله الزجاج . والرابع : الزَّقُّوم والغِسْلين والضَّريع ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (يوم ترجُف الأرض) قال الزجاج : هو منصوب بقوله تعالى : « إن لدينا أنكالاً » والمعنى : ينكِّل الكافرين ويعذِّبهم (يوم ترجُف الأرض) أي : تُزَلزَل وتُحَرَّك أغلظ حركة .

قوله تعالى : (وكانت الجبال) قال مقاتل : المعنى : وصارت بعد الشدة ، والقوة « كثيباً » قال الفراء : « الكثيب » : الرمل . و « المهيل » : الذي تحرَّك أسفله ، فينهال عليك من أعلاه . والعرب تقول : مهيل ومهيول ، ومكيل ومكيول . وقال الزجاج : الكثيب جمعه : كثبان ، وهي : القطع العظام من الرمل . والمهيل : السائل .

قوله تعالى : (إنا أرسلنا إليكم) يعني أهل مكة (رسولاً) يعني : محمداً ﷺ

(شاهداً عليكم) بالتبليغ وإيمان من آمن ، وكفر من كفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً) وهو موسى عليه السلام . والوبيل : الشديد . قال ابن قتيبة : هو من قولك : استوبلت المكان:[إذا استوخمته].ويقال : كَلأٌ مُسْتَوْبَل أي: لا يُسْتَمْرَأ . قال الزجاج : الوبيل : الثقيل الغليظ جداً . ومنه قيل للمطر العظيم : وابل . قال مقاتل : والمراد بهذا الأخذ الوبيل : الغرق . وهذا تخويف لكفار مكة أن ينزل بهم العذاب لتكذيبهم ، كما نزل بفرعون .

قوله تعالى : (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً) أي : عذاب يوم . قال الزجاج : المعنى : بأي شيء تتحصَّنون من عذاب يوم مِنْ هوله يَشيب الصغير من غير كِبَر . وقرأ أُبي بن كعب ، وأبو عمران « نجعل الولدان » بالنون .

قوله تعالى : (السماء مُنْفَطِرٌ به) قال الفراء : السماء تُذَكَّر وتؤنَّث . وهي هاهنا في وجه التذكير . قال الشاعر :

فَلَوْ رَفع السَّماءُ إليه قوماً لَحِقْنَا بِالسَّماءِ مَعَ السَّحابِ [1]

قال الزجاج : وتذكير السماء على ضربين .

أحدهما : على أن معنى السماء معنى السقف .

والثاني : على قولهم : امرأة مُرْضِع على جهة النسب . فالمعنى : السماء ذات انفطار ، كما أن المرضع ذات الرضاع . وقال ابن قتيبة : ومعنى الآية : السماء مُنْشَقّ به ، أي : فيه ، يعني في ذلك اليوم .

(١) البيت من شواهد الفراء في « معاني القرآن » الورقة ٢٤٦ والشاهد فيه تذكير السماء .

قوله تعالى : (كان وعده مفعولاً) وذلك أنه وعد بالبعث ، فهو كائن لا محالة .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً . إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(إن هذه) يعني : آيات القرآن (تذكرة) أي : تذكير وموعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) بالإيمان والطاعة .

قوله تعالى : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) أي : أقل (من ثُلُثَيِ الليل ونصفَه وثُلُثَه) وقرأ ابن كثير ، وأهل الكوفة بفتح الفاء والثاء . والباقون : بكسرهما .

قوله تعالى : (وطائفة من الذين معك) يعني : المؤمنين (والله يُقدِّر الليلَ والنهارَ) يعلم مقاديرهما ، فيعلم القدر الذي تقومون[1] به من الليل (علم أن لن تحصوه) وفيه قولان .

أحدهما : لن تطيقوا قيام ثُلُثَيِ الليل ، ولا ثلث الليل ، ولا نصف الليل ، قاله مقاتل .

(١) في الأصل : تقوموا .

والثاني : لن تحفظوا مواقيت الليل ، قاله الفراء . (فتاب عليكم) أي : عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف (فاقرؤوا ما تيسر) عليكم (من القرآن) يعني : في الصلاة ، من غير أن يوقت وقتاً . وقال الحسن : هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء . ثم ذكر أعذارهم فقال تعالى : (علم أن سيكونُ منكم مرضى) فلايطيقون قيام الليل (وآخرون يضربون في الأرض) وهم المسافرون للتجارة (يبتغون من من فضل الله) أي : من رزقه فلا يطيقون قيام الليل (وآخرون يقاتلون في سبيل الله) وهم المجاهدون فلا يطيقون قيام الليل (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) وذكروا أن هذا نسخ عن المسلمين بالصلوات الخمس ، فذلك قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة) أي : الصلوات الخمس في أوقاتها [1] (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) وقد سبق بيانه [الحديد : ١٨] . قال ابن عباس : يريد سوى الزكاة في صلة الرحم ، وقِرى الضيف (وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أي : تجدوا ثوابه في الآخرة . (هو خيراً) قال أبو عبيدة : المعنى : تجدوه خيراً . قال الزجاج : ودخلت « هو » فصلاً . وقال المفسرون : ومعنى « خيراً » أي :

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، قال : وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النُّصُب والمخرَج لم تُبيّن إلا بالمدينة ، والله أعلم . قال : وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال ، وقد ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل الذي سأل : ماذا فرض الله عليه من الصلوات ؟ : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

أفضل مما أعطيتم (وأعظم أجراً) من الذي تؤخّرونه إلى وقت الوصية عنـــد الموت [1] .



(٢) قال ابن جرير الطبري في تتمـــة الآية من آخر السورة (واستغفروا الله) يقول تعالى ذكره : سلوا الله غفران ذنوبكم ، يصفحْ لـكم عنها (إن الله غفور رحيم) يقول : إن الله ذو مغفرة لذنوب من تاب من عباده من ذنوبه ، وذو رحمة أن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها .

سورة المدّثر

وهي مكية بإجماعهم

وقال مقاتل : فيها من المدني آية ، وهي قوله تعالى : (وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة) [المدثر : ٣١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ . ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ . كَلاَّ وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ . وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ . إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . نَذِيراً لِلْبَشَرِ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾

فأما سبب نزولها ، فروى [1] البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث جابر بن عبد الله قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحِرَاء شهراً ، فلما قضيت جواري [2] نزلتُ فاستبْطَنْتُ بطن الوادي [3] ، فنوديتُ ، فنظرت أمامي ، وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ فرفعتُ رأسي فإذا هو في الهواء (يعني : جبريل عليه السلام) فأقبلتُ إلى خديجة ، فقلت : دَثِّروني دَثِّروني ، فأنزل الله عز وجل (يا أيها المدثر قم فأنذر) [4] قال المفسرون : فلما رأى جبريل وقع مغشياً عليه ، فلما أفاق دخل إلى خديجة ، ودعا بماء فصبَّه عليه ، وقال : دثِّروني ، فدثَّروه بقطيفة ، فأتاه جبريل فقال : (يا أيها المدَّثر) وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو عمران ، والأعمش « المتدثِّر » بإظهار التاء . وقرأ أبو رجاء ، وعكرمة ، وابن يعمر « المدثر » بحذف التاء ، وتخفيف الدال . قال اللغويون : وأصل « المدَّثِّر » المتدثر ، فأدغمت التاء ، كما ذكرنا في المتَزَمِّل ، وهذا في قول الجمهور من التدثير بالثياب . وقيل المعنى : يا أيها المدثر بالنبوَّة ، وأثقالها . قال عكرمة : دُثِّرْتَ هذا الأمر فقم به .

---

(١) في الأصل : روى .
(٢) أي : مجاورتي واعتكافي .
(٣) أي : صرت في باطنه .

(٤) رواه البخاري ٨/٥٢٠ ومسلم ١/١٤٤ وأحمد في « المسند » ٣/٣٠٦ والطبري ٢٩/١٤٣ والواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٣ وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٨٠ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن الأنباري في « المصاحف » عن جابر رضي الله عنه .

قوله تعالى : (قم فأنذر) كفارَ مكة العذابَ إن لم يُوحِّدوا (وربَّك فكبِّر) أي : عظِّمه عما يقول عبدة الأوثان (وثيابَك فطهِّر) فيه ثمانية أقوال .

أحدها : لا تلبسها على معصية ، ولا على غدر . قال غيلان بن سلمة الثقفي :

وَإني بِحَمْدِ الله لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ [١]

روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : لا تكن ثيابُك من مكسب غير طاهر ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : طهر نفسك من الذنب ، قاله مجاهد ، وقتادة . ويشهد له قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحرَّمِ [٢]

أي : نفسه ، وهذا مذهب ابن قتيبة . قال : المعنى : طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب ، لأنها تشتمل عليه . قالت ليلى الأخيلية وذَكَرَتْ إبلاً :

رَمَوْهَا بأثوابٍ خِفَافٍ فلا ترى لَهَا شَبَهاً إلا النَّعَامَ المُنَفَّرا [٣]

أي : ركبوها ، فَرَمَوْها بأنفسهم . والعرب تقول للعفاف : إزارٌ ، لأن العفيف كأنه استتر لما عَفَّ .

(١) البيت في الطبري ١٤٥/٢٩ والقرطبي ٦٢/١٩ و « البحر المحيط » ٣٧١/٨ وابن كثير ٤٤١/٤ و « الدر » ٣٨١/٦ و « فتح القدير » للشوكاني ٣١٥/٥ منسوباً إلى غيلان بن سلمة الثقفي ، وهو في « اللسان » ثوب .

(٢) ديوانه ١٢٥ ، و « شرح القصائد العشر » ١٨٤ ، و « أمالي المرتضى » ٦٤/٢ و « مختار الشعر الجاهلي » ٣٧٧/١ .

(٣) هو في « المعاني الكبير » ٤٨٦/١ و « الصناعتين » ٢٧٧ ، و « الفائق » ٢٨/١ و « اللسان » ثوب غير منسوب . قال ابن قتيبة : يعني بأجسام خِفافٍ ، يريد : ركبوها ،

والرابع : وعَمَلَكَ فأصْلِحْ ، قاله الضحاك .

والخامس : خُلُقَكَ فحَسِّنْ ، قاله الحسن ، والقرظي .

والسادس : وَثِيَابَك فَقَصِّرْ وشَمِّرْ ، قاله طاووس .

والسابع : قَلْبَكَ فطَهِّرْ ، قاله سعيد بن جبير . ويشهد له قول امرىء القيس .

فَإنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ [١]

أي : قلبي من قلبك .

والثامن : اغسل ثيابك بالماء ، ونقّها ، قاله ابن سيرين ، وابن زيد [٢] .

قوله تعالى : (والرُّجْزَ فاهْجُرْ) قرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعاصم إلا أبا بكر ، ويعقوب ، وابن محيصن ، وابن السميفع « والرُّجزَ » بضم الراء . والباقون بكسرها . ولم يختلفوا في غير هذا الموضع . قال الزجاج : ومعنى القراءتين واحد . وقال أبو علي : قراءة الحسن بالضم ، وقال : هو اسم صنم . وقال قتادة : صنمان : إساف ، ونائلة . ومن كسر ، فالرّجز : العذاب . فالمعنى : ذو العذاب فاهجر .

وفي معنى « الرجز » للمفسرين ستة أقوال .

أحدها : أنه الأصنام ، والأوثان ، قاله ابن عباس . ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهري ، والسدي ، وابن زيد .

(١) ديوانه ١٣ وروايته فيه : وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة .... الخ .

(٢) واختار هذا الأخير ابن جرير الطبري قال : قال ابن زيد : كان المشركون لايتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقال ابن كثير : وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب .

والثاني : أنه الإثم ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : الشرك ، قاله ابن جبير ، والضحاك .

والرابع : الذنب ، قاله الحسن .

والخامس : العذاب ، قاله ابن السائب . قال الزجاج : الرجزُ في اللغة : العذاب . ومعنى الآية : اهجر ما يؤدِّي إلى عذاب الله .

والسادس : الشيطان ، قاله ابن كيسان[١] . (ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا تعط عطيَّة تلتمس بها أفضل منها ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة . قال المفسرون : معناه : أَعْطِ لِربّك وأرد به الله ، فأدَّبه بأشرف الآداب . ومعنى « لا تمنن » : لا تعط شيئاً من مالك لتُعطَى أكثر منه ، وهذا الأدب للنبي ﷺ خاصة ، وليس على أحد من أمته إثم أن يهديَ هدية يرجو بها ثواباً أكثر منها .

والثاني : لا تمنن بعملك تستكثره على ربك ، قاله الحسن .

والثالث : لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه ، قاله مجاهد .

والرابع : لا تمنن على الناس بالنُّبُوَّة لتأخذ عليها منهم أجراً ، قاله ابن زيد[٢] .

---

(١) قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبُّسه ﷺ بشيء من ذلك . كقوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : معنى ذلك : ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح ، قال : وإنما قلت : ذلك أولى بالصواب ، لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيهن أمر الله نبيه ﷺ بالجهد في الدعاء إليه ، والصبر على مايلقى من الأذى فيه ، قال : فهذه بأن تكون من أنواع تلك أشبه منها بأن تكون من غيرها .

(ولربك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لأجل ربك . والثاني : لثواب ربك . والثالث : لأمر ربك . والرابع : لوعْدِ ربِّك (فاصبر) فيه قولان .

أحدهما : على طاعته وفرائضه . والثاني : على الأذى والتكذيب .

قوله تعالى : (فإذا نقر في الناقور) أي : نفخ في الصور . وهل هذه النفخة هي الأولى أو الثانية ؟ فيه قولان (فذلك يومئذ يوم عسير) أي : يعسر الأمر فيه (على الكافرين غير يسير) غير هَيِّن (ذَرْني) قد شرحناه في (المزمل : ١١) (ومن خلقتُ) أي : ومن خلقته (وحيداً) فيه قولان .

أحدهما : خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد ، قاله مجاهد .

والثاني : خلقته وحدي لم يَشْركني في خَلْقِهِ أحَدٌ ، قاله الزجاج . قال ابن عباس : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، فإنك أتيت محمداً تتعرَّض لما قِبَله ، فقال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنَّك منكر له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، فوالله مايشبهها الذي يقول ، والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدِقٌ أسفلُه ، وإنه ليعلو ولا يُعلى . قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه . فقال : هذا سحر يؤثر : يأثره عن غيره ، فنزلت (ذرني ومن خلقت وحيداً ...) الآيات كلُّها[1] . وقال مجاهد : قال الوليد لقريش : إن لي إليكم

(٣) رواه بهذا اللفظ الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٠ من رواية عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس ، وسنده صحيح . ورواه الحاكم به وقال :-

حاجة فاجتمعوا في دار الندوة ، فقال : إنكم ذوو أحساب وأحلام ، وإن العرب يأتونكم ، وينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا على شيء واحد . ما تقولون في هذا الرجل ؟ قالوا : نقول : إنه شاعر ، فعبس عندها ، وقال : قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر . فقالوا : نقول : إنه كاهن ، قال : إذن يأتونه فلا يجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة ، قالوا : نقول : إنه مجنون ، قال : إذن يأتونه فلا يجدونه مجنوناً . فقالوا : نقول : إنه ساحر . قال : وما الساحر ؟ قالوا : بشر يحبّبون بين المتباغضين ، ويبغّضون بين المتحابين ، قال : فهو ساحر ، فخرجوا لايلقى أحد منهم النبي إلا قال : يا ساحر ، فاشتد ذلك عليه ، فأنزل الله عز وجل « يا أيها المدثر » إلى قوله تعالى : « إنْ هذا إلا سحر يؤثر »(١) وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيداً » منسوخ بآية السيف . ولايصح .

قوله تعالى : (وجعلت له مالاً ممدوداً) في معنى الممدود ثلاثة أقوال .

أحدها : كثيراً ، قاله أبو عبيدة . والثاني : دائماً ، قاله ابن قتيبة . والثالث : غير منقطع ، قاله الزجاج .

وللمفسرين في مقداره أربعة أقوال .

أحدها : غَلَّة شهر بشهر ، قاله عمر بن الخطاب .

والثاني : ألف دينار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير . قال الفراء :

ـ هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخاري ، ولم يخرجاه . ورواه الطبري من رواية معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة . ورواه أيضاً الطبري بنحوه من رواية عطية العوفي عن ابن عباس . قال ابن كثير : وقد ذكر محمد ابن إسحاق وغير واحد نحواً من هذا .

(١) ذكره بنحوه وبأخصر منه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٠ عن مجاهد بغير سند .

نرى أن الممدود : جُعِلَ غاية للعدد ، لأن « ألف » غاية للعدد يرجع في أول العدد من الألف .

والثالث : أربعة آلاف ، قاله قتادة .

والرابع : أنه بستان كان له بالطائف لاينقطع خيره شتاء ولا صيفاً ، قاله مقاتل [1] .

قوله تعالى : (وبنين شهوداً) أي : حضوراً معه لايحتاجون إلى التصرُّف والسَّفر فيغيبوا عنه . وفي عددهم أربعة أقوال .

أحدها : عشرة ، قاله مجاهد ، وقتادة . والثاني : ثلاثة عشر ، قاله ابن جبير . والثالث : اثنا عشر ، قاله السدي . والرابع : سبعة ، قاله مقاتل (ومهَّدت له تمهيداً) أي : بسطت له العيش ، وطول العمر ، (ثم يطمع أن أزيد) فيه قولان . أحدهما : يطمع أن أدخله الجنة ، قاله الحسن . والثاني : أن أزيده من المال والولد ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (كلا) أي : لا أفعل ، فمنعه الله المالَ والوَلدَ حتى مات فقيراً (إنه كان لآياتنا عنيداً) أي : معانداً .

وفي المراد بالآيات هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن جبير . والثاني : الحق ، قاله مجاهد . والثالث : رسول الله ﷺ ، قاله السدي .

قوله تعالى : (سأُرْهِقُه صَعُوداً) قال الزجاج : سأحمله على مشقة من العذاب . وقال غيره : سأكلِّفه مشقةً من العذاب لا راحة له منها . وقال ابن قتيبة : « الصَّعود » :

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله : (وجعلت له مالاً ممدوداً) وهو الكثير الممدود عدده أو مساحته .

العقبة الشاقة ، وكذلك « الكؤود » . وفي حديث أبي سعيد عن نبي الله ﷺ في قوله تعالى : « سأرهقه صَعوداً » قال : جبل من نار يكلَّف أن يصعده ،فإذا وضع رجله عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت . يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيه كذلك أبداً [١] . وذكر ابن السائب أنه جبل من صخرة ملساء في النار ، يكلَّف أن يصعَدها حتى إذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها ، ثم يكلَّف أن يصعَدها ، فذلك دأبه أبداً ، يجذب من أمامه سلاسل الحديد ، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد ، فيصعدها في أربعين سنة .

قوله تعالى : (إنَّه فكَّر) أي : تفكر ماذا يقول في القرآن (وقَدَّر) القول في نفسه (فقُتِلَ) أي : لعن (كيف قَدَّر ثم قُتِلَ كيف قَدَّر) أي : لُعِن على أي حال قَدَّر ما قدَّر من الكلام . وقيل : « كيف » هاهنا بمعنى التعجب والإنكار والتوبيخ . وإنما كرر تأكيداً (ثم نَظَرَ) في طلب ما يدفع به القرآن ، ويردُّه (ثم عبس وبسر) قال اللغويون : أي : كَرَّهَ وَجْهَهُ وقطَّب . يقال : بسر الرجل وجهه ، أي : قبضه . وأنشدوا لتَوْبَةَ :

---

(١) هذا الحديث ذكره المؤلف ملفقاً من حديثين ، الأول رواه ابن جرير الطبري من رواية شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي عن عمارة بن القعقاع عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ، ورواه ابن أبي حاتم من رواية شريك عن عمار الدهني عن عطية به ، بلفظ « (سأرهقه صعوداً) قال : « هو جبل من نار يكلَّف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، فإذا وضع رجله ذابت ، وإذا رفعها عادت » . وعطية العوفي ضعيف . والحديث الثاني رواه أحمد من حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، والطبري عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، بلفظ « الصَّعود : جبل من نار ، يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي به كذلك منه أبداً » ودراج عن شيخه أبي الهيثم ضعيفان . وقال ابن كثير بعدما ذكر حديث أحمد والطبري (وهو الرواية الثانية) : وفيه غرابة ونكارة .

وَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا صُدُودٌ رَأَيْتُهُ وَإِعْرَاضُها عن حَاجَتِي وبُسُورُها [1]

قال المفسرون : كرَّه وجهه ، ونظر بكراهية شديدة ، كالمهتمّ المتفكِّر في الشيء (ثم أدبر) عن الإيمان (واستكبر) أي : تكبر حين دعي إليه (فقال : إنْ هذا) أي : ما هذا القرآن (إلا سحر يؤثر) أي : يُروى عن السَّحَرة (إنْ هذا إلا قول البشر) أي : من كلام الإنس ، وليس من كلام الله تعالى ، فقال الله تعالى : (سأُصليه سقر) أي : سأدخله النار . وقد ذكر « سقر » في سورة (القمر : ٤٨) (وما أدراك ما سقر) لِعِظَم شأنها (لا تُبقي ولا تذر) أي : لا تبقي لهم لحماً إلا أكلته ، ولا تذرهم إذا أُعيدوا خلقاً جديداً (لَوَّاحَةٌ) أي : مغيِّرة . يقال : لاحته الشمس ، أي : غيَّرتْه . وأنشدوا :

يا ابنَةَ عَمِّي لاَحَنِي الهواجر [2]

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة « لوَّاحــةً » بالنصب . وفي « البَشَر » قولان .

أحدهما : أنه جمع بشرة ، وهي جلدة الإنسان الظاهرة ، وهذا قول مجاهد ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنهم الإنس من أهل النار ، قاله الأخفش ، وابن قتيبة في آخرين .

قوله تعالى : (عليها تسعة عشر) وهم خُزَّانها ، مالك ومعه ثمانية عشر ، أعينهم كالبرق الخاطف ، وأنيابهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ، مابين

---

(١) البيت لتوبة بن الحُمَيِّر ، وهو في « مجاز القرآن » ٢/٢٧٥ و « الأغاني » ١٠/٢٧٢ والطبري ٢٩/١٥٦ والقرطبي ١٩/٧٤ .

(٢) هو في « مجاز القرآن » ٢/٢٧٥ والقرطبي ١٩/٧٦ والآلوسي ٢٩/١٢٥ .

منكبي أحدهم مسيرة سنة ، يسع كَفّ أحدهم مثل ربيعة ومضر . قد نزعت منهم الرحمة . فلما نزلت هذه الآية قال أبو جهل : يخوِّفكم محمد بتسعة عشر ، أما له من الجنود إلا هؤلاء ! أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم ، ثم يخرجون من النار ! فقال أبو الأشدين [١] - قال مقاتل : اسمه : أسيد بن كلدة . وقال غيره : كلدة بن خلف الجمحي - : يا معشر قريش : أنا أمشي بين أيديكم فأرفع عشرة بمنكبي الأيمن ، وتسعة بمنكبي الأيسر ، فندخل الجنة ، فأنزل الله تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) لا آدميين ، فمن يطيقهم ومن يغلبهم ؟ ! (وما جعلنا عِدَّتهم) في هذه القِلَّة (إلا فتنة) أي : ضلالة (للذين كفروا) حتى قالوا ما قالوا (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أن ما جاء به محمد حق ، لأن عِدَّتهم في التوراة تسعة عشر (ويزدادَ الذين آمنوا) من أهل الكتاب (إيماناً) أي : تصديقاً بمحمد ﷺ إذ وجدوا ما يخبرهم موافقاً لما في كتابهم (ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) أي : ولا يشك هؤلاء في عَدَدِ الخَزَنَة (وليقولَ الذين في قلوبهم مرض) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه النفاق ، ذكره الأكثرون .

والثاني : أنه الشك ، قاله مقاتل . وزعم أنهم يهود أهل المدينة ، وعنده أن هذه الآية مدنية .

---

(١) كذا الأصل : أبو الأشدين ، وهو كذلك في بعض كتب التفسير ، وفي النسخة الاستنبولية : أبو الأسدين . والذي في القرطبي ، والبحر ، وروح المعاني : أبو الأشد أسيد ابن كلدة الجمحي . وكان شديد البأس ، وذكروا أنه كان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فلا ينزع إلا قِطَعاً ، ويبقى موضع قدميه ، وكان من أعداء النبي ﷺ .

والثالث : أنه الخلاف ، قاله الحسين بن الفضل . وقال : لم يكن بمكة نفاق . وهذه مكية . فأما « الكافرون » فهم مشركو العرب ،(ما ذا أراد الله) أي : أي شيء أراد الله (بهذا) الحديث والخبر (مثلاً) والمثل يكون بمعنى الحديث نفسه . ومعنى الكلام : يقولون : ما هذا من الحديث (كذلك) أي : كما أضلَّ من أنكر عَدَد الخَزَنَة ، وهدى من صدَّق (يُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء) وأنزل في قول أبي جهل : أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) يعني : من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار . وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعوان مالا يعلمه إلا الله . وذكر الماوردي في وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر قولاً محتملاً ، فقال : التسعة عشر : عدد يجمع أكثر القليل ، وأقل الكثير ، لأن الآحاد أقل الأعداد ، وأكثرها تسعة ، وما سوى الآحاد كثير . وأقل الكثير : عشرة ، فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير ، وأكثر القليل . ثم رجع إلى ذكر النار فقال تعالى : (وما هي إلا ذكرى) أي : ما النار في الدنيا إلا مذكِّرة لنار الآخرة (كلاَّ) أي : حقاً (والقمر . والليل إذْ أدبر) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « إذا أدبر » وقرأ نافع ، وحمزة ، وحفص ، والفضل عن عاصم ، ويعقوب « إذ » بسكون الذال من غير ألف بعدها « أدبر » بسكون الدال ، وبهمزة قبلها . وهل معنى القراءتين واحد ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد . يقال : دبر الليل ، وأدبر . ودبر الصيف وأدبر ، هذا قول الفراء ، والأخفش ، وثعلب .

والثاني : أن «دبر» بمعنى خلف ، و«أدبر» بمعنى ولّى . يقال : دبرني فلان : جاء خلفي ، وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة [1] .

قوله تعالى : (إذا أسفر) أي : أضاء وتبيَّن (إنها) يعني : سقر (لإحدى الكُبَر) قال ابن قتيبة : الكُبَر ، جمع كبرى ، مثل الأُوَل ، والأُولى ، والصُغَر والصُغْرى . وهذا كما يقال : إنها لإحدى العظائم . قال الحسن : والله ما أنذر الله بشيء أوهى منها .

وقال ابن السائب ، ومقاتل : أراد بالكُبَر : دركات جهنم السبعة .

قوله تعالى : (نذيراً للبشر) قال الزجاج : نصب « نذيراً » على الحال . والمعنى : إنها لكبيرة في حال الإنذار . وذكَّر « النذير » ، لأن معناه معنى العذاب . ويجوز أن يكون « نذيراً » منصوباً متعلقاً بأول السورة ، على معنى : قم نذيراً للبشر .

قوله تعالى : (لمن شاء منكم) بدل من قوله تعالى : « للبشر » ، (أن يتقدَّم أو يتأخَّر) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن يتقدَّم في طاعة الله أو يتأخَّر عن معصيته ، قاله ابن جريج .

والثاني : أن يتقدَّم إلى النار ، أو يتأخَّر عن الجنة ، قاله السدي .

والثالث : أن يتقدَّم في الخير ، أو يتأخر إلى الشر ، قاله يحيى بن سلام .

والرابع : أن يتقدَّم في الايمان ، أو يتأخَّر عنه . والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل أحد ممن أقر أو كفر .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أنها قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى ، فبأيتها قرأ القارىء فمصيب .

﴿ كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَــنِ الْمُجْرِمِينَ . مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ . فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً . كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ . كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾

قوله تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كل نفس بالغةٍ مُرتَهنةٌ بعملها لتُحاسَب عليه (إلا أصحاب اليمين) وهم أطفال المسلمين ، فإنه لا حساب عليهم ، لأنه لا ذنوب لهم ، قاله علي ، واختاره الفراء .

والثاني : كل نفس من أهل النار مُرتَهنةٌ في النار ، إلا أصحاب اليمين ، وهم المؤمنون ، فإنهم في الجنة ، قاله الضحاك .

والثالث : كل نفس مرتهنةٌ بعملها لتحاسب عليه إلا أصحاب اليمين ، فإنهم لا يحاسبون ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (يتساءلون عن المجرمين) قال مقاتل : إذا خرج أهل التوحيد من النار قال المؤمنون لمن بقي في النار : (ما سلككم في سقر ؟) قال المفسرون : سلككم بمعنى : أدخلكم . وقال مقاتل : ما حبسكم فيها ؟ (قالوا لم نك من المصلين) لله في دار الدنيا (ولم نك نطعم المسكين) أي : لم نتصدّق لله (وكنا نخوض مع الخائضين) أهل الباطل والتكذيب (وكنا نكذّب بيوم الدين) أي : بيوم الجزاء والحساب (حتى أتانا اليقين) وهو الموت . يقول الله تعالى : (فما تنفعهم

شفاعة الشافعين) وهذا إنما جرى بعد شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والمؤمنين . وهذا يدل على نفع الشفاعة لمن آمن (فما لهم عن التذكرة معرضين ؟) يعني : كفار قريش حين نفروا من القرآن والتذكير بمواعظه . والمعنى : لا شيء لهم في الآخرة إذْ أعرضوا عن القرآن فلم يؤمنوا به ، ثم شبَّهم في نفورهم عنه بالحُمُر ، فقال تعالى : (كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة) قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم بفتح الفاء . والباقون بكسرها . قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : من قرأ بفتح الفاء أراد : مذعورة ، استنفرت فنفرت . ومن قرأ بكسر الفاء أراد : نافرة . قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : حُمُرٌ مستنفَرة . وناس من العرب يكسرون الفاء . والفتح أكثر في كلام العرب . وقراءتنا بالكسر . أنشدني الكسائي :

اِحْبِسْ حِمَارَكَ إنَّه مُسْتَنْفِرٌ ... في إثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ[1]

و « غرّب » موضع .

وفي « القسورة » سبعة أقوال .

أحدها : أنه الأسد ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس . وبه قال أبو هريرة ، وزيد بن أسلم ، وابنه . قال ابن عباس : الحمر الوحشية إذا عايَنَتْ الأسد هَرَبَتْ منه ، فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ هربوا منه ،

(١) البيت في « اللسان » نفر منسوباً لابن الأعرابي ، وأوله « اربط حمارك » بدل « احبس » وهو في الطبري ١٦٨/٢٩ غير منسوب والقرطبي ٨٧/١٩ وأوله فيهما « امسك حمارك » بدل « احبس » . و « غُرّب » كسكّر : اسم موضع وجبل دون الشام في بلاد بني كلب .

وإلى هذا ذهب أبو عبيدة ، والزجاج . قال ابن قتيبة : كأنَّه من القَسْرِ والقَهْرِ . فالأسد يقهر السباع .

والثاني : أن القسورة : الرماة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو موسى الأشعري ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، وابن كيسان .

والثالث : أن القسورة : حِبَال الصيادين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والرابع : أنهم عُصَبُ الرِّجَال ، رواه أبو حمزة عن ابن عباس . واسم أبي حمزة : نصر بن عمران الضبعي .

والخامس : أنه رِكْز الناس ، وهذا في رواية عطاء أيضاً عن ابن عباس . ورِكْز الناس : حِسُّهم وأصواتهم .

والسادس : أنه الظُّلْمة والليل ، قاله عكرمة .

والسابع : أنه النَّبْل ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (بل يريد كل امرىء منهم أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا للنبي ﷺ : إنْ سَرَّكَ أن نَتَّبِعَكَ ، فليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله تعالى إلى فلان بن فلان يؤمر فيه باتّباعك ، قاله الجمهور .

والثاني : أنهم أرادوا براءةً من النار أن لا يعذَّبوا بها ، قاله أبو صالح .

والثالث : أنهم قالوا : كان الرجل إذا أذنب في بَني إسرائيل وجده مكتوباً إذا أصبح في رُقعة . فما بالنا لا نرى ذلك ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله الفراء . فقال الله تعالى : (كلا) أي : لا يؤتَون الصُّحُف (بل لايخافون الآخرة) أي : لا يَخْشَوْن عذابها . والمعنى : أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام

الدلالة (كلاَّ) أي : حقاً. وقيل : معنى (كلا) : ليس الأمر كما يريدون ويقولون (إنه تَذْكِرَةٌ) أي : تذكير وموعظة (فمن شاء ذَكَره) الهاء عائدة على القرآن فالمعنى : فمن شاء أن يذكر القرآن ويتعظ به ويفهمه ، ذَكَره . ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال تعالى : (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) أي : إلا أن يريد لهم الهدى (هو أهل التقوى) أي : أهل أن يُتَّقى (وأهل المغفرة) أي : أهل أن يَغفِر لمن تاب . روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية ، فقال : قال ربكم عز وجل : أنا أهل أن أُتقى ، فلا يشرك بي غيري . وأنا أهل لمن اتَّقى أن يشرك بي غيري أن أغفر له [1] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي ٢/١٦٨ ، والحاكم ٢/٥٠٨ ، وابن ماجه ، والدارمي ، والطبراني في « الأوسط » ، وابن عدي ، وأبو يعلى ، والبزار ، كلهم من رواية سهيل بن أبي حزم القُطَعي عن ثابت بن أنس ، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوي في الحديث ، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٨٠ : ورواه الحكيم الترمذي في السابع والسبعين بعد المائة بلفظ : « قال : هو أهل أن يتقى ، فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له » وله شاهد من رواية عبد الله قال : سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ : أبا هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ... فذكره .

سورة القيامة

وهي مكية كلها بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَاأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلٰى قَادِرِينَ عَلٰى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ . بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيٰمَةِ . فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلَّا لَاوَزَرَ . إِلٰى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنَبَّؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقٰى مَعَاذِيرَهُ ﴾

قوله تعالى : (لا أقسم) اتفقوا على أن المعنى « أقسم » واختلفوا في « لا » فجعلها بعضهم زائدة ، كقوله تعالى : (لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب) [الحديد : ٢٩] وجعلها بعضهم رداً على منكري البعث . ويدل عليه أنه « أقسم » على كون البعث . قال ابن قتيبة : زيدت « لا » على نية الرد على المكذبين ، كما تقول : لا والله ما ذاك ، ولو حذفت جاز ، ولكنه أبلغ في الرد . وقرأ ابن كثير إلا ابن فليح « لأقسم » بغير ألف بعد اللام ، فجعلت لاماً دخلت على « أقسم » ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ،

وابن محيصن . قال الزجاج : من قرأ « لأقسم » فاللام لام القسم والتوكيد . وهذه القراءة بعيدة في العربية ، لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النون ، تقول : لَأَضربنَّ زيداً . ولا يجوز : لَأَضْرِبُ زيداً .

قوله تعالى : (ولا أُقْسِمُ بالنَّفْس اللَّوامة) قال الحسن : أَقسمَ بالأولى ولم يقسم بالثانية . وقال قتادة : حكمها حكم الأولى [١] .

وفي « النفس اللّوامة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها المذمومة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا : هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم .

والثاني : أنها النفس المؤمنة ، قاله الحسن . قال : لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال .

والثالث : أنها جميع النفوس . قال الفراء : ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيراً قال : هلا زِدْتُ . وإن كانت عملت سوءاً ، قال : ليتني لم أفعل [٢] .

قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) المراد بالإنسان هاهنا : الكافر . وقال ابن عباس : يريد أبا جهل . وقال مقاتل : عدي بن ربيعة ، وذلك أنه قال : أيجمع الله هذه العظام ؟ فقال النبي ﷺ له : « نعم » ، فاستهزأ

---

(١) قال ابن كثير : والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً ، كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

(٢) قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على مافات .

منه ، فنزلت هذه الآية[١] . قال ابن الأنباري : وجواب القسم محذوف ، كأنه : لتُبْعَثُنَّ ، لتُحَاسَبُنَّ ، فدل قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » على الجواب ، فحذف[٢] .

قوله تعالى : (بلى) وقف حسن . ثم يُبتدأ « قـــادرين » على معنى : بلى نجمعها قادرين . ويصلح نصب « قادرين » على التكرير : بلى فَلْيَحْسَبْنَا قادرين[٣] (على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) وفيه قولان .

أحدهما : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفّ البعير ، وحافر الحمار ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة ، كالكتابة والخياطة ، هذا قول الجمهور .

(١) قال البغوي : نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة خَتَن الأخنس بن شريق الثقفي ، وكان رسول الله ﷺ يقول : اللهم اكفني جارَيِ السوء ، يعني عدياً والأخنس ، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد حدثني عن القيامة متى تكون ؟ وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال : لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدّقك ولم أومن بك ، أو يجمع الله العظام ؟ ! فأنزل الله عز وجل : (أيحسب الانسان) يعني الكافر (أن لن نجمع عظامه) بعد التفرق والبلى فنحييه قبل ذكر العظام ، وذكره كذلك بغير سند القرطبي والخازن . والله أعلم . وفي القرطبي و « البحر المحيط » : وقيل : نزلت في أبي جهل .

(٢) قال ابن كثير : والمقسم عليه هاهنا ، هو إثبات المعاد ، والرد على مايزعم الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد .

(٣) قال ابن كثير : والظاهر من الآية أن قوله تعالى : (قادرين) حال من قوله تعالى : (نجمع) أي أيظن الانسان أنا لانجمع عظامه ؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية .

والثاني : نقدر على أن نسوي بنانه كما كانت ، وإن صغرت عظامها ، ومن قدر على جمع صغار العظام ، كان على جمع كبارها أقدر ، هذا قول ابن قتيبة ، والزجاج . وقد بينا معنى البنان في (الأنفال : ١٢) .

قوله تعالى : (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) فيه قولان .

أحدهما : يكذب بما أمامه من البعث والحساب ، قاله ابن عباس .

والثاني : يقدِّم الذنب ويؤخِّر التوبة ، ويقول : سوف أتوب ، قاله سعيد بن جبير . فعلى هذا : يكون المراد بالإنسان : المسلم . وعلى الأول : الكافر [١] .

قوله تعالى : (يسأل أيان يوم القيامة) أي : متى هو ؟ تكذيباً به ، وهذا هو الكافر (فإذا برق البصر) قرأ أهل المدينة ، وأبان عن عاصم « بَرَق » بفتح الراء ، والباقون بكسرها . قال الفراء : العرب تقول : بَرِق البصر يبرَق ، وبَرَق يبرُق : إذا رأى هولاً يفزع منه . و « بَرِق » أكثر وأجود [٢] . قال الشاعر :

فَنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي وداوِ الكُلُومَ ولاَ تَبْرَقِ [٣]

(١) قال ابن كثير : وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف : هو الذي يعجل الذنوب ويسوِّف التوبة .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب كسر الراء ، (فإذا بَرِق) بمعنى : فَزِع فشُق وفُتح من هول القيامة وفزع الموت ، قال : وبذلك جاءت أشعار العرب .

(٣) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ٢١٨ ، وهو في الطبري ٢٩/١٧٩ ، والقرطبي ١٩/٩٤ و « اللسان » برق . وتبرق : تهدّد . يقول طرفة لخنانة : إذا تاقت نفسُك إلى السخرية والاستهزاء ، فابعد عني واستهزىء بنفسك واحتقرها ، واحبس نفسك واخل لتداوي ما أصبتُك –

بالفتح . يقول : لا تفزع من هول الجراح التي[1] بك . قال المفسرون : يشخص بصر الكافر يوم القيامة ، فلا يَطْرِفُ لما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا . وقال مجاهد : برق البصر عند الموت .

قوله تعالى : (وخسف القمــــر) قال أبو عبيدة : كَسَفَ وخَسَفَ بمعنى واحد ، أي : ذهب ضوؤه .

قوله تعالى : (وجُمِعَ الشَّمسُ والقمر) إنما قال « جمع » لتذكير القمر ، هذا قول أبي عبيدة . وقال الفراء : إنما لم يقل : جُمِعَتْ ، لأن المعنى : جمع بينهما . وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : جمع بين ذاتَيْهما . وقال ابن مسعود : جمعا كالبعيرين القرينين . وقال عطاء بن يسار : يُجْمَعَان ثم يُقْذَفَان في البحر . وقيل : يُقْذَفَان في النار . وقيل : يجمعان ، فيطلعان من المغرب .

والثاني : جمع بينهما في ذهاب نورهما ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : (يقول الإنسان) يعني : المكذِّب بيوم القيامة (أين المفر) قرأ الجمهور بفتح الميم ، والفاء ، وقرأ ابن عباس ، ومعاوية ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة :

— به من جروح ، وإياك وتهديد الأبطال مرة أخرى فلست منهم ، ولا تقوى عليهم . وقبله بيت ، وهو :

نَعَاني حَنَــانَةُ طُوبالَةٌ تَسُفُّ يَبِيساً من العِشْرِقِ

ومعنى نعاني : شَهر بي وحاول أن يسيء سمعتي ، طوبالة : نعجة ، لقبه بذلك ، وهي منصوبة على الترخيم . تسف : تأكل . اليبيس : اليابس . العشرق : نبات معروف . ومعنى الكلام : إن حنانة قد حاول أن يعيبني ويشهِّر بي ، فرحمة لك أيتها النعجة التي ترعى يابس العشب وأرداه .

(١) في الأصل : الذي .

بكسر الفاء . قال الزجاج : فمن فتح ، فالمعنى : أين الفرار ؟ ومن كسر ، فالمعنى : أين مكان الفرار ؟ تقول : جلست مجلَساً بالفتح ، يعني : جلوساً . فاذا قلت : مجلِساً بالكسر ، فأنت تريد المكان .

قوله تعالى : (كلا لا وزر) قال ابن قتيبة : لا ملجأ . وأصل الوزر : الجبل الذي يمتنع فيه (إلى ربك يومئذ المستقر) أي : المنتهى والمرجع .

(يُنَبَّأ الإنسان يومئذ بما قَدَّم ، وأَخَّر) فيه ستة أقوال .

أحدها : بما قدَّم قبل موته ، وما سنَّ من شيء فعُمِل به بعد موته ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس .

والثاني : يُنَبَّأُ بأوَّل عمله وآخره . قاله مجاهد .

والثالث : بما قدَّم من الشرّ ، وأخَّر من الخير ، قاله عكرمة .

والرابع : بما قدَّم من فرض ، وأخَّر من فرض ، قاله الضحاك .

والخامس : بما قدَّم من معصية ، وأخَّر من طاعة .

والسادس : بما قدَّم من أمواله ، وما خلَّف للورثة ، قاله زيد بن أسلم .

قوله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) قال الفراء : المعنى : بل على الإنسان من نفسه بصيرة ، أي : رقباء يشهدون عليه بعمله ، وهي : الجوارح . قال ابن قتيبة : فلما كانت جوارحه منه ، أقامها مقامه . وقال أبو عبيدة : جاءت الهاء في « بصيرة » في صفة الذكر ، كما جاءت في رجل « راوية » ، و « طاغية » ، وعلاَّمة .

قوله تعالى : (ولو ألقى معاذيره) في المعاذير قولان .

أحدها : أنه جمع عذر ، فالمعنى : لو اعتذر ، وجادل عن نفسه ، فعليه من يكذِّب عذره ، وهي : الجوارح ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن المعاذير جمع معذار ، وهو : الستر . والمعاذير : الستور . فالمعنى : ولو أرخى ستوره ، هذا قول الضحاك ، والسدي ، والزجاج . فيخرج في معنى « ألقى » قولان .

أحدهما : قال ، ومنه (فألقوا إليهم القول) [النحل : ٣٦] ، وهذا على القول الأول .

والثاني : أرخى ، وهذا على القول الثاني .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ . كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾

قوله تعالى : (لا تحرِّك به لسانك) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يشتد عليه حِفظه ، وكان إذا نزل عليه الوحي يُحرِّك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي ، مخافة أن لا يحفَظه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] . ومعناها : لا تحرك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه (إن علينا جمعه وقرآنه) قال ابن قتيبة : أي : ضمَّه وجمعه في صدرك (فإذا قرأناه) أي : جمعناه (فاتبع قرآنه) أي : جمعه . قال المفسرون :

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، والبخاري ٨/٣٢٥ ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦/٢٨٩ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في « المصاحف » والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي معاً في « الدلائل » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

يعني : اقرأ إذا فرغ جبريل من قراءته . قال ابن عباس : فاتَّبع قرآنه ، أي : اعمل به . وقال قتادة : فاتبع حلاله وحرامه (ثم إنَّ علينا بيانه) فيه أربعة أقوال .

أحدها : نبيِّنه بلسانك ، فتقرؤه كما أقرأك جبريل . وكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب ، قرأه كما وعده الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : إن علينا أن نجزيَ به يوم القيامة بما فيه من وعد ووعيد ، قاله الحسن .

والثالث : إن علينا بيان ما فيه من الأحكام ، والحلال ، والحرام ، قاله قتادة .

والرابع : علينا أن ننزِّله قرآناً عربياً ، فيه بيان للناس ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (كلا) قال عطاء : أي : لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه ، وقال ابن جرير : المعنى : ليس الأمر كما تقولون من أنكم لا تُبْعَثُون ، ولكن دعاكم إلى قِيلِ ذلك مَحَبَّتُكم للعاجلة .

قوله تعالى : (بل تحبون العاجلة) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو « بل يحبون العاجلة ويذرون » بالياء فيهما . وقرأ الباقون بالتاء فيهما . والمراد : كفار مكة ، يحبونها ويعملون لها « ويذرون الآخرة » أي : يتركون العمل لها إيثاراً للدنيا عليها .

قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) أي : مشرقة بالنعيم (إلى ربها ناظرة) روى عطاء عن ابن عباس قال : إلى الله ناظرة . قال الحسن : حق لها أن تَنْضَر وهي تنظر إلى الخالق ، وهذا مذهب عكرمة . ورؤية الله عز وجل

حق لا شك فيها . والأحاديث فيها صحاح ، قد ذكرتُ جملة منها في « المغني » و « الحدائق »[1] .

قوله تعالى : (ووجوه يومئذ باسرة) قال ابن قتيبة : أي : عابسة مقطِّبة .

قوله تعالى : (تظن) قال الفراء : أي : تعلم ، و « الفاقرة » الداهية . قال ابن قتيبة : إنه من فقارة الظهر ، كأنها تكسره ، يقال : فقَرْتُ الرجل : إذا كسرتَ فقارَه ، كما يقال : رأَسْتُه : إذا ضربتَ رأسَه ، وبطَنْتُه : إذا ضرَبْتَ بطْنَه . قال ابن زيد : والفاقرة : دخول النار . قال ابن السائب : هي أن تُحْجَبَ عن ربها ، فلا تنظر إليه .

﴿ كَلاَّ إذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلفِرَاقُ . وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ . إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ . فَلا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَـٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى . أَوْلَى لكَ فَأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً . أَلَمْ يَكُ نُطفَةً مِنْ مَنِيٍ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى. أَلَيسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾

قوله تعالى : (كلا) قال الزجاج : « كلا » ردع وتنبيه . المعنى : ارتَدِعوا

---

(١) وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة ، وهما في « الصحيحين » أن ناساً قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « إنكم ترون ربكم كذلك » وفي « الصحيحين » عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » .

عما يؤدِّي إلى العذاب . وقال غيره : معنى « كلا » : لا يُؤْمِنُ الكافر بهذا .

قوله تعالى : (إذا بلغت) يعني : النفس . وهذه كناية عن غير مذكور . و « التراقي » العظام المكتنفة لنُقْرَة النَّحر عن يمين وشمال . وواحدة التراقي : تَرْقوة ، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت ، (وقيل مَنْ راق) فيه قولان .

أحدهما : أنه قول الملائكة بعضهم لبعض : من يرقى روحه ، ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب ؟ رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ومقاتل .

والثاني : أنه قول أهله : هل مِنْ رَاقٍ يَرْقيه بالرُّقى ؟ وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال عكرِمة ، والضحاك ، وأبو قلابة ، وقتادة ، وابن زيد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قوله تعالى : (وظن) أي : أيقن الذي بلغت روحه التراقيَ (أنه الفِراق) للدنيا (والتفَّت الساق بالساق) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أمر الدنيا بأمر الآخرة ، رواه الوالبي عن ابن عباس : وبه قال مقاتل .

والثاني : اجتمع فيه الحياة والموت ، قاله الحسن . وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : التفت ساقاه في الكفن ، قاله سعيد بن المسيب .

والرابع : التفت ساقاه عند الموت ، قاله الشعبي .

والخامس : الشدة بالشدة ، قاله قتادة . قال الزجاج : آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة [١] .

قوله تعالى : (إلى ربك يومئذ المساق) أي : إلى الله المنتهى (فلا صدّق ولا صلّى) قال أبو عبيدة : « لا » هاهنا » في موضع « لم » . قال المفسرون : هو أبو جهل [٢] (ولكن كذّب وتولّى) عن الإيمان (ثم ذهب إلى أهله يتمطّى) أي : رجع إليهم يتبختر ويختال . قال الفراء : « يتمطّى » أي : يتبختر ، لأن الظهر هو المَطَا ، فيلوي ظهره متبختراً . وقال ابن قتيبة : أصله يتمطط ، فقلبت الطاء فيه ياء ، كما قيل : يتظنّى ، وأصله : يتظنن ، ومنه المشية المُطَيْطَاء . وأصل الطاء في هذا كله دال . إنما هو مد يده في المشي إذا تبختر . يقال : مَطَطتُ ومَدَدتُ بمعنى .

قوله تعالى : (أولى لك فأولى) قال ابن قتيبة : هو تهديد ووعيد . وقال الزجاج : العرب تقول : أولى لفلان : إذا دعت عليه بالمكروه ، ومعناه : وليك المكروه يا أبا جهل .

قوله تعالى : (أيحسب الإنسان) يعني : أبا جهل (أن يُترَك سُدى) قال ابن قتيبة : أي : يهمل فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعاقب ، يقال : أسديت الشيء ، أي : أهملته . ثم دل على البعث بقوله تعالى : (ألم يك نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنَى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تُمْنَى » بالتاء . وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب « يُمْنَى » بالياء . وعن

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول من قال : معنى ذلك : والتفت ساق الدنيا بساق الآخرة ، وذلك من شدة كرب الموت ، بشدة هول المطلع .

(٢) والصحيح أنها عامة في أبي جهل وغيره .

أبي عمرو كالقراءتين . وقد شرحنا هذا في (النجم : ٢٤) (ثم كان علقةً) بعد النطفة (فَخَلَق) فيه الروح ، وسَوَّى خلقه (فجعل منه) أي : خَلَقَ من مائه أولاداً ذكوراً وإناثاً (أليس ذلك) الذي فعل هذا (بقادرٍ ؟) وقرأ أبو بكر الصديق ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري « يقدر » (على أن يحيي الموتى ؟ !) وهذا تقرير لهم ، أي : إن من قَدَر على الابتداء قَدَر على الإعادة . قال ابن عباس : إذا قرأ أحدكم هذه الآية ، فليقل : اللهم بلى [1] .



(١) ذكره ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً من حديث أبي إسحاق السَّبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأبو إسحاق السَّبيعي ثقة عابد لكنه اختلط بأخرة . ورواه أبو داود والترمذي مطولاً عن أبي هريرة رضي الله مرفوعاً وفي سنده أعرابي لم يسم ، وعنه أخرجه أحمد ٢٤٩/٢ والترمذي ٢٣٨/٢ مختصراً وأعله بالأعرابي . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥١٠ وصححه ووافقه الذهبي ، وفي سنده يزيد بن عياض ، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » . ورواه أبو داود رقم (٨٨٤) من رواية موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من النبي ﷺ ، قال ابن كثير : تفرد به أبو داود ، ولم يسم هذا الصحابي ، ولا يضره ذلك

سورة الدهر

سورة هل أتى : ويقال لها : سورة الإنسان

وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها مدنية كلها ، قاله الجمهور منهم ، مجاهد وقتادة .

والثاني : مكية ، قاله ابن يسار ، ومقاتل ، وحكي عن ابن عباس .

والثالث : أن فيها مكياً ومدنياً . ثم في ذلك قولان .

أحدهما : أن المكي منها آية ، وهو قوله تعالى : (ولا تطع منهم آثماً أوكفوراً) وباقيها جميعه مدني ، قاله الحسن وعكرمة .

والثاني : أن أولها مدني إلى قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن) [الإنسان : ٢٤] ومن هذه الآية إلى آخرها مكيّ ، حكاه الماوردي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً . إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾

قوله تعالى : (هل أتى) قال الفراء : معناه : قد أتى . و « هل » تكون خبراً ، وتكون جحداً ، فهذا من الخبر ، لأنك تقول : هل وعظتك ؟ هل

أعطيتك ؟ فتقرّره بأنك قد فعلت ذلك . والجحد ، أن تقول : وهل يقدر أحد على مثل هذا ؟ وهذا قول المفسرين ، وأهل اللغة . وفي هذا الإنسان قولان .

أحدهما : أنه آدم عليه السلام . والحين الذي أتى عليه : أربعون سنة ، وكان مصوّراً من طين لم يُنفَخ فيه الروح ، هذا قول الجمهور .

والثاني : أنه جميع الناس ، روي عن ابن عباس ، وابن جريج ، فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس ، ويكون الحين زمان كونه نطفة ، وعلقة ، ومضغة .

قوله تعالى : (لم يكن شيئاً مذكوراً) المعنى : أنه كان شيئاً ، غير أنه لم يكن مذكوراً .

قوله تعالى : (إنّا خلقنا الإنسان) يعني : ولد آدم (من نطفة أمشاج) قال ابن قتيبة : أي : أخلاط . يقال : مشجته ، فهو مشيج ، يريد : اختلاط ماء المرأة بماء الرجل .

قوله تعالى : (نبتليه) قال الفراء : هذا مقدَّم ، ومعناه التأخير ، لأن المعنى : خلقناه وجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه . قال الزجاج : المعنى : جعلناه كذلك لنختبره . وقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل) أي بيّنّا له سبيل الهدى بنصب الأدلة ، وبعث الرسول [1] (إما شاكراً) أي : خلقناه إما شاكراً (وإما كفوراً) قال

---

(١) قال ابن كثير : وقوله جل وعلا : (إنا هديناه السبيل) أي بيناه له ووضحناه وبصّرناه به ، كقوله جل وعلا : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وكقوله جل وعلا : (وهديناه النجدين) ، أي : بينا له طريق الخير وطريق الشر ، وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور .

الفراء : بيّنّا له الطريق إن شكر ، أو كفر [1] .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا . إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا . إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا . فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا . إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا . نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا

---

(١) قال ابن كثير : فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً . إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً . وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَــاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

قوله تعالى : (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة « سلاسل » بغير تنوين ، ووقفوا بألف . ووقف أبو عمرو بألف . قال مكي بن أبي طالب النحوي : « سلاسل » و « قوارير » أصله أن لا ينصرف ، ومن صرفه من القراء ، فإنها لغة لبعض العرب . وقيل : إنما صرفه لأنه وقع في المصحف بالألف ، فصرفه لاتباع خط المصحف . قال مقاتل : السلاسل في أعناقهم ، والأغلال في أيديهم . وقد شرحنا معنى « السعير » في (النساء : ١٠) .

قوله تعالى : (إن الأبرار) واحدهم بَرٌّ ، وبَارٌّ ، وهم الصادقون . وقيل : المطيعون . وقال الحسن : هم الذين لايؤذون الذرَّ (يشربون من كأس) أي : من إناء فيه شراب (كان مزاجها) يعني : مزاج الكأس (كافوراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكافور المعروف ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، فعلى هذا في المراد « بالكافور » ثلاثة أقوال . أحدها : برده ، قاله الحسن . والثاني : ريحه ، قاله قتادة . والثالث : طعمه ، قاله السدي .

والثاني : أنه اسم عين في الجنة ، قاله عطاء ، وابن السائب .

والثالث : أن المعنى : مزاجها كالكافور لطيب ريحه، أجازه الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : (عيناً) قال الفراء : هي المفسرة للكافور ، وقال الأخفش : هي منصوبة على معنى : أعني عيناً . وقال الزجاج : الأجود أن يكون المعنى : من عين ، (يشرب بها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يشرب منها . والثاني : يشربها ، والباء صلة . والثالث : يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها . وفي هذه العين قولان .

أحدهما : أنها الكافور الذي سبق ذكره .

والثاني : التسنيم ، و (عباد الله) هاهنا : أولياؤه (يفجّرونها تفجيراً) قال مجاهد : يقودونها إلى حيث شاؤوا من الجنة . قال الفراء : حيث ما أحب الرجل من أهل الجنة فجرّها لنفسه .

قوله تعالى : (يوفون بالنذر) قال الفراء : فيه إضمار « كانوا » يوفون بالنذر . وفيه قولان .

أحدهما : يوفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والثاني : يوفون بما فرض الله عليهم[1] ، قاله قتادة . ومعنى « النذر » في اللغة : الإيجاب . فالمعنى : يوفون بالواجب عليهم (ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً) قال ابن عباس : فاشياً . وقال ابن قتيبة : فاشياً منتشراً . يقال : استطار الحريق : إذا انتشر ، واستطار الفجر : إذا انتشر الضوء . وأنشدوا للأعشى :

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسأَرَتْ في الفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِها مُسْتَطِيراً[2]

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يوفون بالنذر) أي : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . قال الامام مالك في «الموطأ» ٤٧٦/٢ عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد بن الصديق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه » ورواه البخاري في صحيحه « كتاب الأيمان والنذور » : باب النذر في الطاعة من حديث مالك .

(٢) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس ، وهو في ديوانه ٩٣ ورواية الشطر الأول فيه : وبانت وقد أورَثَتْ في الفؤاد .... الخ وهو في الطبري ٢٠٩/٢٩ والقرطبي ١٢٦/١٩ وابن كثير ٤٥٤/٢٤ والشوكاني ٣٣٧/٥ .

وقال مقاتل : كان شرُّه فاشياً في السموات ، فانشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وكوِّرت الشمس والقمر في الأرض ، ونُسِفَتْ الجبال ، وغَارَت المياه ، وتكَسَّر كل شيء على وجه الأرض من جبلٍ ، وبناءٍ ، وفَشَا شرُّ يوم القيامة فيها .

قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبِّه) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : نزلت في علي بن أبي طالب . آجر نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعيرٍ ليلةً حتى أصبح . فلما قبض الشعير طحن ثلثه ، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه ، فلما استوى أتى مسكين ، فأخرجوه إليه ، ثم عمل الثلث الثاني ، فلما تم أتى يتيم ، فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما استوى جاء أسير من المشركين ، فأطعموه وطوَوْا يومهم ذلك ، فنزلت هذه الآيات ، رواه عطاء عن ابن عباس[1] .

والثاني : أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري صام يوماً ، فلما أراد أن يفطر جاء مسكين ، ويتيم ، وأسير ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقي له ولأهله رغيف واحد ، فنزلت فيهم هذه الآية ، قاله مقاتل[2] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣١ والبغوي من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٩٩ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . والله أعلم .

(٢) ذكره البغوي عن مقاتل بغير سند قال : نزلت في رجل من الأنصار ، ولم يسمه ، وقال الخازن : قيل : نزلت في رجل من الانصار يقال له : أبو الدحداح ، وقال القرطبي في « تفسيره » ١٩ / ١٢٨ : والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار ، ومن فعل فعلاً حسناً ، فهي عامة ، قال : وقد ذكر النقاش ، والثعلبي ، والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتها حديثاً لا يصح ولا يثبت ، قال الحافظ -

وفي هاء الكناية في قوله تعالى « على حُبِّه » قولان .

أحدهما : ترجع إلى الطعام ، فكأنهم كانوا يُؤْثِرُون وهم محتاجون إليه ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والزجاج ، والجمهور [١] .

والثاني : ترجع إلى الله تعالى ، قاله الداراني [٢] . وقد سبق معنى « المسكين واليتيم » [البقرة : ٨٣] . وفي الأسير أربعة أقوال .

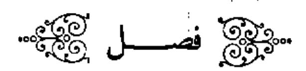
أحدها : أنه المسجون من أهل القبلة ، قاله عطاء ، ومجاهد ، وابن جبير . والثاني : أنه الأسير المشرك ، قاله الحسن ، وقتادة . والثالث : المرأة ، قـــاله

- ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٨٠ : رواه الثعلبي من رواية القاسم بن بهرام عن ليث ابن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس ، ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) وزاد في أثنائه شعراً لعلي وفاطمة رضي‌الله‌عنهما ثم قال : قال الحكيم الترمذي : هذا حديث مزوّق مفتعل لا يروج إلا على أحمق جاهل ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » من طريق أبي عبد الله السمرقندي عن محمد بن كثير عن الأصبغ بن نباتة ، قال : مرض الحسن والحسين ... الخ . فذكره بشعره وزيادة ألفاظ ثم قال : وهذا لانشك في وضعه .

(١) قال ابن كثير : والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أي : ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى : (وآتى المال على حبه) وكقوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ثم قال : وفي الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » أي : في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ، ولهذا قال : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان الداراني ، زاهد مشهور من أهل داريا (بغوطة دمشق) توفي فيها رحمه الله سنة (٢١٥ هـ) .

أبو حمزة الثمالي . والرابع : العبد ، ذكره الماوردي[1] .



وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير المشرك . قال : وهذا منسوخ بآية السيف . وليس هذا القول بشيء ، فإن في إطعام الأسير المشرك ثواباً ، وهذا محمول على صدقة التطوع . فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفّار ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : (إنما نطعمكم لوجه الله) أي : لطلب ثواب الله . قال مجاهد ، وابن جبير : أما إنهم ماتكلموا بهذا ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم لِيَرْغَبَ في ذلك راغب .

قوله تعالى : (لانريد منكم جزاءً) أي : بالفعل (ولا شكورا) بالقول (إنا نخاف من ربنا يوماً) أي : ما في يوم (عبوساً) قال ابن قتيبة : أي : تعبس فيه الوجوه ، فجعله من صفة اليوم ، كقوله تعالى : (في يومٍ عاصفٍ) [إبراهيم : ١٨] ، أراد : عاصف الريح . فأما « القمطرير » فروى ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أنه الطويل . وروى عنه العوفي أنه قال : هو الذي يقبِّض فيه الرجل مابين عينيه . فعلى هذا يكون اليوم موصوفاً بما يجري فيه ، كما قلنا في « العبوس » لأن اليوم لايوصف بتقبيض مابين العينين . وقال مجاهد ، وقتادة :

(١) قال ابن كثير : قال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير ، لعموم الآية للمسلم والمشرك ، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالاحسان إلى الأرقاء في غير ماحديث ، حتى إنه آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

« القمطرير » الذي يقلِّص الوجوه ، ويقبض الحياة ، وما بين الأعين من شدته . وقال الفراء : هو الشديد . يقال : يوم قمطرير ، ويوم قماطر . وأنشدني بعضهم :

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلاَءَنَا عليكُم إذا ما كان يَوْمٌ قُماطِرُ[1]

وقال أبو عبيدة : العبوس ، والقمطرير ، والقماطر ، والعَصِيب ، والعَصَبْصَب : أشد مايكون من الأيام ، وأطوله في البلاء .

قوله تعالى : (فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم) بطاعتهم في الدنيا (ولقّاهم نَضْرَةً) أي : حُسْناً وبياضاً في الوجوه (وسُرُوراً) لا انقطاع له . وقال الحسن : النَّضْرة في الوجوه ، والسُّرُور في القلوب (وجزاهم بما صبروا) على طاعته ، وعن معصيته (جَنَّةً وحريراً) وهو لباس أهل الجنة (متكئين فيها) قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، أي : جزاهم جنة في حال اتكائهم فيها . وقد شرحنا هذا في (الكهف : ٣١) .

قوله تعالى : (لا يَرَوْنَ فيها شمساً) فيُؤذيهم حَرُّها (ولا زمهريراً) وهو البرد الشديد . والمعنى : لا يجدون فيها الحَرَّ والبرد . وحكي عن ثعلب أنه قال : الزمهرير : القمر ، وأنشد :

وَلَيْلَةٍ ظَلاَمُهَا قد اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ[2]

أي : لم يطلع القمر .

---

(١) البيت في « اللسان » قمطر ، ولم ينسبه ، وهو في الطبري ٢١١/٢٩ ، والقرطبي ١٣٣/١٩ وابن كثير ٤٥٥/٤ والشوكاني ٣٣٨/٥ .

(٢) البيت غير منسوب في القرطبي ١٣٦/١٩ والآلوسي ١٥٨/٢٩ .

قوله تعالى : (ودانيةً) قال الفراء : المعنى : وجزاهم جنة ، ودانيةً عليهم ظلالها ، أي : قريبة منهم ظلال أشجارها (وذُلِّلَت قُطوفُها تذليلاً) قال ابن عباس : إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها تدلَّت إليه حتى يتناولَ ما يريد . وقال غيره : قُرِّبَتْ إليهم مُذَلَّلة كيف شاؤوا ، فهم يتناولونها قياماً ، وقعوداً ، ومضطجعين ، فهو كقوله تعالى : (قطوفها دانية) [الحاقة : ٢٣] . فأما « الأكواب » فقد شرحناها في (الزخرف : ٧١) (كانت قواريرا) أي : تلك الأكواب هي قوارير ، ولكنها من فضة . قال ابن عباس : لو ضَرَبْتَ فضةَ الدنيا حتى جعلتَها مثل جناح الذباب ، لم يُرَ الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القارورة . وقال الفراء ، وابن قتيبة : هذا على التشبيه ، المعنى : كأنها من فضة ، أي : لها بياض كبياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير . وكان نافع ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم يقرؤون « قواريراً قواريراً » فَيَصِلُونَها جميعاً بالتنوين . ويقفون عليها بالألف . وكان ابن عامر وحمزة يَصِلاَنِها جميعاً بغير تنوين ، ويقفان عليها بغير ألف . وكان ابن كثير يَصِل الأول بالتنوين ، ويقف عليه بالألف ، ويَصِلُ الثاني بغير تنوين ، ويقف بغير ألف . وروى حفص عن عاصم أنه كان يقرأ « سلاسل » و « قوارير قوارير » يَصِلُ الثلاثة بغير تنوين ، ويقف على الثلاثة بالألف . وكان أبو عمرو يقرأ الأول « قواريرا » فيقف عليه بالألف ، ويصل بغير تنوين . وقال الزجاج : الاختيار عند النحويين أن لا يصرف « قوارير » لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان لا ينصرف . ومن قرأ « قواريرا » يصرف الأول علامة رأس آية ، وترك صرف الثاني لأنه ليس بأخر آية . ومن صرف الثاني : أتبع اللفظ اللفظ ، لأن العرب ربما قلبت إعراب

الشيء لتُتْبِعَ اللفظ اللفظ ، كما قالوا : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ . وإنما الخَرِبُ من نعت الجحر .

قوله تعالى : (قدَّروها تقديراً) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمران ، والجحدري ، وابن يعمر « قُدِّروها » برفع القاف ، وكسر الدال ، وتشديدها . وقرأ حميد ، وعمرو بن دينار « قَدَرُوها » بفتح القاف ، والدال ، وتخفيفها .

ثم في معنى الآية قولان .

أحدهما : قَدَّرُوها في أنفسهم ، فجاءت على ما قَدَّرُوا ، قاله الحسن . وقال الزجاج : جعل الإناء على قَدْر ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم .

والثاني : قَدَّروها على مقدارٍ لا يزيد ولا ينقص ، قاله مجاهد . وقال غيره : قَدَّر الكأس على قَدْر رِيِّهم ، لا يزيد عن رِيِّهم فيُثْقِلُ الكفَّ ، ولا ينقص منه فيطلب الزيادة ، وهذا ألذُّ الشراب . فعلى هذا القول يكون الضمير في « قدَّروا » للسقاة والخدم . وعلى الأول للشاربين .

قوله تعالى : (ويُسْقَوْن فيها) يعني في الجنة (كأساً كان مزاجها زنجبيلا) والعرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر ممزوجَين . قال المسيَّب بن عَلَس يصف فم امرأة :

فَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبيل بِهِ إذْ ذُقْتَهُ وَسُلاَفَةُ الخَمْرِ [1]

---

(١) هو في آخر ديوان الأعشى ابن أخت المسيب بن علس ، وراويته : ٣٥٢ من قصيدة مطلعها :

أصرمتَ حبل الوصل من فتر وهجرتَها ولجت في الهَجْر

وقال آخر :

كَـأنَّ القَرَنْفُـلَ والزَّنْجَبِيـــ ـلَ باتا بِفِيها وأرْياً مُشَاراً [١]

الأَرْي : العسل . والمشار : المستخرج من بيوت النحل . قال مجاهد : والزنجبيل : اسم العين التي منها شراب الأبرار . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : الزنجبيل معرَّب . وقـال الدِّيْنَوَرِي : يَنْبُتُ في أرياف عُمَان ، وهي عروق تسري في الأرض ، وليس بشجرة تؤكل رُطَباً ، وأجود ما يحمل من بلاد الصين . قال الزجاج : وجائز أن يكون فيها طعم الزنجبيل ، والكلام فيه كالكلام السابق في الكافور . وقيل : شراب الجنة على بردِ الكافور ،وطعم الزنجبيل، وريح المسك .

قوله تعالى : (عيناً فيها) قال الزجاج : يسقون عيناً . وسلسبيل : اسم العين ، إلا أنه صرف لأنه رأس آية . وهو في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة . فكأن العين وصفت وسميت بصفتها . وقرأتُ على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قوله تعالى : (تسمى سلسبيلا) قيل : هو اسم أعجمي نَكِرَة ، فلذلك انصرف . وقيل : هو اسم معرفة ، إلا أنه أُجْرِيَ ، لأنه رأس آية . وعن مجاهد قال : حديدة الجرية . وقيل : سلسبيل : سلس ماؤها ، مستقيد لهم . وقال ابن الأنباري : السلسبيل صفة للماء ، لِسَلَسِهِ وسهولة مدخله في الحلق . يقال : شراب سَلْسَل ، وسَلْسال ، وسَلْسَبِيل . وحكى الماوردي : أن علياً قال : المعنى: سَلْ سَبِيلاً [٢] إليها ، ولا يصح [٣] .

---

(١) رواية البيت في ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ٩٣ :

كأنَّ جَنِيّـاً من الزَّنْجَبِيـ ـلِ خَالَطَ فاها وأَرْياً مشوراً

(٢) على أنه أمر للنبي ﷺ ولأمته بسؤال السبيل إليها .

(٣) قال الآلوسي : وهو غير مستقيم بظاهره ، إلا أن يراد أن جملة قول القائل : «سل سبيلا» جعلت اسماً للعين ، كما قيل : تأبط شراً ، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع ، وعزوه إلى مثل الأمير رضي الله عنه أبدع ، ونص بعضهم على أنه افتراء عليه .

قوله تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلَّدون) قد سبق بيانه [الواقعة : ١٧] (إذَا رأيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤاً منثوراً) أي : في بَياضِ اللؤلؤ وحُسْنِهُ ، واللؤلؤُ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظراً . وإنما شُبِّهوا باللؤلؤ المنثور ، لانتشارهم في الخدمة . ولو كانوا صَفّاً لَشَبَّهوه بالمنظوم . (وإذا رأيتَ ثَمَّ) يعني : الجنة (رأيتَ نعيماً) لا يوصف (ومُلْكاً كبيراً) أي : عظيماً واسعاً لا يريدون شيئاً إلا قدَروا عليه ، ولا يدخل عليهم ملَك إلا باستئذان .

قوله تعالى : (عَالِيَهُم) قرأ أهل المدينة ، وحمزة ، والمفضل عن عاصم بإسكان الياء ، وكسر الهاء . وقرأ الباقون بفتح الياء ، إلا أن الجعفي عن أبي بكر قرأ « عَالِيَتُهُم » بزيادة تاء مضمومة . وقرأ أنس بن مالك ، ومجاهد ، وقتادة « عَلَيْهِم » بفتح اللام ، وإسكان الياء من غير تاء ، ولا ألف .

قال الزجاج: فأما تفسير إعراب «عالِيْهم» بإسكان الياء ، فيكون رفعه بالابتداء ، ويكون الخبر (ثيابُ سُنْدُسٍ) وأما « عَالِيَهم » بفتح الياء ، فنصبه على الحال من شيئين ، أحدهما من الهاء والميم ، والمعنى : يطوف على الأبرار وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون عَالِياً للأبرار ثيابُ سندس ، لأنه وصف أحوالهم في الجنة ، فيكون المعنى : يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء . ويجوز أن يكون حالاً من الوِلْدان . المعنى : إذا رأيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤاً منثوراً في حال عُلُوّ الثياب . وأما « عَالِيَتُهُم » فقد قرئت بالرفع وبالنصب ، وهما وجهان جَيِّدان في العربية ، إلا أنهما يخالفان المصحف ، فلا أرى القراءة بها ، وتفسيرها كتفسير « عاليهم » .

قوله تعالى : (ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ) قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو « خضر » رفعاً « وإستَبْرَقٍ » خفضاً . وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم « خُضْرٍ »

خفضاً « وإستبرقٌ » رفعاً. وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم « خُضْرٌ وإستبرقٌ » كلاهما بالرفع . وقرأ حمزة ، والكسائي « خضْرٍ وإسْتَبْرقٍ » كلاهما بالخفض . قال الزجاج : من قرأ « خُضْرٌ » بالرفع ، فهو نعت الثياب ، ولفظ الثياب لفظ الجمع ، ومن قرأ « خُضْرٍ » فهو من نعت السندس ، والسندسُ في المعنى راجع إلى الثياب . ومن قرأ « وإستَبْرَقٌ » فهو نسق على « ثيابٌ » المعنى : وعليهم إستبرق . ومن خفض ، عطفه على السندس ، فيكون المعنى : عليهم ثياب من هذين النوعين . وقد بَيّنَّا في (الكهف : ٣١) معنى السندس ، والإستبرق ، والأساور .

قوله تعالى : (وسقاهم رَبُّهم شراباً طهوراً) فيه قولان .

أحدهما : لا يُحْدِثون ولا يَبُولون عن شُرْب خَمْر الجَنَّة ، قاله عطية .

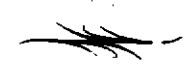
والثاني : لأن خمر الجنة طاهرةٌ ، وليست بنجسةٍ كخمرِ الدنيا ، قاله الفراء . وقال أبو قلابة : يُؤْتَوْنَ بعد الطَعام بالشَّرابِ الطَّهورِ فيشربون فَتَضْمُرُ بذلك بُطونُهم ، ويفيض من جلودهم عَرَقٌ مثل ريح المسك .

قوله تعالى : (إنَّ هذا) يعني : ما وصف من نعيم الجنة (كان لكم جزاءً) بأعمالكم (وكان سعيُكم) أي : عملكم في الدنيا بطاعته (مشكوراً) قال عطاء : يريد : شكرتُكم عليه ، وأَثبْتُكم أفضل الثواب (إنَّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً) ، أي : فصَّلناه في الإنزال ، فلم نُنْزِله جُمْلَةً واحدةً (فاصبر لحكم ربك) وقد سبق بيانه في مواضع [الطور : ٤٨ ، والقلم : ٤٨] . والمفسرون يقولون : هذا منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، (ولا تُطِعْ منهم) أي : من مشركي أهل مكة (آثماً أو كفوراً) « أو » بمعنى الواو ، كقوله تعالى : (أو الحوايا) [الأنعام : ١٤٦] . وقد سبق هذا . وللمفسرين في المراد بالآثم والكفور ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما صفتان لأبي جهل . والثاني : أن الآثم : عتبة بن ربيعة ، والكفور : الوليد بن المغيرة . والثالث : الآثم : الوليد . والكَفُور : عتبة ، وذلك أنهما قالا له : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج . (واذكر اسم ربِّكَ) أي : اذكره بالتوحيد في الصلاة (بُكْرَةً) يعني : الفجر (وأصيلاً) يعني : العصر . وبعضهم يقول : صلاة الظهر والعصر (ومن الليل فاسْجُدْ له) يعني : المغرب والعشاء . (وسَبِّحهُ ليلاً طويلاً) وهي : صلاة الليل ، كانت فريضة عليه ، وهي لأُمَّتِهِ تَطَوُّع (إن هؤلاء) يعني : كفَّار مكة (يحبُّون العاجلة) أي : الدار العاجلة ، وهي الدنيا (ويَذَرُون وراءهم) أي : أمامهم (يوماً ثقيلاً) أي : عسيراً شديداً . والمعنى : أنهم يتركون الإيمان به ، والعمل له . ثم ذكر قدرتَه ، فقال تعالى : (نحن خلقناهم وشَدَدَنا أسرهم) أي : خَلْقهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج . قال ابن قتيبة : يقال : امرأة حَسَنَةُ الأسر ، أي : حَسَنَةُ الخَلْقِ ، كأنها أُسِرتْ ، أي : شُدَّتْ . وأصل هذا من الإسار ، وهو : القِدُّ . [الذي تشد به الأقتاب] يقال : ما أحسن ما أَسَر قَتَبَهُ ، أي : ما أحسن ماشَدَّه [بالقِدّ] . وروي عن أبي هريرة قال : مفاصلهم . وعن الحسن قال : أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب (وإذا شئنا بَدَّلنا أمثالهم) أي : إن شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلاً منهم (إنَّ هذه تذكرة) قد شرحنا الآية في (المزمل : ١٩) .

قوله تعالى : (وما تشاؤون) إيجاد السبيل (إلا أن يشاء الله) ذلك لكم . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، « وما يشاؤون » بالياء .

قوله تعالى : (يُدْخِلُ مَنْ يشاء في رحمته) قال المفسرون : الرحمة هاهنا : الجنة (والظالمين) المشركون . قال أبو عبيدة : نصب « الظالمين » بالجوار . المعنى : ولا يُدخل الظالمين في رحمته . وقال الزجاج : إنما نصب «الظالمين » لِأنّ[1] قبله منصوباً . المعنى : يُدخل من يشاء في رحمته ، ويعذب الظالمين ، ويكون قوله تعالى : (أعدَّلهم) تفسيراً لهذا المضمر ، وقرأ أبو العالية ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة « والظالمون » رفعاً .



(١) في الأصل : لأنه ، والتصحيح من « تفسير الرازي » .

سورة المرسلات

مكية كلها في قول الجمهور

وحكي عن ابن عباس ، وقتادة ، ومقاتل أن فيها آية مدنية ، وهي قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) [المرسلات : ٤٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً . فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ . فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ . وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ . لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ

لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ . وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (والمرسلات عُرْفاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها الرياح يَتْبَعُ بعضُها بعضاً ، رواه أبو العُبَيْدَين [1] عن ابن مسعود ، والعوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنها الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه ، رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبه قال أبو هريرة ، ومقاتل . وقال الفراء : هي الملائكة .

فأما قوله تعالى: « عُرْفاً » فيقال:أُرْسِلَتْ بالمعروف،ويقال:تتَابَعَتْ كعُرْفِ الفَرَسِ . والعرب تقول : يركب الناس إلى فلان عُرْفاً واحداً : إذا توجهوا إليه فأكثروا . قال ابن قتيبة : يريد أن الملائكة متتابعة بما ترسَل به. وأصله من عُرْف الفَرَسِ ، لأنه سطر مستوٍ بعضه في إثر بعض ، فاستعير للقوم يتبع بعضُهم بعضاً .

---

(١) أبو العُبَيْدين ، بالتصغير والتثنية : هو معاوية بن سَبْرة بفتح السين وسكون الباء : السُّوائي بضم السين والمدّ ، العامري الكوفي الأعمى . روى عن ابن مسعود . وهو ثقة ، كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » .

والثالث : أنهم الرسل بما يعرفون به من المعجزات ، وهذا معنى قول أبي صالح ، ذكره الزجاج .

والرابع : الملائكة والريح ، قاله أبو عبيدة . قال : ومعنى « عُرْفاً » : يتبع بعضها بعضاً . يقال : جاؤوني عُرْفاً [١] . وفي (العاصفات) قولان .

أحدهما : أنها الرياح الشديدة الهبوب ، قاله الجمهور .

والثاني : الملائكة ، قاله مسلم بن صبيح . قال الزجاج : تعصف بروح الكافر .

وفي « الناشرات » خمسة أقوال .

أحدها : أنها الرياح تنشر السحاب ، قاله ابن مسعود ، والجمهور .

والثاني : الملائكة تنشر الكتب ، قاله أبو صالح .

والثالث : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد ، قاله الضحاك .

والرابع : البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح ، قاله الربيع .

والخامس : المطر ينشر النبات ، حكاه الماوردي .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرفاً ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعنيّ بذلك أحد الحزبين دون الآخر ، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ماوصف ، فكل من كانت صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً . وقال ابن كثير : والأظهر أن المرسلات : هي الرياح ، كما قال تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) وقال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) وهكذا العاصفات هي الرياح ، يقال : عصفت الرياح : إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات : هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل .

وفي « الفارقات » أربعة أقوال .

أحدها : الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق والباطل ، قاله الأكثرون .

والثاني : آيُ القرآن فَرَّقَتْ بين الحلال والحرام ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن كيسان .

والثالث : الريح تفرّق بين السحاب فتبدّدُه ، قاله مجاهد .

والرابع : الرسل ، حكاه الزجاج .

(فالملقيات ذكراً) قولان .

أحدهما : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء ، وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : الرسل يلقون ما أُنزل عليهم إلى الأمم ، قاله قطرب [1] .

قوله تعالى : (عُذْراً أو نُذْراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم « عُذْراً » خفيفاً « أو نُذُراً » مثقلاً . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف « عُذْراً أو نُذْراً » خفيفتان . قال الفراء : وهو مصدر ، مثقَّلاً كان أو مخفّفاً . ونصبه على معنى : أُرسلتْ بما أُرسلتْ به إعذاراً من الله وإنذاراً . وقال الزجاج : المعنى : فالملقيات عُذراً أو نُذراً . ويجوز أن يكون المعنى : فالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار . وهذه المذكورات مجرورات بالقسم . وجواب القسم (إنَّما تُوعَدُون لواقع) قال المفسرون :

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فالفارقات فرقاً . فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً) يعني الملائكة ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد ، وقتاده ، والربيع ابن أنس ، والسدي ، والثوري ، ولا خلاف هاهنا ، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

إنَّ ما توعَدون به من أمر الساعة ، والبعث ، والجزاء لَواقِعٌ ، أي : لكائن . ثم ذكر متى يقع فقال تعالى : (فإذا النجوم طُمست) أي : مُحِيَ نورُها (وإذا السماء فُرِجَتْ) أي : شُقَّتْ (وإذا الجبال نُسِفَتْ) قال الزجاج : أي : ذُهِبَ بها كلِّها بسرعة . يقال : انتسفتُ الشيء : إذا أخذتَه بسرعة .

قوله تعالى : (وإذا الرسل أُقِّتَتْ) قرأ أبو عمرو « وُقِّتَتْ » بواو مع تشديد القاف . ووافقه أبو جعفر ، إلا أنه خَفَّفَ القاف . وقرأ الباقون : « أُقِّتت » بألف مكان الواو مع تشديد القاف . قال الزجاج : وُقِّتَتْ وأُقِّتَتْ بمعنى واحد . فمن قرأ « أُقِّتت » بالهمز ، فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو . وكل واو انضمت ، وكانت ضمتها لازمة ، جاز أن تبدل منها همزة . وقال الفراء : الواو إذا كانت أول حرف ، وضُمَّتْ ، همزت . تقول : صلى القوم أُحداناً . وهذه أُجوهٌ حسان . ومعنى « أُقِّتت » : جمعت لوقتها يوم القيامة . وقال ابن قتيبة : جمعت لوقت ، وهو يوم القيامة . وقال الزجاج : جعل لها وقت واحد لفصل القضاء بين الأمة .

قوله تعالى : (لأي يوم أُجِّلَتْ) أي : أُخِّرَتْ . وضَرْبُ الأجل لجمعهم ، يعجِّب العباد من هول ذلك اليوم . ثم بَيَّنه فقال تعالى : (ليوم الفصل) وهو يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق . ثم عَظَّم ذلك اليوم بقوله : (وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين) بالبعث . ثم أخبر الله تعالى عما فعل بالأمم المكذِّبة ، فقال : (ألم نُهْلِكِ الأوَّلين) يعني بالعذاب في الدنيا حين كذَّبوا رسلهم (ثم نُتْبِعُهم الآخِرين) والقراء على رفع العين في « نتبعُهم » ، وقد قرأ قوم منهم أبو حيوة بإسكان العين . قال الفراء : « نتبعهم » مرفوعة . ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود « وسنتبعهم الآخرين » . ولو جزمتَ

على معنى : ألم نقدر على إهلاك الأولين وإتباعهم الآخرين كان وجهاً جيداً . وقال الزجاج : الجزم عطف على « نُهلكْ » ، ويكون المعنى : لمن أهلك أولاً وآخراً . والرفع على معنى : ثم نتبع الأول الآخر من كل مجرم . وقال مقاتل : ثم نتبعهم الآخرين : يعني : كفار مكة حين كذّبوا بالنبي ﷺ . وقال ابن جرير : الأوّلون : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والآخرون : قوم إبراهيم ، ولوط ، ومَدْيَن .

قوله تعالى : (كذلك) أي : مثل ذلك (نفعل بالمجرمين) يعني : المكذّبين .

فإن قيل : ما الفائدة في تكرار قوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) ؟

فالجواب : أنه أراد بكل آية منها غير ما أراد بالأخرى ، لأنه كلما ذكر شيئاً قال : (ويل يومئذ للمكذبين) بهذا .

قوله تعالى : (ألم نخلقكم) قرأ قالون عن نافع بإظهار القاف . وقرأ الباقون بإدغامها .

قوله تعالى : (من ماء مهين) أي : ضعيف (فجعلناه في قرار مكين) يعني : الرحم (إلى قدَرٍ معلوم) وهو مدة الحمل (فَقَدَرْنا) قرأ أهل المدينة ، والكسائي « فَقَدَّرْنَا » بالتشديد . وقرأ الباقون : بالتخفيف . وهل بينهما فرق ؟

فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد . قال الفراء : تقول العرب : قَدَر عليه ، وقَدَّر عليه . وقد احتج من قرأ بالتخفيف فقال : لو كانت مشددة لقال : فنعم المقدِّرون ، فأجاب الفراء فقال : قد تجمع العرب بين اللغتين ، كقوله تعالى : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) [الطارق : ١٧] . قال الشاعر :

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوادِثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا [١]

يقول : ما أنكرت إلا ما يكون في الناس .

والثاني : أن المخفَّفة من القُدْرَة والملك ، والمشدَّدة من التقدير والقضاء . ثم بيَّن لهم صنعه ليعتبروا فيوحِّدوه ، فقال تعالى : (ألم نجعل الأرض كِفَاتاً) قال اللغويون : الكفت في اللغة : الضم . والمعنى : أنها تضم أهلها أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها . قال ابن قتيبة : يقال : اكفتْ هذا إليك ، أي : ضمه . وكانوا يسمون بقيع الغرقد : كفتة ، لأنه مقبرة يضم الموتى .

وفي قوله تعالى : (أحياء وأمواتاً) قولان .

أحدهما : أن المعنى : تكفتهم أحياء وأمواتاً ، قاله الجمهور . قال الفراء : وانتصب الأحياء والأموات بوقوع الكفات عليهم ، كأنك قلت : ألم نجعل الأرض كفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ ، فإذا نَوَّنْتَ نصبتَ كما يقرأ (أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيماً) [البلد : ١٤]. وقال الأخفش : انتصب على الحال .

والقول الثاني : أن المعنى : ألم نجعل الأرض أحياء بالنبات والعمارة ، وأمواتاً بالخراب واليبس ، هذا قول مجاهد ، وأبي عبيدة .

قوله تعالى : (وجعلنا فيها رواسي) قد سبق بيانه (شامخات) أي : عاليات (وأسقيناكم) قد سبق معنى « أسقينا » [الحجر : ٢٢ ؛ والجن : ١٦] ومعنى « الفرات » [الفرقان : ٥٣ ، وفاطر : ١٢] والمعنى : إن هذه الأشياء أعجب من البعث . ثم ذكر ما يقال لهم في الآخرة : (إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون) في الدنيا ، وهو النار (انطلقوا إلى ظلٍّ) قرأ الجمهور هذه الثانية بكسر اللام على الأمر . وقرأ أُبَيُّ بن كعب ،

---

(١) البيت للأعشى الكبير ١٠١ من قصيدة يمدح بها هَوْذَة بن علي الحنفي ملك اليمامة ، وأنشده الفراء في « معاني القرآن » (٢٠٤) ، والطبري ٢٣٦/٢٩ ، والقرطبي ١٥٨/١٩ .

وأبو عمران ، ورويس عن يعقوب بفتح اللام على الخبر بالفعل الماضي . قال ابن قتيبة : « والظل » هاهنا : ظل من دخان نار جهنم سطع ، ثم افترق ثلاث فرق ، وكذلك شأن الدُّخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب ، فيقال لهم : كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه ، أو حيث شاء من الظل ، ثم يُؤْمَرُ بكل فريق إلى مستقرِّه من الجنة والنار (لا ظليل) أي : لا يظلكم من حرٍّ هذا اليوم بل يدنيكم من لعب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس . قال مجاهد : تكون شعبة فوق الإنسان ، وشعبة عن يمينه ، وشعبة عن شماله ، فتحيط به . وقال الضحاك : الشعب الثلاث : هي الضَّريع ، والزَّقوم ، والغِسْلين . فعلى هذا القول يكون هذا بعد دخول النار .

قوله تعالى : (ولا يغني من اللَّهَب) أي : لا يدفع عنكم لَهَبَ جهنم . ثم وصف النار فقال تعالى : (إنها تَرْمي بِشَرَرٍ) ، وهو جمع شررة ، وهو ما يتطاير من النار متفرقاً (كالقَصْر) قرأ الجمهور بإسكان الصاد على أنه واحد القصور المبنيَّة . وهذا المعنى في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء « كالقَصَر » بفتح الصاد . وفي أفراد البخاري[1] من حديث ابن عباس قال : كنا نرفع الخشب [بقصر][2] ثلاثة أذرع أو أقل [فنرفعه][2] للشتاء ، فنسميه : القصر . قال ابن قتيبة : من فتح الصاد أراد : أصول النخل المقطوعة المقلوعة . قال الزجاج : أراد أعناق الإبل . وقرأ سعد ابن أبي وقاص ، وعائشة ، وعكرمة ، وأبو مجلز ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر « كالقَصِر » بفتح القاف ، وكسر الصاد . وقرأ ابن مسعود ، وأبو هريرة ، والنخعي « كالقُصُر » برفع القاف والصاد جميعاً . وقرأ أبو الدرداء ، وسعيد بن

(١) ٥٢٨/٨ تفسير سوق المرسلات . (٢) زيادة من « صحيح البخاري » .

جبير «كالقِصَر» بكسر القاف، وفتح الصاد، وقرأ أبو العالية، وأبو عمران، وأبو نُهيك، ومعاذ القارىء «كالقُصْر» بضم القاف وإسكان الصاد.

قوله تعالى: (كأنه جِمَالاَتٌ) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «جِمالاَتٌ» بألف، وكسر الجيم. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «جِمَالَةٌ» على التوحيد. وقرأ رويس عن يعقوب «جُمَالاَت» بضم الجيم. وقرأ أبو رزين، وحميد، وأبو حيوة «جُمَالة» برفع الجيم على التوحيد. قال الزجاج: من قرأ «جِمالات» بالكسر، فهو جمع جِمَال، كما تقول: بُيوت، وبُيوتَات، وهو جمع الجمع، فالمعنى: كأن الشرارات كالجمالات. ومن قرأ «جُمالات» بالضم، فهو جمع «جمالة» ومن قرأ «جِمالةً» فهو جمع جَمَل وجِمالة، كما قيل: حَجر، وحِجَارة. وذَكَر، وذِكَارَة. وقرئت «جُمالة» على ما فسرناه في جُمالات بالضم. و«الصُّفْر» هاهنا: السود. يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصفرة: إبل صُفْرٌ. وقال الفراء: الصُّفْر: سود الإبل لا يُرى الأسود من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ صُفْرَةً، فلذلك سَمَّتْ العرب سود الإبل: صُفْراً، كما سَمَّوا الظباء: أدماً لما يعلوها من الظلمة في بياضها.

قوله تعالى: (هذا يومُ لا ينطقون) قال المفسرون: هذا في بعض مواقف القيامة. قال عكرمة: تكلَّموا واختصموا، ثم ختم على أفواههم، فتكلَّمت أيديهم، وأرجلهم، فحينئذ لا ينطقون بحجة تَنْفَعُهم. وقرأ أبو رجاء، والقاسم ابن محمد، والأعمش، وابن أبي عبلة «هذا يومَ لا ينطقون» بنصب الميم.

قوله تعالى: (هذا يوم الفصل) أي: بين أهل الجنة وأهل النار (جمعناكم) يعني: مكذِّبي هذه الأمة (والأوَّلين) من المكذِّبين الذين كذَّبوا أنبياءهم

(فإن كان لكم كيد فكيدونِ) أثبت فيها الياء في الحالين يعقوب ، أي : إن قَدَرْتُم على حيلة ، فاحتالوا لأنفسكم . ثم ذكر ما للمؤمنين ، فقال تعالى : (إن المتَّقين في ظِلال) يعني : ظلال الشجر ، وظلال أكنان القصور (وعيون) الماء ، وهذا قد تقدَّم بيانه ، إلى قوله تعالى : (كلوا) أي : ويقال لهم : كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الدنيا بطاعة الله . ثم قال لكفار مكة : (كلوا وتمتعوا قليلاً) في الدنيا إلى منتهى آجالكم (إنكم مجرمون) أي : مشركون بالله.

قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اركعوا) فيه قولان .

أحدهما : أنه حين يُدْعَون إلى السجود يوم القيامة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه في الدنيا كانوا إذا قيل لهم : اركعوا ، أي صلوا (لا يركعون) أي : لا يصلُّون . وإلى نحو هذا ذهب مجاهد في آخرين ، وهو الأصح . وقيل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة ، فقالوا : لا نحني ، فإنها مَسَبَّةٌ علينا ، فقال : لا خير في دين ليس فيه ركوع [1] .

قوله تعالى : (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : إن لم يصدِّقوا بهذا القرآن ، فبأيِّ كتاب بعده يصدِّقون ، ولا كتاب بعده : !

تم — بعون الله تعالى وتوفيقه — الجزء الثامن من كتاب
« زاد المسير في علم التفسير » للامام ابن الجوزي
ويليه الجزء التاسع ، وأوله
تفسير سورة « النبأ »

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٨١ : هكذا ذكره الثعلبي ، قال : وأخرجه أبو داود ٣/٢٢٢ ، وأحمد ٤/٢١٨ وابن أبي شيبة ، والطبراني ، من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به ، وأتم منه . قلت : وفيه عنعنة الحسن .